الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 8 مـاي 1945 قالـــمة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التـــاريخ

رقم التسجيل:................
الرقم التسلسلي:............



الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية بالعراق (132 - 447هـ/749 - 1055م)

أطروحة لـــنيل شـــهادة الدكتوراه ل.م.د في التاريخ العام

إعداد الطالبة:
أحلام يوسف

إشراف الأستاذ الدكتور:
كمال بن مارس

لجنة المناقشة

اسم ولقب الأستاذ	الرتبة	الصفة	الجامعة
أ.د. محمد فرقاني	أستاذ	رئيسا	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة
أ.د. كمال بن مارس	أستاذ	مشرفًا ومقررًا	جامعة 8 ماي 1945 قالمة
د. رابح أولاد ضياف	أستاذ محاضر "أ"	عضوًا مناقشًا	جامعة 8 ماي 1945 قالمة
د. مسعود خالدي	أستاذ محاضر "أ"	عضوًا مناقشًا	جامعة 8 ماي 1945 قالمة
د. عبد المالك بكاي	أستاذ محاضر "أ"	عضوًا مناقشًا	جامعة لمين دباغين سطيف 2
د. إبراهيم بن مهية	أستاذ محاضر "أ"	عضوًا مناقشًا	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

السنة الجامعية:1438 - 1439هـ/2017 -2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

سورة التوبة الآية: 105.

شكر وتقدير:

انطلاقا من قول النبي ρ «لا يشكر الله من لا يشكر النّاس»

يسعدني في هذا المقام أن أنحني تواضعا أمام أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور كمال بن مارس وأتقدم إليه بجزيل الشكر وعظيم الامتنان والعرفان إلى من سعدت بإشرافه على هذا العمل فمنحني من فكره ووقته الثمين ووطأ لي العقبات وذلل لي الصعوبات بتوجيهاته الهامة وإرشاداته السديدة ما أعانني على إنجاز هذا البحث بكل ثقة واطمئنان، فله كل الشكر والاحترام، وجزاه الله خير الجزاء، وجعل ذلك في ميزان حسناته.

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى كل من:

الدكتور رابح أولاد ضياف على مساعدته وتشجيعه الدائم، والأستاذ الدكتور محمد فرقاني على ملاحظاته القيّمة، والدكتور مسعود خالدي، والدكتور عبد المالك بكاي، والدكتور إبراهيم بن مهية على تفضلهم بقبول مناقشة الرسالة.

الإهداء:

إلى من تتسابق الكلمات لتخرج معبرة عن مكنون ذاتها، من علمتني وعانت معي الصعاب لأصل إلى ما أنا فيه حتى وأنا في بيت زوجي، وعندما تكسوني الهموم أسبح في بحر حنانها لأخفف من آلامي، أمي الحبيبة.

إلى من كلل العرق جبينه، إلى من علمني أنّ الأعمال الكبيرة لا تتم إلّا بالصبر والعزيمة والإصرار، إلى والدي

-شفاه الله- وبارك في عمره وألبسه ثوب الصحة والعافية ومتعني ببره ورد جميله ولو نسبيا،

أهدي له ثمرة من ثمار غرسي بكل حب إلى رفيق دربي من سار معي نحو الحلم، وتحمل معي الكثير في سبيل إنجاز هذه الرسالة زوجي.

إلى إخوتي وأخواتي وعائلة زوجي.

إلى هؤلاء جميعا أهدي لهم هذا العمل العلمي.

مقدمة

الحمد لله حق حمده لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه وأصلي وأسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

يعتبر التاريخ العربي الإسلامي وخاصة في العصر العباسي حلقة مهمة من حلقات التاريخ والّتي مثلت فيه الحضارة العربية الإسلامية دورها المهم والمميّز في رقي المجتمع إنسانيا وعلميا وغذت فيه الروح البشرية متجاوزة كل الحدود والفواصل الطبقية وأعطت للعالم قيّما تجاوزت حدودها الإقليمية لذلك فإنّ دراسة جانب من جوانب هذه الدولة يعطينا حافزا لمعرفة هذه الحضارة.

ويمثل التاريخ الإسلامي ثروة ضخمة تشكل عصبة الحركة البحثية والمعرفية بما يحويه من مصادر تاريخية وأدبية وفقهية وتراجم وطبقات وغيرها، تساعد الباحثين والدارسين على دراسة جوانب الحياة في العالم الإسلامي، ومعرفة أيّام العصور الإسلامية، ومن الجوانب الّتي تذكر في طيّات هذه الثروة الجانب الاجتماعي الّذي يعد واحدا من الجوانب الّتي من الممكن دراسته وجمع الأخبار عنه.

فدراسة المجتمع العربي الإسلامي من موضوعات التاريخ الهامة الّتي تكشف لنا مظاهر الحضارة العربية الإسلامية تلك المظاهر الّتي أغفلها البحث العلمي التاريخي إلى حد ما، ولم تكرس لها جهود كافية للكشف عنها وإبرازها للعيان إذا استثنينا بعض الدراسات الّتي تناولتها بشكل محدود.

وقد لقيت الدراسات التاريخية حول الجانب الاجتماعي في العهد العباسي في الآونة الأخيرة عناية كبيرة من الباحثين، وذلك لأهمية موضوعاتها وعلاقاتها بتفسير كثير من الظواهر الاجتماعية السائدة في أيّامنا هذه والتي تعود جذور كثير منها إلى فترات موغلة في القدم،وذلك أنّ هذا النوع من الدراسات يمكننا من معرفة ما كان يجري في تلك الفترة، وكيف كانت العلاقات الإنسانية بين العناصر السكانية الّتي تسكن منطقة العراق في العهد العباسي خلال فترة الدراسة، كما تعرفنا دراسات الحياة الاجتماعية على تطورها واتجاهاتها وأحوالها العامة، والتفاعل الحضاري بين الفئات المشكلة للمجتمع، إضافة إلى عاداتها ووسائل كسب معيشتها...إلخ.

تأتي هذه الدراسة في الوقت الّذي بلغت مظاهر الحضارة الإسلامية في العصر العباسي مرحلة النضج، فقد اهتم خلفاء بني العباس بكل ما يعزز قوتهم ويوفر الأمن الذي

لا تهنأ الحياة إلا به كما راعوا مصالح جميع الفئات والأصول بغض النظر عن أديانها، وأدى هذا التنوع الاجتماعي إلى طبع الحياة الاجتماعية بطابع خاص نظرا للدماء الجديدة التي شكلت من جديد هذا المجتمع العراقي إضافة إلى المؤثرات الفكرية واللغوية التي استوعبتها اللغة العربية، وهذا ما جعلني اختار هذه الدراسة الاجتماعية الموسومة.

الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية بالعراق (132-447هـ/749-1055م).

أولا- دوافع اختيار الموضوع:

دفعني إلى اختيار هذا الموضوع مجموعة من الأسباب الشخصية والعلمية الضرورية أذكرها فيما يلي:

1- رغبتي الشخصية الملحة في دراسة التاريخ الإسلامي طيلة حياتي الدراسية إذ كنت أركز أساسا على موضوعاته أكثر من الموضوعات الأخرى ولهذا فقد كان لي طموح كبير في أن أواصل دراستي العليا في هذا المجال.

2- إدراكي لأهمية الموضوع أكثر بعد موافقة أستاذي المشرف عليه نظرا لما يتمتع به من علم وخبرة في هذا المجال حيث للأمانة بعد تحديد مجال الدراسة اتصلت به فأرشدني لأهمية مثل هذه المواضيع حيث لم يكن لي اطلاع واسع به، وبمجرد قراءة أولية له أدركت أهمية وضرورة البحث والدراسة في هذا المجال الخصب من التاريخ الإسلامي.

3- معرفة الفئات الاجتماعية المشكلة للمجتمع العراقي في الفترة المدروسة، والكشف عن مدى نجاح أو فشل السياسة الاجتماعية لخلفاء بني العباس.

ثانيا- الدراسات السابقة:

قبل البدء في رحلة البحث في حيثيات الموضوع حاولنا أن نطلع على مختلف الدراسات الّتي اهتمت بهذا الموضوع، والأمر الّذي لاحظناه هو أنّه على الرغم من العدد الكبير من الدراسات الأكاديمية الّتي عالجت الدولة العبّاسية، إلّا أنّ أغلبها ركزت على الجانب السياسي باعتباره مجالا خصبا وغنيا، إلّا أنّ هذا لم يمنع من وجود بعض الدراسات في الجانب الاجتماعي، حتّى وإن كانت في فترات متباينة من الدراسة فإنّها أعطتنا نظرة عن الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية نذكر منها:

- كتب **ابن الجوزي** المتعددة، والّذي يعد من أفضل من كتب عن الأوضاع الاجتماعية لبغداد من خلال تناوله لعدد من الموضوعات ذات العلاقة المباشرة بالمجتمع، ونذكر

منها: كتاب **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** فقد تميّز بتتبع مظاهر الحياة الاجتماعية في نطاق كلامه عن الأوضاع السياسية قلّما نجدها في المصادر الأخرى، فضلا عن اهتمامه بالتعريف بالأعيان والعلماء.

كما كان كتابه **مناقب بغداد** من الكتب الهامة حيث احتوى على معلومات نادرة في حياة الأسرة في المجتمع العباسي وكيفية بناء دور العامة وغيرها، من كتبه الأخرى: **القصاص والمذكرين**، هذه الفئة الّتي سعت إلى كسب ود العامة على حساب الحقائق العلمية والدينية الصحيحة وكتاب:**أخبار الأذكياء** وكتاب: **تلبيس إبليس** وهو نقد لشرائح المجتمع بمختلف فئاتهم خاصة وعامة وأهمّها كتاب:**أخبار الظراف والمتماجنين وأخبار الحمقى والمغفلين.**

وممّن ألف في هذا المجال من المعاصرين: **إبراهيم سلمان الكروي: طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول**، إلى جانب كتاب: **العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري لبدري محمد فهد**، وكتاب: **الحياة الاجتماعية في العراق زمن البويهيين لحورية عبده سلام**، كما كتب **فهمي سعد عن:العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة: دراسة في التاريخ الاجتماعي، كما قدمت رمزية الأطرقجي** أطروحة دكتوراه في هذا المجال بعنوان: **الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول (132-232هـ/م)**، كما خاضت هذا الميدان **جيهان سعيد الراجحي بكتابها: الحياة الاجتماعية في بغداد من بداية القرن السادس الهجري حتّى سقوط بغداد سنة (656هـ/ 1258م)، وهي فترة خارج مجال دراستي.**

ولا شك أن هناك دراسات أخرى هنا وهناك في هذا الجانب لم أطلع عليها.

ثالثا- أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى محاولة:

1- معرفة مكونات مجتمع العراق وطبقاته الاجتماعية في الفترة الّتي هي محل الدراسة.

2- تحديد هذه الطبقات الّتي شكلت مجتمع الدولة العباسية في العراق.

3- التعرف على المجالات الّتي نشطت فيها هذه المكونات الاجتماعية سواء في الجانب الاقتصادي من تجارة وحرف وزراعة، أو السياسي أو الديني، أو الإداري، ومظاهر تسليته، واحتفالاته بأعياده، وأطعمته وملابسه...إلخ.

4- معرفة الأدوار الّتي قامت بها دور العبادات من مساجد وأربطة ومدارس، وأديرة في المجال التربوي.

5- التعرف على جوانب من اهتمام الدولة بالرعاية الاجتماعية للرعية سواء الرعاية الصحية من خلال المنشآت الصحية كبناء البيمارستانات وتزويدها بمختلف الخدمات الطبية من الأطباء والأدوية.

6- تقديم مادة علمية أكاديمية للباحثين في التاريخ الإجتماعي في الفترة الّتي هي محل الدراسة حسب المصادر والمراجع التي تمكنت من جمعها، حيث أنّه لا توجد دراسة شاملة للجانب الاجتماعي من بداية العصر العباسي إلى غاية نهاية الفترة البويهية (132-447هـ/749-1055م).

رابعا- إشكالية البحث:

تتلخص الإشكالية المحورية لموضوع الدراسة في دراسة اجتماعية تحليلية للحياة الاجتماعية في الدولة العباسية بالعراق من حيث معرفة العناصر السكانية للمجتمع العباسي وطبقاته ومظاهر حياته وعاداته وتقاليده وأهم مرافقه الاجتماعية، وللوصول إلى أهداف هذه الدراسة وتغطية أهم جوانبها توجّب عليّ طرح مجموعة من التساؤلات والفرضيات الّتي حاولت الإجابة عنها وفقا للمنهج العلمي المتبع في الدراسات التاريخية الأكاديمية ومن أهم هذه الإشكاليات والتساؤلات:

1- ماهي الفئات السكانية للمجتمع العباسي؟ وهل تمكنت هذه العناصر البشرية المتنوعة من التعايش فيما بينها؟

2- هل نستطيع أن نميّز في المجتمع العباسي بين طبقاته الاجتماعية تمييزا يوضح دور كل فئة؟

3- هل عرفت مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر العباسي تحولات كبيرة نتيجة للبذخ الكبير الّذي وصل إليه المجتمع العباسي؟

4- وهل اهتمت الدولة العباسية ببناء وتعمير مرافقها الاجتماعية والتربوية؟ وما هي أهم هذه المرافق؟

5- هل لهذه التركيبة الاجتماعية في العهد العباسي دور إيجابي في تطور الدولة، أو كان لها دور سلبي في تفكك الوحدة السياسية للدولة العباسية .

خامسا- المجال الجغرافي والفترة الزمنية للبحث: إنّ تحديد السياق الزماني ومقاربته مجاليا يساهم بقدر كبير في بلورة العمل المنجز والوقوف عند ثنايا الموضوع وتوضيح حيثياته عبر مجالات ثلاث:

تمتد الفترة الزمنية لهذا البحث من سنة (132-447هـ إلى سنة 749هـ-1055م) أي من قيام الدولة العباسية أين كانت السلطة في أيدي الخلفاء حتّى نهاية عصر البويهيين الّذين سيطروا على مقاليد الأمور في العراق وأصبحوا أصحاب السلطة الفعلية فيها.

أمّا المجال الجغرافي فيشمل العراق موطن الخلافة العباسية حيث غدت فيه العراق وخاصة بغداد المركز العلمي الّذي حفز العلماء وطلاب العلم والأدباء والمفكرين، على شد الرحيل إليها لتحقيق ما يأملونه.

سادسا- منهج الدراسة:

إنّ طبيعة الدراسة التاريخية عامة، وخصوصية الموضوع الّذي تصدينا لإشكاليته تحديد الوقائع التاريخية بعرضها ووصفها، وتحليلها لأنّه المنهج الملائم لمثل هذه الدراسات التي تتبع التطورات الحاصلة في الحياة الاجتماعية للدولة العباسية وما أحدثه العبّاسيون من تنظيمات للتعامل مع هذه الفئات الاجتماعية، ومن ثم الوصول إلى كشف حقيقة هذه الفئات الاجتماعية وبالتالي تشخيص الوضع العام للدولة العباسية في الفترة المدروسة الّذي به يمكن معرفة جوانب القوة والضعف في سياسة خلفاء بني العباس في تسيير الدولة، ومن ثمّ تفسير كيف آل أمرهم إلى أن أصبحوا ألعوبة في يد العناصر العسكرية المتنفذة في الدولة، فسقطت هيبتهم، وهان قتل بعضهم شر قتلة.

سابعا- خطة الدراسة:

أمّا خطة الدراسة فإنّها تتكون من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وقد جاءت هذه الخطة متضمنة لعناصر الموضوع على النحو الآتي:

كان **الفصل الأول:** بعنوان «**التركيبة الاجتماعية للمجتمع العبّاسي في العراق**» وخصص للكلام فيه على العناصر البشرية المكونة لهذا المجتمع، حيث تناولت في العنصر الأول العرب من حيث مواطن استقرارهم ودورهم في الدولة العباسية، والعنصر الثاني خصصته لعنصر الفرس ومكانتهم في المجتمع العباسي، في حين تكلمت في العنصر الثالث عن الأتراك وكيفية سيطرتهم على مقاليد الأمور بالخصوص منذ عهد المعتصم، وخصص العنصر الرابع للكلام عن الديالمة المتشيّعة الّذين جلبوا معهم المحن والأحقاد فزادوا من تفكيك المجتمع مذهبيا، وأمّا العنصر الخامس فتكلمت فيه عن أهل الذمة بصفة عامة، أمّا العنصر السادس والأخير فتناولت فيه الأكراد أي أماكن انتشارهم في العراق والأدوار الّتي قاموا بها في الفترة المدروسة.

وجاء **الفصل الثاني:** بعنوان: **طبقات المجتمع العبّاسي:** وقد اشتمل على أربعة عناصر بحثية وهي:

العنصر الأول: تناولت فيه طبقة الخاصة بكل فئاتها ومكوناتها، في حين خصصت **العنصر الثاني** للحديث عن الطبقة الوسطى بكل فئاتها ومكوناتها، أمّا **العنصر الثالث** فتحدثت فيه عن طبقة العامة بكل فئاتها ومكوناتها أيضا، وأمّا **العنصر الرابع** فقد عالجت فيه دور المرأة في المجتمع العبّاسي، وإن كان أمرها له صلة بكل الطبقات، لكن تركيزي كان على نماذج من تلك الأدوار الّتي قامت بها نساء في إدارة شؤون الدولة وفي تسيير دفّة الحكم والسياسة، والمساهمة في تقديم الخدمات للفئات الاجتماعية المحرومة.

أمّا **الفصل الثالث:** فحمل عنوان: **مظاهر الحياة الاجتماعية في العراق في العهد العبّاسي:** ووزع على خمسة عناصر بحثية هي:

العنصر الأول: تناولت فيه أهم المجالس الاجتماعية الّتي عرفها المجتمع العباسي على اختلاف طبقاته وعناصره السكانية ،أمّا العنصر الثاني فعالجت فيه عادات الزواج والطلاق باعتبارها من القضايا الهامة الّتي يثيرها البحث في المجتمعات الإنسانية، بينما خصّص **العنصر الثالث** للحديث عن القصور والدور حيث اعتبرت العراق من أهم المدن الإسلامية الحضارية الّتي اشتهرت بمنشآتها المعمارية الّتي ما زال شامخا إلى اليوم، وأمّا **العنصر الرابع،** فقد خصّص للحديث عن وسائل التسلية والترفيه من بينها الاحتفالات بالأعياد الإسلامية، والنصرانية، والاحتفال بيومي النيروز والمهرجان بالنسبة للفرس إلى غير

ذلك من صور الاحتفالات بالعراق خاصة فيما يتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية الّتي اختلفت باختلاف المناسبات وباختلاف عناصر السكان في مجتمع العراق في الفترة المدروسة، أمّا **العنصر الخامس** فعالجت فيه الألبسة والأزياء والأطعمة في المجتمع.

أمّا **الفصل الرابع والأخير** فخصص لدراسة: **المرافق الاجتماعية العامة في العراق في العهد العباسي**، وخصص هذا الفصل للحديث عن مختلف المرافق الّتي نالت اهتمام الخلفاء والوزراء ومختلف طبقات المجتمع سواء الدينية منها أو الدنيوية ووزع على العناصر الآتية: بناء المساجد والأربطة والمدارس والبيمارستانات والحمامات والأسواق.

ثم **الخاتمة** في النهاية ولخصت فيها النتائج الّتي توصلت إليها من خلال هذا البحث وديلت هذه الرسالة بفهارس عامة هي في موضعها من هذا البحث.

ثامنا- صعوبات الدراسة:

- لقد صادفني أثناء بحثي هذا جملة من الصعوبات شأن كل باحث خاصة لمن كان مثلي في بداية مشواره العلمي ويمكن حصرها فيما يلي:
- صعوبة الوصول إلى المادة العلمية المتناثرة في بطون المصادر المختلفة كمبتدئة مثلي، إذ تطلب ذلك مني بدل كثير من الجهد والوقت من أجل جمعها وتصنيفها وفق موضوعات هذا البحث، ثمّ إعادة قراءتها قراءة متأنية لفهم فحواها، ثم تحليلها، ومن ثم صياغتها، ولكن كثيرا ما كان يخونني التعبير عن الفكرة المستجمعة في ذهني بأسلوب رصين واضح، فأعود كتابة ما كتبت حتى يستقيم التعبير.
- إنّ النقص في الدراسات المتخصصة والمتعلقة أساسا بالجانب الاجتماعي للدولة العبّاسية، جعل عملية استخراج المادة الخبرية والاستفادة منها بشكل علمي ودقيق أمرا صعبا، لكن مع ذلك ذللت هذه الصعوبة وتجاوزت هذا النقص، ولم يكن هذا على كل حال مستحيلا لمن بدل جهدا ومثابرة واطلاعا على المصادر.
- كما واجهت في إعداد هذه البحث صعوبة في التعريف ببعض التيارات الفكرية والدينية نظرا لغموض وتضارب الأقوال حولها، إضافة إلى الأسماء الخاصة بالملابس والأطعمة نظرا لتغيّر معظم تسمياتها في الوقت الحاضر، ومثل ذلك أقول عن المصطلحات الطبية الخاصة بفترة الدراسة وأسماء العقاقير، ومصطلحات بعض المكاييل والموازين والمقاييس وغيرها.

- إنّ موضوع دراسة الحياة الاجتماعية لأي دولة من أصعب المواضيع لما للموضوع من جوانب عديدة ومتنوعة تركز على حياة المجتمع وتطور اتجاهاته وأحواله الاجتماعية وعاداته ووسائل معيشته، ممّا أدى إلى تعذر توفر المعلومة وشموليتها بمصدر من المصادر، حيث كانت المعلومة المطلوبة تشح أحيانا في جانب من جوانب البحث وتغزر أحيانا في جانب آخر ممّا أدى إلى تنوع مصادر البحث وتعددها.

تاسعا- عرض ونقد لأهم المصادر والمراجع:

المصادر:

إنّ التاريخ العباسي وفير المصادر المتنوعة في اهتماماتها ومجالاتها المعرفية ومن ثم فهو خصب في مادته الخبرية المتنوعة، ونظرا لتعدد جوانب موضوع الدراسة، فقد استعنت بعدد كبير من المصادر والمراجع الّتي تتفاوت في قيمتها وأهميتها ومضامينها التي اختلفت من مصدر إلى آخر، وهذه بعض منها أقوم بعرضها وتحليلها:

المصادر التاريخية:

1- **تاريخ الرسل والملوك، أو الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ/ 923م)**، الّذي يعتبر مصدرا لا غنى عنه لأي باحث في التاريخ الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى، وقد اتبع في كتابه هذا عرض الحقائق وفق المنهج الحولي ذاكرا في نهاية كل سنة ما حصل فيها من أحداث ممّا كانت لا تنسجم مع ذكره للأحداث السياسية، وأهميته تكمن في كون مؤلفه عاصر أُحداث فترة زمنية من هذه الدراسة، فقد كان شاهد عيان لكثير من أحداثها،إضافة إلى تركيزه على إقليم العراق والأحداث الدائرة فيه باعتباره مقر حكم دار الإسلام، ولقربه من مصدر الحدث، لكنّه يوجز عرض الأحداث في القرن الثالث الهجري، بخلاف ماكان منه في أحداث القرنين الأوليين الّذي توسع فيها، ومع ذلك أمدنا بمعلومات وافية عن الخلفاء وسياستهم والوزراء وإداراتهم لما ولو عليه إضافة إلى مساهمتهم في توجيه سياسة الدولة كما اهتم بذكر مجالسهم ومواكبهم وأزيائهم، كما زودنا بمعلومات مهمة عن الثورات الاجتماعية الّتي قامت داخل العراق خاصة وخارجه عامة، مثل حركة الزنج، والعيّار والشطار.

2- **مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت 346هـ/957م)**، وكتابه، كان كثير التنقل والأسفار زار كثير من الأقطار ممّا مكنه من

جمع كثير من الحقائق التاريخية والجغرافية عرضها في مروجه لم يسبقه إليها أحد، وبالرغم من أنّه اختصر ما عرضه من حقائق عن الفترة المدروسة لكنّه أفادنا في كثير من الحقائق التاريخية خاصة فيما تعلق بالأوضاع الاجتماعية لكثير من الفئات والشرائح الاجتماعية مثل دور الجواري في قصور الخلفاء وأيضا احتفالات أهل الذمة وأعيادهم.

3- **تجارب الأمم وتعاقب الهمم لأبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (ت421هـ/1030م)**، اشتغل مسكويه بالفلسفة والمنطق والأدب، والتاريخ وكتابه هذا عبارة عن تاريخ تجارب الأمم الّذي لخصه في عنوانه ووضحه في مقدمة كتابه الّذي كان يرى وهو على صواب أنّ التاريخ في رأي مسكويه، يشتمل على أحداث يمكن للإنسان أن يستفيد منها تجربة في حياته الفردية والاجتماعية، والسياسية في أمور لا تزال يتكرّر مثلها، وينتظر حدوث أشباهها، وإذا عرف الإنسان تلك الأحداث وقيمتها التجريبيّة ثمّ اتّخذها إماما لنفسه، يقتدى به، فهذا يجعله يحذر ممّا ابتلى به قوم، ويتمسّك بما سعدوا به. والنظرة هذه تبتنى على رأيه القائل: إنّ أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة. عام بدأ فيه كلامه عن تاريخ الفرس وينتهي سنة 369هـ/979م في شكل حوادث مرتبة زمنيا، وكان مسكويه خازنا لمكتبات البويهيين ما جعله يورد نصوصا تفرد بها دون غيره من المؤرخين، وقد أفادنا كتابه «**تجارب الأمم وتعاقب الهمم**» كثيرا خاصة ما تعلق بأحداث المقتدر، وتدخلات الحريم والخدم في سياسة الدولة، والوضع السياسي والإداري في عهده، وجوانب كثيرة متعلقة بأهل الذمة.

4- **أبو الحسن هلال بن الصابئ (ت448هـ/1056م)** كاتب ومؤرخ من أهل بغداد،أسلم في آخر عمره، ولي ديوان الإنشاء في بغداد زمنا وله التصانيف المهمة عن الأمراء والوزراء والأعيان حيث قدم لنا كتابه «**رسوم دار الخلافة**» معلومات مهمة عن تطور رسوم دار الخلافة وعن الخلفاء وعاداتهم الاجتماعية داخل دار الخلافة وعلاقتهم بالأمراء والوزراء، كذلك أفادنا كتابه «**تحفة الوزراء**» بمعلومات مهمة عن الدور الاجتماعي للوزراء وحياتهم الخاصة الداخلية.

5- **الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن الخطيب (ت467هـ/1074م)**: أشهر مؤرخي بغداد وأحد الحفاظ، صنف ما يزيد على خمسين مصنفا، ويعد كتابه تاريخ بغداد من أشهر الكتب التاريخية الّتي أرخت لبغداد فقد احتوى على معلومات مهمة عن تاريخ

المدينة فقدم لنا وصفا لطبوغرافية مدينة السلام ومساجدها وجوامعها،وقصور الخلفاء وما احتوته، فضلا عن دور العامة وعادات المجتمع العباسي في الطعام والشراب واللباس، فما أتى به من معلومات في ثنايا تراجمه كان يمثل مادة ثرية أثرت البحث في بعض جوانبه.

6- **ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت630هـ/1232م)، الّذي** اهتم في كتابه الكامل بتصوير الحياة السياسية مع الكلام عن الحياة الاجتماعية ومظاهرها بشيء من الاختصار أثناء عرضه للحقائق التاريخية متحريا الدقة في كتاباته، وقد رتب كتابه حسب السنين، وكان يختم أحداث كل سنة بذكر حوادث موجزة أفاد في تتبع التطورات العامة للأوضاع الاجتماعية والدينية للعراق، وبشكل خاص عن الدور الاجتماعي لفئات العامة، كما قدم لنا معلومات قيّمة عن أوقاف بعض المترجمين لهم من الخلفاء والعلماء والصالحين وما أورده من ذكر لبعض المدارس والربط والمارستانات.

7- **كتاب الطبيخ لمحمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي (ت637هـ/1239م)، الّذي ألفه** سنة 623هـ/1226م، وقد زوّدنا بمعلومات قيّمة ونادرة عن ألوان الأطعمة وكيفية طبخ كل لون بدقة فائقة، وهو كتاب فريد عرض فيه جميع ألوان الأطعمة الّتي كانت متداولة في عهد العباسيين، وقد أتى بألفاظ غريبة لبعض الأطعمة نتيجة احتكاك العباسيين بالفرس لم يسمع بها، ولم يرد لها ذكر في كتاب آخر ولا في معاجم اللغة وبذلك كانت له فائدة لغوية أيضا.

8- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس (ت668هـ/1269م)**، تعلم الطب عن أبيه وخاصة في أمراض العيون، ثمّ ذهب وتعلم على أيدي كل من يحسن هذه الصنعة، وأخذ يعمل ليلا ونهارا على تحصيل العلم، فاشتهر بذكائه وحسن مداواته لأمراض العيون.

ترك لنا أفضل المصنفات في تراجم الأطباء، ويمتاز هذا المصنف بأنّه من أوسع وأوفر مادة جمعت في مجال الطب حيث تحدث عن الحياة الطبية في كل منطقة واحتوى أيضا على ذكر الأطباء والحكماء والمنجمين وغيرهم في العراق والشام ومصر والمغرب، ولهذا أهمية هذا الكتاب في الدراسة ترجع إلى أنّه ذكر فيه معظم البيمارستانات الّتي تحتاجها

الدراسة، وأيضا احتوى على ذكر أطباء الخلفاء من أهل الذمة وحياتهم الاجتماعية وعلاقتهم بقصور الخلفاء.

9- **كتاب نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء لابن الساعي أبو طالب علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله تاج الدين المعروف بالخازن (ت674هـ /1275م)**، سمع الحديث ودرس النحو والأدب وألف الكثير من المؤلفات في التفسير والحديث والتاريخ، ومن أهم تصانيفه في الدراسة كتابه **نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء**، والّذي بالرغم من أنّه يبدأ سنة **595هـ/1198م**، غير أنّه توجد اشارات وبعض المعلومات النادرة عن نساء الخلفاء وربات القصور ودورهن الاجتماعي في فترة الدراسة بما ذكره من تراجم لهن.

10- **ابن الكازروني، الشيخ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي(697هـ/1297م)**، وكتابه **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس**، ويعتبر من المصادر المهمة الّتي اهتمت بذكر جوانب من الحياة الاجتماعية والحضارية للمجتمعات ومنها المجتمع العباسي.

11- **ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني (ت723هـ/1323م)**، كان كتاباه «**الحوادث الجامعة والتجارب النافعة**» و«**تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**»، من المصادر المهمة والأساسية في البحث، قدم معلومات تاريخية وحضارية في حوادث السنين ووفيات الأشخاص وكانا لهما عظيم الفائدة في فصول الدراسة.

12- **الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز شمس الدين (ت748هـ/1347م)**، مؤرخ الإسلام،الإمام الحافظ، له تصانيف جمّة، إلا أنّ من أهم ما أفادت منه الدراسة كتابه «**سير أعلام النبلاء**» وهو كتاب تراجم عام اختصره المؤلف من كتابه «**تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**»، وقد رتب كتابه على التراجم بحسب الوفيات حيث بدأ بالصحابة إلى نهاية القرن السابع الهجري.

ونظم المؤلف كتابه على الطبقات،فجعله في أربعين طبقة تقريبا، كل طبقة تتضمن جيلا كاملا، وقد أفادنا في دراسة كثير من التراجم لأشهر الأعلام، فقد كان لهذا المصدر

فوائد كثيرة منها الاطلاع على تراجم الصحابة والتابعين وتراجم الخلفاء والقادة السياسيين وأرباب الملل والنحل وغيرهم.

13- **ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثمّ الدمشقي (ت774هـ/1372م)**، كان غزير العلم،إماما في التفسير والحديث والتاريخ، ترك مؤلفات كثيرة قيّمة أهمها «**كتاب تفسير القرآن الكريم**» وهو من أفضل كتب التفسير، وكتاب «**البداية والنهاية**» في التاريخ الّذي أمدنا بمعلومات مهمة عن حياة المجتمع وبعض المرافق في الدولة العباسية، كما قدّم لنا معلومات قيّمة عن بعض التراجم والأعلام المشهورين الّتي تحتاجها الدراسة.

كتب الحسبة:

كان لكتب الحسبة الفضل في توضيح مسؤوليات الدولة تجاه المجتمع في الاهتمام بالمرافق العامة والحيوية للمجتمع كالحمامات والأطعمة والأسواق،إضافة إلى إعطاء صورة مفصلة عن التنظيمات المهنية والحرفية ودورها الاجتماعي، وكان من أهمّها كتاب «**نهاية الرتبة في طلب الحسبة**» لعبد الرحمن بن نصر الشيزري (ت نحو 590هـ/1194م)، وكتاب «**معالم القربة في أحكام الحسبة**» لابن الأخوة (ت 729هـ/1328م)، وقد ساهمت هذه المصادر في المستلزمات العلمية للدراسة في هذا المجال.

كتب التراجم والطبقات:

اعتمدت الدراسة على عدد من كتب التراجم والطبقات كان أهمها:

1- **ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الأربلي (ت681هـ/1282م)**، قاضي القضاة، ولد بإربل سنة 608هـ/1211م، وسمع بها صحيح البخاري، كان فاضلا بارعا متفننا عارفا بالمذهب حسن الفتاوي جيّد القريحة بصيرا بالعربية علامة في الأدب والشعر وأيّام النّاس.

وقد بدأ ابن خلكان في تأليفه كتاب «**وفيات الأعيان**» سنة 654هـ/1256م، وكان عمره آنذاك ست وأربعون سنة، ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر في التراجم والتاريخ، وقد ترجم للعديد من الأسماء الّتي تم ذكرها في الدراسة والّتي في ثناياها تم ذكر الكثير من المعلومات الّتي تحتاجها الدراسة في الفصل الرابع في الحديث عن المدارس والبيمارستانات.

2-**السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت771هـ/1369م)**، مؤرخ وفقيه وقاضي القضاة في دمشق، كان طلق اللسان قوي الحجة، من أشهر مؤلفاته «**طبقات الشافعية الكبرى**»، وقد احتوى على تراجم أعلام المذهب الشافعي حسب طبقاتهم، وقد أورد خلال ترجمته للأعلام ذكر أعمالهم الخيرية وما بذلوه من الإنفاق في سبيل الخير على أماكن العبادة وطلبة العلم ومجال الرعاية الصحية وغيرها.

3- **ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت626هـ/1228م)**، المؤرخ الأديب الجغرافي من علماء اللغة والأدب صنف الكثير من المصنفات في كل فن، وكتابه بعنوان «**معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**»، ويعتبر من أهم مصادر الدراسة بما ذكره من معلومات في ثنايا تراجم العلماء والأدباء والأعيان.

كتب الجغرافيا والرحلات:

كان لابد من الاطلاع على كتب الجغرافيا، والّتي قدمت لنا مادة علمية قيّمة عن الكثير من القرى والمدن وحتّى أعلام تلك المناطق الّتي ذكرت وعن تواجد بعض المؤسسات الّتي تحتاجها الدراسة كالمدارس والبيمارستانات ومواقعها، أمّا كتب الرحالة فقد تعرضت بشيء من التفصيل لمظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية نظرا لتدوينهم ما كانوا يشاهدونه من مظاهر، فبفضلهم استطعنا إعطاء صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية بالعراق في عهد الدولة العباسية ومن أهم هذه الكتب:

1-**معجم البلدان** لياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت626هـ/1228م)، وهو موسوعة جغرافية نظرا لوفرة المادة الّتي أشار إليها، فتحدث عن البلدان والأقاليم والمدن والجبال والأنهار ،وقد رتبه وفق الحروف الأبجدية، ولا غنى للباحث في التاريخ والجغرافيا والأدب وتاريخ البلدان خاصة في تحقيق أسماء المدن والأماكن والقرى، إضافة إلى أنّ ياقوت كان يورد أثناء تعريفه بالبلدان معلومات مهمة عن تراجم بعض الأعلام، وكذلك المرافق الاجتماعية الهامة كالمدارس والأربطة وغيرها.

2- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** للمقدسي المعروف بالبشاري محمد بن أحمد (ت381هـ/991م).

3- **المسالك والممالك** للاصطخري إبراهيم بن محمد (ت350هـ/960م)، وكتاب «**المسالك والممالك**» لابن خرداذبة (ت 300هـ/912م).

4- **تقويم البلدان لأبي الفداء (ت 732هـ/1332م)**، ويعتبر من أهم المصادر الجغرافية الّتي اتّسمت بالدقة في تحديد الأطوال والمسافات، وقد كان له أهمية كبيرة خاصة في تحديد جغرافية بعض المناطق، وغيرها من المصادر التي لا تقل أهمية في الدراسة حيث أنّنا حاولنا ذكر البعض فقط.

أمّا عن كتب الرحلة فنذكر: «**رحلة بنيامين التطيلي**» للرابي بن يامين بن الرابي يونة التطيلي النباري الاسباني اليهودي (ت569هـ/1223م)، و«**رحلة ابن جبير**» للرحالة ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (ت614هـ/ 1217م)، وكذلك رحلة ابن بطوطة المسمّاة «**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**» لابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت 779هـ/م).

نقد المراجع

من أهم المراجع الّتي اعتمدت عليها الدراسة نذكر:

1- **تاريخ البيمارستانات في الإسلام** لأحمد عيسى بك، وهو كتاب مهم عن تاريخ البيمارستانات في الإسلام، وكانت الاستفادة منه لاسيّما في الفصل الرابع في عنصر الحديث عن البيمارستات في الدولة العباسية وتطورها وعن أخبار الأطباء وما كانوا يقدمونه من خدمات للمرضى.

2- **خدمات الأوقاف في الحضارة العربية الإسلامية** لرعد محمود البرهاوي، وقد تضمن هذا المرجع دراسة قيّمة عن الدور الاجتماعي لمؤسسات العبادة والتعليم وكذلك عن المؤسسات الصحية لهذا كان هذا الكتاب من المراجع الأساسية في الفصل الرابع.

3- **الأوقاف في بغداد العصر العباسي الثاني** لمحمد عبد العظيم أبو النصر: وقد تحدث فيه عن مختلف أوقاف الدولة العباسية واختار دراسة أوقاف العاصمة بغداد، وقد ساعدنا هذا الكتاب في معرفة حالة المجتمع العباسي في الفترة الّتي تناولها المؤلف حيث مدنا بمعلومات عن المؤسسات الخيرية كالمساجد والأربطة والبيمارستانات، كما عالج الكتاب دور العلماء والفقهاء ودور العلم والمدارس، فهو كتاب جامع لكل المرافق العامة في المجتمع العباسي.

4- **العباسيون وآثارهم المعمارية في العراق ومصر وإفريقيا** لعبد الله كامل موسى عبده، وقد عالج فيه آثار العصر العباسي الدينية والمدنية والحربية خلال الفترة الزمنية الممتدة من 132-656هـ/749-1258م، وقد استقينا منه المعلومات الخاصة بالعمارة الدينية بالعراق وخاصة في عنصر المساجد .

5- **الإدارة التربوية في المدارس في العصر العبّاسي (132-656هـ)** لمحمد علي الرجوب، وتتمثل أهميته في تركيزه على الجانب التعليمي وتطوره في العصر العباسي وخاصة المدارس، وقد تناول هذا الجانب بالتفصيل حيث تحدث عن أسباب نشأتها وأهميتها ثمّ تناول أشهر المدارس في العصر العباسي وكيفية تنظيم الجانب الإداري لها وغيرها من العناصر المهمة في العملية التعليمية.

6- **رسوم دار الخلافة في العصر العباسي الأول 132-247هـ** لطلب صبار الجنابي، وهو كتاب قيّم ومهم تناول المؤلف فيه كل ما يتعلق برسوم دار الخلافة في العهد العباسي، وقد اعتمدنا عليه خاصة في الفصل الثاني عند الحديث عن رسوم الخلفاء العباسيين.

بالإضافة إلى مراجع أخرى لا تقل أهمية عن المراجع الّتي تم ذكرها ومنها: «**المجالس العلمية في عصري ما قبل الإسلام والرسالة والعصور الراشدية والأموية والعبّاسية**» لـ: خلود مسافر الجنابي، وكتاب «**الأصناف والمهن في العصر العبّاسي**» لـ: صباح الشيخلي، وكتاب «**الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية**» لـ: صبيحة رشيد رشدي، وكتاب «**الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية من 132-447هـ**» لـ: توفيق سلطان اليوزبكي وكتاب «**المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الأول (132-232هـ/749م-846م)**» لـ: مفتاح يونس الرباصي، وكتاب «**الربط الصوفية البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية**» لـ: مصطفى جواد.

وفي الأخير أحمد الله حمدا يوافي نعمه ويليق بجلاله على حسن عونه وتوفيقه، وأرجو أن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد بلغت مقصدها ولو نسبيا، وهذا مبلغ الجهد والله المستعان.

الفصل الأول

التركيبة السكانية للمجتمع العباسي في العراق

أولا- العرب

ثانيا- الفرس

ثالثا- الأتراك

رابعا- الديلم

خامسا- أهل الذمة

سادسا- الأكراد

إنّ أي دراسة اجتماعية يجب أن تبدأ بمعرفة العناصر السكانية المكونة للمجتمع لأنّ ذلك يمهد إلى فهم الكثير من الظواهر الاجتماعية السائدة وتفسير الأعراف المتفشّية في المجتمع، فكل جنس له مميّزات وخصائص يمتاز بها دونا عن غيره، وبالنّسبة للمجتمع العبّاسي فالمعروف أنّه كان يضم أعراقا من بقاع شتّى متعايشة مع بعضها البعض وهو ما سنحاول تسليط الضوء عليه في هذا الفصل للوقوف على نوعية العلاقات الّتي كانت سائدة بين هذه الفئات، وكذلك دور هذه العناصر والطوائف في تسيير شؤون الدولة العبّاسية.

أولا- العرب:

يعد العرب من أهم العناصر المشكّلة للمجتمع العراقي في العهد العبّاسي الّذين استقروا على وادي الرافدين في زمن بعيد طلبا للماء والمرعى، وقد كان تقارب اللّغة والعادات وبعض المعتقدات بينهم وبين سكان البلاد الأصليين خاصة الجهة الغربية للعراق الّذين هم في كثير منهم من السّاميين[1] في مقدمة العوامل الّتي ساعدت على الائتلاف بين الطرفين[2].

ومن بين هذه القبائل العربية الّتي هاجرت إلى العراق نذكر قبيلة إيّاد التي كانت مواطنها تهامة إلى حدود نجران، ثمّ انتشرت بسبب الحروب والتشاحن الّتي وقعت بينها وبين ربيعة ومضر لطبيعة البداوة وفقر البادية، والتقاتل على الكلأ والماء، فارتحل قسم منها إلى العراق في أوائل القرن الثالث الميلادي، حيث نزلت بناحية سواد الكوفة وقد حاربت إيّاد الأعاجم وهزمتهم بشاطئ الفرات الغربي ثمّ غزاهم كسرى أنو شروان (501-579) فقتل البعض ونفى البعض الآخر من أراضي العراق[3]، ثم قبيلة قضاعة الّتي كان لها ملك في بلاد الشام والحجاز إلى بلاد العراق وفي أيلة وجبال الكرك بالأردن إلى مشارف الشام وقد

---

[1]- يطلق لفظ الساميين على أهل الأقاليم الّتي تعرف اليوم بالشرق الأدنى عدا مصر، وتسميتهم بالساميين ترجع إلى التوراة الّتي تجعل شعوب العالم ثلاثة انحدرت عن أبناء نوح وهو سام وحام ويافت، وإنّ اللغات السامية ترجع إلى أصل لغوي واحد فالعربية والعبرية والآرامية والنبطية والسريانية ترجع كلها إلى لغة أصلية تسمى السامية القديمة يقال أنّها نشأت في قلب الجزيرة العربية ثمّ حملتها موجات الهجرات البشرية من داخل الجزيرة إلى خارجها. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، طبع: دار الفكر للنشر، بيروت، 1421هـ/2000م،ج2، ص8- 9. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار الهلال، القاهرة، 1921، ج5، ص13.

[2]- السيد عبد الرزاق الحسني، مدن العراق قديما وحديثا، مطبعة العرفان، صيدا، 1377هـ/1958م، ص34.

[3]- محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، دار الفكر العربي، 1418هـ/1997م، ج1، ص 283.

استعملهم الروم على بادية العرب هناك[1]، وبكر بن وائل الّتي تنتسب إلى ربيعة واشتهرت في حرب البسوس الّتي وقعت بينها وبين تغلب في القرنين الخامس والسادس الميلاديين[2].

أمّا بنو ربيعة فقد كانوا يسكنون حول الحرم وبسبب الحرب الّتي وقعت بين نزار وقضاعة انتقلوا إلى نجد ونواحي البحرين وهجر وحتّى النواحي الواقعة في الجزيرة الفراتية الواقعة فيما بين النهرين في العراق وتركيا والّتي تسمى حتّى الآن ديار بني بكر وربيعة[3].

وبنو مضر وديارهم حيّز الحرم إلى ما دون السراوات وما والاها من البلاد ثمّ امتدت ديارهم بقرب شرق الفرات نحو حران موطن ديار مضر[4] والرقة[5] وسروج[6]، وكانت ديارهم بالجزيرة بين دجلة والفرات مجاورة للشام وأشهر مدنهم في شرقي الفرات الرافقة وقد كانت لهم رياسة الحرم بمكة المكرمة[7]، والأزد من قبائل اليمن[8] وتميم وتنتسب إلى مضر وقد نزح أبناؤها من الحجاز، وحلوا في منازل بكر وتغلب، كما استقر بعضهم في شرق شبه الجزيرة العربية باليمامة وهجر[9].

وبمجيء الإسلام وانتشاره في شبه الجزيرة العربية، وبعد انتهاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه (11-13هـ/632-634م) من مقاتلة من ارتد قام بإرسال الجيوش لفتح العراق أولا ثم الشام بعد ذلك، وقد بدأ الفتح بهجمات سريعة للسيطرة على قواعد ارتكاز في العراق تكون على حدود بلاد العرب وتمثّل هذا في غارات خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني على أطراف العراق حتّى سنة 13هـ[10].

---

[1]- محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل، ص33-34.

[2]-جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام،نشر جامعة بغداد، 1413هـ/1993م ،ج2، ص 32-47.هنري س. عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس،1411هـ/1991م، ص236.

[3]- محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل، ص42-43.

[4]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م، ج2، ص235-236.

[5]- الرقة: هي في سوريا وهي أكبر ديار مضر آنذاك تقع شرقي الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيّام، فتحت عام 17هـ/ 638م على يد عياض بن غنم. ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص203. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص58-60.

[6]- سروج: هي بلدة قريبة من حران من ديار مضر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص216.

[7]- محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل، ص49.

[8]- هنري س.عبودة، معجم الحضارات، ص75.

[9]- نفسه، ص283.

[10]- عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1428هـ/2007م، ج3، ص37-

واستمر الصراع قائما في العراق فكانت معركة القادسية الشهيرة في 13 شعبان 15هـ[1] نهاية الوجود الفارسي في العراق بسقوط المدائن عاصمة الفرس، إلّا أنّ هذا النّصر بقيّ مهدّدا ما دامت بلاد فارس بيد الفرس ولهذا كانت معركة نهاوند 21هـ هي النهاية للإمبراطورية الساسانية واستقرار فتح العراق[2].

كما رافق حركة الفتح هجرة القبائل العربيّة وإسكانها مجتمعة في الأمصار التي بنيت حديثا كالكوفة والبصرة، وأدى ذلك إلى تحولات كبرى في حياتها الاجتماعية والاقتصادية مع دورها في حركة الفتوح، وكانت القبائل متباينة في وجودها ما بين مستقرّين وبدو وشبه مستقرين، فقد عرفت الكوفة استقرار مجموعة واسعة من القبائل الشمالية والجنوبية بلغت حوالي ثمانية عشر قبيلة أي أنّ الخليط كان واسعا ولذا نظمت التعبئة فيها على الأعشار ثمّ عدّلت على الأسباع أيّام سعد فكانت أربعة أسباع شمالية واثنين جنوبية إضافة إلى سبع أهل العالية[3].

وقد نظمت القبائل العربية على أساس النّسب والجوار، وازداد الوضع صعوبة نتيجة الهجرة الواسعة، ففي البصرة كانت المجموعات القبلية أوضح حيث كان مقاتلة البصرة أساسا من بكر بن وائل وتميم وهما قبيلتان في البوادي القريبة ثمّ جاءت الأزد من عمان بعد سنة 20هـ والّتي برزت في معركة الجمل سنة 36هـ، وأمّا عبد القيس فهم هاجروا مع الفاتحين من البحرين، إلى العراق ثمّ نزلوا البصرة في خلافة عمر -رضي الله عنه-[4].

ولم تتعرض البصرة للحشد السريع الّذي تطلّبته جبهة الكوفة بل سارت الهجرة إليها بصورة طبيعية بعد الفتح من قبائل شرق الجزيرة، وهكذا كانت في البصرة أربع مجموعات قبلية بكر وتميم والأزد وعبد القيس إضافة إلى أهل العالية، ففي أثناء الفتنة كانت تعبئة أهل

---

[1]- محمد السيد الوكيل، جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين: دراسة وصفية تحليلية لأحداث تلك الفترة، دار المجمع للنشر، 1432هـ/2002م، ص123.

[2]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، (د ت)، ج4،ص114-115. محمود شاكر، موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسامة للنشر، الأردن، 2002، ص39.

[3]- عبد العزيز الدوري، أوراق، ج3، ص51.

[4]- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، تعليق ووضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت،2003، ج2، ص163. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص522-534.ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م،ج1، ص360-375.هنري س.عبودي، معجم الحضارات، ص580.

البصرة على الأخماس[1] واستمرت كذلك دون تعديل زمن الخلفاء الراشدين والعصر الأموي، وقد كثرت الهجرات إليها لأنّها كانت بوابة للقبائل في البوادي المجاورة ولقبائل الجزيرة، إضافة إلى أنّها تقع على نهاية طريق التّجارة البحرية الهام من الهند ممّا صار له أثر ايجابي على الحياة فيها[2].

فُتحت خراسان مركز الثورة العبّاسية في عهد الخليفة عثمان بن عفان- رضي الله عنه- على يد القائد عبد الله بن عامر- ت59هـ- بين سنة 29 و35هـ، وبعد تولي معاوية (41-60هـ/661-679م) الخلافة قرّر الأمويّون إنشاء قواعد عسكرية ثابتة للمقاتلة العرب في خراسان فبدأت عمليّات استيطان العرب بتتابع الهجرات القبلية من الكوفة والبصرة[3].

وقد أدى إرسال دفعات جديدة من العرب باتّجاه خراسان إلى حدوث الشقاق والتصادم بين العرب القدامى الفاتحين والقادمين الجدد فانقسم العرب المسلمون في خراسان إلى كتلتين: كتلة العرب المستقرّة وكتلة العرب المقاتلة[4].

وقد فضّلت القبائل العربية الاستقرار وممارسة المهن الحرّة كالتّجارة والزراعة بدلا من الخدمة في الجيش، ولهذا السبب أمر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (105-125هـ /723-742م) بحذف أسماء المقاتلة العرب الّذين يرفضون الاشتراك في الحملات العسكرية في بلاد ما وراء النّهر[5].

1- الأخماس: سميت بالأخماس لأنّها كانت تضم كل خمس قبائل متقاربة في النسب، والقبائل العربية الّتي خضعت لنظام الأخماس في البصرة هي تميم، وبكر بن وائل، وأهل العالية وهي قبائل من نجد والحجاز ومن ضمنها قريش، والأزد وعبد القيس. محمد حسن العمادي، خراسان في العصر الغزنوي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، دار الكندي للنشر، الأردن،1997.

2- عبد العزيز الدوري، أوراق، ج1، ص52.

3- ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج5، ص311-312.ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص366. الذهبي، تاريخ الإسلام، تح عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1410هـ/1990، ج4، ص165. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، تعليق ووضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص180- 182.أبو الفداء، تقويم البلدان، تح رينولد مالك كوكين، باريس، 1258هـ/1840م، ص448. فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية: عصر القوة والازدهار، دار الشروق للنشر، عمان،2009 ، ج1، ص 16-17.

4- فاروق عمر فوزي، بحوث في التاريخ العباسي، دار القلم، بيروت، 1977، ص 42.

5- ما وراء النّهر: يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة وفي الإسلام سمّي ما وراء النهر، وما كان في غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم، ويعتبر إقليم ما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيرا . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص45-46.

وممّا ساهم في إيجاد الجو المناسب للثورة هي ظروف خراسان الداخلية السياسية والاجتماعية والاقتصادية من حيث القبائل وعلاقتهم ببعضهم البعض وبالسكّان المحليين والخلافة الأموية في دمشق، فالعرب المستقرّة عبّروا مرارا عن تذمرهم بسبب حرمانهم من الامتيازات الّتي يتمتع بها المقاتلة من العرب[1].

وقد كان العرب من أهل خراسان القوة الأساسية في التّنظيم العسكري العبّاسي، وكان دور القبائل بارزا في السياسة والجيش والمجتمع، فقد اعتمد العبّاسيون على العرب منذ الأيّام الأولى للدعوة حيث كان عدد مقاتلة العرب من أهل المصرين الكوفة والبصرة كبيرا في خراسان منذ الفتوح الأولى ومن مختلف القبائل، وكان تمركزهم في قرى خزاعة اليمنيّة ما جعل نصر بن سيّار والي خراسان - 120-131هـ- يتردد في مهاجمتهم قبل استفحال أمرهم لأنّه كان حذرا من دخولها في صفوف الدعوة العبّاسية[2].

ولمّا صدرت أوامر الإمام إبراهيم إلى أبي مسلم الخراساني بإعلان الثورة ظهر بوضوح منذ الوهلة الأولى المساهمة الفعّالة للقادة العرب والقبائل العربية، وفي العراق ظهر دور القبائل العربية واضحا فقد ساعدت الجيش الخراساني للوصول إلى الكوفة فانضمت اليمانية إلى بني العباس بدافع العصبية ضد القيسية الّتي كانت بجانب مروان بن محمد، وانضمّ أبو عون وهو أحد زعماء الأزد إلى جيش قحطبة الّذي توجّه نحو شرقي الموصل عند جبل الجودي حيث يجرى نهر الزاب لقتال مروان بن محمد، وقد ثمّن الخليفة المنصور(136-158هـ/753-774م) موقف القبائل اليمنية ومساندتها للثورة العبّاسية قائلا لهم: «فيحق لنا أن نعرف حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا»[3].

---

[1]- نزار محمد قادر النعيمي، الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية منذ تأسيسها وحتّى سقوط بغداد 1-656هـ/622- 1258م، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2005، ص125. محمود شيت خطّاب، بلاد ما وراء النّهر قبل الفتح الإسلامي وأيّامه، دار ابن حزم، بيروت، 1418هـ/1998م، ص290. فاروق عمر فوزي، بحوث في التاريخ العباسي، ص43.

[2]- فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، ج1، ص17.

[3]- ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2001م، ص 276-280. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980، ص281.

كان دور العرب حاسما في القضاء على الدولة الأموية خاصة في حروب العراق والشام حيث لمّا جاء مروان بن محمد إلى الموصل فارا من خطر العباسيين، وكان عليها عامله هشام بن عمرو أغلقت قبائل الموصل المدينة في وجهه، فاضطر إلى الانسحاب نحو الشّام وفتحت الموصل أبوابها لعبد الله بن علي واستقبله هشام بن عمرو مسودا[1].

فقد امتنعت القبائل العربية عن القتال مع الأمويين ولعبت العصبية القبلية دورا كبيرا في ذلك حيث قالت القبائل اليمنية الموالية لابن هبيرة: «لا والله لا نقاتل على دعوة بني أمية أبدا لسوء رأيهم فينا وبغضهم لنا وقالت القيسية: لا والله لا نقاتل حتّى يقاتل اليمنية فلم يكن يقاتل مع ابن هبيرة إلّا صعاليك النّاس وأهل العطاء»[2].

ووضح انتصار الكفّة العربيّة عند بيعة هارون الرشيد (170-193هـ/786-808م) بولاية العهد لابنه محمد الأمين (193-198هـ/808-813م)، وهو ابنه من السيّدة زبيدة العربية الهاشميّة، ثمّ لابنه الآخر عبد الله المأمون (198-218هـ/813-833م) من بعده وهو ابن جارية فارسية تدعى مراجل، فقد أيّد العبّاسيون البيعة لمحمد الأمين لأنّه هاشمي الوالدين رغم أنّه كان أصغر سنا من أخيه المأمون، حيث يوم البيعة وقف الأمير العبّاس عبد الصمد بن علي وهو أسنّ العبّاسيين وقال: «أيّها النّاس، لا يغرنّكم صغر السّن، فإنّها الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السّماء»[3].

وقد أعطيت بعض المناصب الهامة كالوزارة إلى الفرس، ولكن عددا كبيرا من الولاة والقواد كانوا عربا في العصر العبّاسي الأول، فكان أكثر الولاة في خلافة أبي العبّاس السفاح والمنصور من العائلة المالكة، وإنّه كثيرا ما تنافس كبار الموظفين من العرب والفرس في البلاط وفي الولايات، وكان الجيش العبّاسي يتألّف من فرق عربية وخراسانية[4].

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص439. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، راجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية للنشر، بيروت، 1425هـ/2005، ج3، ص205.

[2]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص84.

[3]- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص493. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1422هـ/2001م ج10، ص184. عبد السلام الترمانيني، أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، دار طلاس للنشر، دمشق، (د ت)، ج1، ص 56

[4]- فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، ج1، ص 22-30.

فالخلفاء العبّاسيون كانوا عربا هاشميين من جهة الأب على الأقل وكانوا يعتزّون بنسبهم ويعتبرونه أكبر مناقبهم، وبالرغم من أنّهم قرّبوا الفرس إلّا أنّهم سيطروا عليهم حيث نكلوا بهم حين شعروا بتعاظم نفوذهم كما فعل الخليفة أبو العبّاس السفاح بأبي سلمة الخلّال[1]، والمنصور بأبي مسلم والرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل[2].

ورغم تعرض الدولة العبّاسية لحركات الزندقة[3] نتيجة ازدياد النّفوذ الفارسي، إلّا أنّ العروبة ظلّت كامنة في الحضارة الإسلامية الّتي أصبحت حضارة عالمية يشترك فيها كل المجتمع على اختلاف أجناسه وطوائفه الدينية، وظلّت اللّغة العربية لغة السياسة والثقافة والأدب، كما بقي النّاس ينزعون إلى الفخر بالنّسب العربي وبالولاء العربي ومثال ذلك انتحال

---

[1]- أبو سلمة الخلّال: هو أبو سلمة، حفص بن سليمان الهمذاني، عرف بالخلّال لأنّ منزله كان قريبا من محلة الخلّالين بالكوفة، أنفق أموالا كثيرة في سبيل الدعوة العباسية، وكان يفد إلى الحميمة فيحمل كتب إبراهيم الإمام إلى النقباء في خراسان، أول من لقب بالوزارة في الإسلام للخليفة أبو العباس السفاح، كان يسمر عند السفاح كل ليلة لما في حديثه من علم بالسياسة والتدبير، ولمّا مال أبو سلمة الخلال إلى العلويين سيّر السفاح إلى أبي مسلم وهو بخراسان من يعرفه بنية أبي سلمة ويحرضه على قتله، فقتل من طرف أربعة أشخاص كمنوا له ليلا ويقال أنّ أبا مسلم الخراساني دسهم له سنة 132هـ.ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (دت)، ج2، ص195. ابن الطقطقى، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت،1386هـ/1966م، ص109-110. ابن كثير، البداية والنهاية، تح عبد الله بن عبد الله المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، 1417هـ/1997م، ج10، ص55.

[2]- الفضل بن سهل: هو أبو العباس الفضل بن سهل السّرخسي أخو الحسن بن سهل، أسلم على يد المأمون سنة 190هـ، وقيل أنّ أباه سهلا أسلم على يد المهدي، وزر للمأمون، وكان يلقب بذي الرياستين لأنّه تقلد الوزارة والسيف، وكان من أعلم النّاس بعلم النجوم، قتل على يد خال المأمون المسعودي الأسود حيث دخل عليه الحمام بسرخس مع جماعة وقتلوه وكان ذلك سنة 202هـ.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص41-44. ابن الطقطقى، الفخري، ص221.

[3]- الزندقة: تجمع معاجم اللغة أنّ الزندقة ومنها الزنديق لفظ فارسي معرب يقصد به القائلون بدوام الدهر المنكرون لوحدانية الله وللآخرة وهم القائلون بالنور والظلمة، وهو مشتق من الزند كتاب المجوس، وقد أطلق المسلمون لفظ زنديق على الملحد في الدين المستهتر بتعاليمه، من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، وقد اتخذت حركة الزندقة في العصر العباسي عدة أشكال تلونت بحسب البيئة السياسية والفكرية القائمة وبحسب ما يتاح لها من الظهور بين اعتقاد خاطئ في الإسلام، ومزجه بموروثهم الديني القديم، أو التهكم فيه والاستهتار بآدابه وتعاليمه، وإباحة المحرمات والإلحاد في الله. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تح مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، 1426هـ/2005م، ص891.حسين عطوان، الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، (د ت)، ص15-16. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين، العلماء والسلطة: دراسة عن دور العلماء في الحياة السياسية والاقتصادية في العصر العباسي الأول، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2008، ص300-301.

أبو مسلم الخراساني لنفسه نسبا عربيا والشاعر والبة بن الحبّاب[1] كان يدّعي النّسب إلى العرب، ولهذا فسلطان العرب لم ينته بسقوط الأمويين وإن زالت سيادتهم على العناصر المختلفة في الدولة إذ فقدت القبائل العربية امتيازاتها وزال الفرق بين العرب وبين المسلمين من غير العرب[2].

وفي الفترة البويهية كان العرب يعيشون في الأرياف ويسكنون في المدن، وقد استقروا على هيئة قبائل، واستمرت الخصومات القبلية بينهم في بعض المدن كالبصرة حيث أنّ معز الدولة البويهي (334-356هـ/945-966م) أصلح سنة 366هـ بين قبيلتي ربيعة ومضر بعد أن دامت الخصومة بينهما مائة وعشرين سنة[3].

وبالرغم من تراجع دور العرب في الأحداث السياسية بعد سيطرة الفرس والأتراك، غير أنّه ظلت في المجتمع العراقي طائفة من العرب حافظت على وضعها المتميّز وهم الأشراف الّذين اعتزوا بشرف نسبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعلويّون الذين اعتزّوا بالانتساب إلى أولاد علي بن أبي طالب من فاطمة والعبّاسيون المنتسبين إلى العبّاس عمّ النّبي صلّى الله عليه وسلم، ونتيجة لكثرتهم كونوا نقابة عرفت باسم نقابة الأشراف[4] تتولى جميع أمورهم، وإلى جانب ما كان يمنح للأشراف من رواتب كانوا يتولّون أيضا إمارة الحجيج وإمامة المساجد، وقد أشار الصاحب بن عباد أنّ العلويين كانوا يخاطبون بالشرفاء وأنّه كان منهم النقباء في العراق[5].

---

[1]- والبة بن الحبّاب: هو والبة بن الحبّاب الأسدي الكوفي شاعر ماجن ضليع، وهو أستاذ أبي نواس، من أهل الكوفة، قدم والبة بغداد في أواخر أعوامه، فهجى بشار وأبا العتاهية إلّا أنّهما غلباه فعاد إلى الكوفة، ولمّا مات رثاه أبو نواس، توفي حوالي سنة 170هـ.محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ/2001م، ص87. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج13، ص518.

[2]- يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، مراجعة الترجمة حسين مؤنس، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1968، ص257-258.

[3]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية في العراق زمن البويهيين، دار العلم العربي، القاهرة، 2008 ، ص15-16.

[4]- أشار الماوردي أنّ تعيين هذه النقابة كانت تتم : «إمّا من جهة الخليفة المستولي على كل الأمور، وإمّا ممّن فوض الخليفة إليه تدبير الأمور كوزير التفويض وأمير الإقليم، وإمّا من نقيب عام الولاية استخلف نقيبا خاصا للولاية، فإذا أراد المولي أن يولي على الطالبيين نقيبا أو العبّاسيين نقيبا يتخير منهم أجلّهم بيتا وأكثرهم فضلا وأجلّهم رأيا، فيولي عليهم لتجتمع فيه شروط الرياسة والسياسة، فيسرعون إلى طاعته برياسته، وتقسيم أمورهم بسياسته». الأحكام السلطانية، تح أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ/1989م، ص126.

[5]- حوريه عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص16-17.

وكان للأشراف نقيب يتولى القضاء فيما ينشب بينهم من خصومات، وقد خضع بنو هاشم من العبّاسيين والطّالبيين لنقيب واحد حتّى القرن الرابع الهجري ثمّ منذ النّصف الثاني من نفس القرن أصبح لكل فريق منهم نقيبا خاصا به بسبب ما طرأ على موقف العبّاسيين من الضعف في عهد البويهيين[1].

كما كان للأشراف مكانة عظيمة في المجتمع العراقي والدليل على ذلك ما كان يتمتّع به الشريف أبو أحمد الموسوي سنة 400هـ من منزلة عظيمة حيث يذكر عنه أنّه: «كان سيّدا عظيما مطاعا، وكانت هيبته أشد من هيبة الخلفاء، وكانت منزلته عند بهاء الدولة أرفع المنازل ولقّبه بالطاهر وذي المناقب»[2].

ومع هذا فقد تعرض الأشراف أحيانا إلى مصادرة أملاكهم وحبس الكثيرين منهم في السّجون من طرف الأمراء البويهيين، وذلك لدورهم في إثارة الفتن والاضطرابات الّتي عمّت العراق خلال الوجود البويهي، والّتي أدّت إلى إشعال الفتنة بين السّنيين والشّيعيين، حتّى اضطر الأمير البويهي بهاء الدولة (380-403هـ/990-1012م) سنة 401هـ إلى استخدام القوّة في قمع تلك الثورة[3].

وارتفع شأن العلويين في العراق في ظل حكم بني بويه، فقد أصدر الأمير بهاء الدولة سنة 403هـ كتاب تقليد الرضي الموسوي نقابة الطالبيين بالعراق وجعله نقيب النقباء، وأمره بإعلان إنكار نسب الفاطميين وذلك بعد أن تدهورت العلاقة بين عضد الدولة البويهي (324-372هـ/935-982م)[4] والفاطميين بعد أن بدت له خطورة نفوذ الفاطميين في مصر على وجودهم بالعراق[5].

---

[1]- حوريه عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص17.

[2]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص30. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413/1992م، ج4، ص 224.

[3]- ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص 79-80. حوريه عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص19.

[4]- عضد الدولة فناخسرو ابن الحكم (324-372هـ/935-982م): أبو شجاع بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه الديلمي، وهو أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العبّاسية بالعراق، وهو أول من تسمّى بشاهنشاه ومعناه ملك الملوك، امتدحه كثير من الشعراء كالمتنبي وغيره، كان عاقلا فاضلا حسن السياسة شديد الهيبة، بعيد الهمّة، كان يحب العلم والفضيلة.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص54. ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص 410-413.

[5]- المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1416هـ/1996م، م2، ص36. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص18.

ثانيا- الفرس:

يعتبر الفرس من الموالي حيث يشكلون أكبر كتلة منهم، وكلمة مولى في اللّغة العربية تحمل معانٍ كثيرة تدور حول المحبّة والنّصرة، فأحيانا تطلق ويراد بها لفظ الجلالة كقوله **عز وجل**[1]: ﴿**ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الحَقِّ**﴾ أي مالكهم جل جلاله وتطلق على أبناء العم **كقوله تعالى**[2]: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي**﴾ كما تطلق على النّاصر **كقوله تعالى**[3]: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ**﴾ ويطلق أيضا لفظ مولى على المعتق **كقول الرسول صلّى الله عليه وسلم** «**مولى القوم من أنفسهم**» كما يطلق على الحليف والجار، وغير ذلك من المعاني[4].

أمّا المولى في الشريعة الإسلامية فهو نوعان مولى العتاقة وهو الرقيق الّذي أعتقه صاحبه ومولى الموالاة وهو الحليف ويسمّى أحيانا مولى اصطناع أو مولى عقد، وذلك كأن يقول رجل لآخر: «ليس لي عشيرة ولا ناصر، وإنّي أنضم إليك إلى عشيرتك وتنصرني وتدفع عنّي نوائبي، وإن مت كان ميراثي لك، فيعقد بينهما عقد الموالاة»[5].

ولقد اعترف الإسلام بهذا النّوع من الولاء حيث قال **الرسول صلّى الله عليه وسلم** «**إنّ مولى قوم منهم وحليفهم منهم**» والمراد بالحليف مولى الموالاة لأنّهم كانوا يؤكّدون الموالاة بالحلف[6].

فالموالي هم المسلمون من العرب في العهد النبوي ومن غير العرب في العهد الراشدي وما تلاه إلى الفترة الخاصة بالدراسة وهم الّذين أسلموا وحالفوا قبائل عربية متعززين بها أو أسرى الحرب، ثمّ أسلموا فأعتقوا وأصبحوا موالي، وقد اقترن إسلامهم بدخولهم في خدمة

---

[1]- سورة الأنعام، آية 62.

[2]- سورة مريم، آية 05.

[3]- سورة محمد، آية11.

[4]- علي حسني الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1415هـ/1994م، ص100.

[5]- مقدمة ابن خلدون، مراجعة سهيل زكار وخليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2001، ص 169-170. علي حسني الخربوطلي، الحضارة العربية، ص101.

[6]- جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي، نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، تح محمد عوامة، مؤسسة الريان للنشر، بيروت، 1418هـ/1997م، ج4، ص204 .

العرب وتحالفهم معهم كي يتعزّزوا بنصرتهم وقوّتهم فكأنّهم أصبحوا في نفس الوقت موالي حلف وموالاة[1].

وقد تكاثر الموالي في الدولة العربية الإسلامية نتيجة اتساع حركة الفتوح وكثر عدد الرقيق بالأسر أو السبي، وكان الولاة يبعثون الآلاف من الرقيق ومن مختلف الأجناس إلى دمشق، ومن أنجب من أولئك الأرقاء أو أعتق صار مولى غير الّذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره، وبهذا تزايد عدد الموالي[2].

وقد كان معظم الموالي في الدولة العربية الإسلامية وخاصة موالي العراق من أصل فارسي يتحدّثون الفارسية، في حين كان كثير ممّن يسكن إلى الشمال من العراق خاصة الأكراد الّذين يتحدثون بالكردية وآخرون من السريان وأغلبهم مسيحيون يتحدثون السريانية، هذا وقد احتفظ الموالي بهذه الصفات فترة طويلة، وكان بعض ولاة العراق يجيدون اللّغة الفارسية مثل المغيرة بن شعبة الّذي أحبّه الموالي كثيرا، ونتيجة لهذا الاحتكاك دخلت على اللغة العربية العديد من المفردات من اللغة الفارسية[3].

وكان العرب يطلقون على الموالي من أبناء الفرس لفظ «الحمراء» كما كانوا يسمّونهم «العجم»، وقد تمكن الموالي الفرس من أن يحتفظوا ببعض صفاتهم، ولكنّهم رغم ذلك حرصوا على التّسمي بأسماء عربية وخاصة الإسلامية وإن كان كثيرهم احتفظوا بخصائصهم[4].

وتأثر هؤلاء الموالي بالعصبية القبلية فكان موالي كل قبيلة ينتسبون إليها، ويحاربون في صفوفها، وكانت حالة الموالي تتأثر بظهور هذه العصبية أو اختفائها، فكلما وجدت تلك العصبية ساءت حالة الموالي وانحدرت منزلتهم[5].

---

[1]- علي حسني الخربوطلي، الحضارة العربية، ص101.

[2]- محمد حسين علي المحاسنه، حركة الفتح الإسلامي في العراق وإدارته في صدر الإسلام 11-41هـ/633-661م، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة مؤتة، 2009،ص105.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، 1380هـ/1960م ، ج1، ص11. البلاذري، أنساب الأشراف، تح سهيل زكّار ورياض زركلي، دار الفكر للنشر، بيروت، 1407هـ/ 1996م، ج5، ص254. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص218.

[4]- موريس غودفرا ديمومبين، النظم الإسلامية، تر فيصل السامر، صالح الشماع، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1961، ص 160-161.

[5]- علي حسني الخربوطلي، الحضارة العربية، ص102.

وقد كان موالي العراق أكثر من موالي الشام رغبة في تعلّم اللغة العربية، وشاع اللحن في اللغة العربية بدخول هذه الأعداد الكبيرة في الإسلام ممّا أدى إلى شعور أبو الأسود الدؤلي[1] بالغيرة على اللغة العربية فاستأذن زياد بن أبيه في وضع علم النّحو[2].

كما كان الدافع إلى تعريب الدواوين على يد عبد الملك بن مروان -65-86هـ- والحجاج واليه على العراق-75-95هـ- وعبد الله بن عبد الملك والي مصر-86-90هـ- التمكين للغة العربية بعد الأسباب السياسية والاقتصادية والدينية[3].

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-719م) قام بإصلاحات عديدة خاصة ما تعلق بالجانب الاجتماعي والتمكين للإسلام والسعي في نشره فقام بوضع الجزية عمن أسلم سواء في مصر أو في العراق والأقاليم الشرقية التابعة له حيث أصدر منشورا عاما إلى جميع الولايات يأمرهم: «**أن يضعوا الجزية عمن أسلم من أهل حين يسلمون**»[4].

ولم يكتف عمر بإعفاء المسلمين الجدد من الجزية، وإنّما حرص أيضا على تبليغ الإسلام، فقد كتب إلى الجراح بن عبد الله والي خراسان سنة 99-100هـ يأمره: «أن يدعو أهل الجزية إلى الإسلام فإن أسلموا قبل إسلامهم ووضع الجزية عنهم، وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»[5].

وقد كان من أثر هذه السياسة أن ازداد اعتناق أهل الذمة للإسلام، فأسلم منهم حوالي أربعة آلاف شخص، فحدث أن جاء إلى الجراح من يقول له «إنّ الناس قد سارعوا إلى

[1]- أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدؤل بن بكر بن علي بن كنانة بن خزيمة، اختلف في نسبه والغالب أنه ينسب إلى الدئل الّذي هو حي من كنانة وأمّا مولده فالمرجح عند المؤرخين أنّه ولد في الجاهلية قبل الهجرة النبوية بستة عشر عاما وهذا القول مبني على تحديد تاريخ وفاته بسنة تسع وستين للهجرة وأنّه قد عاش خمسا وثمانين سنة.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص535. الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1402هـ/1982م ، ج4، ص81. ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص312.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص71-75. الأصفهاني، الأغاني، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1429هـ/2008م، ج11، ص101-102.الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص84.

[3]-Reynold A.Nicholson, A literaryHistory of the arabs, london,1923, p201.

[4]- محمد فرقاني، السياسة المالية للخليفة عمر بن عبد العزيز على ضوء رسائله، دار بهاء الدين للنشر، قسنطينة 2008م، ص146.

[5]- نفسه، ص 147

الإسلام وإنّما ذلك نفورا من الجزية فامتحنهم بالختان»، فلمّا علم عمر بذلك منعه حيث كتب إليه يقول: «إنّ الله بعث محمد داعيا ولم يبعثه خاتنا»[1].

ولكن بعد موت الخليفة عمر بن عبد العزيز،عادت سياسة الدولة الأموية إلى فرض الجزية على الموالي من جديد، ولهذا يرى فان فلوتن[2] أنّ سياسة عمر الإصلاحية كانت سببا غير مباشر في سقوط الدولة الأموية لأنّها أيقظت في نفوس الموالي آمالا كبيرة لم تلبث أن خابت بعد موته.

ونتيجة لذلك انتشر التذمر بين الموالي خاصة موالي خراسان بسبب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وصاروا ينضمون إلى كل خارج على الدولة الأموية، وكذلك ظهر هذا التذمر أيضا على شكل حركة كلامية وهي المعروفة بحركة الشعوبية، وهذه الحركة كانت تطالب بالمساواة بين الشعوب[3] مستندة في ذلك إلى **قوله تعالى:**[4] ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إَنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾.

وقد قامت بعض العناصر العربية في خراسان بحركات ثورية تنتصر فيها لإخوانهم المسلمين بخراسان ممّن كان أسلم وأعيدت عليه الجزية ضد سوء إدارة بني أمية، ومن زعماء هذه الحركة نذكر أبا الصيداء صالح بن طريف الّذي عاقبته الدولة بالسجن بعد إخماد ثورته سنة 109هـ وجاء بعده الحارث بن سريج الّذي قام بثورته سنة 116هـ يدعو فيها إلى العمل بالكتاب والسنّة حيث هاجر إلى أراضي الترك وأخذ يقاتل معهم ضد جيوش الدولة الأموية احتجاجا على سياستها التّعسفية نحو الموالي[5].

1- محمد فرقاني، السياسة المالية، ص 147.

2- السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بني أمية، تر حسن إبراهيم حسن، مطبعة السعادة، مصر، 1934، ج7، ص 114.

3- إبراهيم أيوب، التاريخ العبّاسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1989، ص15-16. يوسف العش، تاريخ عصر الخلافة العباسية، مراجعة أبو الفرج العش، دار الفكر، دمشق،1982، ص18.

4- سورة الحجرات، آية13.

5- ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص216 وما بعدها، فان فلوتن، السيادة العربية، ص60. أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية للنشر، بيروت، (د ت) ،ص16

وقد استطاع والي خراسان نصر بن سيّار أن يقنع الخليفة الأموي بالعفو عن الحارث بن سريج فعفا عنه، إلّا أنّ ابن سريج لم يلبث طويلا حتّى عاد ورفع راية العصيان من جديد ضد الدولة الأموية وانتهى الأمر بمقتله سنة 128هـ[1].

غير أنّه لم يكد يمضي على مقتل ابن سريج عام واحد حتّى أشعل أبو مسلم الخراساني نار الثّورة على بني أمية، وخير دليل على تأييد الفرس لهذه الثورة أنّ اللغة الفارسية كانت هي اللغة السائدة في جيش أبي مسلم الخراساني[2].

وكانت خراسان أيضا مركز الديانات والعقائد الفارسية، وكان أهلها على استعداد لقبول عقيدة التشيّع لأنّهم كانوا يؤمنون بنظرية الحق الملكي الإلهي الّتي كانت سائدة في بلاد فارس منذ أيام آل ساسان، فالتّشابه قوي بين عقيدة الفرس وعقيدة التشيّع في الحق الملكي المقدّس، وكان الفرس الّذين دخلوا حديثا في الإسلام ينظرون إلى الأمويين باعتبارهم غاصبين للملك، ولهذا وجب قتالهم وانتزاع الحق المقدّس منهم[3].

وممّا ساعد على تأثر الفرس بعقائد الشيعة أنّ والدة علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كانت فارسية وقيل أنّ اسمها حرار بنت كسرى بن يزدجرد، وقيل أيضا سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس، ولذلك كان الفرس يعتقدون أنّ للعلويين حق الملك لأنّهم ورثة آل ساسان من الأم والأئمّة الشّرعيون من ناحية الأب حيث كان يقال لعلي بن الحسين «ابن الخيرين قريش وفارس»[4].

ومن النّاحية الجغرافية كانت خراسان بعيدة عن دمشق ولهذا لم يستطع الأمويّون عندما اندلعت الثورة أن يسارعوا لإطفائها، كما أنّها ضمت أعداد كبيرة من الموالي يعيشون نفس الظروف الاجتماعية والاقتصادية وغيرها عكس الكوفة حيث يقول فلهاوزن[5]: «خراسان كانت أصلح من الكوفة لأنّ الموالي كانوا هناك أكثر تماسكا واتّفاقا بينما كان العرب على العكس من ذلك في الكوفة».

---

[1]– أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص16.

[2]– المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص200–207. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص17–21 . حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العبّاسي، دار الفكر العربي، بيروت، (د ت)، ص56.

[3]– نزار محمد قادر النعيمي، الجيش ، ص125.

[4]– فاروق عمر، الخلافة العباسية، ص17.

[5]– تاريخ الدولة العربية، ص64.

وبعد نجاح الثورة العبّاسية، وقيام الخلافة العبّاسية قرّبوا الموالي الفرس وخصوصا أهل خراسان حيث جعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم خاصّة الّذين حاربوا مع أبي مسلم وأشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة، فقد كان من قواد جند أبي مسلم شهد معه وقائع الدعوة وأبلى بلاء حسنا في نصرة أهل البيت، كان أبوه برمك من مجوس بلخ يخدم بيتا من بيوت النّار هناك اسمه النّوبهار، اشتهر هو وبنوه بسدانته، كما كان برمك عظيم المقدار عند الفرس، وقد أسلم خالد ودخل في جند أبي مسلم وكان عاقلا حازما فلم يجعل للعبّاسيين محلّا للشك في صداقته كما فعل أبو مسلم حيث قدّمه أبو العباس وولّاه الوزارة ثمّ تولّاها للمنصور وخدمه بعد مقتل أبي مسلم في محاربة الأكراد في شمال العراق، وكانوا قد تغلبوا على فارس وتوالت الوزارة في أعقابه إلى أبنائه يحي وابنه جعفر الّذي نكّب البرامكة على عهده[1].

وقد كان يسكن بغداد عدد لا يستهان به من العناصر الفارسية في العصر العبّاسي، وإنّ أول من استخدم الموالي من العبّاسيين الخليفة أبو جعفر المنصور حيث استعمل مواليه وغلمانه وقدّمهم على العرب، وقد اقتدى به الخلفاء العبّاسيون من بعده[2]، ولمّا حضرته الوفاة أوصى الخليفة المنصور بثلث ماله لمواليه وأوصى بإكرامهم ومن أقواله في وصيّته لابنه المهدي (158-169هـ/774-785م) «وانظر مواليك فأحسن إليهم وقرّبهم واستكثر منهم، فإنّهم مادتك لشدتك إن نزلت بهم وما أظنك تفعل، وأوصيك بأهل خراسان خيرا، فإنّهم أنصارك وشيعتك الّذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عمّا كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده وما أظنك تفعل»[3].

وكان الخليفة المهدي إذا أراد الشورى جمع خاصّته للمداولة ومنهم الموالي حيث أصبحوا بطانة الخليفة ورجال دولته فهم الّذين نظّموا الدولة ودواوينها ورتّبوا أحوالها وكان منهم الوزراء والقوّاد والعمّال والكتّاب والحجّاب، وقد كان الغالب في هذه المناصب أن تنتقل

1- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص106.

2- اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، تح محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب للنشر، القاهرة، (د ت)، ص204.

3- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص 216. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج4، ص136

من الرجل إلى بعض أولاده مثل منصب الخلافة فاشتهرت بعض البيوتات بالوزارة أو الولاية كآل برمك وآل وهب وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم[1].

وقد كانت أمور الدولة ترجع إلى الوزراء يولّون ويعزلون، وإذا تولّاها أحدهم ولّى الأعمال رجالا من أصحابه أو مريديه، ومن نّاحية أخرى تغيّرت الأحوال على أهل البلاد واطمأنّت خواطرهم وتفرّغوا للعمل في التّجارة أو الصناعة كما أطلقت حرية العمل وحرية الدين، وذهبت بهذا عصبيّة العرب[2].

ولمّا استبد الأتراك في الدولة وضعفت شوكة الفرس ظلّ الموالي من أصحاب النفوذ في دولة الخلفاء يعتمد عليهم الخليفة في أموره الخاصة والعامة من الكتابة إلى القيادة، ولم يعد التّقدم فيهم للفرس بنوع خاص ولكنّهم أصبحوا أخلاطا منهم ومن سواهم تجمعهم كلمة الموالي ويتفانون في خدمة الخليفة أو الأمير[3].

وبهذا فقد كان للموالي حظ كبير في العصر العبّاسي بعد أن كانت لهم مشاركة فعلية في أحداث الثورة العبّاسية، حيث توفر لدينا أسماء موالي أبي العبّاس الّذين انتقلوا إليه بعد وفاة أخيه إبراهيم الإمام، والّذين عملوا أمناء لسر أبي العبّاس ومنهم من شارك بتحديد الوقت الّذي تبدأ منه الثورة العبّاسية ونذكر منهم علي سبيل المثال أبو موسى مسلم بن سلم، وصالح بن الهيثم، وصالح بن مجالد، ومهلهل بن صفوان الّذي حمل وصيّة إبراهيم الإمام إلى أبي العبّاس، فقد كان اجتماع الموالي حول بني العبّاس بمثابة رد فعل على واقعهم في العهد الأموي[4].

وقد عاش بعض الموالي داخل القصور العبّاسية، وعاشروا أبناء الخلفاء والأمراء العبّاسيين، وتمكّن المثقّفون منهم من أن يحرزوا مكانة عالية، وتسلّموا الوزارة وإدارة الدواوين وتغلغلوا داخل الجيش، ورغم مشاركتهم الفعّالة في الثّورة والحكم بقيت كلمة مولى تستخدم

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج8، ص175-176. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج4، ص137.

[2]- إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي، ص214.

[3]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص22-23.

[4]- مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تح عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة، بيروت، (د ت)، ص410.

للدلالة على الأشخاص أو الجماعات أو الجند علما أنّ هذا المصطلح بات التحلي به يعني القرب من الخليفة والمركز المرموق وكان في بغداد درب يعرف باسم درب الموالي[1].

ثالثا – الأتراك:

كان الاحتكاك بين العرب المسلمين والترك حين توغلوا في بلاد ما وراء النّهر في العهد الأموي حيث اشتعلت الحروب بينهم ولم يحقّقوا الانتصار الحاسم عليهم إلّا في أواخر العصر الأموي وقبل أقل من ربع قرن من مجيء العبّاسيين سنة 132هـ/749م[2].

وقد تميّز العصر العبّاسي الثاني باعتماد الدولة على الجند «الترك» وعناصر أخرى في الجيش الّذين تدرّجوا في المراتب العسكرية وازداد نفوذهم وسيطروا على مقاليد الحكم والسياسة، وإنّه لم يكن ظهور الترك فجائيا فقد عرفهم العرب منذ أيام الفتوح الأولى وعرفوا أنّهم إمّا مستقرّين في الحضر أو بدو متنقّلين يهاجمون المدن في حدود خراسان الشرقية[3].

ولم يكن اصطلاح «ترك» اصطلاحا عنصريا في تلك الفترة المبكّرة بل هو اصطلاح سياسي ولغوي ومن هنا فقد شمل مناطق اتّصلت بالترك وتكلمت التركية رغم أنّ سكانها ليسوا أتراكا حيث يذكر المؤرّخون أنّ اصطلاح الترك يشمل سكان الأقاليم الشرقيّة الّذين استخدمتهم الخلافة العبّاسية في عهد الخليفة المعتصم(218-227هـ/833-841م)، وهؤلاء ليسوا أتراكا فحسب بل غرباء وأجانب عن المجتمع العراقي في العهد العبّاسي، ولذلك كانوا يطلقون عليهم تسمية علوج وعجم[4].

وكان الخليفة المأمون أوّل من اتّخذ من الخلفاء الأتراك للخدمة، حيث كان يشتري الغلام من الأتراك بمائة ألف ومائتي ألف، وقد بدأ ظهور الأتراك في الأحداث منذ أن ولّي المعتصم الخلافة، فلم يعتمد على العرب بسبب عصبيتهم واعتزازهم بدورهم في الإسلام، ولضعف ثقته بهم، كما أنّه تجنّب العنصر الفارسي لطموحه ومحاولته تحقيق مصلحته

---

[1]– فاروق عمر، الخلافة العباسية، ج1، ص 42.

[2]– عماد الدين الأصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، تح لجنة إحياء التراث، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1400هـ/1980م ، ص8-10؛ فاروق عمر فوزي، الجيش والسياسة في العصر الأموي ومطلع العصر العباسي 41هـ- 334هـ/661-956م، دار مجدلاوي، الأردن، 1425هـ/2005م، ص139.

[3]– البلاذري، فتوح البلدان، تح عبد القادر محمد علي،دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ص583. اليعقوبي، البلدان، وضع حواشيه محمد أمين الضنّاوي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت،(د ت)، ص56.

[4]– ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص23-24.ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص56- 65.

القوميّة بالإضافة إلى كرهه لهم، فالبرامكة وبنو سهل وغيرهم من الّذين قادوا الحركات ذات الأهداف المختلفة في العصر العبّاسي الأول، كل هؤلاء كانت لهم مطامع يريدون تحقيقها على حساب الخلافة العبّاسية[1].

فحاولوا جعل الخلافة للعبّاس بن المأمون دون المعتصم لتحقيق مطامع قومية على حساب الخلافة العبّاسية، وكانوا يتنافسون مع العرب منذ حدوث الخلاف بين الأمين والمأمون، ولهذه الأسباب اختار العنصر التركي الّذي وجد فيه ضالّته، فأمّه ماردة منهم بالإضافة لما يتّصف به هذا العنصر من القوة والشجاعة ثمّ إنّه لا يحمل الأهواء السياسية الّتي للعرب ولا المصالح الخاصة والمجد القديم الّذي للفرس[2].

ومن عوامل اختيار المعتصم للأتراك دون غيرهم من العناصر صفاتهم الجسمانيّة والنّفسية، فقد كان الأتراك لا يزالون على بداوتهم، ولم يتأثّروا بحضارة غيرهم من الأقوام ولم يكن هم هؤلاء الأتراك غير الغزو والصيد وركوب الخيل وطلب الغنائم وقد أفاض الجاحظ[3] في وصف صفات الأتراك، وبراعتهم في الصيد، وصبرهم على تحمّل مشاق السفر، كما وصفهم النويري[4] بالوفاء والطاعة والشجاعة.

وبدأ اهتمام المعتصم بالأتراك حين كان ولي عهد أخيه المأمون، فقد خرج إلى مصر في جيش كبير يضم أربعة آلاف من الجند الأتراك لإخماد ثورة أهل الحوف من القيسيّة واليمانية، وقد أدخل المعتصم الأتراك بصورة خاصة ضمن جيشه كمحترفين، كما اتّخذ منهم حرسه الخاص وبالتّالي فإنّه شعر بأنّه أصبح يملك جيشا بعيدا عن الصراعات الحزبية والقبلية ومرتبطا بالخليفة مباشرة، وشعر بأنّه ضمن خضوع هذا الجيش تماما لسلطته[5].

1- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1997م، ج1، ص 118.أمينة بيطار، تاريخ العصر العبّاسي، منشورات جامعة دمشق، 1417هـ/1997م، ص223.

2- يوسف العش، تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص120.

3- الجاحظ، الرسائل، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384هـ/1964م،ج1، ص38-40.

4- نهاية الأرب في فنون الأدب، تح عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ج1، ص283.

5- ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص208. أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص225.

كما استخدم المعتصم هؤلاء الأتراك في جيشه من بلاد ما وراء النّهر وخاصة فرغانة[1] وأشروسنه[2]، حيث كانت القبائل التركية المعروفة بالهياطلة وكانوا على علاقة عداء مع الفرس المجاورين لهم قبل الإسلام، وقد تميّز هؤلاء الأتراك وهم بدو العجم بالصفات الأصيلة للبدو كحب الحرب والفروسية والتعلق بالنظام القبلي[3].

ولم يكن ظهور الأتراك بالخلافة الإسلامية جديدا في عهد المعتصم بل وجدوا في عهد من سبقه في بيوت سادات العرب على شكل خدم، وقد انخرط بعضهم في الجيش العبّاسي منذ قيام الدعوة العبّاسية، ثمّ تزايد عددهم سواء بالشراء أو بالأسر في الحروب الّتي نشبت بين العرب والترك على الحدود الشرقية وكان بعضهم يرسل كهدايا إلى الخلفاء من قبل ولاتهم في بلاد ما وراء النّهر أو كجزء من خراج خراسان، فمثلا كان عبد الله بن طاهر يرسل سنويا إلى الخلافة ألفي غلام تركي كجزء من خراج خراسان،وهكذا توارد الأتراك إلى بغداد وقارب عددهم سبعين ألفا[4].

وقد خصّهم المعتصم بالنفوذ ورفع من شأنهم حيث قلّدهم قيادة الجيش وجعل لهم مركزا في مجال السياسة والحرب، وفتح أمامهم باب التطوع كمرتزقة، وحرم العرب ممّا كان لهم من قيادة الجيوش كما أسقط أسماءهم من الدواوين وأدر عليهم الأرزاق والهبات وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء[5].

---

[1]– فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك ، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخا، وهي مدينة كثيرة الخير واسعة الرستاق، ومن ولايتها خجندة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص253.

[2]– أشروسنه: بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند، وبينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخا، ومن مدنها بنجيكت وساباط وزامين وديزك وخرقانة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص197.

[3]– أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص225.

[4]– فاروق عمر فوزي ، طبيعة الدعوة العبّاسية ، دار الإرشاد، بيروت، 1970، ص19.

[5]– آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، ج1، ص66.

كما اتّخذ المعتصم من الأتراك حرسا له، واتّخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداف الإسلام سببا للاعتماد عليهم، فولّاهم حراسة قصره، وأسند إليهم أعلى المناصب، وقلّدهم الولايات الكبيرة[1].

وكان معظم الأتراك عند قدومهم إلى بغداد يدينون بالمجوسية أو الوثنية على ما كانوا عليه في بلادهم، ومنهم من اعتنق الإسلام وأقبلوا عليه، تقربا من الخليفة وحاشيته وللوصول إلى أسمى المناصب، وكان المعتصم ينظّم هؤلاء الأتراك فرقا عليهم القواد منهم مثل نظام الجند في ذلك العصر، ولم يكتف المعتصم بجمع المماليك الأتراك بالشراء والمهاداة ولكنّه رغّب أمراء الأتراك وأولاد ملوكهم في القدوم إليه، والإقامة في بغداد، وممّن جاء منهم على هذه الطريقة جف بن بلتكين من أولاد ملوك فرغانة، وكانوا قد وصفوه للمعتصم بالشجاعة والإقدام، فوجّه المعتصم إليه من استقدمه إلى بغداد، كما جلب غيره من أبناء الأمراء حيث أصبحوا موضع تكريم وحفاوة المعتصم[2].

وقد أصبح للعناصر التركية مجالا فسيحا في البيوت الإسلامية، فقوة أبدانهم وجمال طلعتهم، وشجاعتهم وأمانتهم، كل هذه الصفات أكسبتهم ثقة كبار الأمراء من العرب، وخاصة الخلفاء العبّاسيين الّذين اشتروهم بالمال، يكونون أكثر طمأنينة على أنفسهم من اعتمادهم على أبناء جلدتهم من العرب، شغلتهم العصبية، أو على الفرس الّذين تفاقم نفوذهم حتّى عدّه الخلفاء العبّاسيون مهددا لكيان دولتهم وسلامتها، وكان لهم إلى ذلك الوقت نصيب كبير في إدارة شؤون الدولة[3].

وأصبح الأتراك في بغداد مصدر إثارة القلق والاضطراب، وقد عانى أهلها منهم الكثير وقد تحدث المسعودي[4] عن هذا الوضع حيث قال: «كانت الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام، يجرها الخيول في الأسواق، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربّما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير».

---

[1]- رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتّى نهاية العصر العباسي الأول 132-232هـ، نشر جامعة بغداد، بغداد، 1982، ص134-135.

[2]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج6، ص45.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص56.

[3]- علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1972، ص409.

[4]- مروج الذهب، ج4، ص47.

وقد رأت عامة بغداد أن يعتمدوا على أنفسهم في مواجهة استهتار الأتراك بأرواح أهالي بغداد وشوارعها، فكان هؤلاء الأتراك لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلا في ضواحيها، وتأذى من ذلك أهالي بغداد واضطروا إلى رفع شكاياتهم إلى الخليفة معلنين تأذي النّاس من جنده، وطلبوا منه الخروج بهم خارج بغداد وإلّا فإنّهم سيعلنون الحرب عليه، وحين سألهم المعتصم عن كيفية حربه؟ أجابوه (نحاربك بسهام السحر، فقال لهم: وما سهام السحر ؟ قالوا ندعو عليك، فقال المعتصم لا طاقة لي بذلك)[1].

وأمام خوف المعتصم على جنده وشكاوي العامة، قرر الانتقال بهم إلى القاطول موقع مدينة سامراء، على بعد يزيد عن مائة كيلومتر عن بغداد العاصمة إلى الشمال، وبنى مدينة جديدة سمّاها سامراء سنة 221هـ، وقد أحضر لها الصنّاع وأهل المهن من سائر الأمصار[2].

وعلى الرغم من أنّ المعتصم قد خصّص معسكرات لجنده الأتراك بعيدة عن الأسواق إلّا أنّ شغبهم لم ينقطع فكانوا كلما وقعت البلاد في ضائقة مالية وتأخر دفع مرتباتهم شغبوا ونهبوا وقتلوا، ثمّ طالب كبار القادة الأتراك بولايات كاملة كإقطاعيات[3] يتصرفون بأموالها كيف شاءوا، ومن الأمثلة على ذلك ولاية بكباك التركي على مصر وإرساله نائبا عنه مع بقائه في العاصمة، وأمّا صغار القادة فقد أعطوا اقطاعات من أراضي الخراج كي يجبوا ضريبتها لصالحهم أو أعطوا جباية ضرائب إحدى المناطق عوضا عن الأجور النّقدية[4].

تزايد عدد الأتراك الّذين اصطفاهم المعتصم، وأخذوا ينغلغلون تدريجيا في وظائف الدولة ولكنّهم لم يحسنوا للخلفاء الّذين اعتمدوا عليهم، حتّى أنّ المعتصم نفسه الّذي استكثر منهم عبّر في أواخر أيّامه عن استيائه من الاعتماد عليهم، إذ غرّهم ما شعروا به من أنّهم

1- المسعودي، مروج الذهب،ج4،ص133. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص174.

2- اليعقوبي، البلدان، ص24-31.

3- تصنّف الاقطاعات نظريا إلى صنفين: إقطاع تمليك والذي بموجبه تكون لصاحبه ملكية تامة وكان على صاحب هذا الاقطاع دفع العشر، وإقطاع إستغلال: وقد تطور نتيجة لإعطاء الأرض بالإيجار أو بالضمان أو بالمزارعة، وكان يعطى غالبا من الصوافي مقابل نسبة من الحاصل أو دفع مبلغ نقدي محدود.الماوردي، الأحكام السلطانية، ص248-258. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بيروت،1986، ص47.

4- عبد العزيز الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، ع20، بغداد، 1970، ص 18-19. أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص226.

يشكلون قوة الخلافة الرئيسية، كما لم يعمل هؤلاء الأتراك على اكتساب محبة الأهالي حيث استهانوا بحقوق النّاس في الولايات الإسلامية، كما أساؤوا إلى العرب، فقد قام المبرقع اليماني برفع راية العصيان على خلافة المعتصم بعد أن بلغه أنّ أحد الجنود الأتراك حاول دخول منزله[1].

وقد كان كره الأتراك عاما بين طبقات المجتمع كافة، إلى درجة وضع الأحاديث المكذوبة في ذم الترك يعبّرون فيها عن استيائهم واستياء العامة منهم، فرووا أنّ النّبي صلّى الله عليه وسلم قال: «الترك أول من يسلب أمتي ما خولوا»، وعن ابن عباس أنّه قال: «ليكوننّ الملك في ولدي حتّى يغلب على عزلهم الحمر الوجوه، الّذين كأنّ وجوهم المجان المطرقة»، وعن أبي هريرة أنّه قال: «لا تقوم الساعة حتّى يجيء قوم عراض الوجوه صغار الأعين، فطس الأنوف حتّى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة»[2].

وظهر منهم قادة كبار مثل الأفشين[3] ووصيف[4] وإيتاخ[5]، وكان عهد الواثق الفرصة الّتي حانت أمام الأتراك لكي يتغلغلوا في شؤون الدولة لدرجة أنّ القسم الأكبر منها مع نهاية عهد هذا الخليفة كان في قبضتهم[6].

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص 116-117.ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج3، ص337.

[2]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج6، ص20-23. أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص227.

[3]- الأفشين: من أشهر قواد المعتصم بالله وهو الّذي تولى حرب بابك الخرمي في أذربيجان سنة 220هـ وشارك في فتح عمورية إلّا أنّ المعتصم بالله قد غضب عليه وحبسه عام 225هـ، وظل في حبسه حتّى توفي في شعبان من سنة 226هـ . الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص52-57. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج15، ص32.

[4]- وصيف: هو وصيف التركي القائد من كبار الأمراء، استولى على المعتز وأحجر عليه، واصطفى لنفسه الأموال والذخائر، مات مقتولا في سنة 253هـ.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص354. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج19، ص 365-366.

[5]- إيتاخ: كان غلاما خرزيا ويعمل طباخا لشخص يدعى سلام الأبرش ثمّ اشتراه منه المعتصم بالله سنة 199هـ ، امتاز بالشجاعة والإقدام فرفعه المعتصم والواثق وكذلك المتوكل وضم إليه أعمالا كثيرة، وكان المعتصم إذا أراد قتل أحد فعند إيتاخ يقتل وبيده، توفي إيتاخ من شدة العطش في السجن سنة 235هـ. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص168. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص101-103. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج17، ص106.

[6]- حامد غنيم سعيد، الدولة العبّاسية ومراكز القوى في عهد المقتدر بالله 295-320هـ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية،ع3، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1979، ص104. فرغالية فريد، الأزمات الاقتصادية في العراق وأثرها السياسي والاجتماعي 247-334هـ/861-945م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 1430هـ/2009م، ص35.

وبعد وفاة الخليفة الواثق سنة 232هـ بدأ تدخل الأتراك في شؤون الدولة، حيث اجتمع الوزير وقادة الجيش وكبار الكتّاب وعيّنوا جعفر المتوكل (232-247هـ/846-861م) خليفة للمسلمين[1].

وكان هذا يمثل بداية فترة جديدة للخلافة العباسية حيث غرقت في دوامة من الفوضى والاضطرابات، ومع مرور الزمن أدرك قادة الجيش أنّهم ارتكبوا خطأ فادحا في اختيارهم لجعفر المتوكل الّذي شرع في القضاء عليهم والحد من نفوذهم[2].

ولكن الأتراك وبتواطؤ من المنتصر بن المتوكل ولي العهد تمكنوا من تصفية الخليفة سنة 247هـ، فكان قتله إعلانا على زوال حرمة الخلافة[3].

وبعد مقتل المتوكل وتولي المنتصر (247-248هـ/861-862م) الخلافة ألحّ عليه قتلة والده بعزل أخويه المعتز والمؤيّد بحجة صغر سنهما فخلعا، ولكن المنتصر لم يستمر طويلا في الخلافة، حيث توفي بعد ستة أشهر، وقد قيل أنّ طبيبه الطيفوري سمّه بإيعاز من الأتراك، لخوفهم منه إذ «كان يكثر إذا سكر ذكر قتل أبيه المتوكل ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء ويذكر من ذلك ما تخوّفوه»[4].

استمر الأتراك في التدخل في شؤون الخلافة وتنصيب الخلفاء فبعد وفاة المنتصر شرع هؤلاء في تعيين خليفة له، وقد كرهوا أن يتولى الخلافة أحد من أولاد المتوكل لقتلهم أباهم، واستقرّ أمرهم على تنصيب أحمد بن محمد المعتصم ولقّبوه بالمستعين (248-252هـ/862-866م)، وقد وصف لنا الطبري[5] هذه الحادثة حيث ذكر أن الموالي اجتمعوا ومعهم بغا الصغير وبغا الكبير وأوتامش، فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة على أن يرضوا بمن يرضى به بغا الصغير وبغا الكبير وأوتامش، ولكن وقع خلاف بينهم حول من يولّونه.

وبعد تولي المستعين الخلافة، أطلق يد القائد أوتامش وشاهك الخادم ووالدته في الأموال، حيث كانت الأموال الّتي ترد على السلطان إنّما يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة، ولكن السلطة الحقيقية كانت بيد أوتامش، وهنا حدث الخلاف بين زعماء الأتراك على النفوذ

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص154-155.

[2]- عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007 ، ص48 .

[3]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص223-224. عبد العزيز الدوري، دراسات، ص47.

[4]- المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص105- 109.

[5]- تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص 256.

والسلطة حيث قام القائدين وصيف وبغا بتدبير مؤامرة لقتله، فدبّرا له مؤامرة لقتله ونجحا في ذلك حيث قتلوه في ربيع الآخر سنة 249هـ[1].

وبعد القضاء على القائد أوتامش أصبح وصيف وبغا أهم شخصيتين في البلاط العبّاسي، وهذا ما لم ترض به جماعة من الأتراك بتزعمها باغر أحد قتلة المتوكل، فعملوا على قتل المستعين ووصيف وبغا، إلّا أنّ كتلة هذين الأخيرين كانت أقوى حيث تمكنوا من التخلص من باغر سنة 251هـ[2].

وقد سبب قتل باغر ثورة الجند الأتراك وعصيانهم فاضطر المستعين إلى الهرب نحو بغداد سنة 251هـ، ولكن الأتراك أدركوا أنّهم قد ارتكبوا خطأ في ذلك، وأنّ انحدار المستعين إلى بغداد يفقدهم شرعيتهم ونفوذهم، فأرسلوا جماعة منهم، ومعهم بردة النبي صلى الله عليه وسلم والقضيب وبعض الخزائن، واعتذروا من الخليفة وطلبوا منه الرجوع والعودة إلى ملكه، ولكن المستعين رفض الرجوع فأجمع الأتراك على إخراج المعتز، ومبايعته بالخلافة، وهنا وقعت الفتنة بين أهل بغداد وبين جند السلطان الّذين كانوا بسامراء انتهت بخلع المستعين وقتله[3].

وقد حاول الخليفة المعتز (252-255هـ/866-868م) مواجهة النفوذ التركي بدعمه فرق الفرغانيين والمغاربة، لكنّ محاولته فشلت بسبب أزمة الخزينة ومطالبة الجند بأرزاقهم حيث ثاروا عليه سنة 255هـ، فأرسل إلى أمه يطلب منها مالا فأنكرت أن يكون عندها شيء من المال، وأمام هذا الوضع اتّحدت فرق الجيش المختلفة من الأتراك والمغاربة والفراغنة، وجمعت بينهم مشكلة الأرزاق فثاروا على المعتز وعزلوه عن الخلافة ثمّ قتلوه وبايعوا محمد المهدي[4].

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص256-258. ابن الطقطقى، الفخري، ص241. فرغالية فريد، الأزمات الاقتصادية، ص37.

[2]- فرغالية فريد، الأزمات الاقتصادية، ص37-38.

[3]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص378-382. وقد رويّ أنّه لمّا تولى المعتز الخلافة «قعد خواصه وأحضروا المنجّمين وقالوا لهم: أنظروا كم يعيش؟ وكم يبقى في الخلافة؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا له: فكم تقول أنّه يعيش وكم يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك فلم يبق بالمجلس إلّا من ضحك». ابن الطقطقى، الفخري، ص178.

[4]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص290-292.

وفي عهد الخليفة المهتدي (255-256 هـ/869-870م) أدرك أنّ ضعف مؤسسة الخلافة راجع إلى وجود مجموعة من القادة الطموحين العسكريين، وأنّ السبيل لانقاذ الخلافة هو الحد من نفوذهم السياسي، ومن أجل ذلك عمل على الإيقاع بهم وزرع الفتنة بينهم وحاول التخلص من موسى بن بغا عن طريق استمالة بكباك التركي أحد قواد الجيش، ولكن بكباك لم يثق بالمهتدي، واتفق مع موسى بن بغا على عزله وقتله، وبهذا فشل المهتدي حيث سرعان ما اجتمعت كلمتهم وتمكنوا من قتله سنة 256هـ[1].

ولكن بمجئ المعتمد (256- 279هـ/869-892م) ضعفت القيادة العسكرية التركية بسبب عدة أسباب أهمها: طغيان شخصية القائد التركي موسى بن بغا على سائر القادة العسكريين فخفف ذلك من حدة الصراع بين فرق الجيش المختلفة بالإضافة إلى مختلف الاضطرابات والثورات الّتي قامت في أرجاء الخلافة العبّاسية الّتي شغلت الجند والحكم من المطامع السياسية[2].

وبالرغم من أنّ دخول البويهيين بغداد سنة 334هـ، قد حدّ بعض الوقت من سيطرة الجند الأتراك، إلّا أنّ معز الدولة البويهي، قد استكثر من الموالي الأتراك «ليجدع بهم أنف قومه من الديلم» حيث زاد في إقطاعاتهم وفرض لهم الأرزاق، وكان من نتائج هذه السياسة أن أخذت قوة الديلم في الضعف بينما قويت شوكة الأتراك وعلت مكانتهم[3].

فعظم حقد الديلم عليهم وآل الأمر إلى إحداث الفتن والاضطرابات، كما اشتدّ طمع الأتراك في المال حيث شاركوا العيّارين[4] جرائم سرقاتهم وشغبهم، وعلى الرغم من أنّ

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص456-469. السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم للنشر، بيروت، 1464هـ/2003م، ص562- 563.

[2]- فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، ج1، ص29. فرغالية فريد، الأزمات الاقتصادية، ص37-38.

[3]- مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م، ج5، ص 276- 280. ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص168-170. ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج3، ص520- 522. حوريه عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص24-25.

[4]- العيّارين: يعرف العيّار في اللّغة بأنّه الرجل كثير الحركة، وكثير المجيء والذّهاب. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص98، وأمّا في الاصطلاح فقد أطلقت عليهم تسميات متعددة حيث عرفوا بالرعاع والأوباش والطّرّادين واللصوص والسفلة والأنذال، وقد ازدادت أعدادهم نتيجة ضعف الدولة حتّى أصبحت ظاهرة فرضت نفسها على المجتمع العراقي وعرفت لأصحابها صفات مميّزة بأقوالهم وأفعالهم واستمرت هذه الفئة تؤكّد وجودها في فترات الاضطراب السياسي والتدهور الاجتماعي والاقتصادي، وكان العيّارون يضمّون في صفوفهم أجناسا وطوائف مختلفة فمنهم العرب والأكراد والفرس والترك. الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج10،ص430-432.ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، تح طه عبد الرؤوف سعد، الكليات الأزهرية، القاهرة، (د ت)، ص120. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص184-186.

الأتراك كانوا من أشدّ النّاس إخلاصا لأهل السنة، فإن الخلفاء العبّاسيين لم يسلموا من شغبهم فبعد وفاة القادر بالله سنة 422هـ ومبايعة ابنه القائم بأمر الله (422-467هـ/1030-1074م) طالبوه برسم البيعة، وثاروا عليه ولم تهدأ ثائرتهم إلّا بعد أن باع بعض من ممتلكات دار الخلافة وصالحهم على أن يدفع لهم ثلاثة آلاف دينار[1].

وكذلك أخذ الأتراك يتدخلون في تولية أمراء بني بويه ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء، وكانوا أيضا يشعلون الثورات ضدهم مثلما حدث مع جلال الدولة البويهي[2] (416-436هـ/1025-1044م) سنة 419هـ حيث يذكر ابن الأثير[3] أن الأتراك ثاروا على جلال الدولة ببغداد ونهبوا داره ودور أنصاره فنهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة لتضرب دنانير ودراهم وتفرق فيهم، وقد حاصروا جلال الدولة في داره ومنعوه الطعام والماء حتّى شرب أهله ماء البئر وأكلوا ثمرة البستان، فأرسل إلى الخليفة ليصلح الأمر مع أولئك القواد فأرسل إليهم الخليفة القادر بالله فأصلح بينهم وبين جلال الدولة، فلم يمض غير أيّام حتّى عادوا إلى الشغب فباع جلال الدولة فرشه وثيابه وخيّمه وفرق ثمنه فيهم.

لقد كان قواد الأتراك لمكانتهم بين الجند عنصرا مناوئا للأمراء والوزراء من بني بويه ففي سنة 446هـ ثاروا على وزير الملك الرحيم (440- 447هـ/1048-1055م) وحاصروا دار الخلافــة مطالبين بأرزاقــهم فكانوا دائما عامــلا أساسيا من عوامل التّخريب والفوضى في المجتمع العراقي[4].

---

[1]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص199.ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1406هـ/1986م، ج5، ص 110.

[2]- جلال الدولة البويهي: هو أبو طاهر بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه الديلمي، صاحب بغداد وغيرها من البلاد، ولي بغداد سنة 416هـ، كان فيه محبة عظيمة للعباد يزورهم ويلتمس الدعاء منهم، وقد نكب عدة مرات، كما خالفه الأتراك عدة مرات حيث أخرجوه من داره ومن بغداد، ثمّ يعود إليهم ويرضون عنه حتّى اعتراه وجع في كبده سنة 435هـ، فمات من ذلك من نفس السنة، وله من العمر إحدى وخمسون سنة. ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص697.

[3]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8،ص165-166.

[4]- حوريه عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص 26-27.

رابعا- الديلم:

الديالمة هم من الشعوب الّتي سكنت في الجنوب الشرقي لبحر قزوين، وجاء بعضهم إلى العراق قبل مجيء بني بويه سنة 334هـ[1]، وقد لعبوا بالعراق دورا مهما في الأحداث السياسية نتيجة صراعهم مع الأتراك الّذين كانوا يجتمعون معهم على طبائع متشابهة من الخشونة[2].

ووصف لنا المقدسي[3] الديلم بقوله: «بأن ليس لهم لباقة ولا علم ولا ديانة ولهم هيبة ورسوم عجيبة»، وابن حوقل[4] يقول عنهم: «بأن ليس عندهم من الدواب ما يستقلّون بها، والغالب على خلقهم النّحافة وخفة الشّعر والعجلة والطيش وقلة المبالاة».

ومن عاداتهم الّتي فاجأت المقدسي[5] أنّهم كانوا «لا يزوّجون إلى غيرهم»، وقد ذكر أنّه شاهد «صبية تعدو ورجلا شاهرا سيفه يعدو خلفها يريد قتلها، فقلت ما فعلت حتّى استوجبت القتل، فقال له إنّها زوجت من غيرنا وقتل من فعل ذلك واجب عندنا».

وكان من عاداتهم أيضا أن يلهو الرجال والنّساء سوية بعد العمل، وإذا ما أحبّ رجل امرأة فالزواج بينهما يتم بالاتفاق المباشر بينهما ومن ثمّ يبارك أهاليهما هذا الزواج، وكانت المرأة تعمل في الزراعة مثل الرجال، ويؤكد أبو شجاع[6] بأن نساء أكابر الديلم «كنّ يجرين مجرى الرجال في قوة الحزم وأصالة الرأي والمشاركة في التدبير»، ومن أغرب عادات الديلم النواح والندب واللطم الشديد على أمواتهم، بل أيضا على أقربائهم المرضى[7].

---

[1]- ترجع العلاقة التاريخية للديلم بالعراق إلى بداية الفتح العربي الإسلامي بانتصار المسلمين في معركة القادسية حيث كان عددهم أربعة آلاف أسلموا واستأمنوا العرب بعد مقتل رستم قائد الفرس، وقد انضموا إلى صفوف المسلمين وسموا أنفسهم بحمراء الديلم أو ديالمة الكوفة، وخلال العصور الإسلامية المتعاقبة لم يذكر للديلم دورا مميّزا لأنّهم كانوا يعدّون من جملة الموالي. البلاذري، فتوح البلدان، ص358-380.

[2]- التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح عبود الشالجي، دار صادر، بيروت،1391هـ/1971م، ج1، ص323-325.

[3]- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1327هـ/1909م، ص 368.

[4]- صورة الأرض، ص320.

[5]- أحسن التقاسيم،ص368.

[6]- ذيل كتاب تجارب الأمم، عناية آمدروز، مطبعة التمدن، القاهرة، 1916م، ص116-117.

[7]- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص368-371.

وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبليّة الديلم على الوقوف بوجه كل الغزوات الخارجية، لذلك لم يسهل الفتح العربي بسهولة، بل شكّلوا حتّى القرن الثالث الهجري بؤرة مقاومة مستمرة، وكان أول صدام فعلي بين العرب والديلم سنة 22هـ، فبعد فتح نهاوند والدينور تابع نعيم بن مقرن بأمر من الخليفة عمر تقدمه للاستيلاء على همذان والري وأذربيجان، وبعدما استولى على همذان اتّفق الديلم وأهل الري وأذربيجان على مقاتلته، وكان على رأس الديلم أميرهم مؤتا، لكن نعيم أنزل بهم هزيمة كاسحة في بواج روز بين الري وهمذان[1]، وظلّ الحال على ما هو عليه حتّى دخل الديلم في الإسلام على يد الأطروش العلوي أواخر القرن الثالث الهجري[2].

وكان أول من التجأ إلى الديلم من العلويين هربا من اضطهاد العبّاسيين يحي بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب،وكان زيدي المذهب، سار إلى الديلم سنة 175هـ فاشتدت شوكته وقوي أمره ونزع إليه النّاس من الأمصار ممّا أخاف الرشيد فسيّر إليه سنة 176هـ الفضل بن يحي بن خالد البرمكي في جيش مؤلف من 50 ألف مقاتل وعلى رأسه كبار القوّاد، ثمّ نجح الفضل في مكاتبة يحي ودعوته إلى الصلح وكذلك كاتب صاحب الديلم طالبا منه بالترغيب أو الترهيب أن يسهل له خروج يحي مانحا إيّاه مليون درهم،وقد وافق يحي على الصلح مقابل عهد أمان من الرشيد فكان له ما أراد وعاد إلى بغداد وأكرمه الرشيد واحتفى به، ثمّ اعتقله وتقول شيعته أنّه مات مسموما[3].

وتوالت ثورات الزيدية بعد ذلك في العراق بعد وفاة يحي،فخرج محمد بن إبراهيم بن طباطبا في الكوفة واستولى عليها وهزم جيش الخليفة سنة 199هـ لكنّه توفي فجأة في نفس العام، فعقد بعده لمحمد بن محمد بن زيد وكان غلاما صغيرا، وقد دارت معارك عديدة بين العلويين والعبّاسيين انتهت بانتصار العبّاسيين وأسر محمد بن محمد بن زيد فعفا عنه المأمون وتوفي سنة 202هـ، وكان لا يتجاوز العشرين من عمره، ثمّ ظهر محمد بن القاسم الصوفي في الكوفة وجهر بالدعوة سنة 219هـ وجمع أنصارا كثيرين واتّجه بهم إلى خراسان لكن عبد الله بن طاهر عامل المعتصم في خراسان استطاع بعد معارك كثيرة كان النّصر

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص146-155.

[2]- المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص298-300.

[3]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص242- 251 .

فيها في بداية الأمر لمحمد بن القاسم من القبض عليه وأرسله إلى سامراء فسجنه المعتصم ثمّ قتله بالسّم[1]، وفي عام 250هـ ثار يحي بن عمر في الكوفة واستولى عليها فطلب المستعين بالله من أمير بغداد محمد بن طاهر إخماد الحركة الّتي انتهت بقتل يحي بن عمر وتفرّق أصحابه[2].

وعندما انتقلت السّلطة إلى البويهيين صار الديالمة يكونون الجزء الرئيس من الجيش، فمنحوا كثيرا من الاقطاعات، وسرعان ما بدأت المنافسة بينهم وبين الأتراك ووقع بنو بويه فيما وقع فيه العبّاسيون من قبل فأصبح الديالمة خطرا يهدد كيان الدولة بسبب قيام المنافسة بينهم وبين الأتراك[3].

وقد فطن معز الدولة البويهي قبل وفاته سنة 356هـ إلى هذا الخطر فأوصى ابنه بختيار بالديلم بأن يدفع لهم مرتباتهم في أوقاتها كي لا يثوروا عليه، فلمّا تولّى بختيار طالبه الديلم برفع مرتباتهم فاضطرّ الوزير أبو الفضل بن العميد إلى مصادرة أموال الحاشية، كما طالب برفع مقدار الخراج ليتمكّن من دفع استحقاقاتهم[4].

وقد نفى بختيار بعض الديلم خارج بغداد، فكان هذا سببا في اضطراب العلاقات بينه وبين الديلم، وما ترتب عليه من وقوع الفتنة بين الأتراك والديلم في الأهواز[5] ونهب الديلم لبيوت رؤساء الأتراك وقوّادهم، وقد انضم السنّيون من أهل العراق إلى الأتراك وقاموا بنهب دور الديلم، وكان الديلم أكثر عددا من الأتراك[6].

وكان أفراد بني بويه يلجأون أحيانا إلى إيثار الأتراك على الديلم كما حدث في عهد بهاء الدولة الّذي ظاهر الأتراك على الديلم على إثر قيام القتال بين الطرفين سنة 279هـ ممّا اضطر الديلم إلى طلب الصلح والأمان[7].

---

[1]– الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص7–8.

[2]– ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص156–158.

[3]– حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص20.

[4]– مسكويه، تجارب الأمم، ج5، ص351–356 .

[5]– الأهواز : مدينة بين البصرة وفارس، عرفت في عهد الفرس بخوزستان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 284–286.

[6]– ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج3، ص 530.

[7]– نفسه، ص533.

ولكن سرعان ما لجأ بهاء الدولة إلى استمالة زعيم الديلم إليه من أجل محاربة ابني بختيار اللذين انتقلت إليهما الزعامة في فارس[1]، مستغلين حنق الديلم عليه لاعتماده على الأتراك كرجال للدولة ومصدر لقوتها[2].

خامسا- أهل الذمة:

الذمّة في اللّغة معناها العهد والضمان والأمان، ويقال رجل ذمي معناه رجل له عهد[3]، **لقوله تعالى[4]: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾**، والذمّة هنا معناها العهد[5].

الذمّة شرعا: الذمي هو الّذي يعيش في حماية الإسلام وفي كنف المجتمع الإسلامي آمنا مطمئنا فهو في أمان المسلمين وضمانهم بناء على عقد الذمة، فالذّمي على هذا الأساس من أهل دار الإسلام كما يعبّر الفقهاء، أو من حاملي الجنسية الإسلامية كما يعبّر المعاصرون[6].

وعقد الذمة عقد مؤبّد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم وتمتّعهم بحماية الدولة الإسلامية ورعايتها شرط دفعهم الجزية، والتزامهم أحكام الدين الإسلامي، وبهذا يصبحون من أهل دار الإسلام، وهو عقد ينشئ حقوق متبادلة بين المسلمين وأهل ذمتهم[7].

أمّا من حيث الاصطلاح فأهل الذمة أطلق عليهم القرآن الكريم عبارة أهل الكتاب، وهي لا تعني أنّهم أصحاب علم بالكتاب وإنّما المراد بذلك أنّ لهم كتاب سماوي منزّل وهو التّوراة ويدخل في هذه التّسمية أيضا النّصارى، لوجود كتاب سماوي لديهم وهو الإنجيل[8].

---

[1]- ونشير هنا أنّ بهاء الدولة حاول التخلص من أبناء بختيار الّذين قتلوا صمصام الدولة والّذين استولوا على فارس، وقد نجح بهاء الدولة من أن يحدث الشقاق في صفوف أبناء بختيار وأن يوقع بهم الهزيمة ويستولي على فارس سنة 389هـ. ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج8، ص6-7.

[2]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص21.

[3]- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي للنشر، بيروت، 1419هـ/1999 ،ج12،ص221.

4- سورة التوبة، آية 10.

[5]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّنه من السنة وآي الفرقان، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1427هـ/2006، ج8،ص 79

[6]- أبو يوسف، كتاب الخراج، دار المعرفة للنشر، بيروت، 1399هـ/1979م، ص122.

[7]- ألكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية ،ص181.

[8]- عفيف عبد الفتاح طبارة، اليهود في القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، 2004، ص12.

وبهذا تتألف أهل الذمة من النّصارى واليهود والصابئة والمجوس، وقد عاشوا في ذمّة المسلمين بموجب عهود كانت ترعى مصالحهم مقابل جزية يؤدّونها عن رؤوسهم[1].

وإنّ الأصل القرآني في عقد الذمة مع أهل الكتاب الآية التالية: ﴿**قَاتِلُوا الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[2].

واستنادا إلى ذلك أعطى الإسلام لليهود والمسيحيين الحق في الوجود جنبا إلى جنب مع المسلمين في إطار جماعات خاصّة شرط تأديتهم الجزية للمسلمين بصورة إجبارية عن كل نفس، وهذه الحقوق الّتي تميّزوا بها جاءت بمقتضى ذمة الله، ومحمد صلّى الله عليه وسلم[3].

وقد تمتّع أهل الذمة في العراق بقسط كبير من الحريّة مقابل أداء الجزية والخراج، وارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين ما دامت القضية لا تمس المسلمين، أمّا الشريعة الإسلامية فلم تطبق عليهم لأنّها لم توضع لهم، وكان الجاثليق يتولى أمور النّصارى، بينما كان رأس الجالوت يدير شؤون اليهود، وكانا يحكمان هاتين الطائفتين وفقا للعادات الخاصة القديمة[4].

وأدى هذا التّسامح مع أهل الذمة إلى إقبالهم على تعلم اللغة العربية والتّحضر بالحضارة العربية، الّتي أصبحت لغتها في العصر العبّاسي لغة جميع النّصارى في حوض دجلة والفرات[5].

1- النّصارى: هم في الأصل أتباع عيسى بن مريم- عليه السلام- الّذي جاء بالإنجيل والّذي بعث بعد موسى عليه السلام[6]، وأشهر فرقهم ثلاثة وهي: الملكانية[7] الّذين يقولون

---

[1]- أبو يوسف، كتاب الخراج، ص122-124.

[2]- سورة التوبة، آية 29.

[3]- الشربيني، مغنى المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المناهج، تح محمّد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، 1418هـ/ 1997م، ج4، ص321.

[4]- موريس غودفرا ديمومبين، النظم الإسلامية ، ص166.

[5]- رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية ، ص166.

[6]- الشهرستاني، الملل والنحل، تح أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/1992م ،ج2،ص244.

[7]- الملكانيّة: أصحاب ملكا الّذي ظهر في الروم واستولى عليها، وقيل نسبة إلى ملك الروم قسطنطين الأول، وهو الّذي دعا إلى عقد أول مجمع مسكوني في العالم في نيقية عام 325م. الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، ص222.

أنّ الرب عبارة عن ثلاثة أشياء: الأب، الابن، وروح القدس، كلها لم تزل وأنّ عيسى عليه السلام إله تام وإنسان تام كله وليس أحدهما غير الآخر، وأنّ الإنسان منه هو الّذي صلب وقتل وأنّ الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وأنّ مريم ولدت الإله والإنسان وأنّهما معا شيء واحد، وهو مذهب معظم نصارى إفريقيا والشام وبلاد الروم[1]، وقد تحدث القرآن الكريم عنهم حيث قال تعالى[2]: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ**﴾.

واليعقوبية[3] وترى أنّ المسيح هو الرب وأنّ الرب والإنسان اتّحدا في طبيعة واحدة هي المسيح، وأنّ روح البارئ اختلطت ببدن عيسى عليه السلام اختلاط الماء باللبن، وقالوا بالأقانيم الثلاث إلّا أنّهم قالوا انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو المسيح، وقد تحدث عنهم القرآن الكريم قال تعالى[4]: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾، وقد اشتغل كثير منهم في ظل الدولة العبّاسية بنقل الفلسفة اليونانية وكتبها إلى السريانية[5].

والنّسطورية[6] وهم يقولون أنّ اتحاد الله بعيسى كان باقيا في حالة صلبة، ويزعمون أنّ المسيح يحمل طبيعة بشرية وطبيعة إلهية، وهم غالبا ما يكونون بحكم رأيهم في الموصل

---

[1]– البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تح إدوارد سخاو، دار صادر، بيروت، 1923، ص288. ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، 1996، ج1، ص111.

[2]– سورة المائدة، آية 73.

[3]– اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب البردعي، وهو راهب سوري عاش بين عامي (505–578م)، ويلقب بالزلزل لأنّه زلزل الإيمان الكاثوليكي في بلدان آسيا، واعتقاده أنّ جسد المسيح غير قابل للآلام وأنّ ما ذاقه من الآلام في الصلب كان خياليا لا حقيقة له بعكس نسطور القائل أنّ المسيح تألّم وصلب ومات وقبر. الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، ص253. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، تح محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ج1، ص62. سعود بن عبد العزيز الخلف، دراسات في الديانة اليهودية والنصرانية، دار أضواء السلف، 1997، ص163.

[4]– سورة المائدة، آية 72.

[5]– فخر الدين الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تعليق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب، بيروت، 1986، ص115. أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، مطبعة أسعد، بغداد، 1978، ص94.

[6]– النّسطورية : أصحاب نسطوريوس الّذي عاش بين (380–440م) والّذي نصّبه الامبراطور ثيئودوسيوس الثاني (408– 450م) بطريكا على القسطنطينية سنة 428م، اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة الإله فكفر وعزل من منصبه بعد مجمع أفسيس المسكوني سنة 431 م. الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، ص220. ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تح محمد أحمد الحاج، دار القلم،السعودية، 1416هـ/1996م، ص67. محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966، ص191–194.

والعراق وفارس وخراسان، ويقولون أنّ الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة الوجود والعلم والحياة، اتّحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام لا عن طريق الامتزاج كما قالت الملكانية ولا عن طريق الظهور كما قالت اليعقوبية ولكن كإشراق الشمس في كورة[1]، والأرمونسية الّذين يقولون أنّ الله تعالى دعا عيسى ابنا على سبيل التشريف، والفرفوريوسية وهم أتباع فوفوريوس الفيلسوف،وقد أخرج أكثر دين النّصارى على قواعد الفلسفة[2].

وقد سمح العباسيون لرعاياهم من المسيحيين ببناء عدد من الكنائس الجديدة مثل كنيسة أبي سرجة في الحصن الروماني بمصر، وفي عهد المهدي بنيت ببغداد كنيسة للمسيحيين الّذين أسروا خلال الحملات العسكرية، وسمح الرشيد ببناء كنيسة أخرى في البصرة[3]، وهو تسامح لم تنله أي أقلية دينية عبر التاريخ شهد بذلك الكثيرون[4].

وكان يعمل في خدمة المأمون عندما قدم إلى مصر سنة 217هـ فراشون من المسيحيين الملكانيين وقاموا بتجديد بناء كنيسة السيدة مريم على جبل المقطم والّتي اشتهرت باسم كنيسة الفرّاشين[5].

وكان اختيار كل بطريق يصحبه تقليد أو تولية من الخليفة يصير بمقتضاه معترفا به كرئيس رسمي على كل المسيحيين في الدولة العبّاسية، ولم يكن لليعاقبة دير في بغداد، وكان مقر مطرانهم في تكريت، وهي لا تبعد كثيرا عن العاصمة، وكان اليعاقبة متّهمين بالعطف على البيزنطيين[6].

1- البيروني، الآثار الباقية، ص288.

2- ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى، ص68. أحمد شلبي، مقارنة الأديان (المسيحية)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965، ص50.

3- أرنولد.سير. تومس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د ت)، ص85.

4- يقول أرنولد سير. تومس: أنّ المسيحيين كانوا يعيشون في المجتمعات الإسلامية آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بقدر كبير من التسامح، ومنحهم حرية التفكير الديني، وتمتعوا بحالة من الرفاهية والرخاء.الدعوة إلى الإسلام، ص81، ويؤكد ذلك ستيفن رنسيمان حيث يقول: أنّ المسيحيين لم يكونوا أشقياء في ظل الحكم العباسي. تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ/1997م، ج1، ص49.

5- محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د ت) ، ص43. ونشير هنا أنّ كثيرا من الذميين تحولوا إلى الإسلام في عهد المأمون.

6- جان موريس فييه، أحوال النّصارى في خلافة بني العبّاس، ترجمة حسني زينه، دار المشرق، بيروت،1990، ص50.

ففي عصر الخليفة أبي العباس السفاح أول الخلفاء العبّاسيين زاد ارتباط المسلمين بالمسيحيين حتّى شارك المسلمون في إقامة الجثالقة وانتخاب المطارنة، وقد وقف الخليفة أبو العبّاس إلى جانب المسيحيين حين أرادوا التدخل في اختيار الجاثليق، ومنح النّصارى الحرية التامّة في الانتخاب[1].

وفي عهد الخليفة العبّاسي الثاني المنصور ارتفع شأن طبيبه جورجيس بن بختيشوع حتّى أذن له بالدخول على حرمه وحظاياه[2]، وأدى ارتفاع شأن أهل الذمة إلى سخط جماعة من المسلمين فاجتمعوا إلى شبيب بن شيبة أحد خطباء البصرة المشهورين وسألوه مخاطبة المنصور «أن يدفع عنهم المظالم ولا يمكّن النّصارى من ظلمهم وعسفهم في ضياعهم»، كما عامل المهدي أهل الذمة معاملة طيّبة ممّا أدى إلى رفع شكواهم إليه عند الحاجة، فكتب إلى عماله: «لا تترك أحدا من الذمة يكتب لأحد من العمال»[3].

أمّا الخليفة الهادي(169-170هـ/785-786م) فقد كان يكرم الأساقفة ويجالسهم فكان يستدعي الأسقف تيموتاوس إليه ويحاوره في الدين كما سمح الهادي ببناء الكنائس والاحتفال بالأعياد، وتولى الذمّيون الوظائف العامة، وولّى إبراهيم بن ذكوان الحراني الصابئ ديوان الرسائل[4].

وفي عهد هارون الرشيد ارتفع شأن الطبيب جبرائيل بن بختيشوع حتّى قال الرشيد: «كل من كانت له حاجة إلي فليخاطب بها جبرائيل لأنّي أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني»، كما تولى أطبّاء الرشيد الإشراف على المارستانات ومنهم يوحنّا بن ماسويه الّذي تولى الإشراف على المدارس، حيث قام بترجمة كتب الطب القديمة لمّا وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون، وكان النّصارى في عهد الرشيد يخرجون

---

[1]- جان موريس فييه، أحوال النصارى، ص51.

[2]- القفطي، كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1426هـ/2005م، ص109-110.

[3]- ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، تح يوسف بن أحمد البكري أبو براء وأحمد بن توفيق العاروري أبو أحمد، رمادي للنشر،الدمام،1418هـ/1997م ،ج2، ص462-464.

[4]- كي لسترنج، بغداد في عهد الخلافة العبّاسية، تر بشير فرنسيس، المطبعة العربية، بغداد، 1936، ص180-181.

في موكب حافل وبين أيديهم الصليب ويتقدمهم رؤساءهم الدينيين، كما ترك لهم الرشيد حريّة اختيار رؤسائهم وكان يغدق على هؤلاء الرؤساء بالأموال والهدايا[1].

إنّ توفر العديد من أسماء الأديرة البغدادية في القرن الرابع الهجري خير دليل على كثافة وجود النّصارى[2]، ومن قراهم وأديرتهم في بغداد نذكر قريتا درتا وقطفتا، والقرية الّتي بها دير مارفتيون، ومنها منطقة دير كليليشوع الموجود عند باب الحديد[3].

وقد أقام النّصارى متجاورين مع المسلمين داخل بغداد حيث عاش ساكنوها من نصارى ومسلمين متقاربين متجاورين في محلات العتيقة وفي أطراف نهر القلائين[4] وأطراف دير كليليشوع وفي النّواحي القريبة من قطربل[5]، وعرفت بغداد «قطيعة النّصارى» الّتي أقطعها لهم المنصور، وكانت تقع بين نهر الدجاج[6] ونهر طابق[7]،كما نزلوا في درب القراطيس[8].

ومنذ أن أخذت الفتن تعصف ببغداد أخذ بعض النّصارى يتركون محلات بغداد الغربية إلى الجانب الشرقي منها، وقد أقاموا دورهم في محلة المربعة، ومحلة رأس الساقية، وفي محلة سوق الثلاثاء الّتي كان منها درب دينار الّذي ضم إحدى كنائسهم، وفي أطراف دير

---

[1]– القفطي، أخبار العلماء بأحبار الحكماء، ص95. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، تح أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، 1403هـ/1983، ص237. محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ص43.

[2]– الشابشتي، الديارات، عناية كوركيس عواد، مكتبة المثنى، بغداد، 1966، ص347. فهمي سعد، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة: دراسة في التاريخ الاجتماعي، دار المنتخب العربي، بيروت، 1413هـ/1993م، ص148.

[3]– Claude Caben, L`islam des origines au début de l `empire ottoman, Paris,1970, p 82. M. Allard, les chrétiens a Baghdad, en Arabica,1962,p 379- 388.

[4]– نهر القلّائين: جمع قلاء الّذي يقلي السمك وغيره، وهي محلة كبيرة ببغداد في شرقي الكرخ، أهلها أهل سنة، كانت بينهم وبين أهل الكرخ حروب كثيرة قديما، وقد كان مكانه قبل عمارة بغداد قرية يقال لها ورثال، وكان مأخذ نهر القلائين من كرخايا. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص322

[5]– قطربل: اسم قرية قريبة من بغداد، ينسب إليها الخمر، كان منتزها وحانة للخمارين، وقيل اسم طسوج من طساسيج بغداد أي (كورة) يقع إلى المشرق منها. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص371 .

[6]– نهر الدجاج: محلة ببغداد على نهر كان يأخذ من كرخايا قرب الكرخ من الجانب الغربي.ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص320.

[7]– نهر الطابق: محلة ببغداد من الجانب الغربي قرب نهر القلّائين شرقا، ومأخذه من كرخايا ويصب في نهر عيسى عند دار بطيخ، ويذكر أنّه في سنة 488هـ أحرقت محلة نهر طابق وصارت تلولا لفتنة كانت بينهم وبين محلة باب الأرحاء. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص321.

[8]– فهمي سعد، العامة في بغداد، ص149.

الزندورد[1]، كما أقاموا في أرجاء محلة الشماسية[2] وبالأخص في دار الروم، وهي منطقة كبرى ضمّت كنيسة للنّسطورية وكنيسة أخرى لليعقوبية، ودعيت المنطقة باسم دار الروم نسبة إلى جماعة من الروم أسروا في سمالو في عهد المهدي، وأتوا بهم إلى بغداد[3].

وقد كان نصارى العراق يخضعون للرؤساء الدينيين، وكان النّساطرة ينتخبون جاثليقهم، وكان يشارك في الانتخاب رؤساء الوحدات الدينية في الأقاليم ووجوه الطائفة، كما كان لكبار موظفي النّصارى في الدواوين دور مهم في هذا الانتخاب[4].

وتولى الجاثليق رئاسة النّصارى، وأصبح بعد أن قامت الدولة العبّاسية الرئيس الأكبر للنصرانية، وكانت تنتخبه الكنيسة ويصادق الخليفة على انتخابه بعد استشارة الأساقفة ويكتب له عهدا كما يكتب لكبار العمّال والمتصرفين، وكذلك كان يكتب لبطريق اليعاقبة عهد، فكان لابد له أن يذهب إلى قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد[5].

وقد أصبح الجاثليق النّسطوري رئيسا شرعيا للنّصارى الشّرقيين في خلافة المقتدر (295-320هـ/907-932م) إلّا أنّ كبير مطارنة اليعاقبة بقي يظهر شعار رياسة الكهنوت إلى جانب شعار الجاثليق النّسطوري حتّى العقد الأخير من القرن الرابع الهجري إذ اختلف الجاثليق النّسطوري يوانيس مع كبير مطارنة اليعاقبة ومنعه من إظهار رياسة الكهنوت في بغداد[6].

---

[1]- دير الزندورد: يقع في الجانب الشرقي من بغداد، وأرضها كلها فواكه وأترج وأعناب، وهي من أجود الأعناب التي تعصر ببغداد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص513.

[2]- محلة الشماسية: محلة منسوبة إلى بعض شماسي النصارى وهي مجاورة لدار الروم في أعلى مدينة بغداد وإليها ينسب باب الشماسية، وهي أعلى من محلة الرصافة ومحلة أبي حنيفة.ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص409. الشابشتي، الديارات، ص3.

[3]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص149.

[4]- عمرو بن متى، أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، عناية جسموندي، روما، 1896، ص154-156.

[5]- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص61-62.

[6]- ونشير هنا أنّه عندما تجددت رياسة النّساطرة في نص رسمي صدر عن الخليفة القائم بأمر الله سنة 467هـ بمناسبة تكريس البطريرك عبد يشوع الثالث فأوعز بترتيبه جاثليقا لنسطور النّصارى بمدينة السلام وسائر البلاد والأصقاع وزعيما لهم وللروم واليعاقبة، ولكل من تحويه ديار الإسلام من هاتين الطائفتين من غير أن يشركه فيها أو يشاكله في النسبة الدالة عليها مطران أو أسقف للروم أو اليعاقبة. القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة،1340 هـ/1922م، ج10، ص 295-297. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص150.

وإنّ تكريس سيادة الطائفة النّسطورية كان بتأثير نفوذ بعض الأطبّاء والكتّاب النّسطوريين الّذين كانوا يعملون في الإدارة العبّاسية، وقد كان التنافس شديد بين المرشحين لمنصب الجاثليق نظرا لأهمية هذا المنصب، ممّا حمّل البعض على دفع الرشاوي إلى النّاخبين، أو الاستعانة بالسلطة السياسية للوصول إلى كرسي البطركية[1].

وقد أبدى بعض البطاركة والمطارنة نشاطا مهما، فقاموا بتجديد أديرتهم وكنائسهم، فقد أعيد ترميم دير مارفثيون في العتيقة في القرن الثالث الهجري وأصبح مقر البطريركية، وفي سنة 349هـ جددت البيعة العتيقة وبنيّت البيعة الكبيرة بدار الروم[2].

ومارس النصارى في العهد العباسي العديد من المهن المختلفة حيث يذكر الجاحظ[3] عنهم «أنّ منهم كتّاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة»، فقد استخدمت الخيزران – ت173هـ– نصرانيا على الطراز في الكوفة، وكان من أهم الدواوين الّتي عمل فيها أهل الذمة ديوان الرسائل حيث كتب الحسن بن وهب –186- 250هـ- لمحمد بن عبد الملك الزيات-؟ –233هـ – وولي ديوان رسائله، وصار أخوه سليمان بن وهب-؟ –سنة 272هـ-. من كتّاب الوزير الفضل بن سهل ثمّ استكتبه أخوه الحسن بن سهل، كما تقلد أبو إسحاق الصابئ ديوان رسائل عز الدولة بختيار بن بويه الديلمي[4].

وكان الوزير علي بن الفرات –241-313هـ- يقيم مأدبة نهار كل جمعة فيجتمع إليه تسعة من كتّابه من بينهم أربعة من النّصارى، وكانت فرج النّصرانية تعمل كاتبة لدى أم موسى القهرمانة[5]، واختص اليهود والنصارى عن غيرهم بمهنة الجهبذة[6] حيث كانوا أرباب

---

[1]– فهمي سعد، العامة في بغداد، ص150.

[2]– نفسه، ص151.

[3]– المختار في الرد على النصارى، تح محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت،1411هـ/1991 م، ص63.

[4]– ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص52.

[5]– الصابئ، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، مراجعة وتقديم حسن الزين، دار الفكر الحديث للنشر، بيروت، 1990، ص261-293.

[6]– الجهبذة: إن كلمة جهبذ، كلمة فارسية تطلق على الخبير العارف بخصائص النقود الجيّدة منها والرديئة، حيث كانت الدولة العباسية قد عهدت لهؤلاء بتميز الزائف من النقود الّتي تجبيها مقابل رواتب لهم عن خدماتهم لبيت المال. الفيروزآباذي، القاموس المحيط، ص352.

ديوان بيت المال نظرا لخبرتهم الواسعة في جباية الأموال، فقد قلّد المعتصم إبراهيم بن بنان النصراني منصب خازن لبيوت الأموال في البلاد وخاتمه مع خاتم الخليفة[1].

كما تقلد اصطفن بن يعقوب النّصراني بيت مال الخاصة في خلافة المقتدر والراضي (322-329هـ /933-940م)، أمّا إبراهيم بن أيوب الكاتب النصراني فقد تولى النظر في بيت المال في وزارة علي بن عيسى-245-334هـ- الثانية للمقتدر عام 315هـ-316هـ، كما عهدت إليه أمور الجهبذة والأرزاق في ديوان بيت المال في وزارة محمد بن مقلة -272-328هـ- في عهد المقتدر، وتولى إسحاق بن علي بيت المال في وزارة الخاقاني-؟ -314هـ- للمقتدر عام 312هـ وكان على قدر كبير من المكانة والمنزلة إلى درجة أنّ أحمد الخصيبي لم يقبل بالوزارة عام 321هـ حتّى يتم القبض على هذا الأخير وعزله[2].

وممّا يوضح أثر تطور العلاقات بين الدولة العبّاسية والدولة البيزنطية في موقف الخلفاء العبّاسيين من أهل الذمة ما حدث في عصر هارون الرشيد، فقد روى الطبري[3] في حوادث سنة 191هـ أنّ الروم أغاروا على ثغر مرعش وأصابوا من المسلمين فأمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور، وكتب إلى السندي بن شاهنك يأمره بأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم، ويذكر ابن القيم الجوزية[4] أنّ هذا الإجراء كان سببه ما رآه الرشيد من معونة نصارى الثغور للروم.

ويرى ابن الأثير[5] أنّ إجراءات الرشيد سنة 191-192هـ كانت قاصرة على الثّغور فقط حيث أنّ الروم قد قاموا بهجومهم بمعاونة النّصارى على ثغور مرعش وطرطوس والمصيصة وأنطاكية فأصابوا المسلمين وهدّموا المساجد فرأى الرشيد إرضاء مشاعر المسلمين بهدم الكنائس أيضا وإعادة بناء المساجد وفرض قيودا على ملابس أهل الذمة.

---

[1]- نورة بنت إبراهيم الدوسري، خدم دار الخلافة ودورهم السياسي والحضاري في العصر العباسي الثاني (232هـ/656هـ /943-12589م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية،1436هـ/2015م، ص50.

[2]- جان موريس فييه، أحوال النّصارى ، ص194- 198.

[3]- تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص324.

[4]- أحكام أهل الذمة، ج2،ص464-465.

[5]- الكامل في التاريخ، ج5، ص348-349.

إنّ موقف الرشيد هذا كان أثرا من آثار سوء العلاقة السياسية بين الدولة الإسلامية والمملكة البيزنطية ولا أثر فيه للتعاليم الدينية، إلّا أنّ سياسة التسامح الديني كانت هي الدائمة والمتبعة فالرشيد قد سمح ببناء الكنائس والأديرة حيث ساعدت زوجته زبيدة سرجيوس أسقف البصرة ليبني كنائس فيها، وقد حصلت من زوجها الرشيد على هذا السماح للنّساطرة ليعيدوا بناء الصوامع الآيلة للسقوط، وكانت زبيدة تهدي للنّساطرة الهدايا من الصلبان الذهبيّة والفضيّة[1].

وفي سنة 296هـ أمر المقتدر أن لا يستعان بأحد من اليهود والنّصارى فألزموا بيوتهم وأخذوا بلبس العسلي والرقاع من خلف ومن قدّام وأن تكون لهم ركبهم خشبا، وكان هذا بهدف تعزيز مركزه لدى العامة بعد الأحداث التي حدثت في السنة السابقة[2].

وقد عاش النّصارى حياة عادية لا يختلفون عن غيرهم، وكانوا يتقدّمون من القاضي المسلم لينظر في دعاواهم، كما دخلوا حمامات المسلمين، واستفادوا أحيانا من الصدقات الّتي تعطى للمحتاجين[3].

وكانت أعيادهم مظهرا من مظاهر البهجة يشارك فيها المسلمون، كما كانت الأعياد النّصرانية كالإسلامية أعياد موروثة منذ عهد قديم يرجع بعضها إلى عادات كانت لسكان العراق القدماء، ولها أوقات يحتفل بها في العراق، والنّصارى يتفقون في الأعياد العامة إلّا أنّهم يختلفون في الفرعية منها حسب طوائفهم وفرقهم ثمّ إنّ هناك أعياد خاصّة بكل دير من الأديرة يحتفل بها في أوقات معلومة من السنة[4].

وإنّ هذه الأعياد النّصرانية وإن كانت خاصة بالنّصارى إلّا أنّ عامة بغداد كانت تحضرها للفرحة والمشاركة وهذا ما دعا إلى القول بأنّ أعياد أهالي بغداد تكاد تكون نصرانية من كل وجه[5].

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص153.

[2]- ابن الجوزي،المنتظم، ج13، ص82.

[3]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص154.

[4]- البيروني، الآثار الباقية، ص288-309. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص282-283.

[5]- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص276.

وقد ذكر الشابشتي[1] عدد الأديرة الّتي بنيت في العصر العبّاسي والّتي لم تكن مقرا ومقصدا للرهبان ورجال الدين المسيحي فحسب بل أصبحت متنزهات يقصدها المسلمون في أعياد النّصارى للمتعة والنّزهة بل قصدها بعض الخلفاء أيضا مثل هارون الرشيد.

وقد لقي النّصارى وأهل الذمة عنت متشددي المسلمين في أيّام الاضطرابات السياسية ففي سنة 271هـ وثب العامة على النّصارى وخربوا الدير العتيق وانتهبوا كل ما فيه من متاع، والسبب في هذا الشغب أنّهم أنكروا على النّصارى ركوب الدواب[2].

وفي سنة 392هـ ثار العامة بالنّصارى فنهبوا البيعة بقطيعة الدقيق وأحرقوها فسقطت على جماعة من المسلمين فهلكوا، وفي سنة 403هـ توفيّت بنت أبي نوح بن أبي نصر بن إسرائيل أحد كتّاب النّصارى فأخرجت جنازتها نهارا ومعها النوائح والطبول والزمور والصلبان والشموع فقام رجل من الهاشميين فأنكر ذلك فضربه أحد غلمان الكاتب ممّا تسبب في فتنة أدّت إلى تدخل العامة وانتهت بإلزام أهل الذمة الغيّار[3].

إلّا أنّ هذه الاضطهادات كانت استثنائية تعرّضوا لها نظرا لإقامتهم بين باب البصرة ذي الأكثرية السنّية وبين الكرخ ذي الأغلبية الشيعية فكانت الصدامات بين هاتين الفئتين تجري في قطيعة النّصارى، وبالرغم من كل هذه الصعوبات الّتي لقيها النّصارى، فقد تمتّعوا في ظل العهد العبّاسي بمركز أفضل بكثير من الّذي كانت عليه بعض الجماعات الإسلامية، وهو ما بيّنته تلك المحاورات الدينية الّتي كانت تجري بين المسلمين والنّصارى وبالفعل فقد ترك كثير منهم عقد الزنانير، وامتنع كثير من كبرائهم من أداء الجزية، وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها وسبّوا من سبّهم وضربوا من ضربهم[4].

---

[1]- الديارات، ص90.

[2]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص154.

[3]- الصولي، أخبار الراضي بالله والمتقي لله أو تاريخ الدولة العباسية من سنة 322هـ إلى سنة 333هـ من كتاب الأوراق، نشره ج هيورث دن، دار المسيرة، بيروت، 1983، ص251. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص 154-155.

[4]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص155. إلّا أنّه لدينا ما يشير إلى العودة إلى اضطهاد النّصارى فقد ذكر ابن كثير أنّه في سنة 484هـ/1091م خرج توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة بلبس الغيار والتزام ما شرطه عليهم عمر بن الخطاب، فهربوا كل مهرب، وأسلم بعضهم وكان فيهم أبو غالب بن الأصباغي وأبو سعد العلاء صاحب ديوان الإنشاء وابن أخته أبو نصر صاحب الخبر .البداية والنهاية، ج16، ص118.

2- اليهود: هم أتباع نبي الله موسى عليه السلام لبني إسرائيل الّذين ينحدرون من أصول عبرانية، والّذين انقسموا إلى طوائف وفرق متعددة ليس هنا مجال لذكرها، وقد عاشوا في العراق بأعداد كبيرة وكثروا خاصة حول نهري دجلة والفرات[1].

وكانت الرئاسة في اليهود وراثية، وكان رئيس اليهود المسمّى برأس الجالوت والّذي يمثل اليهود لدى القصر يقيم في بغداد بعد أن أصبحت العاصمة الإدارية والسياسية والقضائية لليهود، وكان رؤساءهم يلقّبون بلقب الملك[2].

وإلى جانب رأس الجالوت كان أساتذة مدرسة سورا الدينية يمارسون صلاحيات مماثلة في القرن الرابع الهجري كما كان أساتذة مدرسة بغداد الدينية يمارسون مثل تلك الصلاحيات بعد أن انتقل التّعليم الديني إلى العاصمة، وقد أصيبت الوحدة الدينية اليهودية بانقسام زعامتها منذ قيام دولة الفاطميين فكانت سلطة رأس الجالوت تسري على اليهود[3] في شرقي الفرات فقط[4].

وقد أقام اليهود في البصرة منذ أول تأسيسها تقريبا، وأشهر من انتسب إليها منهم الطبيب مسرجويه –ت 270هـ-، ويوجد بالموصل اليهود منذ أول تأسيسها، وتوجد بين محلات اليهود نحلة تدعى محلة اليهود[5].

ولم يستخدم اليهود كثيرا في الإدارة العباسية بسبب السيطرة النسطورية لهذا لا توجد أسماء الموظفين اليهود[6] في الإدارة العبّاسية، وكان من الّذين تمّ ذكرهم «ما شاء الله» – 153-205هـ- اليهودي الّذي كان من منجمي المنصور، وفي القرن الثالث الهجري استخدم

---

[1]- Georger Vajda, le milieu juif a Baghdad,in Arabica, 1962, p 391.

[2]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص156.

[3]- وجاء في رحلة بنيامين التطيلي أنّه يقيم ببغداد نحو أربعين ألف يهودي، وهم يعيشون بأمان وعز ورفاهية، وبينهم عدد من كبار العلماء ورؤساء المثيبة وعلماء الدين، ولهم في بغداد عشر مدارس مهمة. رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، الوراق للنشر، بغداد، 1954، ص165

[4]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص 156.

[5]- رحلة بنيامين التطيلي، ص181.

[6]- ومن الأسماء التي ذكرت خارج فترة البحث من اليهود في البصرة نذكر: الطبيب إسحاق بن إبراهيم البصري اللاوي (القرن السابع الهجري) والقرائيفث بن سعيد (555-597هـ/1160-1200م) وغيرهم، وبالموصل كان علمائها أيّام رحلة بنيامين تابعين لنفوذ رأس الجالوت في بغداد، وقد وجد بها فتّاحية الّذي زارها سنة 1175م نحو 6000 يهودي. رحلة بنيامين التطيلي، ص181.

باغر التركي كاتبا يهوديا، واستعان الوزير علي بن الفرات في وزارته الثانية سنة 304هـ بالجهبذين يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران، وقد أجبرهما علي بن عيسى على ضمان جهبذة الأهواز على أن يقرضا الدولة مبلغ 150 ألف درهم في مطلع كل شهر، وبقي هذا الرسم جاريا عليهما وعلى من قام مقامهما مدة ستة عشر عاما[1].

وكان حظ اليهود بالاحترام أقل من حظ النّصارى في المجتمع العباسي، وارتبط ذلك بوضاعة مهنهم الّتي كانوا يزاولونها، واتّهموا بأنّهم أعرضوا عن الفلسفة وعلوم الكلام، وقد وصف لنا الجاحظ ذلك بقوله[2]: «ولا تجد اليهودي إلّا صبّاغا أو دبّاغا أو حجّاما أو قصّابا أو شعّابا، فلمّا رأت العوام اليهود على ذلك توهمت أنّ دين اليهود في الأديان كصناعاتهم في الصناعات، وأنّ كفرهم أقذر الكفر، إذ كانوا هم أقذر الأمم».

وقد أخذ اليهود بالغيار الّذي فرضه المتوكّل على أهل الذمة الّذي يذكر أنّه كان عسلي اللون إلّا أنّ عمرو بن متى قال بأنّ الغيار كان أزرق اللون بالنسبة للنّصارى وفرض على اليهود اللون الأسود، وأعيد فرض الغيار على أهل الذمة جميعا في سنة 429هـ[3].

ومارس اليهود في بغداد العديد من المهن نذكر منها الخياطة والصباغة والأساكفة والخرازة، وكان أهل الذمة عامة والصبيان يبيعون الهريسة والرؤوس في الشتاء الّتي وصفت بأنّها من المبيعات الدنيئة، وكان يسمح لأهل الذمة والصبيان بالعمل في أوقات الصلاة فيستأجرهم التّجار بالقراريط والدوانيق لحفظ الحوانيت إلى أوان انصرافهم[4].

وكان أهل الذمة يعالجون في بيمارستانات المسلمين، فقد أشار ثابت بن سنان أنّ والده سنان بن ثابت[5] الّذي كان يشرف على علاج المرضى أيام المقتدر بالله، أمره الوزير علي

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص340. الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص278. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص 156.

[2]- المختار في الرد على النصارى، ص18-19.

[3]- ولكن اليهود عادوا إلى ترك الغيار في القرن الخامس الهجري، فأصدر الخليفة المقتدي أمرا سنة 478هـ ألزمهم فيه بالعودة إلى لباس أهل الذمة. عمرو بن متى، أخبار بطاركة كرسي المشرق، ص71.

[4]- أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1961، ج2، ص539. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص158.

[5]- الطبيب سنان بن ثابت: هو سنان بن ثابت بن قرة، كان يكنى بأبي سعيد، تمهر في الطب، وكانت له قوة بالغة في علم الهيئة، خدم المقتدر والراضي بالطب، وقد أراده القاهر على الإسلام فهرب ثمّ أسلم، وخاف من القاهر فمضى إلى خراسان وعاد، وتوفي ببغداد سنة 331هـ. الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، تح أحمد الأرناؤوط وتزكي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ/2000م ، ج15، ص 281-282.

بن عيسى بإعطاء أفضلية العلاج للمسلمين وبتعيين أطباء معهم الأدوية يطوفون في السواد لمعالجة المرضى والاهتمام بالمرضى المسلمين حيث ذكر ابن أبي أصيبعة: «وقد وقع الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى والدي سنان بن ثابت في أيام تقلده الدواوين من قبل المقتدر بالله وتدبير المملكة في أيام وزارة حامد بن العباس في سنة كثرت فيها الأمراض جدا وكان والدي إذ ذاك يتقلد البيمارستانات ببغداد وغيرها توقيعا يقول فيه فكرت مد الله في عمرك في أمر من في الحبوس وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم وتحمل إليهم الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى ويزيحون عللهم فيما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة ويتقدم بأن تقام لهم المزورات لمن يحتاج إليها منهم ففعل والدي ذلك طول أيامه وورد توقيع آخر إليه فيه فكرت في من في السواد من أهله فإنه لا يخلو أن يكون فيه مرضى لا يشرف عليهم متطبب لخلو السواد من الأطباء، فتقدم مد الله في عمرك بإنفاذ متطببين وخزانة للأدوية والأشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إليه ويعالجون من فيه من المرضى ثم ينتقلون إلى غيره ففعل والدي ذلك إلى أن انتهى أصحابه إلى سورا والغالب على أهلها اليهود فكتب إلى أبي الحسن علي بن عيسى يعرفه ورود كتابه من أصحابه من السواد يذكرون فيه كثرة المرضى وأن أكثر من حول نهر الملك يهود وأنهم استأذنوا في المقام عليهم وعلاجهم وأنه لم يعلم ما يجيبهم به لأنه لا يعرف رأيه فيهم وأعلمه أن رسم البيمارستان أن يعالج فيه الملي والذمي ويسأله أن يرسم له في ذلك ما يعمل عليه فوقع له توقيعا نسخته فهمت ما كتبت به أكرمك الله وليس بيننا خلاف في أنّ معالجة أهل الذمة والبهائم صواب ولكن الذي يجب تقديمه والعمل به معالجة الناس قبل البهائم والمسلمين قبل أهل الذمة، فإذا أفضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه صرف في الطبقة التي بعدهم فاعمل أكرمك الله على ذلك واكتب إلى أصحابك به ووصهم بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية»[1].

---

[1]- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 301.

3- **الصابئة:** تباينت الآراء في تعريفهم فقد قال قوم أنّهم من عبّاد الكواكب، وعرفهم آخرون أنّهم فرقة بين النصارى والمجوس، وهناك من قال عنهم أنّهم قوم عدلوا عن دين النصارى واليهود وعبدوا الملائكة وغيرها من الآراء[1]، ويرى أتباعها أنّ سائر ما في العالم السفلي المعبّر عنه بالحياة الدنيا ناشئ وصادر عن الكواكب وأنّ الشمس هي المفيضة على الكل[2]، وهي أقدم الأديان وأتباعها أنبياء الله آدم وإدريس ونوح وسام بن نوح وإبراهيم، كانوا منتشرين في بلاد الرافدين وفلسطين ولا يزال بعض من أتباعها موجودين في العراق، كما أنّ هناك تواجد للصابئة في إقليم الأهواز في إيران، وهناك من يرجع الصابئة إلى الشعب الآرامي العراقي القديم الّذين استوطنوا وسط العراق خاصة المنطقة الممتدة بين بغداد وسامراء، وكانت لغتهم هي اللّغة الآرامية الشرقية المتأثرة بالأكادية[3].

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم وأدرج اسمهم مع أهل الكتاب مصداقا **لقوله تعالى**[4]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقد اختلف أهل التأويل في دين الصابئة اختلافا كبيرا واضطربت أقوال الفقهاء فيهم، فمثلا قال عنهم أبو حنيفة أنّهم قوم يؤمنون بالكتاب يقرؤون الزبور ولا يعبدون الكواكب ولكن يعظمونها كتعظيم المسلمين الكعبة في الاستقبال إليها غير أنّهم يخالفون غيرهم من أهل الكتاب في بعض دياناتهم، والقرطبي لا يرى مانعا في أكل ذبائحهم والزواج بنسائهم[5].

فالصابئة إذن قوم يعبدون الكواكب ويقدسونها، وقد أخلطوا عقيدتهم ببعض مذاهب الديانات الأخرى، ولهذا قالوا فيهم: «ليسوا يهودا ولا نصارى ولا مجوس»، وهم نوعان صابئة مشركون: يعظمون الكواكب السبعة والبروج الإثني عشر ويتخذون لها أصناما وهياكل على

---

[1]- السيد عبد الرزاق الحسني، الصابئة في حاضرهم وماضيهم، مطبعة صيدا ،لبنان، 1382هـ/1963م، ص10.

[2]- المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص104.

[3]- عبد الرزاق الحسني، الصابئة قديما وحديثا، دار مكتبة الخانجي، القاهرة، 1965، ص11.

[4]- سورة البقرة ، آية 62.

[5]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص434.

غرار كنائس النّصارى وبيع اليهود ويقدمون لها القرابين ولها صلوات خمس في اليوم والليلة، ولذا صنّفوا في خانة الوثنيين[1].

وصابئة حنفاء: وهم النّاجون وقيل هم قوم إبراهيم عليه السلام، يعظّمون مكة ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير، وجبلوا على الطهارة ويقولون لا إله إلا الله وليس لهم كتاب ولا نبي، وبعد الفتوحات الإسلامية صالحهم قادة المسلمين على ما هم عليه وصنّفهم كثير من الفقهاء كالمجوس أهل شبهة كتاب، والحكم فيهم دفع الجزية مع عقد الأمان[2].

وقد ازدهر أمرهم في أواخر القرن الثاني الهجري في عهد الخليفة العبّاسي الأمين، وكانوا موجودين في أراضي العراق خاصة في الرقة وحران، ومن أشهر من عرف منهم في التاريخ الإسلامي الأديب أبو الهلال الصابئ -ت 384هـ- الّذي كان موجودا أيام الدولة العبّاسية، وأبو معشر المنجم[3] وهو من المشهورين بالتنجيم[4].

4- المجوس: المجوس معرب ميخگوش (مير كنوش) صغير الأذنين، المجوس كلمة فارسية (منج گوش أي قصير الأدن) تطلق على قسم كبير من الفرس الّذين اتبعوا دين زرادشت الّذي دعاهم إلى الإيمان بأصلين: النور وعبّروا عنه بالإله يزدان أو أهورامزدا. والظلمة وعبّروا عنه بالإله أهرمن. ويقال تمجس الرجل إذا صار مجوسيا[5].

---

[1]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، تح ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، 1964،ص6-7. الشهرستاني، الملل والنحل، ج2،ص289-296. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ص242.

[2]- ابن النديم، الفهرست، تح إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، 1417هـ/1997م، ص635. البيهقي، السنن الكبرى، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003م، ج9، ص189. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ص242.

[3]- أبو معشر المنجم: هو أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجّم المشهور، كان إمام وقته في فنه، وكان متصلا بخدمة بعض الملوك، وله التصانيف المفيدة في علم النجامة، وقد كان في أول أمره من أصحاب الحديث ومنزله في الجانب الغربي بباب خراسان، ويقال بأنّ تعلمه للنجوم كان بعد 47 سنة من عمره وكان فاضلا حسن القريحة، توفي سنة 272هـ. القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء،ص106-107. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص 358-359.

[4]- الاصطخري، المسالك والممالك، تح محمد شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، 1961، ص54. طبي سمير، دور أهل الذمة، ص18.

[5]- محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، نشر مكتبة لبنان، بيروت، 1996م، ج1، ص 540، ج2، ص 1479. الفيومي، قاموس المصباح المنير، دار الفكر، بيروت، (د ت)، ج1، ص332، ص574. عبد الرزاق الحسني، الصابئة قديما وحديثا، ص574.

وتعرف الديانة المجوسية أيضا بالملّة العظمى والدين الأكبر كتابها الأفستا المقدس، فهي دين الفرس القديم الّذي يقول بأنّ الوجود قائم على مبدأين أساسيين هما الخير والشر أو النّور والظلام، ولمّا كانت الشمس هي مصدر النّور، والشمس من نار قدّس المجوس النّار وقاموا بعبادتها، حيث عبدوا الأجرام السماوية وبعض الحيوانات، وكانت هذه الطائفة تعبد النّار المقدّسة في معبد النّار[1].

والمجوس اختصوا بالتثنية حتّى ثبتوا أصلين إثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنّفع والضر والصلاح والفساد، ويسمّون أحدهما النور والآخر الظلمة، غير أنّ المجوس الأصلية قالوا أنّ الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النّور أزلي والظلمة محدثة[2]، ثمّ اختلفوا في سبب حدوثها وهم فرق كثيرة أشهرهم الزرادشتية والمانوية هي مزيج من العقائد الفارسية والنصرانية تنسب إلى ماني مؤسسها-216-276م- والمزدكية[3].

وحتّى بعد اعتبار المجوس والصابئة من أهل الذمة فإنّه لم يكن لهم أي دور مهم، إلّا أنّ القاهر (320-322هـ/932-934م) والّذي كان في ضائقة مالية أراد أن يضع يده على

---

[1]- ابن النديم، الفهرست، ص456-459. عبد المنعم عبد الحميد سلطان، أضواء جديدة على تاريخ الدولة العبّاسية ، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2003، ص149.

[2]- الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص 232. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ص80.طبي سمير، دور أهل الذمة،ص18.

[3]- الزرادشتية: نسبة إلى زرادشت وتقول هذه الديانة أنّ الله تعالى حارب مع الشيطان ألوف سنين، ولمّا طال الأمر توسّطت الملائكة بينه وبين الشيطان على أنّ الله تعالى يسلم العالم إلى الشيطان سبعة آلاف سنة يحكم ويفعل ما يريد وبعد ذلك عهد أن يقتل الشيطان ثمّ أخذت الملائكة سيفها منها وقرّروا بينهما أنّه من خالف ذلك العهد قتل بسيفه، أمّا المانوية فتنتسب إلى ماني بن فاتك الحكيم الّذي ظهر في زمن شابور بن أردشير، وتعاليمها مزيج بين المجوسية والنّصرانية، يقولون بنبوة عيسى المسيح عليه السلام، ولا يقولون بنبوة موسى عليه السلام، وخلاصة مذهبها أنّ العالم ينشأ من أصلين وهما النّور والظلمة ومالوا إلى حياة الرهبنة حيث منع الزواج حتّى لا يكون التناسل، واعتبروا وجود الإنسان لعنة في الأرض، والمزدكية نسبة إلى مزدك، وظهرت المزدكية على يده في القرن 5 م وكان يهدف إلى إصلاح مذهب ماني، فراح يناقش قضية الظلمة والنور، حيث يرى أنّ امتزاجها هو الّذي تمخض عنه نشأة الدنيا، وقال أيضا بقول المجوسية، ولكن تميّزت تعاليمه بتفسير الأفستا على أساس شيوعي بأن يتساوى النّاس في الأملاك، وقد مال كثيرا من النّاس إلى العقيدة المزدكية واعتقدوا في مزدك صاحبها النبوة. المسعودي، التنبيه والإشراف، المكتبة الإسلامية، القاهرة، 1357هـ/1983م ، ص85. البيروني، الآثار الباقية، ص209. ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج3، ص64. الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، ص268-269. محمد إبراهيم فيومي، تاريخ الفكر الجاهلي، دار الجبل، بيروت، 1999، ص316.

بعض أموالهم فاستفتى فيهم أبا سعيد الاصطخري[1] محتسب بغداد الّذي أفتى بقتلهم لأنّهم ليسوا كالنّصارى واليهود ولأنّهم يعبدون الكواكب، فتتبعهم القاهر حتّى جمعوا مالا كثيرا وقدّموه فعفا عنهم، وتمكن الصّابئة في النّصف الثاني من القرن الرابع الهجري من الحصول على عهد من الخليفة أمر فيه إلى جانب صيانتهم وحراستهم والذود عن حريتهم ورفع الظلم عنهم بالتخلية بينهم وبين مواريثهم وترك مداخلتهم ومشاركتهم[2].

تكاثر الذميون في العاصمتين بغداد وسامراء للدخول في خدمة الدولة العبّاسية بعد أن أطلق العبّاسيون لهم الحرية الدينية وأبدوا لهم التّسامح الديني وسمحوا لهم بالمشاركة في الميدان الاجتماعي والاقتصادي، فتمتّعوا بهبات الخلفاء واحتفلوا بأعيادهم الدينية بحرية، فقد استعمل أهل الذمة في مجـالات عدة مثـل خدمة الخـلفاء، وفي الترجمة، وفي بعض الوظائف المالية فخدم الفضل بن مروان في بلاط كل من المـأمون والمعتصم، وكان حظيا لديهما، وجعل الرشيد يوحنا بن ماسويه مشرفا عاما على ترجمة الكتب من اليونانية والسريانية، واتخذ المأمون من سهل بن مروان واليا على بيت الحكمة[3].

كما نعم الذميون بالتّسامح الديني والمشاركة في المجالين الاجتماعي والاقتصادي في عهد الخليفة المعتصم الّذي قرّب إليه العلماء والأطبّاء النّصارى ومنهم طبيبه سلمويه الّذي عاده المعتصم في مرضه الأخير، ولمّا مات شيّع جنازته من قصر الخلافة، وامتنع عن الطعام في ذلك اليوم، كما كان إبراهيم أخو سلمويه خازن بيوت الأموال[4].

1- أبو سعيد الاصطخري: هو أبو سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى بن الفضل الاصطخري الفقيه الشافعي، ولد سنة 244هـ، وتوفي سنة 328هـ، تولى حسبة بغداد، وكان ورعا متقللا، استقضاه المقتدر على سجستان فسار إليها فنظر في مناكحاتهم فوجد معظمها على غير اعتبار الولي فأنكرها وأبطلها عن آخرها.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص74.

2- أبو يوسف، كتاب الخراج، ص131. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج7، ص 269-270. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للنشر، مصر، 1413هـ، ج2، ص 194 .

3- ابن النديم، الفهرست، ص160. أرنولد. سير. تومس، الدعوة إلى الإسلام، ص81. خضر أحمد عطا الله، بيت الحكمة في عصر العباسيين، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، جامعة البنجاب، لاهور، 1407هـ /1987م، ص61.

4- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول،ص140. نادية حسني صقر ، مطلع العصر العباسي الثاني: الاتجاهات السياسية والحضارية في خلافة المتوكل على الله (232-247هـ)، دار الشروق للنشر، 1403هـ/1983م، ص168.

وفي عصر المتوكل بدأ عهد جديد ومتميّز لأهل الذمة ففي سنة 235هـ «أمر المتوكل بأخذ النّصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسليّة والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرّين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة الّتي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الّذي عليه وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى منهما خلف ظهره وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونهما عسليّا، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها اللون العسلي ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلاّ في إزار عسلي، وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير وبمنعهم لبس المناطق»[1].

كما أمر المتوكل بهدم بيعهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم وإن كان الموضع واسعا صير مسجدا، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجدا صير فضاء وأمر المتوكل أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقا بين منازلهم وبين منازل المسلمين، ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان الّتي تجري أحكامهم فيها على المسلمين، ونهى أن يتعلّم أولادهم في كتاتيب المسلمين ولا يعلّمهم مسلم، ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليبا وأن يشعلوا في الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض حتّى لا تشبه قبور المسلمين[2].

وفي المحرم من سنة 239هـ أمر المتوكل بإلزام أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين على الأقبية والدراريع، وفي صفر من السنة نفسها أمرهم بالاقتصار على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبرّاذين، وكتب المتوكل بهذه الأوامر إلى عماله في سائر الولايات وحذّرهم من العقوبة إذا خالفوا أوامره[3]، وقد شمل هذا الإجراء اليهود أيضا حيث لبسوا الغيار والعمائم الصفر، أمّا النّساء فقد لبسن الأزر العسلية وأصبحت المرأة تلبس خفا يختلف في لونه من الخف الآخر فيكون الواحد منهما أسود والآخر أبيض، وتضع المرأة في عنقها طوقا

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص171-172. نادية حسني صقر، مطلع العصر العباسي، ص168.

[2]- ابن الجوزي، المنتظم، ج11، ص223. نادية حسني صقر، مطلع العصر العباسي، ص169.

[3]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص 196.

من حديد إذا دخلت الحمام[1]، وكان المتوكل بذلك أول خليفة عباسي يفرض على المسيحيين واليهود أن يرتدوا أزياء تختلف عن أزياء المسلمين[2].

وإنّه بالرغم من سياسة المتوكل هذه نحو أهل الذمة إلّا أنّه استخدم بعضهم في وظائف مختلفة للدولة، فقد تولى مالك بن الوليد النصراني أحد الدواوين، كما أسند ديوان الخاصة وبيت المال إلى نصرانيين هما أبي الغفائي وأخيه، واستخدم بنان النّصراني كاتبا لصاحب الديوان، كما كان من أبرز أطبّاء المتوكل حنين بن اسحاق النّصراني، ومن أشهر كتّاب المتوكل المسيحيين دليل بن يعقوب النّصراني[3] .

كما كانت كنائس النّصارى وبيع اليهود تتعرض في أوقات الاضطرابات والفتن إلى النّهب شأنها شأن بقية مرافق الدولة، ففي سنة 392هـ ثار العامة بالنّصارى في بغداد لمقتل أحد المسلمين فقاموا بإحراق كنيسة ونهبوا ما بها، وحين قامت الفتنة في بغداد سنة 423هـ، وعاث اللّصوص والعيّارون في أزقتها فسادا سرقوا عدة كنائس للنّصارى[4].

وإنّ هذه الحوادث لا تعبّر عن سياسة الدولة البويهية تجاه النّصارى، فقد عامل أمراء بني بويه أهل الذمة معاملة طيّبة خاصة فيما يتعلق بحريّة ممارسة شعائرهم الدينية وفي المسائل المالية ، وكان أهل الذمة يعالجون في مارستانات بغداد ويعاملون معاملة المسلمين، كما امتلك أهل الذمة الضياع والأراضي الواسعة، وشغلوا كثيرا من مناصب الدولة، وأصبح منهم الكتّاب والوزراء وكبار رجال الدولة، وعملوا في دور الخلافة وفي القصور البويهية، فقد أناب الأمير البويهي عز الدولة بختيار عنه أبا العلاء صاعد بن ثابت النّصراني في أمر بغداد حين ذهب عز الدولة إلى البصرة، واتّخذ الخليفة الطائع (363-381هـ/973-991م) كاتبا نصرانيا، كما اتّخذ علي بن بويه كاتبا نصرانيا، وأسند عضد الدولة البويهي الوزارة إلى نصر بن هارون والّذي في عهده تمّت عمارة الكنائس والأديرة في العراق وأطلقت الأموال

---

[1]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص 119. ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج3، ص343-344.

[2]- نادية حسني صقر، مطلع العصر العباسي، ص 169.

[3]- علي حسن الخربوطلي، الحضارة العربية، ص144.

[4]- ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص32. ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص642- 643.

لفقراء النّصارى[1]، كما برز من أهل الذمة في ميادين العلم والأدب مشاهير منهم أبو إسحاق الصابئ، وكان ينوب عن الوزير أبي محمد المهلبي في رئاسة ديوان الإنشاء وأمور الوزارة[2].

وبهذا شكل أهل الذمة طبقة اجتماعية من فئات المجتمع العامة،عاشت في كنف المجتمع العبّاسي، وقد اتّبع معهم الخلفاء في هذه الفترة سياسة فيها الكثير من التسامح الديني والاجتماعي فمنحوا الكثير من الامتيازات الاجتماعية، ولم تكن أحياؤهم مفصولة عن أحياء المسلمين، وقد كان منهم الأطبّاء الّذين يترددون على قصور الخلفاء ومنهم من يشتغل في خدمة الديوان ومنهم التّجار وأصحاب الحرف والصناعات.

سادسا- الأكراد:

الّذي يهمنا في هذا العنصر هو تحديد أماكن انتشار الأكراد في العراق والأدوار التي قاموا بها خلال الفترة المدروسة دون الخوض في أصولهم الّتي تخرجنا عن حد الدراسين فنقول بادئين:أنّ الأكراد شعب يسكن منطقة واسعة موزعة بين تركيا وإيران، وأذربيجان، وأرمينية، وسورية، والعراق، ففي العراق الّذين عاشوا على مساحة كبيرة وواسعة تمتد من شمال العراق فيما بين النهرين دجلة والفرات إلى أقصى إقليم الجبال الّتي تسمى حاليا جبال زاغروس امتدادا إلى شمال غرب العراق[3]، وكانت تشمل الأقاليم التالية:

- إقليم الجزيرة الفراتية: ويشمل المناطق الواقعة بين نهري دجلة والفرات، ومن أبرز القبائل الكردية المتواجدة بهذه المناطق: الداسنية، الحميدية، والهكارية والحسنية والجولميركية والبختية والبشنوية وغيرهم كثير.

---

[1]- الجاحظ، المختار في الرد على النصارى، ص18. الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1375هـ/1956م، ج2، ص265.

[2]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ج3، ص986-987.

[3] - باسيلي نيكيتين، الكرد: دراسة سوسيولوجية وتاريخية، تقديم: لويس ماسيون، ترجمة: نوري طالباني، مؤسسة حمدي للطباعة والنشر، السليمانية، 2008، ص57-58. أحمد ميرزا ميرزا، أشهر قادة فتح كوردستان في العصر الأول، مجلة كلية العلوم الإسلامية، م8، ع15، 1435هـ/2014م، ص 740. توماس بوا، تاريخ الأكراد، ترجمة محمد تيسير ميرخان، دار الفكر، دمشق، 2008، ص 10-11.زرار صديق توفيق، الكورد في العصر العباسي حتّى مجيء البويهيين (132-334هـ/749-946م)، صحيفة التآخي، يومية إخبارية، بغداد، بتاريخ: الأحد 29-4-2012/ الموقع الاكتروني http://www.altaakhipress.com/printart.php?art=12243

إلى جانب الجزيرة الفراتية استقر الأكراد في منطقة «شهرزور» والتسمية كانت تطلق على المدن والقرى في هذا الإقليم، وخلال العصور الإسلامية الأولى كانت تابعة لإقليم الجزيرة، ويمثل هذا الإقليم في الوقت الحاضر السهل الواقع أقصى الجنوب الشرقي من المنطقة الجبلية في محافظة السليمانية، ومن أبرز قبائلهم: الجلالية والغيشانية والبرزيكانية والباسيان وغيرها[1] .

وخلال العصر العباسي دمج إقليم آوان مع أرمينيا لذا غالبا ما كان الخلفاء العباسيون يرسلون واليا واحد للإقليمين معا وأبرز قبائل آوان الكردية القبيلة الهذبانية الّتي كان لها بطون بنو شداد الّتي تمكنت من تأسيس الإمارة الشدادية، وأخيرا إقليم الجبال (الجبل): ويقع في الأجزاء الغربية الشمالية من بلاد فارس(إيران حاليا)[2]. هذا، وقد استمر اسم إقليم الجزيرة متداولا حتّى القرن السادس هجري حين قام السلطان سنجر السلجوقي – ت 552هـ– بإنشاء إقليم كرستان واتخذ من القلعة بهار الّتي تقع شمالي همذان قاعدة له، وكان يضم ولايات همدان ودينور وكرمنشا في شرقي سلسلة جبال زاكروش وولايات شهرزور وسنجار غربي هذه السلسلة، ويحد كردستان شرقا العراق العجمي وشمالا أذربيجان وغربا العراق العربي وجنوبا خوزستان، وإلى غاية القرن السابع الهجري لم تكن تعرف هذه المقاطعات إلا باسم إقليم الجزيرة أو ديار بكر وأول مؤرخ ذكر اسم كردستان هو حمد الله ابن المستوفي القزويني في كتابه نزهة القلوب عام 740هـ[3].

وأمّا عن عقيدة الأكراد فكانت الزرادشتية والمسيحية قبل مجيء الإسلام، وعلى إثر الفتح الإسلامي للأقاليم الكردية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– أقبل الأكراد على الإسلام طواعية لأنّهم وجدوا تعاليمه ومبادئه السمحة تتفق مع ما جلبوا عليه من شجاعة وأخلاق فاعتنقوه وأخلصوا له كل الإخلاص[4]، وهو ما أدى إلى حصول تغييرات جذرية في حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية[5].

---

[1]– أحمد ميرزا ميرزا، أشهر قادة فتح كوردستان، ص728– 729 .

[2]– نفسه، ص729.

[3] – حمد الله مستوفي قزويني، كتاب نزهة القلوب، تح طايليسترنج، تهران، 1342هـ، ص127. شاكر خصباك، الكرد والمسألة الكردية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1989،ص22–25. باسيلي نيكيتين، الكرد، ص 69.

[4] – محمد أمين زكري بك، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور حتى الآن، تعريب: محمد عوني، مطبعة السعادة، مصر، 1939، ص 128 .

[5] – أحمد ميرزا ميرزا، أشهر قادة فتح كوردستان ، ص740 .

وفي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان – ت86هـ – ساعد الأكراد الثائر عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته ضد الأمويين ممّا أدى إلى نقمة الحجاج الثقفي عليهم أشد نقمة حيث أحدث فيهم مذابح عامة، وخلال ولاية مسلمة بن عبد الملك تعرضت أذربيجان وباقي الأقاليم الكردية إلى غارة وتدمير كبير من طرف الخرز خلال عام 108هـ، ووصلت سيول الغزو والاجتياح حتّى الموصل وهناك تصدت لهم جيوش المسلمين بقيادة سعيد بن عمر الحرشي وتمكن من استرداد جميع ما كان قد سلب من أموال الأكراد[1].

ساهم الكرد في الدعوة العباسية حيث ساهموا في المتغيرات السياسية الجديدة كالشعوب الإسلامية الأخرى، ففي بداية الدعوة العباسية كاتب الداعي العباسي «قحطبة الناس يدعوهم، فكتب إلى إسحاق بن مسلم العقيلي وكتب إلى سفيان بن معاوية وروح بن حاتم المهلبيين بالبصرة. وبعث بكتابه إلى إسحاق بن مسلم مع رجل من الأكراد، فأقبل الكردي حتّى إذا كان بهيت ظفرت به مسالح مروان ففتشوه فأصابوا الكتاب في طي عمامته فبعث به صاحبهم إلى مروان، فكتب مروان إلى إسحاق بن مسلم أنّ صاحب هيت أصاب مع رجل من الأكراد كتاباً من رأس الخطيئة وعمود الضلالة قحطبة يدعوك إلى دعوته ويزين لك ضلالته، ومثلك في خطرك وقدر النعمة عندك لم تستدرجه خدع السفهاء، فانظر لنفسك ومنصبك وعشيرتك، فإنّ الأمر الّذي يريده القوم قتلك وقتل نظرائك، وقد أمرت لك بمئة ألف درهم فاقبضها من العامل قبلك، واقدم لتؤازر خليفتك على ما نابه، وتشركه في جهاد عدوه والسلام».[2]

أولى خلفاء بني العباس الأوائل عناية كبيرة بالأقاليم الكردية حيث نصّبوا عليها كبار الولاة، فقد عيّن أبو جعفر المنصور واليا على أقاليم الجزيرة وأذربيجان في عهد أبي العباس السفاح، كما نصّب الخليفة المهدي ابنه هارون الرشيد واليا على تلك الأقاليم الكردية وسائر

[1] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص 43-44. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4، ص202-203. أرشاك بولاديان، الأكراد من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي وفق المصادر العربية، ترجمة:مجموعة من المترجمين، دار التكوين للنشر، 2001، ص 68- 73. محمد أمين زكري بك، خلاصة تاريخ الكرد، ص 134-135.

[2] – مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تح عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة، بيروت،1391هـ، ص355 . 356 .

البلاد الغربية، ولعل السبب وراء اهتمام الخلفاء العبّاسيون بهذه المناطق يرجع إلى مشاركة الأكراد في الثورات والقلاقل الّتي نشبت في إقليم الجزيرة أيام جعفر المنصور[1].

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد أغار الخزر على إقليم الجزيرة وأذربيجان وأحدثوا بهما مذابح عامة، إلّا أن الخليفة تصدى لهم وتمكن من طردهم من البلاد سنة 183هـ[2]، وفي المواجهة الّتي جرت بين المأمون والأمين وقف الأكراد إلى جانب المأمون، أمّا في عهد المعتصم بالله فقد ثار الأكراد بنواحي الموصل بقيادة جعفر بن مهر حسن- مير حسن- ت؟ - الّذي كان من بيت كردي عريق وقد انهزم هذا الأخير في البداية أمام قوات الخليفة، غير أنّه أحرز نصرا كبيرا في المرة الثانية على قوات الخليفة في جبال «داس»، الأمر الّذي أدى بالخليفة سنة 226هـ إلى تجريد قوة كبيرة بقيادة إيتاخ الّذي أحدث مذابح في صفوف الأكراد وانهزم على إثرها الزعيم الكردي[3].

وفي سنة 231هـ قامت ثورة كردية أخرى كبيرة في مقاطعات أصفهان وإقليم الجبال وفارس فأخمدت بعد مشقة كبيرة، كما اشترك الأكراد في ثورة يعقوب الصفاد الّتي اندلعت سنة 226هـ، والثورة الّتي قادها «منصور مساور الخارجي» سنة 252هـ[4].

ولعب الكرد كذلك أهمية في ثورة الزنج (255-270هـ/869-883م)، وقد بدأت تلك العلاقة بهذه الثورة عن طريق محمد بن عبيد الله بن ازادمرد الكردي حيث كاتب صاحب الزنج عدة مرات وأبدى استعداده للانضمام والتحالف معه ضد الدولة العباسية مقابل أن يكون نائبا لأحد قواده وهو علي بن آبان المهلبي على كورة الأهواز سنة 262هـ[5].

وقد استجاب لطلبه هذا سنة 262هـ، ولكن هذا التحالف لم يدم طويلا حيث خضع ابن ازادمرد الكردي لسلطة صاحب الزنج حيث فرض عليه شروط قاسية منها إرسال الخراج الكامل لمنطقة نفوذه لسنة 266هـ، وفي هذه الأثناء طلب الموفق من ابن ازادمرد الكردي

---

[1] - محمد أمين زكري بك، خلاصة تاريخ الكرد ، ص136-137. أرشاك بولاديان، الأكراد، ص91.

[2]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 622.

[3]- محمد أمين زكري بك، خلاصة تاريخ الكرد ، ص137-138 .

[4]- المرجع نفسه، ص138. أرشاك بولاديان، الأكراد، ص102.

[5]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص 527. ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج6، ص 325- 327. خان زاد صباح محي الدين، علاقة الدولة الفاطمية بالكرد (358-567هـ/968-1171م): دراسة سياسية حضارية، المكتب الجامعي الحديث، 2015،ص39.

التعاون معه للقضاء على صاحب الزنج وبهذا نجح الموفق في إعادة السيطرة على مدن الأهواز [1].

وفي سنة 281هـ، قدم الأكراد مساعدات وخدمات جليلة لتأسيس الدولة الحمدانية، وهو ما أدى بالخليفة المعتضد بالله إلى محاربتهم وحسب الرسالة التي أوردها الطبري انتصر عليهم وألحق بهم هزيمة شنيعة: كتاب الخليفة المعتضد إلى نجاح الحرمى حول الواقعة بينه وبين (الأكراد والأعراب) من اتباع هارون الشارى وحمدان بن حمدون التغلبي: «بسم الله الرحمن الرحيم. كتابي هذا وقت العتمة (سلخ ذى القعدة من سنة 281هـ)، وقد نصره الله، وله الحمد، على الأكراد والأعراب، واظفرنا بعالم منهم وبعيالاتهم، ولقد رأينا ونحن نسوق البقر والغنم كما كنّا نسوقها عاما أولا، ولم تزل الأسنة والسيوف تأخذهم، وحال بيننا وبينهم الليل، وأوقدت النيران على رؤوس الجبال، ومن غد يومنا، فيقع الاستقصاء،وعسكري يتبعني إلى الكرخ. وكان وقاعنا بهم وقتلنا إياهم خمسين ميلا، فلم يبق منهم مخبر والحمد لله كثيرا، فقد وجب الشكر لله علينا والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد نبيّه وآله وسلم كثيرا» [2].

وفي سنة 293هـ اندلعت ثورة محمد بن هلال الكردي ضد أبو الهيجاء عبد الله ابن حمدان التغلبي بالموصل الّذي لم يتمكن من القضاء عليه وعلى ثورته إلى أن جاءته النجدة من الخليفة المكتفي بالله فزحف على قبيلة الهذبانية التي اضطرت بدورها إلى الزحف إلى أذربيجان مع قائدها، فجمع القائد أبو الهيجاء جيشا جرار وحاصرهم إلى أن طلبوا منه الأمان وأرسلوا محمد بن هلال رهينة إلى الموصل فقتل هنالك [3].

وفي عهد الخليفة المقتدر بالله حدثت عدة ثورات كردية مثل ثورة عبد الله بن إبراهيم مع عشرة آلاف كردي في نواحي أصفهان في سنة 295هـ. وخلال نفس السنة وضع «ديسم بن إبراهيم» نواة إمارة الدولة الهذبانية التي استولى عليها فيما بعد أولاد محمد الرادي وحولوها إلى الدولة الروادية التي دامت إلى غاية القرن السابع الهجري [4].

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص 528. ص40. ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج4، ص27-29.

[2]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج10، ص37.

[3]- محمد أمين زكري بك، خلاصة تاريخ الكرد، ص139 .

[4]- محمد أمين زكري بك، خلاصة تاريخ الكرد ، ص140.

لعب الكرد دورا بارزا في الحركات المناهضة للدولة العباسية خاصة في القرن الثالث الهجري، فكان لهم دور في الحركات العلوية بل إنّ بعضهم شاركوا في دعواتهم السرية منذ بدايتها فكانت بلادهم ملجأ لهم ليتخفوا عن أعين سلطة العباسيين، كما انطلقت بوادر هذه الحركات من بلاد الكرد نحو الشام وهذا بسبب تشيّع بعض أمراء الكرد نذكر منهم الأمير بدر بن حسنويه الكردي – ت 405هـ- حيث اعتنق المذهب الشيعي حتّى أنه دفن في مشهد الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه- بالكوفة، وأيضا الأمير أبو شجاع عاصم بن أبي النجم – ت ؟- الكردي الّذي انتمى هو الآخر للمذهب الشيعي، فكان أحد الأمراء الجاوانية في الحلة[1].

كما ساهم الكرد في أذربيجان بحركة الرافع بالله الشيعية في نهاية القرن الثالث الهجري، وظهر المهدي الكردي في بلاد الكرد حيث ادعى أنّه المهدي المنتظر، وبهذا كانت المحطة الأولى لنشاط العلويين قبل خروجهم من العراق والاتجاه نحو غرب العالم الإسلامي لإنشاء دولتهم أي الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا ثمّ في مصر[2].

وفي العهد البويهي كانت المناطق الّتي ينتشر فيها الأكراد مسرحا للصراع بين البويهيين والحمدانيين والكرد، وقد تمكن عضد الدولة البويهي من انتزاع ميافارقين والموصل وآمد (ديار بكر) في الفترة الممتدة بين 367-368هـ[3].

كما هاجم منطقة الأكراد الهكارية سنة 369هـ حيث شكل هؤلاء عقبة في صراعه مع الحمدانيين، كما كانوا يقطعون الطرق للسابلة، وامتد الحصار طويلا، ما اضطر الأكراد إلى طلب الأمان وتسليم القلاع[4].

وأثناء الصراع الداخلي بين بختيار بن معز الدولة البويهي وعضد الدولة، قام هذا الأخير باستقطاب أبا النجم بن حسنويه وأمده بقوة عسكرية وكلفه بضبط أمور تلك النواحي وبكف تعدي من بها من الأكراد[5].

---

[1]- خانزاد صباح محي الدين، علاقة الدولة الفاطمية بالكرد ، ص37.

[2]- نفسه، ص37.

[3]- ابن الأثير،الكامل،ج7، ص 365-366. محمد سهيل طقوس، تاريخ الأكراد 637-2015م، دار النفائس للنشر، بيروت، 1436هـ/2015م، ص 44.

[4]- ابن الأثير، الكامل، ج7، ص366. محمد سهيل طقوس، تاريخ الأكراد ، ص 44.

[5]- محمد سهيل طقوس، تاريخ الأكراد، ص44.

وبهذا نجد أنّ الأكراد شكلوا مركز الثقل في الصراعات الّتي نشبت بين الأمراء البويهيين، ومثال ذلك أنّ جلال الدولة البويهي طلب المساعدة من أبي الشوك فارس بن محمد بن عناز الكردي أثناء صراعه مع أبي كاليجار سنة 420هـ فلبى طلبه[1].

كما تأثر الأكراد كباقي الشعوب الأخرى بالتطورات السياسية الّتي شهدتها الدولة العباسية منذ القرن الثالث الهجري، حيث تراجع دور السلطة المركزية وعرف النظام المالي السائد فيها فسادا كبيرا إضافة إلى تعسف الولاة ممّا مهد لظهور مرحلة جديدة دخلت فيها الشعوب الإسلامية ولاسيّما في أقاليم المشرق الإسلامي الّتي كثرت بها الانفصالات عن مركز الخلافة الإسلامية، وينبغي أن نشير أنّ ظهور البويهيين كقوة فتية في المنطقة لم يحول دون بروز العديد من الإمارات، فلم تفلح بعض محاولاتهم لجعل إمارتي الحسنويهية (348-406هـ/959-1015م) والمروانية (373-489هـ/983-1096م) الكرديتين منطقة خاضعة لسلطتهم نظرا لمقاومة رؤساء الأكراد وكذلك لصعوبة السيطرة على تلك المناطق الجبلية[2].

كما ساعد الموقع الجغرافي لبلاد الأكراد على ظهور الإمارات في مناطق الثغور كالشدادية (340-595هـ/951-1198م) في آران والروادية (337-463هـ/948-1071م) في إقليم أذربيجان والمروانية (373-489هـ/983-1096م) في إقليم الجزيرة، وقد كانت تلك الإمارات بعيدة عن تأثيرات السلطة المركزية ومعرضة دوما لخطر دار الحرب، فكان لطبيعة الموقع ووظيفته يتطلب وجود سلطة سياسية قائمة تقوم بالدفاع عن تلك المناطق الحدودية، بعد أن تراجع دور الخليفة في ذلك وتزايد نفوذ الأمراء الأكراد في المنطقة[3].

أمّا من ناحية القرب فإنّ المناطق المتاخمة للبويهيين التي ظهرت فيها إمارتي الحسنويهية (348-406هـ/959-1015م) والعنازية (381-511هـ/991-1117م) في غربي إقليم الجبال حتمت على الأكراد الاحتكاك مع البويهيين هناك والذي نتج عنه علاقات

---

[1]- محمد سهيل طقوس، تاريخ الأكراد، ص 45.

[2]- قادر محمد حسن، الإمارات الكوردية في العهد البويهي، دراسة في علاقاتها السياسية والاقتصادية (334-447هـ/ 945-1055م)، مؤسسة موكرياني للبحوث والنشر، أربيل، 2011، ص57 .

[3]- قادر محمد حسن، الإمارات الكوردية، ص70 .

اتسمت على الأغلب بأنّها ودية، حيث تربطهم مصالح مشتركة، وكان لها دور في أن تبعد عنهم إلى حد ما خطر البويهيين في شؤونهم الخاصة وبالتالي تفرغوا للعناية ببلادهم والنهوض بسلطاتهم فيها[1].

وهكذا توفرت الظروف المساعدة للأكراد للسيطرة على مناطقهم، وتأسيس إماراتهم في أراضيهم، ولعل أهمها طبيعة وموقع الأقاليم الّتي يقطنها الأكراد الّتي ظهرت بها الإمارات الكردية.

وخلاصة القول في هذا الفصل أنّ الدولة العباسية شهدت التقاء كثير من الأجناس من عرب وفرس وأتراك وديلم وكورد وأيضا كثير من الطوائف الدينية من مسلمين وشيعة وأهل ذمة في العراق قلب الدولة وغيرهم، وهذا الخليط البشري ذو الدماء واللغات والعادات والتقاليد والآراء والمذاهب المتعددة أكسب الدولة العبّاسية لونا خاصا ليس فقط في الحياة الاجتماعية بل في جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية وغيره، وقد أثّر كل جنس من هذه الأجناس تأثيرا مخالفا في أحوال الدولة الداخلية والخارجية، فالظاهرة الاجتماعية البارزة في حياة المجتمع العبّاسي هو ذلك الانصهار التدريجي لمجموعة عناصر حضارية ذات أصول مختلفة قد تكون عربية قبلية أو إسلامية أو فارسية أو يونانية، وبهذا كان المجتمع العبّاسي مجتمعا متفتحا أعطى الفرصة لجميع العناصر البشرية أن تتلاقى وتنصهر في بوتقة واحدة.

---

[1]- قادر محمد حسن، الإمارات الكوردية ، ص 71-72.

الفصل الثاني

طبقات المجتمع العباسي

أولا- الطبقة الخاصة

ثانيا- الطبقة الوسطى

ثالثا- الطبقة العامة

رابعا- دور المرأة في المجتمع العباسي

اتخذت الدولة العباسية من الدعوة للرضا من آل البيت شعارها السياسي، ومن الوعد بتحسين أوضاع المجتمع في كافة مظاهره لجميع شرائحه شعارها الاجتماعي، وبسط العدل بين الناس فقد خطب داود بن علي بعد بيعة أبو العباس السفاح فقال أيّها الناس: «لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله»[1]، وعلى هذا الأساس سنحاول معرفة طبقات المجتمع العباسي في هذا الفصل.

أولا- الطبقة الخاصة:

1- الخلفاء:

ورد لفظ الخلافة في القرآن الكريم وفي كثير من الأحاديث النبوية الّذي يدل على جملة من المعاني منها الّذي ينوب عن غيره حيا أو ميتا والقائم بها بعد وفاة رسول الله يسمى الخليفة لأنه خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ومن ثم فالخلافة هي الولاية العامة الجامعة القائم صاحبها نيابة عن الرسول- صلى الله عليه وسلم- بحراسة الدين والدنيا وأول من تسمّى بها في الإسلام هو أبو بكر الصديق – رضي الله عنه-، ثمّ لقب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه-، وعلي- رضي الله عنه- بأمير المؤمنين، وكل هذه الألقاب تلقب بها خلفاء بني العباس، ووصل العباسيون إلى الخلافة عن طريق القوة الّتي أطاحوا بها الخلافة الأموية، وهي ما يعرف في أدبيات الأحكام السلطانية بولاية المتغلب، لكن حتّى يعزّزوا من شرعية حكمهم احتاجوا إلى بيعة جماهير المسلمين رغم الصبغة الوراثية التي صبغوا بها حكمهم.

والخليفة هو رأس الفئة الحاكمة في المجتمع فلا يحكم الدولة سوى خليفة واحد، يقوم بأمور رعيّتها كإقامة الصلاة وجباية الخراج وحماية الدولة من أي عدوان خارجي[2].

وتبعا للحوادث السياسية والتغيرات الاقتصادية في الدولة الإسلامية طرأت على مجتمع الخلفاء وعاداتهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية تحولات كثيرة، خاصة في المراسيم الخاصة بالخلفاء من طريقة استقبال الوفود وفي زيّهم وشعارهم، وألقابهم الّتي تلقبوا بها ولم يلقب بها

---

[1]-أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة:العصر العباسي الأول:طبع شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1352هـ/1933م ، ج3، ص 9.

[2]- مقدمة ابن خلدون، ص238-239.

خلفاء بني العباس أنفسهم، وحصل ذلك تحت تأثير العناصر الفارسية المسلمة الّتي تذرج تنفذها في الدولة بمرور الزمن، وقد تكلم عنها الصابئ في كتابه: رسوم دار الخلافة، فكانوا أشبه بالملوك الفرس ما خلا وضع التيجان على رؤوسهم.

كان المجتمع العبّاسي يضم عناصر بشرية من أمم متعددة سواء من الفرس أو الروم أو الأرمن الترك أو الأحباش، الّذين ازداد تأثيرهم في المجتمع العبّاسي بشكل ملحوظ[1].

أقام العبّاسيون حقّهم في الحكم بوصفهم وارثي بيت الرسول وقد تأثّروا بنظم حكم الفرس فصبغوا بها دولتهم، وبهذا أصبح الخلفاء العبّاسيون يحكمون بتفويض من الله لا من الشّعب[2]، ومن أمثلة ذلك قول أبو جعفر المنصور:« إنّما أنا سلطان الله في أرضه،أسوسكم بتوفيقه وتسديده وأنا خازنه على فيئه»[3].

كان الخلفاء العباسيون قد استمدوا مصدر شرعيتهم باعتبارهم من بيت النبوة، وأنّهم الأحق بالحكم من غيرهم وسلطته السياسية مستمدّة من مكانته الدينيّة لذا حرصوا على أن يظهروا الفارق بين خلافتهم وخلافة بني أمية[4]، وبموجب تلك الحقوق والصفات الّتي اتّصفوا بها كان حكمهم مطلق بيدهم أمور الدين والدنيا، وأصحاب الأمر والنّهي في الدولة، وماداموا كذلك فإنّه كان عليهم أن يحيطوا أنفسهم بالقداسة والرهبة فاحتجبوا عن الرعيّة، ووضعوا قواعد من المراسيم أشبه بتلك الّتي سادت في بلاط آل ساسان بحيث ينحني الداخل على الخليفة أمامه، ويقبّل الأرض بين يديه، وإذا قرب منه قبّل طرف ردائه، وهذا شرف كبير لا يناله إلّا المقرّبون، وهذا لم يقم به خلفاء بني أمية، وزيادة في تقوية وضعيتهم الدينية تلقب كل خليفة منهم بلقب من أول خليفة إلى آخر واحد منهم، كما أنّ احتجابهم عن النّاس جعلهم لا يؤمّون النّاس في الصّلاة ولا يقيمون خطبة الجمعة مثلما كان يفعل الخلفاء الراشدون، وكثير من الخلفاء الأمويين[5].

---

[1]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد من بداية القرن السادس الهجري حتّى سقوط بغداد سنة 656هـ/1258م، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الوسيط، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة،1427 هـ/2006م ،ص18- 19.

[2]- إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي،ص211.

[3]-ابن قتيبة، عيون الأخيار، دار الكتب المصرية، القاهرة،1343هـ/1925م،ج2، ص274. الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج8،ص89 .

[4]- إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي، ص213.

[5]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 79.إبراهيم أيوب،التاريخ العباسي،ص212-213.

وقد استبدّ الخلفاء العبّاسيون في حكمهم حتّى عهد المنتصر، ثمّ أخذ نفوذهم يضعف تدريجيا نتيجة لازدياد نفوذ الأتراك، فأصبح خلفاء العصر العبّاسي الثاني مسلوبي السلطة لا نفوذ لهم حتّى أنّه غدا معظمهم ألعوبة في أيدي قادة الأتراك[1].

وحتّى يتخلصوا منهم اضطر الخليفة المستكفي - 333-338هـ- أن يستنجد ببني بويه فأتى معز الدولة أحمد بن بويه إلى بغداد لمساعدته، ولكنّه لم يمض وقت قصير حتّى حجر على الخليفة وسمل عينيه[2]. ثمّ سيطروا على الخلفاء سيطرة كاملة، لهم الأمر والنهي، وقد عبّر ابن الأثير[3] عمّا وصلت إليه الخلافة العبّاسية في عهدهم بقوله:« ازداد أمر الخلافة إدبارا ولم يبق لهم من الأمر شيء البتّة وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء فلمّا كان أيّام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أنّ الخليفة لم يبق له وزير، وإنّما كان له كاتب يدبر إقطاعه وإخراجاته لا غير»[4].

ولم يكن الأمراء البويهيون وحدهم هم الّذين استهانوا بالخلفاء العبّاسيين، بل إنّ عامّة النّاس قد تطاولت عليهم واستهانوا بهم، ففي سنة 362هـ حين استولى الروم على نصيبين[5] وقتلوا الكثير من المسلمين، فرّ بعضهم إلى بغداد واستنفروا النّاس في المساجد وكسروا المنابر ومنعوا الخطيب من الخطبة وحاصروا دار الخلافة وحاولوا الاعتداء على الخليفة المطيع لله الّذي سمع تعنيفهم إيّاه لعجزه عن حماية المسلمين، ثم قام الأمير البويهي عز الدولة بختيار بمصادرة أموال الخليفة المطيع لله سنة 362هـ[6].

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص380. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص194.

[2]- ابن خلدون، ديوان المبتدأ،ج3، ص522.

[3]- الكامل في التاريخ،ج7،ص207.

[4]- وقد أشار إلى ذلك المسعودي بقوله: «وغلب على الأمر ابن بويه والمطيع في يده لا أمر له ولا نهي ولا خلافة تُعرف ولا وزارة تُذكر». مروج الذهب، ج4، ص296. ونشير هنا أنّ من أعظم الأسباب في ذلك أنّ الديلم كانوا يتشيّعون ويغالون في التّشيع، ويعتقدون أنّ العبّاسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقّيها، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثّهم على الطاعة. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص208.

[5]- نصيبين: مدينة عامرة في بلاد الجزيرة الفراتية على طريق القوافل بين الموصل والشام،كثيرة المياه والبساتين،فتحها المسلمون صلحا سنة 17هـ. ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج5،ص288-289.

[6]- مسكويه، تجارب الأمم، ج5، ص 392-396. وفاء محمد علي، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، (د ت)، ص45. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص33.

ولم يترك الأمراء البويهيون للخلفاء العبّاسيين الانفراد بأي مظهر من مظاهر السلطة فشاركوهم في مظاهر السيادة حتّى كان اسم الأمير البويهي يذكر في نهاية خطبة الجمعة مع اسم الخليفة وينقش اسمه إلى جوار اسمه على السكة[1].

وقد كان للخلفاء رسوم وترتيب خاص سواء في خروجهم في المواكب أو أثناء مبايعتهم بالخلافة فمن تلك الرسوم جلوس الخليفة على سرير الخلافة في المواكب، وكان يفرش للخليفة على سرير الخلافة فرش مرتفعة وهي الّتي يعبّر عنها بسدة الخلافة، وكان ذلك الكرسي مرتفعا في دست[2] أرميني أوخز، ويكون فرش مجلس الخلافة أرمنيا في الصّيف والشّتاء[3]، وفي القرن الرابع الهجري كان الخليفة يجلس على كرسي، ثمّ يحضر النّاس بأسرهم ويبايعونه وذلك على الطريقة العربية البسيطة[4].

وتعد البيعة والتّولية من أهم المناسبات الرسمية في دار الخلافة بالنّظر لما تنطوي عليه من إجراءات عديدة سياسية وإدارية وفنيّة، وقد تطورت هذه الإجراءات بتطور مؤسسة الخلافة ذاتها، فازدادت دقة وتعقيدا مع مرور الزمن، إلّا أنّه على الرّغم من هذا التطور بقيت التّقاليد العامة لإجراء البيعة تحتفظ بنصيبها من الاهتمام[5].

وعند النظر في طبيعة تركيب النّظام السياسي للدولة العبّاسية تتضح لنا أهم الأطراف المؤثّرة فيه، فقد اعتمد العبّاسيون على ثلاثة عوامل أساسية هي الدين والجيش والطبقة ذات النفوذ من كبار رجال الدولة، وقد انعكس تأثير هذه العوامل الثلاث، على ما يتّخذ من قرارات وإجراءات إذ لعبت هذه العناصر دورا كبيرا في تولية الخلفاء منذ زمن مبكر من قيام هذه الدولة[6].

1- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص35.

2- الدست: مجلس الخلافة ويعني صدر المجلس. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص151. الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة المطبعة الخيرية، مصر، 1988، ج1، ص518.

3- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص90. القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح عبد الستار أحمد فراج، الكويت، 1384هـ/1964م، ج3، ص343.

4- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص256.

5- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة في العصر العباسي الأول 132-247هـ، تموز للنشر، دمشق، 2013، ص79.

6- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة ، ص80.

وإنّ مظاهر الأبهة والترف كانت ظاهرة في مواكب الخلفاء وأول من أظهر الركوب بحلية الذّهب هم الخلفاء العبّاسيون فالخليفة المعتز وهو الخليفة الثالث عشر أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذّهب[1].

وعندما ركب الخليفة المقتدر في عام 320هـ لقتال مؤنس الخادم وهي الحادثة الّتي قتل فيها خرج من داره في أكمل لباس وموكب، فكان عليه قباء ديباج فضّي، وعمامة سوداء، وعلى كتفه وصدره وظهره البردة، ومتقلدا بذي القفار سيف الرسول – صلّى الله عليه وسلم– وحمائله أدم أحمر، وفي يده اليمنى الخاتم والقضيب[2].

إذ كانت عادة الخلفاء العبّاسيين في القرنين الرابع والخامس الهجريين، أن يلبس الخليفة قلنسوة محدّدة وقباء كلاهما أسود اللّون، ويلبس خفا أحمر، وكان ينكر على الداخل إلى دار الخلافة بنعل أو خف أحمر ولكه[3] حمراء لأنّه لباس الخليفة ويعده خارجا عن طاعته، وكان يجعل بين متحدثي الدست عن يساره سيفا، ويضع بين يديه مصحف على الرسم العثماني[4].

وبالغ الخلفاء العبّاسيون في الظهور بالثياب المطرّزة بالذّهب، واقتناء الجواهر، فحين وصل رسل الروم إلى الخليفة المقتدر بالله كان جالسا في التاج بعد أن لبس الثياب الديبقية[5] المطرّزة بالذّهب، ومن يمنة السرير تسعة عقود معلّقة، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة، شديدة اللّمعان لها ضوء كضوء النّهار، وقد ازداد ولع الخلفاء باقتناء الجواهر في هذه الفترة واستمرّ ذلك إلى سقوط بغداد[6].

---

[1]–المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص120. عبد العزيز الدوري، دراسات، ص10–11. وليم الخازن، الحضارة العباسية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1984، ص27. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص24.

[2]– جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص25.

[3]– لكه: ضرب من الأحذية، صيغ أحمر يصنع به جلود المعزى للخفاف وغيرها. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص952.

[4]– الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص75–90.

[5]– الديبقية: نسبة إلى قرية في مصر اسمها ديبق، ويقال أنّ الأقمشة والثياب الّتي تسمى بهذا الاسم تنسب أيضا إلى قرية ببغداد تقع على نهر عيسى في الجانب الغربي، ولا نستطيع التفريق بين المنسوجات الديبقية البغدادية، والديبقية المصرية، لأنّها ترد منسوبة إلى ديبق دون تخصيص. ناجي معروف،الثياب البغدادية في العصور العباسية،مجلة الأقلام، ع5، السنة الخامسة، ص60.

[6]– الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص423. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص26.

ومن علامات السيادة لدى الخلفاء أن يضرب على باب الخلافة بالنّوبة والدبادب قبل وقت الآذان إعلاما لموظفي دار الخلافة بأنّ وقت الصلاة قد قرب، ولا يوقف ذلك إلّا أيّام العزاء، وقد استمرّ هذا الرسم إلى سقوط الخلافة في بغداد إذ حاول الخليفة أن يتميّز وحده بهذه الميزة دون أن يتخذها غيره من الأمراء إلّا أنّ ذلك لم يطل، ففي عام 368هـ أمر الخليفة بأن تضرب الدبادب على باب عضد الدولة البويهي، في أوقات الصلوات الثلاث الغداة والمغرب والعشاء، وفي عام 436هـ ضرب الطبل أمام دار الأمير خمس مرات كما كان يضرب للخليفة[1].

وأمّا عن مجالس الخلفاء في العصر العباسي، فقد تغيّرت عمّا كانت عليه من قبل، حيث تميّزت حياة الخلفاء الراشدين بالبساطة، اتّخذوا من المساجد محلا لممارسة جميع مسؤولياتهم السياسية والإدارية، ثمّ بدأت مظاهر الفخامة مع العصر الأموي، وبلغت ذروتها في العصر العبّاسي منذ خلافة أبي جعفر المنصور، الّذي وصفه ابن الطقطقي: «من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم، وذوي الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة، وقورا شديد الوقار، حسن الخلق في الخلوة، من أشدّ الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح، فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام، تغيّر لونه واحمرّت عيناه، وانقلبت جميع أوصافه»[2].

فافترش المهدي الفرش الطبرى[3] إضافة على ما كان في قصره من البسط والنمارق الأرمنية، ووصفت بعض مفروشات قصر الرشيد الّتي كان يباهي بها وفود وملوك الأمم حيث جعل مكان أعمدة الحديد فضة، وكان المضرب الّذي يجلس فيه والقباب والفراش وملابسه كلها من الخز[4].

1- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص258.

2- الفخري في الآداب السلطانية، ص 155.

3- الطبرى: هي نوع من المفروشات الفاخرة تصنع في طبرستان. الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب، تح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1357هـ/1938م، ص284.

4- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص146.

وكان معظم الخلفاء العباسيين يجلسون بعيدا عن ندمائهم خلف ستارة، فقد ذكر أنّ المنصور «لم يكن يظهر لنديم قط، وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعا وبين الستارة والندماء مثلها»، وتشبه به المهدي والرشيد وبعض الخلفاء الآخرين[1].

وقد تنوعت المجالس الخاصة بالخلفاء ومن أهم هذه المجالس نذكر:

أ- **مجالس الحكم:** الّتي اعتبر الخليفة فيها أعلى سلطة فهو صاحب القرار النهائي في إمضاء الأمور، بمساعدة خاصته، كالأمراء والوزراء وكبار القادة ورجال الدواوين، يحيط به بعض الخدم وحرس الخليفة[2].

إلّا أنّ هذه المشاركة في إمضاء الحكم لا تبيح لأحد مهما علت منزلته أن ينقض قرارا اتخذه الخليفة إلا بعد مراجعته في ذلك، وإلا عدّ متمردا وناقضا للبيعة، كما حصل مع عبد الله بن علي بعد موت أبي العبّاس، وإذا كان مجلس الحكم يتعلق بأمور الدولة العامة، فقد يضم الوزراء والقادة أو أصحاب الدواوين حسب طبيعة الموضوع الّذي يتناوله المجلس[3].

ب- **مجالس النظر في المظالم:** إنّ النظر في المظالم «وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي»، وقد أولى الخلفاء أهميّة كبيرة للاستمتاع إلى ظلامات النّاس باعتبارهم السلطة العليا والمسؤولين عن إزالة أسباب الظلم[4].

وكان الخليفة المهدي أول من جلس للمظالم، وكان أول جلوسه بأن أرجع للنّاس ما أخذ المنصور من أموالهم، الّذي كان ذلك بوصية منه له، وكان الهادي إذا جلس للمظالم أمر «بالستور فرفعت وبالأبواب ففتحت فدخل النّاس على بكرة أبيهم»، ثمّ جلس لها الرشيد ثم المأمون، وكان آخر من جلس لها المهتدي[5].

---

[1]-الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تح أحمد زكي باشا، طبع بالمطبعة الأميرية، القاهرة، 1322هـ/1914م، ص34. المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 254-256.

[2]- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص148.

[3]- نفسه، ص149

[4]- مقدمة ابن خلدون، ص276. حمدي عبد المنعم، ديوان المظالم نشأته وتطوره واختصاصاته مقارنا بالنظم القضائية الحديثة، دار الشروق، 1403هـ/1983م، ص35.

[5]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص215. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج5، ص392. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص 274-275. يوسف العش، تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص20.

ت-**مجالس السمر والترويح:** امتاز الخلفاء العباسيين بميلهم إلى مسامرة الأذكياء من الرجال والانتفاع بعلومهم وآدابهم ونوادرهم وما يروونه من أخبار الأمم السابقة وآدابها وهذا ما أدى إلى انتشار مثل هذه المجالس فقد كان للخليفة أبو العباس السفاح سمّار عرفوا بالعلم والأدب من أمثال خالد بن صفوان[1] وعبد الله بن شبرمة[2]، وكانت موضوعات هذه الأسمار لها علاقة بطبيعة تفكير الخليفة ونهجه، فمثلا المنصور كان يفضل أن يجعل مهمات إدارة الدولة وسياستها موضوعا لأسماره مع من يجالسه، فكان «إذا صلّى العشـاء الآخرة ناظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سمّاره في ذلك»[3].

وبالرغم من قصر مدة حكم الهادي إلّا أنّه كان أيضا يفضل مسامرة أهل العلم والأدب، فيروي عن عيسى بن دأب أنّه حدّث الهادي حديثا طريفا عن رجل نصح هشام بن عبد الملك، وفي يد الهادي لقمة رفعها إلى فمّه، فأمسكها وقال: «ويحك، أعد عليّ، فقلت يا أمير المؤمنين أسغ لقمتك، فقال حديثك أعجب إليّ»[4]، كما اشتهر الرشيد بعقد مجالس العلم والأدب، وكان ينزل أهل العلم المنزلة الرفيعة، فكان الكسائي[5] والأصمعي[6] يلازمانه في

---

[1]- خالد بن صفوان: هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم، أبو صفوان التميمي المنقري البصري، أحد فصحاء العرب وخطبائهم، كان راوية للأخبار خطيبا مفوّها بليغا، من حكمه وأقواله «لا تطلبوا الحوائج في غير حينها، ولا تطلبوها إلى غير أهلها، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمنع أهلا»، توفي خالد بن صفوان سنة 135هـ. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج3، ص1231.

[2]- عبد الله بن شبرمة: هو عبد الله بن شبرمة بن طفيل بن حسان الضبي، أبو شبرمة القاضي، الإمام العلامة، فقيه العراق، ولّاه المنصور قضاء الكوفة، كان ابن شبرمة عفيفا، صارما، عاقلا خيرا، وكان شاعرا كريما جوادا، له نحو من خمسين حديثا، توفي سنة 144هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج6، ص346-349.

[3]- البلاذري، أنساب الأشراف، ج11، ص369-370. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص97-100. المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص226-256. طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص158-159.

[4]- الزجاجي، أمالي الزجاجي، تح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1407هـ/1987م، ص19. طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص159.

[5]- الكسائي: هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي بالولاء الكوفي المعروف بالكسائي، كان إماما في اللّغة والنّحو والقراءات، أصله من الكوفة،أدّب الخليفة الرشيد وابنه الأمين، توفي سنة 189هـ ودفنه الرشيد في الري. ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص168-173. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 669-671.

[6]- الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع، راوية العرب، أحد أئمة العلم بالنحو واللّغة والشّعر، وهو من أهل البصرة، له تصانيف كثيرة منها كتاب الهمز وكتاب المقصور والممدود وكتاب الفرق وغيرها، توفي عام 216هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص170-176. النويري، نهاية الأرب، ج4، ص 29.

مجالسه، فكان شغوفا لسماع الأخبار الطريفة والغريبة ويقتدي بأهل الأخبار من الملوك والعظماء ممّن سبقوه[1].

وعندما قدم المأمون من خراسان كان أول ما فعله أنّه طلب أهل العلم والأدب لمجالسته، وأجرى عليهم الأرزاق، وخصّ المتقدمين منهم بالمكانة اللائقة، فقد روى أحد سمّاره أنّهم كانوا عند المأمون فتذاكروا في من بايع من الأنصار ليلة العقبة فاختلفوا في ذلك، ودخل أحمد بن أبي دُوَاد[2] فعدّهم واحدا واحدا بأسمائهم وكناهم وأنسابهم، فقال المأمون فيه «إذا استجلس النّاس فاضلا فمثل أحمد»، وقال بعض خاصة الواثق كنّا نسمر عنده ذات ليلة وكنا نتذاكر الأسباب الّتي أدت بالرشيد إلى الإطاحة بالبرامكة وزوال نعمتهم[3].

كما انتشر السماع للشعر في مجالس أسمار الخلفاء، فمثلا طلب المنصور من حمّاد الراوية[4] أن ينشده شعر هفان بن همام بن نضلة، وهو يرثي أباه، فأنشده تلك القصيدة، فبكى المنصور حتّى أخضلت لحيته، ثمّ قال: هكذا كان أخي أبو العبّاس، وكان المهدي يعجبه اللطيف من الشعر، فكان يذاكر خواصهم في ذلك، وقد سأل عمارة بن حمزة من أرق النّاس شعرا؟ قال والبة بن الحباب الأسدي، وكان للرشيد ولع كبير في الاستمتاع إلى الشعر ومجالسة الشعراء، فكان ذوّاقا للشعر، عالما بجيّده من ركيكه[5].

---

[1]- الزجاجي، أمالي الزجاجي، ص50-51.الخطيب البغدادي،تاريخ بغداد، ج11، ص403- 414.

[2]- أحمد بن أبي دُوَاد: أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن كان عارفا بالأخبار والأنساب، وكان شديد الدهاء،محبا للخير، اتصل أولا بالمأمون، فلمّا قرب موته أوصى به أخاه المعتصم، فجعله قاضي قضاته، ولما مات المعتصم اعتمد الواثق على آرائه ومات الواثق راضيا عنه،ولمّا تولى المتوكل أفلج ابن أبي دواد في أول خلافته سنة 233هـ،وتوفي ببغداد مفلوجا سنة 240هـ. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج4، ص141-156.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص81-91.ا

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 15-16. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص125-126. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص163. طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص160.

[4]- حمّاد الراوية: هو حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، وكان أعلم النّاس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها، ولد بالكوفة سنة 95هـ/713م، ولما اشتد عوده جال في البادية ورحل إلى الشام، وهو الّذي جمع المعلقات السبع الطوال، وممّا يروى عن سيرته، أنّه كان يصحب الصعاليك واللصوص، ثمّ طلب الأدب وترك ما كان عليه، توفي ببغداد سنة 156هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص206-210. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج7، ص157-158.

[5]- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص161.

وقد شهدت هذه المجالس تقلصا في زمن الخليفة المعتصم، فقد كان مقلا نوعا ما، حيث طغت اهتماماته العسكرية على توجهاته الثقافية، وفي زمن الخليفة الواثق الّذي كان أديبا شاعرا حافظا له مدققا فيه لا يتورع من التثبت في أي شعر يسمعه، فقد أرسل إلى البصرة أحد العلماء ليتأكد من شعر سمعه[1].

وغالبا ما يكون مجلس المغنين مفصولا عن مجلس الخلفاء من وراء ستارة، كما ضمّت مجالس الخلفاء في بعض الأحيان طائفة من الظرفاء المشهورين بحسن البديهة وحضور النادرة، وذلك للترويح عن النفس، فقد روى الأصمعي عن الرشيد قوله: النوادر تشحذ الأذهان وتفتق الآذان وحكايات الظرفاء مع الخلفاء كثيرة[2].

2- الوزراء:

إنّ وظيفة الوزير قديمة حيث عرف هذا المنصب عند قدماء المصريين وبني إسرائيل والفرس، وقد كان ملوك العرب قبل الإسلام في اليمن والحيرة والشام يطلقون على من يؤازرهم في أعباء الملك اسم الراهن لأنّه مرتهن بالتّدبير، كما كانوا يطلقون عليه أيضا اسم الزّعيم لأنّه زعيم بصواب الرأي كما سمّوه أيضا الكافي لأنّه يكفي الملك مهمات الأمور، ولقبوه أحيانا الكامل لأنّه يجب أن يكون كامل الفضائل[3].

لكن لمّا جاء الإسلام كثيرا ما ردد الرسول – صلى الله عليه وسلم– في أحاديثه لفظ الوزير منها قوله فيما قالت عنه عائشة – رضي الله عنها–:« قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم– إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه»[4]، وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه– قال:« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وزيراي من

---

[1]– خلود مسافر الجنابي،المجالس العلمية في عصري ما قبل الإسلام والرسالة والعصور الراشدية والأموية والعبّاسية،الدار العربية للموسوعات،بيروت،1433هـ/2012م،ص98-99.

[2]– الطبري،تاريخ الرسل والملوك،ج8،ص285-290.ابن الجوزي،أخبار الحمقى والمغفلين، تح عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، 1410 هـ/1990،ص18.طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة،ص162.

[3]– توفيق سلطان اليوزبكي،الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العبّاسية من 132-447هـ،مطبعة الإرشاد، بغداد،1390هـ/1970م،ص19.إبراهيم أيوب،التاريخ العباسي،ص26.

[4]– أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، تح شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، 1430هـ/2009م،ج2، ص 146.(كتاب الخراج والفيء والإمارة .باب في اتخاذ الوزير) رقم:2932.

السماء: جبريل، وميكائيل، ومن أهل الأرض: أبو بكر، وعمر»[1] إلى غير ذلك من الأحاديث.

بالفعل كان- صلى الله عليه وسلم- وهو المؤيد بالوحي يشاور أصحابه ويفاوضهم في المهمات العامة والخاصة ويخص أبا بكر بخصوصيات أخرى حتّى كان بعض العرب الّذين عرفوا دول العجم قبل الإسلام كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزير النبي- صلى الله عليه وسلم- ومثل ذلك بقية الصحابة في عهده - صلّى الله عليه وسلم- الّذين كانوا يعاونونه أيضا في إدارة شؤون الدولة المختلفة، فكانوا يقومون بمهام الوزراء وإن لم يتلقّبوا بهذا اللّقب، ومن راجع كتاب: تخريج الدلالات السمعية له - صلّى الله عليه وسلم- من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية للخزاعي التلمساني، أو نظام الحكومة النبوية المسمّى: التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية الّتي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة وجد صدق ما ذكرته، وقل مثل ذلك[2].

لكن لمّا صار الملك خلافة، بقيت المعاونة بالرأي في جلب المصالح ودفع المفاسد في عهود الخلفاء الراشدين، فكان كثير من الصحابة يقومون بما يشبه مهام الوزراء وإن لم يتلقّبوا بهذا اللّقب منهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- بمثابة وزير لأبي بكر، بينما كان عثمان وعلي وزيري عمر وأصبح مروان بن الحكم بمثابة الوزير في خلافة عثمان[3].

لقد كان الخلفاء الأربعة يستعينون في إدارة أمور الدولة بصحابة رسول الله وأعيان المدينة ورؤساء القبائل، كما كانوا لا يقطعون أمرا دون مشاورة فأصبح هؤلاء في منزلة الوزراء وإن لم يطلق عليهم هذا اللقب[4].

ولمّا تولّى بنو أمية الخلافة واتّسعت الدولة الإسلامية احتاجوا إلى من يستشيرونهم ويستعينون بهم في أمور الدولة السياسية والإدارية فاتّخذوا بعض المستشارين والمعاونين من

---

[1]- الحاكم، المستدرك على الصحيحين للحاكم، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، 1422هـ/2002م،ج2، ص 290. كتاب التفسير. تفسير سورة البقرة رقم:3046.

[2]- مقدمة ابن خلدون، ص 295. الكتاني: التراتيب الإدارية :نظام الحكومة النبوية، شركة دار الأرقم للنشر، بيروت، (د ت)، ج1، ص 19-20.

[3]- توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص 25.

[4]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص26. توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص21.

الأمراء والولاة، فأصبحوا بمثابة الوزراء في العصور الأخرى، فكانوا ينظرون في شؤون الحكم والإدارة والشؤون المالية، وديوان الجند[1].

ومن ثمّ لم تظهر الوزارة في العصر الأموي بالصورة الّتي ظهرت عليها في العصر العبّاسي وإن كانوا على علم بمصطلح الوزير فكان للخلفاء الأمويين كتّابا يتولّون الكتابة للخلفاء، فكان الكاتب بمثابة أمين سر الخليفة وصاحب ديوانه وسجلّاته، وكان الكاتب في العصر الأموي بمثابة الوزير إذ يعاون الخليفة في شؤون الدولة ويحفظ سرّه[2]، فلم تظهر الوزارة كوظيفة رسمية إلّا في عهد بني العبّاس، فقد ذكر المسعودي[3] أنّ ملوك بني أمية كانت تنكر أن تخاطب كاتبا لها بالوزير وتقول الوزير مشتق من المؤازرة والخليفة أجّل من أن يحتاج إلى المؤازرة، ويستثنى من هذا زياد بن أبيه إذ لقّبه بعض النّاس بالوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان.

ولمّا قامت الدولة العبّاسية واتّسعت دواوينها وتشعّبت مصالحها وشؤونها عظم شأن الوزير، و«صارت إليه النيّابة في إنفاذ الحل والعقد وتعنّت مرتبته في الدولة العبّاسية وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته في قسم الأعطيات بين الجند فاحتاج إلى النّظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه، ثمّ جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان، ولحفظ البلاغة لمّا كان اللّسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلّات السلطان لبحفظها من الضياع والشياع والدّفع إليه فصار اسم الوزير جامعا لخطة السّيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة»[4].

ولم يعرف قبل أبي سلمة الخلّال وزير أبي العبّاس السفاح من تسمّى بهذا النّعت لا في دولة بني أميّة ولا في غيرها، ومن هذا يتضح أنّ أبا العبّاس كان أول خليفة أحدث منصب الوزارة، واستمر نظام الوزارة في الدولة العبّاسية إلى أيام سقوطها[5].

---

[1]- مقدمة ابن خلدون، ص296.

[2]- نفسه، ص296. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص452. توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص21-22.

[3]- التنبيه والإشراف، ص294.

[4]- مقدمة ابن خلدون، ص297.

[5]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص195. ابن الطقطقى، الفخري، ص155. توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص24.

وقد وصف لنا ابن الطقطقى[1] الوزارة في العصر العبّاسي فقال: «والوزارة لم تتمهد قواعدها، وتتقرّر قوانينها، إلّا في دولة بني العبّاس، فأمّا قبل ذلك فلم تكن مقنّنة القواعد ولا مقرّرة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشار بذوي الحجى، والآراء الصّائبة، فكل منهم يجري مجرى وزير، فلمّا ملك بنو العبّاس، تقرّرت قوانين الوزارة وسمّي الوزير وزيرا وكان قبل ذلك يسمّى كاتبا أو مشيرا».

ولم يحدث العبّاسيون تغييرا إداريا جوهريا بتسمية الخلّال وزيرا ولكن فكرة الوزارة العبّاسية واشتراك الفرس في السّلطة أدى بمرور الزمن إلى ظهور نظام الوزارة على صورته الكاملة، وكان معظم من اختير لمنصب الوزارة من الفرس وقد روعي في اختيارهم الكفاءة في الكتابة والإدارة، فكان أبو سلمة الخلّال فصيحا عالما بالأخبار والأشعار والسيّر والجدل، كما اهتم البرامكة بالعلوم والآداب[2].

وقد أصبح الوزراء يمثلون الطبقة الثانية من طبقات الفئة الحاكمة في المجتمع العبّاسي منذ نشوء نظام الوزارة، فالوزير يعد منصبه من أعلى المناصب الإدارية في الدولة بعد الخلفاء، فهو المهيمن على إدارة الدولة والمحرّك لها إلّا أنّ دوره قد اضمحل في عهد التسلّط البويهي لظهور منصب إمرة الأمراء[3] ثمّ عاد إلى الظهور بشكل قوي وملحوظ خلال هذه الفترة[4].

1- الفخري، ص153.

2- توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص28. نادية حسني صقر، مطلع العصر العباسي الثاني، ص95.

3- إمرة الأمراء: جمع مفردها أمير الأمراء ويعنى به القائد الأعلى للجيش، وكان مؤنس الخادم قد تلقّب بهذا اللّقب بهذا الاعتبار، ولقب أمير الأمراء في عاصمة الخلافة العبّاسية لا علاقة له بأي ولاية من الولايات الّتي تشتمل عليها البلاد، وإنّما هو لقب عام جديد مستحدث أطلق على من يستأثر بالسلطان ويستبد في مقر الخلافة العبّاسية، وكان ابن رائق أول من تلقّب بهذا اللقب بهذا المعنى سنة 324هـ، واستمرّ استعمال هذا اللّقب بعد استيلاء بني بويه على الحكم،حيث أنّ دخول البويهيين بغداد وتلقّبهم بلقب أمير الأمراء يدل ظاهرا على أنّ التّغير هو مجرد استبدال أمير بأمير، فالعصر البويهي وإن كان متمما لعصر إمرة الأمراء من ناحية اتخاذ البويهيين اللّقب،وحلولهم محل الأمراء السابقين، وبقاء الخليفة رمزا دون سلطان حقيقي، وسيادة الاتجاه العسكري في مؤسسات الدولة.تقي الدين عارف الدوري، عصر إمرة الأمراء في العراق 324-334هـ/936-946م: دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية، مطبعة أسعد، بغداد، 1395هـ/ 1975م، ص17-19.

4- جبهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص50.

ولحساسيّة منصب الوزير وأهميّته كان لابد من الدقّة في اختيار من يتولى هذا المنصب، فاشترط في ذلك العلم والأمانة والكفاية وهي العلم بالأعمال الديوانية، والدهاء والفطنة والتيقظ والكرم والرفق إضافة إلى الحلم والأناة والوقار ونفوذ القول[1]، وقد كان اختيار الوزير وعزله بيد الخليفة، وقد اختلفت المدة الّتي قضاها كل منهم في الوزارة، فبعضهم أشغلها لمدة قصيرة تقل عن السنة، وبعضهم ظلّ يشغلها عدة سنوات، كما أنّ بعضهم أعيد إلى الوزارة أكثر من مرة[2].

وقد اتفق أغلب الكتّاب والمؤرخين في تحديد الصفات الواجب توفرها في الوزير فيذكرون أنّه يجب أن يتّصف بالعلم، والبلاغة والصدق والأمانة والأدب وخير نص بين أيدينا ذكره لنا الماوردي يحدد صفات الوزير ورد عن المأمون جاء فيه أنّه قال: «إنّي ألتمس لأموري رجلا جامعا لخصال الخير، ذا عفة في خلائقه، واستقامة في طرائفه، قد هذّبته الآداب، وأحكمته التّجارب، إن أؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلّد مهمات نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللّحظة وتغنيه اللّمحة، له صولة الأمراء وأناة الحكماء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء إن أحسن إليه شكر وإن ابتلي بالإساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غذه يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه»[3].

وبالرغم من أنّ صلاحيات الوزير لم تكن محدّدة، إلّا أنّ ممارسته لهذه الصلاحيات إنّما تتوقف على قوّة شخصيته وثقة الخليفة بإدارته وحزمه، فالخليفة المنصور مثلا لم يعط وزراءه كامل السلطات، وكان دائم المراقبة لهم، وقد غطّت شخصيته وإدارته على كافة الوزراء والكتّاب حتّى قال ابن الطقطقى[4]: «إنّما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء، وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف، فلا يظهر لهم أبّهة ولا رونق»، ولهذا السبب اتّسمت الإدارة العبّاسية في النّصف الأول من العصر العبّاسي الأول بالمركزية المطلقة، فكان الخليفة مصدر السلطات، أمّا الوزير فكان مجرّد من كل سلطان[5].

---

[1]- أبو منصور الثعالبي، تحفة الوزراء، تح سعد أبو دية، دار البشير، عمان، 1414هـ/1994، ص39-40.

[2]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول، مركز الإسكندرية للكتاب، 2008، ص13.

[3]- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص30.

[4]- الفخري، ص174.

[5]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص14.

وفي خلافة المهدي شهدت الدولة فترة استقرار سياسي وإداري، فظهرت أبّهة الوزارة وعظمة مؤسساتها، ووكّل كثير من الأمور للوزراء يديرونها حسبما يرون، وظهر في عهده خيرة الوزراء كفاية وحزما نذكر منهم أبو عبيد الله معاوية بن سيّار -؟- ت 170هـ- أول وزراء المهدي، فقد نظّم الأمور المالية للدولة خير تنظيم، كما رتّب جباية الخراج، ومن الوزراء الذين علت مكانتهم عند المهدي يعقوب بن داود- ت167هـ- فقد ذكر أنّه اتخذه أخا في الله[1].

ثمّ ارتفعت منزلة الوزراء في عصر الخليفة هارون الرشيد عندما أسند منصب الوزارة إلى آل برمك، فقد سيطروا على أمور الدولة وشؤونها، وقبضوا على أزمّة الحكم واستبدّوا بها، فاستوزر الرشيد يحي بن خالد البرمكي[2] وقال له: «قلّدتك أمر الرعيّة وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامضي الأمور على ما ترى ودفع إليه خاتمه»[3].

وأمّا عن أولاده جعفر والفضل فقد بلغوا نفس المنزلة الّتي بلغها والدهم وربّما أكثر من ذلك فقد غلب جعفر على الرشيد فأنس إليه وأنزله بقصر الخلد الّذي يقع بالقرب من قصره، ودعاه بالسّلطان إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية باستثناء الحجابة الّتي تختص بالقيام على الباب فلم يرض بها «لاستنكافه عن مثل ذلك»[4].

وإنّه إذا كانت قواعد الوزارة قد رسخت منذ عهد الرشيد ففي عهد المأمون استقرّت قواعدها على أمتن الأسس وارتفعت منزلة وزرائه وذاع صيتهم وسمت مكانتهم أيضا، خاصة وزيره الفضل بن سهل الّذي أشاد بذكره المؤرخون فقد ذكروا أنّه «غلب على المأمون، وأنّه قد أنزله قصرا حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قوّاده من الخاصة والعامة، وأنّه يبرم الأمور على هواه ويستبد بالرأي دونه»[5].

---

[1]- ابن الطقطقى، الفخري، ص131- 134. إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص15.

[2]- يحي بن خالد البرمكي: الوزير الجواد، سيّد بني برمك وأفضلهم،وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه، اشتهر يحي بجوده وحسن سياسته، واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في الرقة إلى أن مات سنة 190هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص243. ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، ص204

[3]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص233. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص278.

[4]- مقدمة ابن خلدون، ص297.

[5]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص528.

وقد بلغ من علو مكانته عند الخليفة أيضا ما ذكره الجهشياري[1] من أنّه «كان يجلس على كرسي مجنّـــح ويحمل فيه إذا أراد الدخـول على المأمون»، وحــين استوزر المـــأمون الحسن بن سهل تزوّج ابنته بوران في رمضان سنة 210هـ تقديرا منه لوزيره[2].

وفي أواخر العصر العباسي الثاني أو عصر نفوذ الأتراك أصبح منصب الوزارة ضعيفا بحيث تولّاها كل من يدفع مالا أكثر فتضاءلت هيبة الوزراء خاصة في عهد الخليفة المقتدر، الّذي أسرف في تعيين الوزراء وعزلهم، حيث بلغ عددهم اثني عشرة وزيرا وتعرّض معظم هؤلاء الوزراء للمصادرة أو السجن أو القتل،بسبب حاجة الخليفة إلى المال لتسيير أمور الدولة، وللإنفاق على جهاز الإدارة والجيش بالإضافة إلى نفقات الخليفة الخاصة، فقد أنفق المقتدر ثمانين مليون دينار، إلى جانب ما كان يستولي الوزراء عليه من الأموال من بيت المال حتّى أصبحت الخزانة خاوية من الأموال[3]. وهذا الوضع راجع إلى تنامي سلطان الحريم والخدم واتساع نفوذهم بشكل كبير، فأضر ذلك بمؤسستي الخلافة والوزارة، وعجلت باضمحلالهما.

لكن بين سنتي 256-295هـ تقلص نفوذ الأتراك حتى خلافة المقتدر الّذي انتهى حكمه سنة 320هـ بعد حرب بينه وبين الأتراك، وبعد قتل الخليفة المقتدر عادت سيطرة الأتراك على السلطة من جديد ولكن سلطات الأتراك لم تعد على ما كانت عليه من قبل، كما ضعفت الخلافة ممّا شجع على انفصال بعض الدويلات عن جسم الدولة العباسية، وقيام الثورات في مختلف أنحاء البلاد، ممّا أدى إلى عجز خزانة الدولة عن دفع رواتب الجند واستمر التدهور حتّى سنة 324هـ، حيث ضعف منصب الوزارة، وأصبح الوزير عاجزا عن توفير الأموال، ممّا اضطر الخليفة إلى استحداث منصب أمير الأمراء الّذي يعبّر حقيقة عن ضعف الخلافة والوزارة[4].

---

[1]- الوزراء والكتاب، ص316.

[2]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص606. المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص26. وفاء محمد علي، الزواج السياسي في عهد الدولة العبّاسية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1988م، ص41.

[3]- توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص167-168.

[4]- نفسه، ص158-159.

وفي عصر إمرة الأمراء أصبح الوزير البويهي لا ينظر في شيء من أمر النّواحي، حيث لم يكن له في الحقيقة غير اسم الوزارة فقط، فكان يحضر في أيّام المواكب إلى دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة، وصارت أموال النّواحي تحمل إلى خزائن أمير الأمراء فيتصرّف فيها كيفما شاء، ويحدّد نفقات الخليفة، وألغيت بيوت الأموال[1].

وبعد أن كان للخليفة وزيرا وللأمير كاتبا انعكس الوضع في العصر البويهي، وتدخل البويهيون حتّى في تعيين كاتب الخليفة، وأصبحت صلاحيات الوزير في عهد أمير الأمراء البويهي لا تتعدى الإشراف على إدارة مالية الدولة، وألغي منصب الوزارة منذ بداية عهد الخليفة المطيع في جمادي الآخرة سنة 334هـ[2]، فقد تحدث المقريزي[3] عن ذلك بقوله: «وفي خلافة المطيع لم يجعل له معز الدولة أمرا ولا نهيا ولا رأيا، بل صارت الوزارة إليه يستوزر لنفسه من يريد».

وبالنّسبة لرسوم الوزراء فقد اتّصفت مراسيم تعيين الوزير في العصر العبّاسي بالفخامة والعظمة فإذا رشّح أحدهم للوزارة، أرسل الخليفة إليه مرسوما مكتوبا يحمله غالبا أميران من أمراء الدول، فيقصد الوزير بعد استلامه المرسوم إلى دار الخلافة وبين يديه الحجّاب والقوّاد والغلمان، ويقف الوزير عند باب الحجرة[4] في قصر الخلافة فيقدّمه الحاجب إلى الخليفة ويمثّل بين يديه فيؤدي فروض الطاعة، ويتجاذب الحديث مع الخليفة لفترة قصيرة ثمّ يتّجه إلى حجرة أخرى حيث يرتدي الخلع السلطانية الّتي كانت بمثابة زي الوزارة ثمّ يعود فيقبّل يد الخليفة وينصرف، فإذا بلغ الباب وجد فرس شهري بمركب مذهّب، ومزيّنا بانتظاره فيمتطيه إلى دار الوزارة ويسير في موكبه كبار الموظّفين وقادة الجيش والأمراء وموظّفي البلاط والحجّاب وخدّام الخليفة والحرس فإذا وصل ترجّل وسط مظاهر الاحتفال وجلس يتقبّل التّهاني بالمنصب الوزاري، ثمّ يقرأ على النّاس مرسوم الخليفة بتقليده مهام هذا المنصب[5].

---

[1]- مسكويه، تجارب الأمم، ج5، ص199.

[2]- نفسه، ص277. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص208. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص147.

[3]- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص133.

[4]- ذكر ياقوت الحموي في مادة باب الحجرة أنّه موضوع بدار الخلافة وهي دار عظيمة الشأن، عجيبة البنيان فيها يخلع على الوزراء وإليها يحضرون في أيّام المواسم للهناء. معجم البلدان، ج1، ص444.

[5]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص96. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص170. توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص40.

وكان أوّل من ابتدع منح الوزراء ثيّاب التّشريف الخليفة المنصور حيث ألزم الوزير بلبس الثياب الممنوحة له، وأن يمثل أمام القصر وبحضور الجمهور، وشرّفه أن جعله يجلس على الكرسي بحضرة الخليفة ثمّ يقول له أوكل لك الوزارة، وإنّه لم تتبع هذه المراسيم دائما في جميع العصور العبّاسية[1].

كما كان الوزير يجلس في مجلس الخليفة عندما يستدعيه، موليا له بوجهه، وإذا أراد الوزير أن يكتب شيئا في حضرة الخليفة كان الرسم أن تحضر له دواة بسلسلة فيمسكها بيده اليسرى، ويكتب بيده اليمنى، وقد رأى الخليفة المقتدر مرة مشقة ذلك على وزيره علي بن عيسى وهو يكتب كتابا بحضرته فأمر بأن يقف بعض الخدم فيمسك الدواة إلى أن يفرغ من الكتابة، فكان علي بن عيسى أوّل وزير أكرم بهذا، ثمّ صار رسما للوزراء بعده[2].

ومن الامتيازات الّتي شرّف بها الوزير في العصر العبّاسي ما خصّصه له الخليفة من دار خاصّة يسكنها، وإذا عزل تركها للوزير الجديد، وكانت دار الوزير حتّى عام 320هـ هي الدّار الّتي كانت قديما لسليمان بن وهب – ت سنة 272هـ– على الشاطئ الشّرقي لدجلة، وتسمى دار المخرم[3].

وقد جدّد هذه الدار الخليفة المقتدر وأنشأ بها المجالس الجليلة والأبنيّة الحسنة وعمل للدّار مسنّاة[4] تشرف على دجلة، وقد بيعت هذه الدّار في وقت الأزمات المالية وصرف ثمنها

---

[1]– توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص40.

[2]– الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص369.

[3]– دار الوزارة بالمخرم: جعلها معز الدولة دارا لغلامه سبكتكين ونقض عضد الدولة أكثرها ولم يستبق إلا البيت الستيني وقد جعل عضد الدولة البويهي الدار الّتي هذا البيت فيها دار العامة والبيت برسم جلوس الوزراء وما يتصل به من الأروقة والقباب مواضع للدواوين، والصحن مناما لديلم النوبة في ليالي الصيف، وقد جعلها جلال الدولة اصطبلا أقام فيها دوابه وسوّاسه ، ولمّا ورد طغرلبك بغداد استولى عليها وعمّر هذه الدار وجدّد كثيرا ممّا تهدم سنة 448هـ/1056م ، فمكث كذلك إلى سنة 450هـ/1058م حيث أحرقت وسلب أكثر آلاتها ثمّ عمّرت وأعيد ما كان أخذ منها، وهذه الدار تفتح أبوابها الغربية إلى دجلة وأبوابها الشرقية إلى صحن من خلفه بستان ونخل وشجر، وفيها مجلس الوزراء ومحفل من يقصدهم ويحضرهم.الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص424-425.

[4]– المسناة: هي الرصيف النهري أو المرسى أو الشرفة على الشاطئ، واشتهرت به المدن الواقعة على الأنهار مثل قرطبة وبغداد وأصفهان، وقد ورثت القصور مسناة ما بني قبلها وما زالت بعض المسناة من قصور بغداد باقية على دجلة. علي ثويني، معجم عمارة الشعوب، بيت الحكمة،بغداد، 1426هـ/2005م، ص695.

في مال الصلة لبيعة الخليفة القاهر بالله (319-322هـ/931-933م)، وأعدّت للوزير دار بدلها هي دار أحد أبناء الخلفاء[1].

وكان خلفاء بني العبّاس يقطعون وزرائهم الإقطاعيات بذلا من المرتّبات وبلغت إيراداتها أحيانا مائة وسبعين ألف دينار، واختلفت مرتبات الوزير باختلاف العصور والوزراء والخلفاء، ولم تكن هذه الأموال عادة تكفي لنفقاتهم الكثيرة إذ حاول الوزراء التّشبه بالخلفاء بالعظمة والفخامة والإنفاق، ولذا كان بعض الوزراء يلجأون للحصول على الأموال بطريقة غير مشروعة، وكان الخليفة يخصّص بالإضافة للوزراء مرتبات لأولادهم وإخوتهم وحاشيتهم فمثلا كانت أرزاق عبد الله بن سليمان وزير الخليفة المعتضد (279-289هـ/892-901م) ألف دينار في الشهر وكان ابنه يتسلّم خمسمائة دينار كل شهر، وكان ولد الخاقاني وولد الخصيبي وولد علي بن عيسى يتسلّمون 24 ألف دينار في السنة[2].

وأشهر وزراء العصر العباسي الأول البرامكة، إلا أنّ المصادر القديمة لم تحدد رواتبهم واقطاعياتهم، والظاهر أنّها كانت عظيمة، فضلا عن إطلاق أيديهم في بيوت الأموال يقطعون ويصلون كما يشاؤون، فمثلا في قائمة النفقات أيام الخليفة المعتضد ورد أنّ راتب الوزير كان حوالي ألف دينار في الشهر، وقد فوّض المقتدر لوزيره علي بن عيسى خمسة آلاف دينار في الشهر، ثمّ صارت سبعة آلاف، عدا ما يمتلكه الوزير من الضياع والأراضي وضمانات الخراج وما يصله من هدايا، كما كان يمنح لكل ولد من أولاده خمسمائة دينار في الشهر[3].

وظهرت امتيازات جديدة للوزراء في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري، وكان رسم الوزراء في لباسهم هو رسم سائر العمال فكانوا يلبسون الدراعة وقميصا ومبطنة وخفا، وكان السواد هو اللّباس الرسمي في الحفلات، فكانوا يرتدون ثياب الموكب، وهي قباء وسيف بمنطقه وعمامة سوداء وهي البزّة الرسمية الّتي لا ينزعها الوزير، وما ميّز لباس الوزراء هي الأقبية السوداء والخفاف، وفي عام 319هـ أصبح الوزير يرتدي شاشية وسيف بحمائل فتعجب النّاس ذلك لاختلافه عن اللّباس المعهود به للوزير[4].

---

[1]- الصابئ، الوزراء، ص28-29.

[2]- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص168-169. توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص45.

[3]- الصابئ، الوزراء، ص306. توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة، ص46.

[4]- صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية، نشر مؤسسة المعاهد، 1400هـ/1980م، ص30.

ومن امتيازات الوزير الألقاب وقد اختلفت باختلاف العصور والوزراء والخلفاء وأوّل من اشتهر بحمل الكنية أو اللّقب هو أبو سلمة الخلّال الّذي لقب بوزير آل محمد[1].

وكان من مظاهر تعظيم الرشيد لوزيره جعفر البرمكي أن لقّبه بالسلطان، ويبدو أنّ لقب السلطان كان من ألقاب التّشريف الشخصي، ولم يصبح لقبا عاما ومتداولا إلّا فيما بعد[2].

ولقّب الفضل بن الربيع بلقب مولى أمير المؤمنين، وكان هذا اللّقب يحمله أبوه قبل ذلك، ولقّب الوزير علي بن عيسى وابن مقلة وابن الفرات به أيضا، وإنّ حامد بن العباس كان يحمل لقب المولى والوزير، ولقّب المأمون وزيره الفضل بذي الرئاستين، ولقّب أخاه الحسن بن سهل ذا الكفايتين، ولقّب المعتمد على الله وزيره صاعد بن مخلد ذا الوزارتين إشارة إلى وزارة المعتمد والموفق، ولقد تلقّب كل من القاسم وابنه الحسين بلقب والي الدولة وعميد الدولة بسبب خدماتهما لها، وقد نقش هذا اللقب على الدراهم وكان أول وزير نقش اسمه على السكّة هو جعفر البرمكي والّذي كان يشرف على دار سك النّقود[3].

وفي القرن الثالث الهجري منح الخلفاء العبّاسيين التّاج للوزراء، ومنهم بغا الكبير وأحمد بن إسرائيل، وفي القرن الرابع الهجري كان الخلفاء يمنحون الوزراء إلى جانب التّاج حلّة منادمة، وكان الخليفة يكرم الوزير بأن يدعوه بكنيته وكان يلزم الموظفين بذكرها أيضا[4].

ولقب الخليفة مؤنس الخادم بالمظفّر في سنة 312هـ لما كان يتمتّع به من نفوذ كبير أيّام خلافة المقتدر في الشؤون الإدارية والعسكرية، وفي أواخر القرن الرابع الهجري تعددت ألقاب التّفخيم والتّعظيم للوزراء، وفي سنة 416هـ خلع جلال الدولة البويهي ببغداد على وزيره ولقّبه علم الدين سعد الدولة أمين الملّة شرف الملك، وكان هذا الوزير أوّل من حمل كثير من الألقاب، ورغم تعدد ألقاب الوزير في العصور العبّاسية المتأخّرة إلّا أنّ الوزير لم يبلغ من القوّة والسّلطان ما كان عليه الوزراء في العصور العبّاسية الأولى[5].

---

[1]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص129.

[2]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص447. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر، 1989، ص61.

[3]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص129-130.القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص441. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص60.

[4]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص94-97.

[5]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص132.حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص61 .

وكانت سلطات الوزير تختلف باختلاف شخصيات الخلفاء والوزراء وقد حدّد أبو يعلى الفراء اختصاصات الوزير بقوله: «والوزير هو وسيط بين الخليفة وبين الرعايا والولاة يؤدي عنه ما أمر، وينفذ ما ذكر ويمضي ما حكم، ويخبر بتقلد الولّاة وتجهيز الجيوش والحماة، ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم ليعملوا فيه بما يؤمر به، فهو معين في تنفيذ الأمور، وليس بوال عليها ولا متقلّد لها، فإن شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص وإن لم يشترك فيه كان باسم الوساطة والسفارة أشبه»[1].

3- الكتّاب: ظهرت وظيفة الكاتب في الدولة الإسلامية منذ أيّام الرسول محمد- صلّى الله عليه وسلم- في المدينة، فقد ذكر من جملة كتّابه علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب حيث كتبوا له سور القرآن الكريم والرسائل الّتي كان يرسلها إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها للإسلام[2]، ولمّا تولّى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة اتّخذ عثمان كاتبا له يكتب إلى العمّال والقوّاد وغدت الكتابة منصبا ذا أهمية في الدولة[3]، ويذكر القلقشندي[4] أنّ عثمان هو الّذي كتب عهد عمر بالخلافة عن أبي بكر - رضي الله عنه-.

وحين تولّى عمر الخلافة كتب له في شؤون المسلمين والدولة زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم وأبو حبيرة بن الضحاك الأنصاري، وباتّساع الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات عمل على إنشاء الدواوين وكان يكتب له الضحاك بن قيس على ديوان الكوفة[5].

أمّا في خلافة عثمان رضي الله عنه، فقد اختار أمهر الكتبة منهم مروان بن الحكم الأموي وابنه عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الأرقم وأبو جبيرة الأنصاري، واتخذ علي بن

---

[1]- الأحكام السلطانية، ص31.

[2]- الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص15.

[3]- الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص17 عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص175-176. إسحاق رياح وسليمان أبو سويلم، الحضارة العربية الإسلامية في النظم والعلوم والفنون،دار كنوز المعرفة للنشر ، عمان الأردن،1431هـ/2010م، ص65.

[4]- صبح الأعشى، ج1، ص92.

[5]- الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص17.

أبي طالب عدد من الكتاب للإشراف على شؤون دواوين الدولة ومنهم نذكر عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله، وسعيد بن نجران وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن جبير[1].

ولمّا انتقلت الخلافة إلى بني أمية، وتعددت مصالح الدولة تعدد الكتّاب وصاروا خمسة: كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضي، وأهم هؤلاء الكتّاب في المرتبة وأقدمهم هو كاتب الرسائل وقد يسمّى كاتب السر وهو يد الخليفة ومستودع سره، ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يولّونه إلّا أقربائهم وخاصتهم، وظلّوا على ذلك إلى أيّام العبّاسيين[2].

وفي أيّامهم كانت هذه الرتبة رفيعة المنزلة، وكان الكاتب ينفرد بالأمر دون الخليفة فكان يصدر السجلّات، ويكتب في آخرها اسمه، ويختم عليها بخاتم السّلطان، ثمّ صارت الكتابة إلى وزرائهم، وكان الوزير يجلس بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقّع على القصص والشكاوي المرفوعة إليه يقول ابن خلدون[3]: «ومن خطط الكتابة التّوقيع، أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها، والفصل فيها متلقّاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه»، فمثلا كان جعفر بن يحي البرمكي يوقع على الرقاع والقصص بين يدي الخليفة لمّا أطلق الرشيد يده في أمور الدولة ومقاليدها، وقد كانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للاستفادة من أساليب البلاغة وفنونها، ثمّ تتابع الوزراء من بعده على ذلك وقد يوقّع السلطان بنفسه على الرقاع إذا كان مستبدا بأمره، قائما على نفسه[4].

ومن أشهر كتّاب الدولة العباسية نذكر الربيع بن يونس في عهد المنصور، ويحي بن خالد البرمكي وابنيه الفضل وجعفر، والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد، والفضل والحسن ابني سهل وأحمد بن يوسف في عهد المأمون، وعبد الملك الزيّات والحسن بن وهب

---

[1]- ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تح أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر، الرياض، 1405هـ/1985، ص179. الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص20-21.

[2]- مقدمة ابن خلدون، ص 307. إسحاق رياح وسليمان أبو سويلم، الحضارة العربية، ص65.

[3]- مقدمة ابن خلدون، ص306.

[4]- نفسه، ص307.

وأحمد بن المدبّر في عهد المعتصم والواثق ومحمد بن عبد الملك الزيّات في عهد الواثق أيضا[1].

ولم يكن اتخاذ الكتّاب مقصورا على الخلفاء وحدهم، بل كان عمّال الأقاليم وأمراء الأمراء وسلاطين بني بويه يتخذون كتّابا يعاونونهم في إدارة الدولة، فقد اتخذ بجكم – ت329هـ- الّذي تقلّد إمرة الأمراء في عهد الراضي والمتقي الكوفي كاتبا له، وكان لهذا الكاتب أثر في توليــة المتـقي الخلافة، وكذلك اتّخذ توزون الّذي تقلّد إمرة الأمراء في عهد المتقي أبا جعفر بن شيرزاد كاتبا له، كما اتّخذ أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه- ت366هـ – في الري وهمذان وأصبهان[2] ابن عبّاد كاتبا له، وعهد إليه بتنشئة مؤيد الدولة بن ركن الدولة، ولم يلبث هذا الكاتب أن ارتقى إلى رتبة الوزير في عهد مؤيّد الدولة وأخيه فخر الدولة[3].

ونظرا لأهميّة منصب الكاتب في العصر العبّاسي، فإنّ الخلفاء كانوا يختارون كتّابهم من رجال الأدب، وممّن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب لحرصهم على أن تدوّن الرسائل بأسلوب شيّق بليغ، وقد ذكر ابن خلدون[4] الصفات الّتي يجب أن تتوفر في الكاتب عامة وفي كاتب الرسائل خاصة فقال: «واعلم أنّ صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخيّر أرفع طبقات النّاس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم، وعارضة البلاغة، فإنّه معرض للنّظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب، والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها».

---

[1]– إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص24. نجاح بنت عواض بن عطيان الدعيجي، وظيفة الكاتب في الدولة الإسلامية 1-232هـ/622-846م، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1426هـ/2005م، ص4.

[2]– أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهي اسم للإقليم الرابع بأسره ، وكانت مدينتها أولا جيّا ثمّ صارت اليهودية، وهي من نواحي الجبل في آخر الاقليم الرابع، وكانت مساحة أصبهان ثمانين فرسخا وهي ستة عشر رستاقا كل رستاق ثلاثمائة وستون قرية قديمة سوى المحدثة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص206-207.

[3]– إسحاق رياح وسليمان أبو سويلم، الحضارة العربية، ص65.

[4]– مقدمة ابن خلدون، ص307.

وقد حرص الوزراء أيضا على اختيار كتّابهم، فذكر عن يحي بن خالد أنّه أوصى أولاده بقوله: «لا بد لكم من كتّاب وعمّال وأعوان فاستعينوا بالأشراف وإيّاكم وسفلة النّاس، فإنّ النّعمة على الأشراف أبقى وهي بهم أحسن والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر»[1].

وامتاز كتّاب ذلك العصر بحسن الكتابة وغزارة العلم وسعة الاطلاع وحسن البلاغة فكان جعفر البرمكي كاتبا بليغا، وقيل عن إسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد بأنّه لا أطيش من قلمه ولا أثبت من حمله[2].

وقد وصف الكتّاب بأنّهم «نظام الأمور وكمال الملك وبهاء السلطان وهم الألسنة النّاطقة عن الملوك وخزّان أموالهم وأمنائهم على رعيتهم وبلادهم»، ولذلك كان كتّاب الدول مثلا يقتدى بهم في الزيّ والوقار، وبلغت عظمتهم ومكانتهم في المجتمع إلى حد أنّ النّاس أخذوا يقلّدونهم ويتباهون بهم وليس أدّل على ذلك قول رجل لبنيه «يا بني تزيّوا بزيّ الكتّاب فإنّ فيهم أدب الملوك وتواضع السوقة»[3].

وكان ينبغي للكاتب أن يراعي تأسيس الخط على الوضع الّذي اصطلح عليه المجيدون من الكتّاب، فقد قسّم أهل الصناعة الخط إلى قسمين محقق ومطلق، فأمّا المحقّق فما صحّت أشكاله وحروفه على اعتبارها مفردة، وهذا النوع هو الّذي يستعمل في العهود والسجلات والتمليكات والمكاتبات الصادرة عن الملوك إلى الملوك الدالة على قدر المكتوب عنه والمكتوب إليه، وأمّا المطلق فهو الّذي تداخلت حروفه واتصل بعضها ببعض، وهو خط مولّد من المحقّق، يستعمل في تنفيذ ما لا يمكن تأخيره من المكاتبات المهمّة والأمور العامّة، ويشترط أن يلزم الكاتب الطريقة في كل واحد من الخطين ولا يخلط حروف أحدهما بحروف الآخر[4].

ومن الوصية المنسوبة إلى عبد الحميد الكاتب إلى الكتّاب يتبين لنا ما يجب على الكتاب حيث قال أنّ الكاتب يجب أن يكون «قد نظر في كل صنف من صنوف العلم

1- الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص179.

2- ناجي معروف، المدخل إلى تاريخ الحضارة العربية، مطبعة دار السلام، بغداد، 1964، ص41.

3- ابن قتيبة، عيون الأخيار، ج1، ص46. إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص 25.

4- القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص26.

فأحكمه، فإن لم يحكمه شدا منه شدوا يكتفي به، فنافسوا معشر الكتّاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثمّ العربية فإنّها ثقاف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنّه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيّام العرب والعجم وأحاديثها وسيّرها، فإنّ ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم، ولا يضعف نظركم في الحساب فإنّه قوام كتّاب الخراج منكم»[1].

ويقال أنّ المهدي أوّل خليفة عبّاسي جعل للكتّاب يوم الخميس عطلة رسمية يستريحون فيه وينظرون في أمورهم ولا يحضرون الدواوين، ويبدو أنّ هذا التقليد ظلّ متّبعا حتّى خلافة المعتصم الّذي أزال الرسم بتأثير من وزيره الفضل بن مروان فأخذ الكتّاب يحضرون يوم الخميس[2].

وحرص الخلفاء والوزراء على أن تدوّن رسائلهم وكتبهم بأسلوب شيق ومختصر، فكان الخليفة المنصور يقول لكتّابه: «اكتب وقارب بين الحروف وفرج بين السطور واجمع خطّك»، وذكر عن يحي بن خالد البرمكي بأنّه قال لكتّابه: «إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتّوقيعات اختصارا فافعلوا»، وعن الفضل بن سهل أنّه أمر كتّابه أيضا «بأن يقاربوا بين الحرف لئلّا يسافر البصر سفرا بعيدا في حروف قليلة»[3].

وقد ترتّب على ارتفاع وظيفة الكتّاب في الدولة العبّاسية أن ظهر نوع من التنافس بين الوزراء والكتّاب، وكان هذا التنافس سببا في تنكيل الخلفاء ببعض وزرائهم وكتّابهم، فإذا كان الكاتب يحظى بمكانة طيبة عند الخليفة، سعى الوزير إلى النّيل منه عند الخليفة أو يحدث العكس، فذكر أنّ المنصور قبض على وزيره أبا أيّوب المورياني وقتله سنة 154هـ نتيجة لسعاية كاتبه إبّان بن صدقة المتوفى سنة 167هـ[4].

وكانت الدولة العبّاسية تدفع لكتّابها رواتب مقررة في كل شهر، قدرت في زمن الخليفة أبي جعفر بثلاثمائة درهم، وبقيت كذلك حتّى خلافة المأمون عندما أمر بزيادة أرزاقهم، حيث كان «راتب كاتب في ديوان الجند زمن المأمون ثلاثة آلاف درهم»[5].

---

[1]- الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص51.

[2]- نفسه، ص166. عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، ص174.

[3]-الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص 201. ناجي معروف، المدخل، ص42.

[4]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص205. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج7، ص 23-24.

[5]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص95. الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص126.

إلّا أنّ الكتّاب كانوا يجمعون أموالا ضخمة عن طريق الاختلاس والرشاوى نظرا لمكانتهم عند الخلفاء وتولّيهم رئاسة بعض الدواوين الخاصة مثل ديوان الخراج، فقد ذكر أنّه في سنة 229هـ حبس الواثق الكتّاب وألزمهم أموالا عظيمة وأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه، ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربعمائة ألف دينار، ومن إبراهيم بن رباح كاتبه مائة ألف دينار، ومن أحمد بن الخصيب وكاتبه ألف ألف دينار، ومن نجاح ستين ألف دينار، ومن أبي الوزير مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار[1]، ولا عجب في هذا إذا علمنا أنّ أحمد بن خالد الأحول كاتب المأمون توسط له بتولية خراسان طاهر بن الحسين ويشترط على نجاحه في ذلك ثلاثة آلاف درهم[2].

4- القضاة:

القضاء أحد أركان الدول وقاعدة من قواعد بسط العدل وحل الخلافات وبه يمكن للحكام وتسعد رعية الدول وفي الإسلام أولاه الرسول - صلّى الله عليه وسلم- عناية فائقة وحذر من الظلم وأخذ حقوق الناس وظلمهم، لكنّه - صلّى الله عليه وسلم- كان يتولّى الفصل في الخصومات بنفسه وفق أحكام الشريعة الإسلامية، في حين يكلف بعض الصحابة بالقضاء بين النّاس في المناطق البعيدة، وفي خلافة أبي بكر أسند القضاء إلى عمر، ولكن منذ أن اتّسعت الدولة الإسلامية بالفتوحات في زمن عمر، وارتبط العرب بغيرهم من الشعوب استلزم الأمر تعيين قضاة في الأمصار لفض الخصومات[3].

وكان يشترط في اختيار القضاة الذكورية والبلوغ والعقل والحريّة والإسلام والعدالة والسلامة في السّمع والبصر والعلم، والأناة والفقه[4]، وقد اتّسعت سلطة القضاة، فبعد أن كان عملهم يقتصر على الفصل في الخصومات أصبح يجمع إلى ذلك استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السنّة، وفي وصايا المسلمين، وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء، وتصفح الشهود والأمناء والنّواب[5].

---

[1]- ابن الجوزي، المنتظم، ج11، ص144. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص79.

[2]- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص183. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص87.

[3]- جبر محمود الفضيلات، القضاء في صدر الإسلام، شركة الشهاب، الجزائر، 1987، ص128.

[4]- أبي يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص 60-61. جبر محمود الفضيلات، القضاء، ص74.

[5]- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص94- 95.

ظلّ القضاء يتطور تدريجيا حتى انتظم أمره وتوسع نظر القضاة إذ ينظرون في كل ما يعرض عليهم، لكنّه ظهر نوع من التقسيم في مهام القضاة فظهر ما يعرف بقضاء الأحداث –الجرائم– في العهد الأموي[1].

وفي العصر العبّاسي تعقّد نظام القضاء لتعقّد الحياة الاجتماعية وما طرأ على المجتمع العراقي في هذا العصر من أساليب جديدة في حياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، هذا بالإضافة إلى ظهور المذاهب الأربعة حيث لم تتخذ الدولة العبّاسية مذهبا فقهيا واحدا تلتزم به رسميا، وتلزم القضاة على السير بموجب أحكامه، كما أنّها لم تعترف بوجود مذاهب تستلزم تعدد القضاة[2]، لكن قاضي العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة، بخلاف بقية المناطق والأقاليم ففي مصر المذهب الشافعي وفي الشام الحنبلي والمغرب والأندلس المذهب المالكي، وإذا تنازع متخاصمان على غير المذهب السائد في بلد من البلاد أناب القاضي عنه من القضاة من يدين بعقائد مذهب المتخاصمين، واستمرت هذه المذاهب الأربعة حتّى اليوم مصدر التشريع الإسلامي، ومن ثم أطلق على العصر العبّاسي عصر أئمة المذاهب لأنّه وضعت فيه أصول الفقه الإسلامي[3].

وقد عمد بعض الخلفاء العبّاسيين إلى حمل القضاة على السير وفق رغباتهم ليكسبوا أعمالهم صبغة شرعية حتّى امتنع كثير من الفقهاء عن تولي القضاء خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية، ومثال ذلك اعتذار أبا حنيفة النعمان عن تولي هذا المنصب في عهد أبي جعفر المنصور[4].

---

[1]– وكيع محمد بن خلف، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، (د ت)، ج2، ص80.

[2]– عمر الشريف، مذكرات في نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية: دراسة مقارنة، معهد الدراسات الإسلامية، مصر، 1979، ص10.

[3]– النويري، نهاية الأرب ج4، ص137. السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب: العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993، ج3، ص72. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي، ص228–229.

[4]– النويري، نهاية الأرب ج4، ص137. قال الربيع «رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول اتق الله ولا ترعى أمانتك إلّا من يخاف الله والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك ثم تهددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك فقال له كذبت أنت تصلح فقال له قد حكمت لي على نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضيا على أمانتك وهو كذاب». ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص407–408.

وكان بين أبي حنيفة وابن أبي ليلى القاضي وحشة، لاعتراض أبي حنيفة عليه في أحكامه، وكان أصغر منه سنا، فشكاه إلى المنصور، فمنعه من الفتيا[1].

وفي العصر العبّاسي الأول اتسعت سلطة القاضي، فبعد أن كان عمله مقصورا على الفصل بين الخصوم، أصبح يفصل في الدعاوي والأوقاف وتنصيب الأولياء، وممّن نبغ من القضاة في هذا العصر يحي بن أكثم الّذي قاد الجنود في عهد المأمون لمحاربة الروم، وأحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة في عهد الواثق الّذي أخذ الفقه عن يحي بن أكثم[2].

ونظرا لتوسّع مهام القضاة وتعدد اختصاصاتهم كان يعينهم مساعدون ونوّاب، وكان القاضي يتخذ شهودا عرفوا بالأمانة والتفقه في الدين ولذلك سمّوا بالشهود العدول، وكان المجلس الّذي يتولى فيه القاضي الحكم يعرف بمجلس الحكم، وكان يعقد في المسجد الجامع، ثمّ أصبح يعقد في دار القاضي وذلك بعد أن تعددت المساجد الجامعة في المدينة الواحدة، وكان يعقد في قصر الخلافة في حالة إذا ما كان القضاء متعلقا بالمظالم، وكان القاضي يجلس في أول الأمر في المسجد، ثمّ وجد المسلمون أنّ هذا لا يتفق وحرمة بيوت الله، فمنع الخليفة المعتضد القضاة من الجلوس في المساجد، وكان بعض القضاة يقضي بين النّاس في داره[3].

ولم تلتزم الدولة العبّاسية مذهبا معينا في تعيين القضاة، فهناك قضاة يمثلون شتّى المذاهب، بل فيهم من اتّهم بالتشيّع والرفض، إلّا أنّ طائفة كبيرة من قضاة هذا العصر، يمكن عدّهم من أصحاب أبي حنيفة وتلاميذه، وبهذا انتشر مذهب أبي حنيفة حتّى غلب على الكوفة والعراق، وما وراء النّهر وكثير من بلاد خراسان، ولهذا كان من الطبيعي أن يكون أكثر قضاة بغداد ممّن كانوا يعتنقون المذهب الحنفي، وأكثر قضاة العراق من أصحاب أبي حنيفة لأنّ الغالب على فقهاء هذا الإقليم وقضاته أصحاب أبي حنيفة[4].

---

[1]- ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص76. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج1، ص238.

[2]- النويري، نهاية الأرب، ج4، ص 91. محمد بن محمد عرنوس، تاريخ القضاء في الإسلام، المطبعة المصرية الحديثة الأهلية، 1352هـ/1934م، ص73.

[3]- إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي، ص230.

[4]- إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي،ص229-231.

وقد أدخل العبّاسيون تطورا أساسيا في الجهاز القضائي لمّا حصروا سلطة تعيين القضاة بالخلفاء وحدهم، فقوي مركز القاضي في الأقاليم، واستقل بوظيفته عن الأمير، وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة عبّاسي وليّ قضاة الأمصار من قبله، وهذا يعني أنّ القضاء في هذا العصر فقد استقلاليته وتأثر بالسياسة العامة للدولة[1].

ولم يكتف العبّاسيون بسلطة تعيين القضاة فحسب، بل طوّروا الإدارة القضائية بشكل دقيق ومنظم، فاستحدثوا وظيفة قاضي القضاة ليشرف على قضاة الدولة كلها، ويراقب سيّرهم في القضاء، وكان القاضي أبو يوسف المتوفى سنة 182هـ صاحب كتاب الخراج أوّل من تقلّد منصب قاضي القضاة في العصر العبّاسي في عهد هارون الرشيد، والسبب في ذلك يعود إلى غزارة علمه ودرايته بالشؤون القضائية والإدارية، فقد وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة[2].

كما اقتضى تطور نظام القضاء في هذا العصر التحري عن الشهود، فإن كان الشاهد معروفا بالسلامة ولم يعرف عنه ما يجرحه قبل القاضي شهادته، وإن كان غير معروف بها لم تقبل شهادته، وإن كان مجهولا سئل عنه جيرانه، ومن ثم وجدت جماعة من الشهود عرفوا بالشهود الدائمين أو المعدلين، وكان القاضي يمتاز باستقلال الرأي، ولا يقبل الشفاعات أو الوساطات، حتّى إنّ قاضي جيش عضد الدولة شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكينه ويعدله، فقال له عضد الدولة هذه العبارة الّتي تبين مدى احترام رأي القاضي وعدم تدخل أولي الأمر في أعماله: «ليس هذا من أشغالك،إنّما الّذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم، وأمّا الشهادة وقبولها، فهو إلى القاضي، وليس لنا ولا لك الكلام فيه»[3].

وكان القاضي يرتدي السواد شعار العبّاسيين و«يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة»، وكانت القلنسوة السوداء في القرن الثالث الهجري خاصة هي الّتي تميّز القضاة وتلبس مع الطيلسان، وكان القاضي عند تعيينه يسير في موكب ذا هيبة فأبو عبد الله

---

[1]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص27.

[2]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج16، ص361.

[3]- الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تح محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م،ص378 ، ص378.

الحسن بن أبي الشوارب[1] عند توليته سنة 350هـ «ركب بالخلع من دار معز الدولة، وبين يديه الدبادب والبوقات وفي خدمته الجيش»[2].

وفي العصر العبّاسي الثاني تطور القضاء، فتأثر بالسياسة، وأصبح الخلفاء يتدخلون في القضاء حتّى حملوا القضاة في كثير من الأحيان على السير وفق رغباتهم، وكثيرا ما اعتذر القضاة عن قبول ذلك المنصب خشية تدخل الخلفاء في أحكامهم القضائية، فمثلا اعتذر أبو بكر الرازي[3] عن قبول منصب قاضي القضاة بعد أن طلب منه ذلك عدة مرات[4]. ونقول هنا أنّ امتناع كثير من الفقهاء والعلماء عن القضاء راجع لعدة أسباب أهمها الورع والزهد أو خوفهم من عدم القدرة على القيام بهذه الوظيفة لحساسية هذا المنصب.

كما كانت الدولة العباسية تقدم مرتبات مغرية للقضاة في حين امتنع بعضهم من أخذ ذلك، في حين أخذ بعضهم مرتّبا على أيّام العمل فقط، فمثلا بلغت نزاهة القاضي أبي خزيمة إبراهيم بن يزيد الرعيني (144-154هـ/ 761-770م) أنّه كان لا يأخذ عطاءه عن اليوم الّذي يقضيه بعيدا عن مجلس الحكم مهما كان نوع العمل الّذي يقوم به في ذلك اليوم، وكان يقول إنّما أنا عامل للمسلمين، فإذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحل لي أخذ ما لهم[5].

إلّا أنّ القضاء قد تطرق إليه بعض الفساد، وأصبح من يرشحون أنفسهم لتقلد هذا المنصب يتعهدون بتقديم مبلغ معين من المال يؤدونه في كل سنة، حتّى أنّ أبا العباس عبد

---

[1]- ابن أبو الشوارب: هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن العباس بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، أبو الحسن الأموي الفقيه، ولي قضاء القضاة بالعراق،كان عفيفا نزها رئيسا، يقال إن المتوكل عرض القضاء على محمد بن عبد الملك فامتنع، فيرى الناس أنّ بركته دخلت على ولده،وولي القضاء منهم أربعة وعشرون قاضيا، ثمانية منهم تقلدوا بغداد، آخرهم أبو الحسن هذا، توفي سنة 417هـ. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص153. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج8، ص24. ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص611 .

[2]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص247. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص376. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص417.

[3]- أبو بكر الرازي: هو أحمد بن علي، أبو بكر الفقيه الحنفي الرازي، أحد أئمة أصحاب الرأي، وهو تلميذ أبي الحسن الكرخي، كان عابدا زاهدا ورعا، انتهت إليه رياسة الحنفية في وقته، توفي سنة 370هـ. ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص402-403.

[4]- ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص 277. ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص 402-403.

[5]- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص406.

الله بن الحسن بن أبي الشوارب لمّا قلد قاضي القضاة سنة 350هـ «شرط على نفسه أن يحمل في كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتي ألف درهم، وكتب بذلك سجلا»[1]، ولكن الخليفة المطيع لم يوافق على تقليد هذا القاضي وأمر بعدم دخوله عليه، ويقول ابن الأثير عن ذلك: «وهو أول من ضمن من القضاة، وكان ذلك أيّام معز الدولة، ولم يسمع بذلك قبله، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء، ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد»[2].

إلّا أنّ هذا الانحراف لم يكن شائعا، حيث يوجد كثير من القضاة كانوا ينزهون أنفسهم عن مثل هذه العيوب، حتّى إنّهم كانوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد، وبعد أن يشترطوا شروطا تكفل استقلالهم وتحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم، ويذكر السيوطي[3] أنّ الخليفة المعتضد وجه «إلى القاضي أبي حازم كتابا يقول فيه: إن لي على فلان مالا، وقد بلغني أنّ غرماءه أثبتوا عندك، وقد قسطت لهم من ماله، فاجعلنا كأحدهم، فقال أبو حازم: قل له: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ذاكرا لمّا قال لي وقت قلدني، إنّه أخرج الأمر من عنقه وجعله في عنقي، ولا يجوز لي أن أحكم في مال رجل لمدع إلّا ببيّنة، فرجع إليه فأخبره فقال: قل له فلان وفلان يشهدان- يعني رجلين جليلين- فقال: يشهدان عندي وأسأل عنهما، فإن زكيا قبلت شهادتهما، وإلّا أمضيت ما قد ثبت عندي، فامتنع أولئك من الشهادة فزعا، ولم يدفع إلى المعتضد شيئا».

وكذلك ذكر أنّ الخليفة المطيع (334-363هـ/ 945-973م) «قلّد القضاء أبا الحسن محمد بن شيبان الهاشمي بعد تمنع، وشرط لنفسه شروطا منها: ألّا يرتزق على القضاء، ولا يخلع عليه، ولا يشفع إليه فما يخالف الشرع، وقرر لكاتبه في كل شهر ثلثمائة درهم، ولحاجبه مائة وخمسين، وللعارض على بابه مائة، ولخازن ديوان الحكم والأعوان ستمائة»[4].

---

[1]- الذهبي، تاريخ الإسلام، ج7، ص 763. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص618.

[2]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص271. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي، ص 230-231.

[3]- تاريخ الخلفاء، ص576.

[4]- ابن الجوزي: المنتظم ، ج14، ص 221، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص622.

4- الحجّاب:

الحجابة لقب لمنصب في البلاط أو لوظيفة في البلاد الإسلامية اختلفت المهمّات الموكلة إلى صاحبها باختلاف المناطق والحقب التاريخية، والحجّاب مصطلح مفرده حاجب وهو من كبار موظفي الدولة، وهو همزة الوصل بين الخليفة والنّاس يقدم السفراء، ويأذن لمن يشاء بالدخول على الخليفة أو يمنعه، وتفاديا لازدحام النّاس في حضرة الخليفة منح الصلاحية للبث في القضايا الّتي لا تستدعي نظر الخليفة، وعرفت هذه الوظيفة منذ عهد الرسول صلّى الله عليه وسلم وكان يطلق على الحاجب اسم الآذن ولكن بلا مراسيم التي تطورت فيما بعد وتعقدت بتطور الزمن والدول[1].

ولمّا انتقل الحكم إلى بني أمية، اتخذ معاوية حاجبا ولم يكن كما حصل لاحقا بعد مؤامرة الخوارج عليه، وعلى علي بن أبي طالب وعمرو بن العاص، وذلك خوفا على حياتهم، ومنعا لازدحام النّاس على أبوابهم حتّى لا ينشغلوا عن مهام الدولة، وقد حذا العبّاسيون حذو الأمويين، فاتّخذوا الحجّاب وزادوا في منع النّاس من لقاء الخليفة إلّا في الأمور الهامة[2].

ولم تقتصر مهمة الحاجب في ذلك العصر على حراسة الخليفة ومنع النّاس من الاتصال به، بل تعداه إلى التدخل في أهم شؤون الدولة، حتّى إنّ بعضهم استبدّ بهذه الشؤون دون الوزراء، وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم في المسائل المتعلقة بدواوينهم ولا يفصلون فيها إلّا بعد الرجوع إليهم، وكثيرا ما كان الحاجب يصبح غرضا لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه وعظم استبداده بأمور الدولة، ومن أمثلة ذلك تدبير الوزير ابن مقلة مؤامرة انتهت بالقبض على الحاجب محمد بن ياقوت سنة 321هـ[3].

وعليه كان الحاجب يشغل منصبا رفيعا في الدولة فقد كان مخصوصا في زمن الدولة العبّاسية بمن يحجب السلطان عن العامة، ويغلق بابه دونهم، ويفتحه لهم على قدره في

---

[1]- الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله علية وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1405هـ/1985م، ص63-64.

[2]- مقدمة ابن خلدون، ص299.

[3]- مسكويه، تجارب الأمم، ج5، ص148-149. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص8079 -.

مواقيته مراعيا في ذلك مقامهم وأهميّة أعمالهم، ومع ذلك فإنّ الخلفاء ما كانوا يحجبون أبوابهم عن كل النّاس ولا في كل الأوقات[1].

كما حجب العامة عن الخليفة في عهد الدولة العبّاسية، فأصبح لهم حاجب آخر أخص من الأول، وهذا الحاجب الثاني يفضي إلى مجالس الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة، وصار بباب الخليفة دارين: دار الخاصة ودار العامة يقابل كل فئة في مكان معين على ما يراه الحاجب ثمّ تطرقوا عند انحطاط دولتهم ومحاولة الحجر على صاحب الدولة إلى حاجب ثالث أشد من الأولين[2].

وقد روي عن الخليفة المنصور أنّه عندما ولّى الخصيب حجابته قال له: «إنّك بولايتي عظيم القدر، وبحجابتي عظيم الجاه، فبقها على نفسك، ابسط وجهك للمستأذنين وصن عرضك عن تناول المحجوبين فما شيء أوقع بقلوبهم من سهولة الإذن وطلاقة الوجه»[3]،

ولمّا اتّخذ الخليفة الهادي الفضل بن الربيع حاجبا له بعد أبيه قال له: «لا تحجب عنّي النّاس فإن ذلك يزيل عنّي البركة، ولا تلقي إليّ أمرا إذا كشفته أصبته باطلا، فإنّ ذلك يوقع الملك ويضر الرعيّة»[4].

وقد علت منزلة الحاجب في الدولة العبّاسية فأصبح يستشار في كثير من مهام الدولة، وأصبح له نفوذ في توجيه سياستها مستغلّين في ذلك مكانتهم العالية ومنزلتهم السامية وقربهم من الخلفاء والأمثلة كثيرة على ذلك نذكر منها مثلا أنّ الفضل بن الربيع حاجب الخليفة الرشيد لعب دورا عظيما في السعي للإيقاع بالبرامكة فذكر الجهشياري[5] أنّه حرّض الرشيد

1- مقدمة ابن خلدون، ص240. وقد جاء أنّ عبد الملك بن مروان لمّا ولّى حاجبه قال له: «قد ولّيتك حجابة بابي إلاّ عن ثلاث: صاحب الطعام فإنّه يفسد بالتأخير والمؤذن للصلاة فإنّه داع إلى الله والبريد فإنّ تأخيره فساد القاصية»، كما كان الخلفاء الأمويون يتخيّرون صاحب هذه الخطة من أفضل رجالهم، لأهميّة عمله بالنسبة لدولتهم، وهذا ما نستنتجه من وصية عبد الملك ابن مروان إلى أخيه عبد العزيز حين مضى إلى مصر أميرا عليها فقال له: «وانظر حاجبك، فليكن من خير أهلك،فإنّه وجهك ولسانك،ولا يقف أحد ببابك إلا أعلمك مكانه،لتكون أنت الذي تأذن له أو تردّه». ابن الطقطقى، الفخري، ص90.

2- مقدمة ابن خلدون، ص243.

3- النويري، نهاية الأرب، ج6، ص87.

4- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص217.

5- الوزراء والكتاب، ص216 - 220.

على جعفر البرمكي ونسب إليه أنّه أهان الخليفة، كما كان له دور في إحداث الخلاف بين الأمين والمأمون فهو الّذي شجّع الأمين على خلع أخيه والفتك به وتمزيق إمارته.

وقد كان الحجّاب في عصر الدولة العبّاسية كغيرهم من ذوي المناصب العليا يسعون إلى جمع الأموال بشتّى الطرق سواء كان ذلك عن طريق الرشوة أو عن طريق الهدايا الكبيرة الّتي يقدمها طالبوا الحاجات لهم لقاء توسطهم لهم لدى الخليفة أو التعجيل في الإذن لهؤلاء الأفراد بالدخول عليه فقد ذكر أنّ الربيع حاجب المنصور كان قد اتّفق مع يعقوب بن داود على رشوة مقدارها مائة ألف دينار حين يتوسط له لدى الخليفة ليتولى الوزارة[1].

ثانيا- الطبقة الوسطى:

1- العلماء والمؤدبون:

أ- العلماء: إنّ من مبادئ الإسلام تعظيم العلم وحملته **قال تعالى**[2]: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾، **وقال سبحانه وتعالى**[3] أيضا: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.

ولم يكن العلماء فئة خاصة في المجتمع العبّاسي بل كانوا جزءا من المجتمع ينتمون إلى كل فئاته الاجتماعية الخاصة والعامة، وقد برز لنا في الدولة العبّاسية عدد كبير من العلماء كان لهم دورهم البارز في الحياة الاجتماعية من خلال مشاركتهم في الكثير من الأمور السياسية والاجتماعية كما أصبح لهم نفوذا لدى الخاصة والعامة[4].

واحتلّت العلوم الدينية حيّزا كبيرا من اهتمام الخلفاء وكانوا من السبّاقين في عقد الحلقات الدينية لرغبتهم في الظهور بالمظهر المناسب أمام النّاس بعدّهم أئمة المسلمين، ولمزيد من التبحر في الأحكام والتشريعات الّتي تساعدهم في تشريع أو استنباط الأحكام أو القوانين، فقد كان للخليفة أبي جعفر المنصور علّامة عهده العالم أبو حنيفة الّذي ازدانت به مجالسه وأشرف على بناء بغداد[5].

---

[1]- ابن الطقطقى، الفخري، ص184.

[2]- سورة المجادلة، آية 11.

[3]- سورة الزمر، آية 9.

[4]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص63.

[5]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 15، ص 446. خلود مسافر الجنابي، المجالس العلمية، ص85-86.

وكان المنصور أيضا يحرص على الاستكثار من نصائح ومواعظ عمرو بن عبيد – ت144هـ– بعد أن امتنع عمرو عن معاونته في القضاء، وعندما رفض اللّيث بن سعد عالم أهل مصر – ت175هـ – العمل له على قضاء مصر، طلب منه أن لا يضن بتوجيهاته لولّاة مصر وقضاتهم، ومنحه سلطات واسعة، فكان اللّيث يخصّص مجلسا لنوّاب السلطان وحوائجه، وإذا أنكر من الولّاة أو القضاة شيئا كتب به إلى الخليفة، فيأتي أمر الخليفة وفق رأيه، وكانت رسل السلطان تأتي أبا حنيفة يعرضون عليه المسائل، فيحكمون فيها بقوله[1]، بل إنّ المنصور أوصى ولّي عهده المهدي بتقريب العلماء، وأن يتخذ منهم أعوانا ومستشارين فقال: «لا تجلس مجلسا إلّا ومعك من أهل العلم من يحدثك»، ولمّا حجّ المنصور عام 147هـ وصل الإمام مالك بـ 5000 دينار، كما وصله أيضا ب 1000 دينار لمّا حجّ عام 158هـ ولابنه بمثلها[2].

وبعد وفاة المنصور وتولى بعده ابنه المهدي كان أول ما فعله عقب مبايعته بالخلافة أن استدعى سفيان الثوري– ت161هـ– فلمّا دخل عليه خلع المهدي خاتمه وأعطاه إيّاه، وكان ذلك يعني تفويضا تاما لسفيان للتصرف في الخلافة كما يشاء قائلا له: «هذا خاتمي فاعمل في هذه الأمّة بالكتاب والسنّة»[3].

وقد تكرر هذا العرض من المهدي مرات عدة كانت إحداها في موسم الحج الّذي يمثّل فرصة سانحة للخلفاء للالتقاء ببعض العلماء المتوارين عنهم، فالتمس المهدي سفيان الثّوري حتّى أتى به فقال له معاتبا: «لأيّ شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا، فما أمرتنا بشيء صرنا إليه وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه»، غير أنّ سفيان الثوري رفض هذا العرض أيضا، وطلب من الخليفة أن يبدي حسن نيّته في إصلاح أحوال الدولة معيبا عليه عبثه بالمال العام، واستمرت سياسة الإغداق على العلماء فقد وصل المهدي الإمام مالك بـ 4000 دينار ووصل ابنه بألف دينار[4].

---

[1]– ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص58–62. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص131. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص577 –579. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين، العلماء والسلطة، ص147.

[2]– ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج2، ص203. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص72.

[3]– الطرطوشي، سراج الملوك، تح محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص118–119. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين، العلماء والسلطة، ص153.

[4]– ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج2، ص203. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين، العلماء والسلطة، ص153.

وأمّا ميل الخليفة الرشيد إلى الفقهاء فكان كبيرا ومعروفا وهو ما كان يدفعه لاصطحاب عدد كبير منهم يقرب من المائة للحج، ويسأل عن العلماء والتّابعين هناك، وكان مقره في موسم الحج يشهد العديد من محاورات الفقهاء، وكان هو أحد حضور مجالس الإمام مالك بن أنس، فهذا العالم الجليل كان يرفض الذهاب لأحد، ويعز نفسه بالعلم وموقفه واضح بهذا الصدد، فالعلم يؤتى إليه لا أن يذهب لأحد[1].

وبذل الرشيد جهد كبير لتقريب العلماء والاستعانة بهم، فأجابه البعض، وامتنع البعض الآخر، ومع ذلك ظلّ يلح عليهم فعرض على الشافعي العمل في القضاء فاعتذر، واستعان بالفضيل بن عياض – ت187هـ – فأبى، وإنّما اكتفى بتوجيهه إلى حسن اختيار بطانته وولّاته وعمّاله حتّى يعينوه على الخير[2].

ولاعتقاده بأهميّة العلم والعلماء، وجّه ولديه الأمين والمأمون لحضور مجالس الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ليسمعا منهم، واهتم أيّما اهتمام باختيار مؤدبيهما فقد كان الأصمعي يعلّم الأمين علوم القرآن والفقه، والكسائي واليزيدي يعلّمان ولده المأمون[3].

وبالغ الرشيد في إكرام من يقدم عليه من العلماء حتّى يذكر أنّه كان يصب الماء على أيدي ضيوفه من العلماء بعد فراغهم من الطعام، وعندما لامه البعض على ذلك قال: «فعلته إجلالا للعلماء»، وكان إذا أتاه الشافعي أجلسه على سرير الخلافة، ثمّ يقعد هو بين يديه مصغيا إلى حديثه، وكان من ثمار ذلك الاهتمام والتّشجيع تلك الحركة العلمية النشطة في تدوين السنن، والبدء بالتّفسير، ونمو النشاط الفقهي، كما بدأ تدوين العلوم وتصنيفها، وعاش غالبيّة العلماء في رغد من العيش، وتميّزوا في المجتمع بزيّهم ومظهرهم الخاص، وكان لهم تأثير كبير في المجتمع بما بثّوه من مثل اجتماعية وخلقية ودينية وبسبب تصدّيهم للمنكر ومقاومتهم للانحرافات الاجتماعية الّتي كانت تظهر من وقت لآخر[4].

---

[1]– الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص347. ابن الطقطقى، الفخري،ص111. الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، مكتبة المثنى، بغداد، 1964، ص123-124.

[2]– عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين، العلماء والسلطة، ص154.

[3]– الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص206.

[4]– الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج10، ص50. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي، ص254.

ولمّا بلغ الرشيد موت عبد الله بن المبارك الزاهد المجاهد- ت181هـ- حزن عليه، وجلس في دار الخلافة لاستقبال العزاء فيه قائلا: «مات اليوم سيّد العلماء»، وقد كان يخفض جناحه للعلماء بما فيهم أولئك الّذين يوجهون إليه الانتقادات، ومن ذلك ما واجه به عبد الله بن عبد العزيز العمري الّذي أغلظ له في القول متّهما إيّاه بالتّفريط والتّقصير في حق الأمّة، إلّا أنّ الرشيد لم ينتصر لنفسه وإنّما أجابه بكلمة واحدة: «نعم يا عم .... نعم يا عم»[1].

وفي عهد الخليفة المأمون زاد اهتمامه بالعلماء وأجرى عليهم الأرزاق، وكان يرسل الأموال لشيوخ الحديث لأنّه رأى فيهم ضعفا ليستعينوا بها على ما أوقفوا أنفسهم عليه من رواية الحديث، وزادت أرزاق الفقهاء والعلماء في عهده، فكان ما أجراه على أبي عبيد القاسم بن سلام[2] 500 درهــم في الشهر، وكان يجري على عفان بن مسلم الأنصاري المحدث 500 درهم كل شهر[3].

ويعد أحمد بن أبي دؤاد وبشر المريسي والنظام وثمامة بن الأشرس من أهم جلّاسه، إذ كانوا من كبار علماء المعتزلة والمتكلمين والأدباء مقربا إياهم مستقدما لهم من كل مكان غادقا عليهم الأعطيات[4].

ولم يقتصر حضور هذه الحلقات الدينية على العلماء والفقهاء فقط، بل ضمّت فطاحل الشّعراء والأدباء مثل الّتي كان يحضرها الشاعر أبو العتاهية وثمامة بن الأشرس المعتزلي، وهذه المناظرات والحلقات لم تعقد بين المسلمين فقط، بل مع أهل الذمّة أيضا لاسيّما

---

[1]- ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص58-63. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص610-613. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين، العلماء والسلطة، ص159 .

[2]- أبو عبيد القاسم بن سلام: من أبناء خراسان من مدينة هراة، كان أبوه سلام عبدا روميا لرجل أنصاري من هراة اختلف المؤرخون في سنة مولده بين 150هـ و157هـ، وتوفي على الأرجح سنة 224هـ . الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج10، ص490-491. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص62.

[3]- أولاد ضياف رابح، الجراية في الدولة الإسلامية من صدر الإسلام حتى سقوط بغداد (1-656هـ/622-1258م)، دكتوراه غير منشورة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 1434هـ-1435 هـ/2013/2014، ص188.

[4]- ابن طيفور ،كتاب بغداد، مراجعة السيد عزت العطّار الحسني، نشر مكتبة الثقافة الإسلامية، 1368هـ/1949م، ص 36. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص 577. اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان،وضح حواشيه خليل المنصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت،1417هـ/1997م ، ج2، ص29-33.

النّصارى منهم، فكانت للخليفة المأمون مجالس من هذا النوع يتناظر فيها الطرفان عن طبيعة السيّد المسيح عليه السلام[1].

واستمرّت عناية الخلفاء العبّاسيين بالحلقات الدينية في عهد الخليفة الواثق (227-232هـ/841-846م) لاسيّما مع استمرار مسألة خلق القرآن ، كما نال العلماء حظوة كبيرة، وأجرى عليهم الجرايات الوافرة، فقد أجرى على أبي عثمان بكر بن محمد المازني مائة دينار شهريا[2]، وفي زمن الخليفة المتوكل ومع إلغاء مسألة خلق القرآن ازدهرت مجالس الحديث ثانية، فقد طلب من شيوخ المحدثين بالتّحديث وإظهار السنّة والجماعة، كما تقرّب من الإمام أحمد بن حنبل وطلب منه القدوم إليه فأبى، فكان يكاتبه ويستأنس برأيه، وكان من ثمار ذلك التعاون إنهاء فتنة القول بخلق القرآن، فقد جاء في إحدى رسائله إلى الإمام أحمد: «أسألك عن أم القرآن لا مسألة امتحان، ولكن مسألة معرفة وبصيرة»[3].

فكان المتوكل محبا للحلقات الفقهية ويعد أصحاب المجالس والحلقات ملوكا، كما استقدم العلماء والفقهاء، وأجرى عليهم الأرزاق وأكرمهم وأجزل صلاتهم، وكان الجاري على العلماء في عهد المتوكل يتراوح بين 1000 درهم و4000 درهم في الشهر، وصرف المتوكل على إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان أبي يعقوب التنوخي 1000 درهم في الشهر، وأقطعه إقطاعا غلّته في السنة 12000 درهم، وجعل له جراية سنوية مقدارها 5000 درهم، كما أجرى على أبي الحسن الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم في كل سنة 4000 دينار[4].

وسار الخلفاء من بعده بسيرته كالمهتدي الّذي قرّب بعضهم لتولي أعلى المناصب الإدارية، وفعل المعتضد بالله ذلك أيضا حيث أجروا الجرايات والرسوم للفقهاء والقرّاء، فقد أجرى المعتضد على العالم النحوي الزجاج مبلغ 300 دينار في السنة، كما وصل المكتفي

---

[1]- ابن طيفور، كتاب بغداد، ص45- 49. المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص31-33. النويري، نهاية الأرب، ج6، ص 84.

[2]- أولاد ضياف رابح، الجراية، ص203.

[3]- صالح بن أحمد، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تح: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، 1404هـ/1984م، ص116. المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص84-85. النويري، نهاية الأرب، ج4، ص149.

[4]- ضيف الله يحي الزهراني، النفقات وإدارتها في الدولة العباسية من سنة 132هـ-243هـ، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، 1986، ص205. أولاد ضياف رابح، الجراية، ص188 .

(289-295هـ/901-907م) المؤرخ الطبري بمبلغ 10.000 درهم لكنّه اعتذر ولم يقبلها وطلب منه أن يوزعها على المحتاجين[1].

وبعد انقضاء العصر العبّاسي الثاني تغيّرت مواقف الفقهاء والعلماء من عطاء الخلفاء، ويرجع ذلك إلى المرحلة السياسية الّتي تمر بها الدولة وما سادها من الارتباك، خاصة على مستوى المؤسسات الإدارية والمالية، وهيمنة المؤسسة العسكرية على مقاليد السلطة الأمر الّذي أدى إلى فتور وتغير العلاقة بين العلماء والخلفاء[2].

وفي الفترة البويهية حظيت هذه الفئة باحترام الخلفاء والأمراء، وتولوا الوظائف العليا في الدولة، وقد أنعم عليهم الخلفاء والأمراء بالخلع اعترافا بمنزلتهم، فقد كان عضد الدولة محبا للعلم وأهله مقربا لهم محسنا إليهم ويجلس معهم ويناظرهم في مختلف المسائل[3].

وكان الأمراء يأخذون برأيهم ويحسنون في التعامل معهم وملاطفتهم، حتّى ولو اختلفوا معهم في الرأي فمثلا عارض أبا الحسن الماوردي - ت450هـ - وهو من أكبر علماء عصره الأمير جلال الدولة سنة 435هـ عندما تلقّب بلقب ملك الملوك، فامتنع عن الخروج والجلوس بحضرته مدة طويلة، ثمّ ما لبث جلال الدولة أن استدعاه ولاطفه في القول وأيّده في رأيه واستحسن موقفه[4].

وبالرغم من أنّ العلماء المقرّبون من الخلفاء والأمراء عاشوا عيشة مترفة إلّا أنّ هناك من العلماء من اضطرتهم ظروف العيش إلى اكتساب قوتهم بعمل أيديهم أمثال أبي الحسن علي بن المرزبان -ت366هـ- الّذي كان من جملة علماء بغداد، ومنهم من كان يشتغل بالتجارة كالفقيه أبي الحسن البغدادي -ت419هـ- الحنفي، الّذي جمع مالا كثيرا غير أنّ أمواله صودرت حتّى أصابه الفقر والبؤس ومات ولم يكفن حتّى أرسل الخليفة إليه كفنا فكفن فيه، ومنهم من باع الفاكهة كعلي بن عيسى -ت384هـ- المعروف بالرمّاني، وكان أبو الحسن الكندي -ت362هـ- الشّاعر رفاء، واشتغل البعض الآخر بالوراقة وبيع الكتب كأبي سعيد السيرافي المتوفى سنة 368هـ، كان أبوه مجوسيا وأسلم، وكان ورعا نزيها عفيفا يأكل

---

[1]- ضيف الله يحي الزهراني، النفقات، ص206. أولاد ضياف رابح، الجراية، ص188 .

[2]- أولاد ضياف رابح، الجراية، ص190.

[3]- مسكويه، تجارب الأمم، ج5، ص44-45. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص146.

[4]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص44.

من نسخ الكراس بعشرة دراهم لجمال خطّه ومن أجرته تكون نفقته، كما كان من أكثر علماء بغداد ثقافة في علوم القرآن والنّحو واللّغة والفقه، وقد تتلمذ على يديه كثيرون من بينهم أبي حيّان التّوحيدي الّذي روى عنه في كتابه الإمتاع والمؤانسة بعض علماء في اللّغة والنّحو[1].

وكان من بين العلماء من تقلّد مناصب القضاء غير أنّ مرتباتهم خلال العهد البويهي كانت منخفضة، فكان راتب القاضي التنوخي سنة 447هـ ستين دينارا شهريا، وحين تعجز الدولة عن دفع المرتبات لموظفيها كانت تلجأ إلى منحهم الإقطاعات ليكون ريعها السنوي بديلا عن دفع المرتبات لهم[2].

وأمّا لباس العلماء، فقد كان وحتّى قيام الدولة الأموية يتّسم بالبساطة المستوحاة من ملابس الرسول صلّى الله عليه وسلم، ويتكون في الغالب من العمامة وعباءة وإزار وسراويل وقميص، وبما أنّ اللّون الأبيض هو اللّون المفضل لدى سيّد الأنبياء، لذا فقد اقتفى العلماء وحتّى الخلفاء والأمراء سنّته الشريفة في تفضيلهم لهذا اللّون، مع العلم أنّه كان لرجال الدولة من العلماء ثياب خاصة يسمّونها المنادمة[3].

وعموما فقد اختصت كل فئة في العصر العبّاسي بلباس خاص يميّزها من سواها، فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون بشكل خاص عمامة سوداء مبطنّة وطيلسانا أسودا، وأول من غيّر لباس العلماء على هذه الصورة هو قاضي الرشيد أبو يوسف، وأمّا علماء اللّغة والأدب والشعر فاختلف لباسهم لكن بعضهم كان يلبس الوشي[4] والأردية السود[5].

ب- المؤدبون:

اتخذ الخلفاء والأمراء والأغنياء لأولادهم معلمين خاصين يذهبون إلى قصورهم أو دورهم، يتلقّون منهم قدرا من الثقافة والمعرفة، وكان الآباء يشتركون في تخطيط وتحديد ما يتعلمه أبناؤهم من معلميهم، وأطلق على المعلم اسم المؤدب، وأقام بعضهم في تلك القصور

---

[1]- ابن كثير ، البداية والنهاية، ج15، ص393-394. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص421. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، ص367-369. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص44-45.

[2]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص47.

[3]- صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية، ص24.

[4]- الوشي: نوع من أنواع الثياب الثمينة موشاة بالذهب. رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، 1971، ص111 .

[5]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص378. صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية، ص28.

حيث أعدّ لهم جناحا للإقامة ليشرفوا على تربية الأولاد، وقد انتدب أغلب الخلفاء لأبنائهم أفضل علماء عصرهم دينا وخلقا وعلما، وكانت وظيفة المؤدب هي تعليم أبناء الخلفاء محاسن الآداب ومكارم الأخلاق، إضافة إلى تعليمهم القرآن الكريم والنّحو ونوادر العرب ومأثوراتهم[1].

وقد أورد الجاحظ[2] أنّ المؤدبين كانوا على نوعين في ذلك العصر، منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة.

وتتضح مهام المؤدبين في الوصيّة الّتي بعث بها الخليفة هارون الرشيد إلى الكسائي مؤدّب ابنه الأمين: «يا أحمر إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك بهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرّفه الآثار وروه الأشعار وعلّمه السنن وبصّره مواضع الكلام وبدئه، وامنعه الضحك إلّا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا إليه ورفع مجالس القوّاد إذا حضروا مجلسه ولا تمرنّ بك ساعة إلّا وأنت مغتنم فائدة تفيده إيّاها من غير أن يخرق بك فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة»[3].

وقد كان الخلفاء يسألون عن خلق المؤدب ودينه، وكان المعلمون والمؤدبون يخضعون للإشراف والملاحظة من جانب الخليفة أو الحاجب، وكان يشترط فيهم أن يكونوا من رجال العلم والفضل والأدب والحكمة، وكانوا كثيرا ما يختارون في العصر العبّاسي من علماء اللّغة مثل علي بن حمزة الكسائي، الّذي عهد إليه الرشيد بتأديب ابنيه الأمين والمأمون، وقد كان إمام النّاس في النّحو والقراءة، وكان موضع تبجيل وإجلال من الأمين والمأمون[4].

---

[1]- رحيم كاظم محمد الهاشمي وآخرون، الحضارة العربية الإسلامية: دراسة في تاريخ النظم، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د ت)، ص107 .

[2]- البيان والتبيين، ج1، ص250.

[3]- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص291. بهيج بهجت سكيك، الفكر التربوي وتنشئة الأولاد عند المسلمين الأوائل، مجلة الوعي الإسلامي، ع 532، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت،2001، ص14.

[4]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص87.

أشرف الرشيد يوما على الكسائي وهو لا يراه، وحدث أن قام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها فبادر الأمين والمأمون بأخذ نعله ووضعاه بين يديه، فقبّل رأسيهما وأيديهما ثمّ أقسم عليهما ألّا يعاودوا ذلك مرة أخرى، فلمّا جلس الرشيد في مجلسه سأل من فيه من الوزراء ورجال الدولة «أيّ النّاس أكرم خادما؟ قالوا أمير المؤمنين أعزّه الله قال: بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون، وحدثهم بالحديث»، ولمّا اعتل الكسائي واشتد عليه المرض كان الرشيد يعوده دائما[1].

كما استخدم الرشيد أيضا يحي بن المبارك اليزيدي عالم اللّغة لتأديب ابنه المأمون، وكان يعقوب السكيت مؤدّبا لولد المتوكل حتّى وفاته سنة 246هـ، ومن المؤدبين أيضا أحمد بن عبيد بن ناصح المعروف بأبي عصيدة حيث لمّا أراد المتوكل اتخاذ المؤدبين لولديه المنتصر والمعتز جعل ذلك إلى إيتاخ فاختاروه هو وابن قادم دون غيرهما من المؤدّبين لأولاد المتوكل المنتصر والمعتز[2].

وقد كان لهؤلاء المؤدبين تأثيرا عميقا على طلّابهم، فقد كان المؤدب هو القدوة الحسنة للطالب المتأدب والموجه له في كل مناحي الحياة ولذلك كان الطالب مؤمن بما يؤمن به مؤدبه[3].

ومن أشهر مؤدبي الخاصة أيضا أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني مولى بني شيبان المتوفّى سنة 206هـ، وكان يؤدب في أحيائهم فنسب إليهم بالولاء ويقال بالمجاورة وبالتّعليم لأولادهم الّذي كان راوية واسع العلم باللّغة، ثقة في الحديث، كثير السماع، ومنهم كذلك أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفّى سنة 224هـ وكان حمّالا ثمّ اشتغل مؤدبا للهراثمة، ومن أشهر مؤدبي العامة أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير وكان معلما للعامة وأحد القرّاء[4].

---

[1]-ابن النديم، الفهرست، ص97-98.

[2]- نفسه، ص108.

[3]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص87.

[4]- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص270. ابن النديم، الفهرست، ص101-109 .

وقد كان المؤدبون يتقاضون رواتب كبيرة لقاء تعليم أولاد الأغنياء والموسرين فقد ذكر الجاحظ[1] بقوله «يكون الرجل نحويا عروضيا، وهو لا يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهم ولو أنّ رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض ألف درهم»، بالإضافة إلى ما كانوا يحصلون عليه من عطايا وهبات، فقد روي أنّ الكسائي حين أدّب الأمين أكرمه والده الرشيد: «بعشرة آلاف درهم وجارية حسناء بآلتها وخادم وبرذون بسرجه ولجامه»[2].

2ـ الشعراء :

حظي الشعراء بمنزلة رفيعة عند الخلفاء العبّاسيين وزاد عددهم نتيجة لاهتمام الخلفاء أنفسهم بالشعر، خاصة وأنّهم اتّخذوا من الشعر وسيلة لتثبيت مركزهم وتدعيم كيانهم، إلّا أنّ منزلتهم كانت تعلو وتهبط تبعا لأمزجة الخلفاء وأهوائهم، ولكنّهم على الغالب كانوا يتمتّعون برعاية الخلفاء، فالخلفاء العبّاسيون جميعا قرّبوا الشعراء وجالسوهم وأغدقوا عليهم بالأموال باستثناء الخليفة أبو جعفر المنصور والّذي كان منشغلا عنهم ببناء دولته، فلم يكن يسرف في عطاياه للشعراء، وكان ميّالا إلى التّقتير والإقلال، فقد ذكر: « أنّ حمّاد عجرد – ت161هـ- دخل على أبي جعفر المنصور بعد موت أخيه أبي العبّاس السفّاح فأنشده شعرا، فأمر له فقط بخمسة آلاف درهم»[3].

كما أنّ اختلاط العرب بالأمم الأخرى، وما نقل إلى العربية من آداب الفرس والهنود أدّى إلى دخول أساليب جديدة في الشعر العربي وفتح أذهان الشعراء وخيالاتهم على أبواب من القول والإبداع، وعلى الرغم من الانحلال السياسي الّذي أصاب الدولة العبّاسية في العصر العبّاسي الثاني إلّا أنّ الشعر ظلّ مزدهرا وذلك لوجود عدة عوامل منها الامتزاج القوي بين أبناء المسلمين وغيرهم من الأجناس الأخرى، وكثرة عطايا الخلفاء للشّعراء

---

[1]- البيان والتبيين، ج1، ص403.

[2]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص88 .

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص30. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص210-214.

وتقريبهم لهم، والتنافس الشديد بين الدويلات في جذب الشّعراء والعلماء والأدباء والفنانين، إلى جانب التنافس الشديد بين الشعراء وذلك ليحظوا بالمكانة المرموقة[1].

كما كان أبو جعفر المنصور يراقب أولاده حتّى لا يدعهم يميلون إلى الإسراف في عطاياهم للشعراء، فالشاعر المؤمّل بن إميل –ت190هـ– مدح المهدي حين كان واليا على الري في زمن والده المنصور فأمر له بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحه بها، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو بمدينة السلام يخبره أنّ المهدي أمر لشاعر بعشرين ألف درهم، فكتب إليه المنصور يعذله ويلومه ويقول له: «إنّما كان ينبغي لك أن تعطي الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم»[2]، ويضيف الأربلي[3] إلى ذلك بأنّ المنصور أمر بالقبض على المؤمّل واسترداد العشرين ألف درهم بعد أن استحسن القصيدة.

والدليل على اهتمام المجتمع العبّاسي بالشعر والشّعراء أنّ هناك من طبقة الخلفاء وعلى رأسهم الخليفة الرشيد من كانوا ينظمون الشعر، كما أنّ زوجته السيّدة زبيدة كانت تجيد نظم الشعر وتبدع فيه، وقيل أنّها نظمت قصيدة قد بعثت بها إلى المأمون على إثر مقتل ابنها محمد الأمين[4]، ومنهم أيضا إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة بنت المهدي، وكذلك اشتهرت بعض الجواري بحفظ الشعر وقوله حتّى كان ذلك مدعاة إلى ارتفاع أسعارهنّ[5].

ونتيجة لاهتمام وتشجيع الخلفاء وكبار رجال الدولة للشعراء أخذ عددهم يزداد كثيرا في الدولة العبّاسية، ممّا اضطر إلى امتحانهم في زمن الرشيد فعهد يحي بن خالد إلى إبّان بن عبد الحميد اللّاحقي[6] امتحان الشّعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات، وكذلك

---

[1]– حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية، لبنان، 1952، ص357. بطرس البستاني، أدباء العرب في الأعصر العباسية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص9 .إبراهيم محمد، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول،دار الفكر العربي، القاهرة،1966م، ص66.

[2]– الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص73؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج15، ص231–232. الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان،تعليق مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية، بيروت، 1428هـ/2007، ص299.

[3]– خلاصة الذهب المسبوك، ص62–63.

[4]– للاطلاع على هذه القصيدة الرجوع إلى ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص408.

[5]– النويري، نهاية الأرب، ج6، ص55–56.

[6]– إبّان بن عبد الحميد اللّاحقي: مولى رقاش بن ربيعة، كان بينه وبين ابن المعذل أهاجي ومناقضات، ورد من البصرة إلى بغداد قاصدا البرامكة فاختصّ بالفضل وقرب من قلب يحي وصار صاحب الجماعة وذا أمرهم، وقد نظم كتاب كليلة ودمنة لهم ليسهل حفظه عليهم، فأعطاه يحي عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ،ولم يعطه جعفر شيئا ،وهو أحد الشعراء الّذين زعم الجاحظ أنّه أطبع المحدثين،له أدب وظرف. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص200.

أجرى لهم امتحان في زمن الخليفة المأمون، فقد ذكر أنّ عبد الله بن طاهر عهد إلى رجل أديب بامتحانهم[1].

وبالغ خلفاء بني العبّاس في وصل الشعراء بالهدايا والهبات ابتداء من عهد الخليفة المهدي الّذي قيل أنّه أعطى شاعرا مرة خمسين ألف دينار، وروي المسعودي[2] أنّ الرشيد اعترضه يوما رجل من بني أميّة وبيده كتاب فيه أربع أبيات فلمّا قرأها الرشيد استحسنها وأمر لكل بيت بألف دينار.

وإنّ الاهتمام بالشّعراء لم يكن يقتصر على الخلفاء وحدهم، بل جاراهم في ذلك الوزراء والأمراء وغيرهم من أصحاب الطبقة العليا، فأجزلوا لهم الصلات والعطايا وبالغوا في إكرامهم، وقد كانت عادة الشّعراء حين يدخلون إلى مجالس الخلفاء أو الأمراء أن ينشد الشّاعر قصيدته بصوت عال وهو قائم، وعليه الوشى والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر، وإذا تعدد المنشدون يقدمون كل حسب منزلته وترتيبه[3].

وقد حفلت الدولة العبّاسية بشعراء كبار تضمّنت أشعارهم الكثير من الموضوعات واستحدثوا في الشعر العربي أغراضا جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب كالغزل وشعر الزندقة، حتّى فاقوا من سبقوهم من الشّعراء، ونذكر منهم بشار بن برد -ت168هـ- الشاعر الأعمى، كان من أنصار الدولة الأموية، وله مدائح في مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين، ثمّ مدح الخلفاء العباسيين حيث خصّ بشعره الخليفة المهدي، وقيل أنّه كان إذا أنشد أتى بالعجب، وقد وصفه الجاحظ بأنّه «كان شاعرا راجزا شجاعا خطيبا صاحب منثور ومزدوج»[4].

وأكثر بشار من شعر الغزل والتشبيب بالنّساء حتّى افتتن الشّبان والشّابات في البصرة بشعره، فذكر أنّ سوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار قالا: «ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى»، وكان واصل بن عطاء المعتزلي-ت131هـ-

---

[1]- ابن طيفور، كتاب بغداد، ص88. الأصفهاني، الأغاني، ج20، ص73. أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة،1346هـ/1927م، ج2، ص317.

[2]- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص301-302.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص115. صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية، ص31.

[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص49. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص271-273. ديوان بشار بن برد، تقديم ونشر محمد الطاهر ابن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1369هـ/1950م، ج1، ص9-14.

يقول: «إنّ من أخدع حبائل الشيطان وأغوى الكلمات لهذا الأعمى الملحد»، ولهذا فقد اتّهم بشار بالزندقة، ورمي بها حتّى قتله المهدي، وقد قيل أنّه فتّشت كتبه بعد مقتله فلم يصب فيها شيء ممّا كان يرمى به[1].

ومن الشّعراء الّذين ذاع صيتهم أيضا أبو نوّاس الحسن بن هانيء -ت198هـ- الشّاعر الخليع الّذي جذب بأسلوبه الشعري قلوب الخلفاء والأمراء من بني العبّاس، وإنّ شعره يعكس صورة لمجتمع الخاصة والعامة على السواء، والإقبال على المتع والتمدح بجمال الغلمان والإقبال على الخمر[2].

وعاصر هذين الشاعرين الماجنين الشّاعر أبو العتاهية الّذي قرّبه الخليفة المهدي وهارون الرشيد، وقد روي عنه أنّه «كان حلو الإنشاد، مليح الحركات، شديد الطرب، أقدر النّاس على وزن الكلام حتى أنّه كان يتكلم بالشعر في جميع حالاته، ويخاطب به جميع النّاس»، فقد كان أبا العتاهية شاعرا فذا قد تطرّق إلى جميع أغراض الشعر وأبدع فيها حتّى قال: «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت»[3].

اتصل أبو العتاهية بالمهدي حيث امتدحه ونال جوائزه، تم اتصل بموسى الهادي ثمّ الرشيد فنادمه، غير أنّه ترك المنادمة وعدل عن قول الشعر، ومال إلى التصوف والزهد حيث أخذ يذكر الموت وأهواله، ولهذا حبسه الرشيد، ثمّ أطلق سراحه، فعاد إلى الشعر، ولكنّه ترك الغزل والهجاء حتّى توفي سنة 210هـ[4].

ومن الشّعراء كذلك البحتري – ت 285هـ- القحطاني الطائي الّذي ولد بمدينة منبج ونشأ بها، وزار العديد من مدن الشام، ثمّ قصد العراق وأقام ببغداد حيث ذاع صيته، واتصل بالخليفة المتوكّل ووزيره ابن خاقان -ت247هـ- وأمراء الدولة العبّاسية في ذلك الوقت،

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص16. الأصفهاني، الأغاني، ج3، ص41. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج6، ص2793-2795. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص273. النويري، نهاية الأرب، ج6، ص66. ديوان بشار بن برد، ص28.

[2]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص 95-96. النويري، نهاية الأرب، ج4، ص 73. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج11، ص509.

[3]- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص261-265. ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، 1406هـ/1986م، ص6.

[4]- النويري، نهاية الأرب، ج6، ص84. ديوان أبي العتاهية، ص7.

ومدحهم ونال جوائزهم، وقد حضر قتل المتوكّل، ثمّ اتّصل بحاشية بعض خلفاء هذا الخليفة، ومات في عهد المعتضد، وقد قيل لأبي العلاء المعري-ت449هـ- «أي الثلاثة أشعر:أبو تمام أم البحتري، أم المتنبي؟ فقال المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنّما الشاعر البحتري»[1].

وقد اتخذ من الشعر حرفة يكتسب بها على طريقة شعراء عصره، فعرض شعره على القوّاد والوزراء والأمراء، ولم يثبت أنّه اتصل بالخلفاء، وكان ممن مدحهم محمد بن عبد الله بن طاهر والي بغداد منذ سنة 237هـ، فلم يجزل له العطاء، بل انتقد شعره، ممّا أغضب ابن الرومي وهجاه هجاء مرا[2].

أمّا أبو الحسن بن العبّاس المعروف بابن الرومي-ت 283هـ- الّذي يعد من أشهر شعراء هذا العصر وأبرعهم، ولد ببغداد، واستقر بها طوال حياته، ولم يتركها إلّا قليلا[3].

وقد تأثر ابن الرومي بالفلسفة اليونانية حتّى قيل عنه أنّه ذهب في شعره إلى معاني فلاسفة اليونان، وقد وصفه ابن خلكان فقال: «هو صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكانها، ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقى فيه بقية»[4].

وكان سبب وفاته حنق أبي الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، الّذي كان يخاف هجوه، فدس عليه السم في الخشكنان[5] وهو في مجلسه، «فلمّا أكلها أحسّ بالسّم، فقام، فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟ فقال: إلى الموضع الّذي بعثتني إليه، فقال له: سلم عليه وأقام أيّاما ومات»[6].

---

[1]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص21-31. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص82-83. النويري، نهاية الأرب، ج6، ص 75. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973، ج3، ص177.

[2]- ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، (د ت)، ج1، ص8.

[3]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص358.

[4]- وفيات الأعيان، ج3، ص358.

[5]- الخشنان: نوع من الفطائر المحشوة، يعجن دقيق الحنطة بالشيرج، ثمّ يبسط ويملأ بالسكر واللوز أو الفستق وماء الورد، ويجمع ويخبز. عبد الرحمن بن نصر الشيزري، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1365هـ/1996م، ص41.

[6]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص361. النويري، نهاية الأرب، ج6، ص69.

ومن فحول شعراء هذا العصر أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي المعروف بالمتنبي -302-354هـ-، وتوفي في محلة كندة بالكوفة، ويقال أنّه كان في أول أمره سقّاء بالكوفة، ثمّ رحل إلى الشام واتّصل بسيف الدولة الحمداني في سنة 337هـ وأصبح لسانا ناطقا يشيد بمديحه، ثمّ قصد المتنبي بعد ذلك بلاد فارس حيث مدح عضد الدولة بن بويه فأجزل له العطاء، ولمّا عاد المتنبي من فارس قصد بغداد ثمّ الكوفة، فتعرضت له عصابة على رأسها فاتك بن أبي الجهل الأسدي، فحاربها المتنبي وأصحابه وقاتل حتّى قتل[1].

3ـ **المغنّون:** عرف العرب الغناء منذ عصر ما قبل الإسلام ومارسوه حيث استخدموا ألوانا وأنواعا مختلفة من آلات الطبل والعزف وغيرهما، ولمّا جاء الإسلام وفتحت الشام والعراق وبلاد فارس انفتح العرب على أهالي تلك البلاد فوجدوا فيها نظما ورسوما ومفردات ثقافية في غاية التطور خاصة في بلاد فارس، ومنها الغناء فقد عرفت بلاد فارس آنذاك برقي وتطور تلك الصناعة لدى الطبقة الحاكمة من ملوك آل ساسان إذ كانوا يتّخذون لأنفسهم المغنّين ويولعون بالغناء، ويروى مثلا أنّ كسرى أبرويز كان في قصره آلاف الجواري للخدمة والغناء، وكذلك الحال في بلاد العراق الّتي كانت مقرا للروم والفرس، ومن تلك الحضارتين دخل غناء جديد إلى حضارة العرب عن طريق الرقيق وسبايا الحروب، وعن طريق بعض كبار المغنّين الّذين أخذوا عن الغناء الفارسي وغناء الروم[2].

وفي العهد العباسي لم يهتم الخليفة المنصور كثيرا بالغناء فقد استغرق جل وقته في النّظر في شؤون الدولة، وصرف نفسه عن الاشتغال بالملاهي، فكان ورعا وقد سمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكسره على صاحبه، ولم يسمح بالغناء إلّا بعد بناء بغداد الّتي أصبحت فيما بعد قبلة للمهتمين بالغناء، كما كان اتّصافه بالبخل واشتهاره به من الأسباب الّتي باعدت بينه وبين شعراء عصره[3].

ولم تعدم الدولة العبّاسية فيما بعد خلفاء من أمثال المنصور في إقبالهم على الغناء وزهدهم في سماع الموسيقى، كما فعل المأمون بعد عودته من خراسان فقد وجد الفوضى ضاربة أطنابها فأمر بمنع الغناء، ولكن هذا كان إلى حين فقط، حيث ما لبث أن أغرق في

---

[1]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص120-125. النويري، نهاية الأرب، ج6، ص44.

[2]- النويري، نهاية الأرب، ج4، ص224-225. ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج1، ص 538-539.

[3]- علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص586.

اللّهو حتّى صار يسمر عنده كل ليلة إسحاق الموصلي[1] وإبراهيم بن المهدي، وتشبّه الخليفة المهتدي بعمر بن عبد العزيز في ورعه وتقواه، فلمّا ولّي الخلافة سنة 255هـ/868م أمر بتحريم الطرب[2].

وفيما عدا هؤلاء نجد الخلفاء العبّاسيين قد أقبلوا على الغناء، وقد شاركهم في ذلك الأمراء والعامة، وأخذ الخلفاء يغدقون الهبات والهدايا على المغنّين، وساعدهم على ذلك تلك الثروة الّتي حفلت بها بغداد، وأكثر من ذلك أنّ كثيرا من الخلفاء العبّاسيين اشتغلوا بصناعة الألحان، وبرزوا فيها وذاعت لهم أنغام رائعة، ومن أشهرهم المهدي بن المنصور والّذي كان قصره مجمع الموسيقيين، ومنهم الواثق والمنتصر والمعتمد والمعتضد، وكان أوّل من دوّنت صنعته في الغناء من أبناء الخلفاء إبراهيم بن المهدي، وأخته عليّة، وأبو عيسى بن الرشيد، وعبد الله بن موسى الهادي وعبد الله بن محمد الأمين وعيسى بن المتوكّل، وعبد الله بن المعتز[3].

وحفلت بهذا الدولة العبّاسية بنخبة من أشهر وألمع المغنّين في العصر الإسلامي كله، وقد لعبوا دورا هاما في المجتمع العراقي في العصر العبّاسي، وكان أبرزهم إبراهيم الموصلي، والّذي لم يكن في زمانه مثله في الغناء واختراع الألحان، حتّى لقّب بالملسوع لأنّه كان يبدأ أغانيه بالصياح المنغّم[4].

وقد حظي إبراهيم الموصلي برضاء كثير من الخلفاء العبّاسيين وخاصة الخليفة الرشيد الّذي غضب عليه مرة فحبسه بالرقة، و«جلس للشرب يوما في مجلس قد زيّنه وحسّنه، فقال لعيسى بن جعفر: هل لمجلسنا عيب؟ قال نعم، غيبة إبراهيم الموصلي عنه، فأمره بإحضاري، فأحضرت في قيودي، ففكت عنّي بين يديه، وأمرهم فتناولوني عودا، ثمّ قال: غنّ يا إبراهيم، فغنيته»، فطرب الرشيد ودعا بالطّعام فأكل وشرب وأمر لي بمائتي ألف درهم[5].

---

[1]- إسحاق الموصلي: هو إسحاق بن إبراهيم الموصلي –ت235هـ– تفرد بصناعة الغناء وكان شاعرا عالما باللّغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام، وله عدة كتب في الغناء والشعر، نادم الخلفاء العبّاسيين الرشيد والمأمون والواثق. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج7، ص116–119. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص202. النويري، نهاية الإرب، ج4، ص21.

[2]- علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص587.

[3]- الثعالبي، المنتحل، تح أحمد أبو علي، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1319هـ/1901م، ص 294. النويري، نهاية الأرب، ج4، ص194- 201.

[4]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص42- 43.

[5]- النويري، نهاية الأرب، ج4، ص304.

ونبغ في الغناء بعده ابنه إسحاق الموصلي الّذي صحّح أجناس الغناء وطرائقه وميّزه تمييزا لم يقدر أحد قبله على فعل ذلك، وكان أوّل من جاء بالتخنيث في الغناء، وقد حظيّ إسحاق بن إبراهيم الموصلي بمكانة سامية عند كثير من الخلفاء العبّاسيين شأنه في ذلك شأن والده من قبل، وليس أدّل على ذلك من قول المأمون فيه: «لولا ما سبق على ألسنة النّاس واشتهر به عندهم من الغناء لولّيته القضاء»[1].

وقيل أنّ إسحاق سأل المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والروّاة لا مع المغنّين، فإذا أراده للغناء غنّاه فأجابه إلى ذلك ثمّ سأله بعد حين أن يأذن له في الدخول مع الفقهاء فأذن له[2].

وذكر النويري: «أنّ الخليفة الواثق قال: إنّ إسحاق لنعمة من نعم الملوك الّتي لم يحظ أحد بمثلها ولو أنّ العمر والشباب والنّشاط ممّا يشترى لاشتريته له بشطر ملكي»، وقال عنه أيضا: «ما غنّاني إسحاق قط إلّا ظننت قد زيد في ملكي»[3].

وقد برز بالإضافة إلى إبراهيم وابنه إسحاق عدد كبير من المغنّين والموسيقيين الّذين ذاعت شهرتهم، نذكر منهم المغنّي زرياب -ت230هـ- والد حمدونة وعليّة فتعلمتا الغناء على يد أبيــهما وأصبحتا من شهيرات المغنّيات[4].

وكان زرياب مولى الخليفة العبّاسي المهدي فارسي الأصل وكان شاعرا مطبوعا وأديبا ملما بعلوم النّجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك، حافظ لكثير من الحكم والأمثال، كما كان فصيحا حلو الحديث حسن الصّوت، تعلّم الغناء على إسحاق الموصلي وتفوّق عليه دون أن يشعر بذلك، وقد طلب هارون الرشيد من إسحاق أن يأتي له بمغني غريب قد حذق الغناء، وإن لم يكن قد اشتهر في هذا الفن، فذكر له تلميذه زرياب، فلمّا كلّمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب، وسأله عن معرفته بالغناء: «فقال له: أحسن منه ما يحسنه النّاس، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ممّا لا يحسن إلّا عندي، فإن أذنت غنّيتك ما لم

1- الثعالبي، المنتحل، ص302-303.

2- النويري، نهاية الأرب، ج5، ص6-7.

3- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص204. النويري، نهاية الارب، ج5، ص 5.

4- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص68.

تسمعه إذن قبلك»، فأمره الرشيد بالغناء، فجلس وغنّاه، فطرب الرشيد طربا لغناه، وأنّب إسحاق على كتمانه أمر زرياب عنه[1].

ومن المغنّين أيضا منصور زلزل الّذي عاش في زمن الخليفة المهدي والهادي والرشيد، فكان إذا جلس للعود جاء بالعجب[2]، ومنهم علويّة[3] الّذي كان المغني المفضل عند الأمين والمأمون والواثق وقد روى النويري[4] أنّ المأمون خرج يوما ومعه أبيات قالها وكتبها في رقعة بخطّه فغنّاها علوية، فطرب المأمون وأمر له بعشرين ألف درهم، وذكر أيضا أنّ عبد الله بن طاهر عبّر عن إعجابه بعلوية بقوله: «لو اقتصرت على رجل واحد يغنّيني لما اخترت سوى علوية لأنّه إن غنّاني أشجاني وإن رجعت إلى رأيّه أكفاني».

وبالنّسبة للجواري فقد توفر أسماء عدد كبير من الجواري المغنّيات أشهرهنّ دنانير الّتي كانت جارية يحي بن خالد البرمكي، ويقال أنّ الرشيد لمّا سمع غناءها اشتدّ عجبه بها فوهب لها في ليلة عقدا قيمته ثلاثون ألف دينار، ثمّ جارية ذات الخال الّتي كان قد اشتراها بسبعين ألف درهم[5].

ومن مطربات الخليفة الأمين جاريته بذل الّتي قيل أنّها: «كانت أروى خلق الله للغناء»، ثمّ عريب جارية المأمون فقد ذكر النويري أنّ حماد بن إسحاق قال: «قال أبي ما رأيت امرأة أضرب من عريب ولا أحسن صنعة ووجها، ولا أخف روحا ولا أحسن خطابا بارعا ولا أسرع جوابا ولا ألعب بالشطرنج والنّرد ولا أُجمع لخصلة حسنة لم أرها في امرأة غيرها قط»[6].

ومنهنّ أيضا متيم الهاشميّة مغنّية المأمون والمعتصم، وكانت شديدة الأناقة حتّى قيل أنّها أول من عقدت زنّارا وخيطا من الحرير في طرف الإزار، فكانت تضع الإزار على رأسها

---

[1]- علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص589-590.

[2]- الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص38-39.

[3]- علوية: هو علي بن عبد الله بن يوسف، أبو الحسن،معروف بعلوية، موسيقي بغدادي،أصله من السغد (بين بخارى وسمرقند)، وقد برع في الغناء والتلحين والضرب بالعود، له أخبار مع الأمين والمأمون والمعتصم وإبراهيم بن المهدي وغيرهم، توفي سنة 236هـ. النويري، نهاية الأرب، ج5، ص11.

[4]- نهاية الأرب، ج5، ص13- 15.

[5]- الأصفهاني، الأغاني، ج10، ص137. النويري، نهاية الأرب، ج5، ص94 .

[6]- النويري، نهاية الأرب، ج5، ص88-108 .

وتثبّته فلا يتحرك، كما كانت شديدة الولع بالزينة والتبرج معجبة بزهر البنفسج تصنعه في كمها[1].

وعبيدة الطّنبورية الّتي لم يعرف في الدنيا امرأة أعظم صنعة منها في الطنبور حيث كانت لها صنعة عجيبة، وشارية الّتي قيل عنها أنّها أحسن النّاس غناء منذ توفي المعتصم إلى آخر خلافة الواثق[2].

وفي العصر العبّاسي الثاني، فقد جمع مجلس للخليفة المتوكل بين الشّعراء والأدباء والملهين والمغنين، وفرح في ذلك اليوم فرحا شديدا وسر سرورا لم ير مثله، وزاد في إكرام الشّعراء وأجزل لهم العطاء[3].

كما كان الخليفة المعتمد شغوفا بالغناء والموسيقى، حيث سأل مرة عبيد الله بن خرداذبة عن نشأة الموسيقى والغناء والتغيير الّذي طرأ عليهما فأجاد في وصفها في البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور، فسرّ المعتمد كثيرا وقال له «قد قلت فأحسنت، ووصفت فأطنبت، وأقمت في هذا اليوم سوقا للغناء وعيدا لأنواع الملاهي، ثمّ سأله المعتمد عن أنواع الطرب فقال على ثلاثة أوجه: طرب محرك ينعش النّفس ودواعي الشّيم عند السماع، وطرب شجن وحزن لاسيّما إذا كان الشعر في وصف أيّام الشباب والشوق إلى الأوطان والأحباب، وطرب يكون في صفاء النّفس ولطافة الحس، وسأله المعتمد عن منزلة الإيقاع وفنون النغم فقال له أنّ منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر»، ففرح المعتمد في هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضره من ندمائه، وفضله عليهم، وكان يوم لهو وسرور[4].

وقد تعددت مجالس الغناء والطرب من الخلفاء إلى الأمراء وكبار رجال الدولة، ويرجع انتشار الغناء في تلك الفترة إلى كثرة الجواري، وكان معظم القيّان اللّاتي يحترفن الغناء في أوائل القرن الرابع الهجري من الجواري، وقليل منهنّ من الحرائر[5].

---

[1]- سمير شيخاني، أشهر المغنين عند العرب ونوادرهم، دار الجيل، بيروت، 1923، ص50.

[2]- الأصفهاني، الأغاني، ج5، ص95. النويري، نهاية الأرب، ج5، ص82-111.

[3]- علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص591.

[4]- المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص 175-180.

[5]- ناهضة مطر حسن، سلطة الجواري في العصر العباسي158-334هـ، جامعة واسط، كلية التربية،(د ت)، ص117.

وفي سنة 421هـ أمر الخليفة القاهر بتحريم القيّان والخمر، وقبض على المغنّين وكسر آلات اللّهو كما فعل الحنابلة، وأمر ببيع المغنّيات من الجواري مع أنّ هذا الخليفة كان مولعا بالشراب وسماع المغنّيات[1].

4ـ الأطبّاء: كان منهم الطّبيب العام والجرّاح والفاصد والكحّال والأسناني ومن يعالج النّساء والمحاظي، ومن تخصّص لتطبيب المجانين فقط[2].

ولم يقتصر نشاط الأطبّاء على الطب، فكان الطبيب يجمع بين الطب والفلسفة والمنطق وعلم النفس والحشائش والعقاقير، ولهذا كان الطبيب في تلك الفترة يطلق عليه اسم الحكيم نظرا لعموم معرفته بهذه الأمور، ولقد اشتهر في العصر العبّاسي عدد كبير من الأطبّاء نذكر منهم آل بختيشوع، الّذين حظوا بمكانة طيّبة عند خلفاء ذلك العصر، وأولهم جورجيس بن بختيشوع الّذي بلغت منزلته عند الخليفة أبي جعفر المنصور حين استقدمه من بلاده درجة عالية، وأمر الربيع بإنزاله في أجمل موضع من دوره، كما أمر بإكرامه كما يكرم أخص الأقارب، وتعلق به تعلقا شديدا حتّى أطلق له الدخول إلى حظاياه وحرمه ليطببهنّ[3].

كما حظي جبرائيل بن بختيشوع بمكانة كبيرة عند هارون الرشيد، والدليل على هذه المنزلة الرفيعة أنّ الرشيد دعا له وهو في الموقف بمكة دعاء كثيرا فأنكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا: يا سيّدنا ذمي، فقال: نعم ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بي فصلاحهم بصلاحه وبقائه، فقالوا صدقت يا أمير المؤمنين[4].

وابنه بختيشوع بن جبرائيل فقد «بلغ في الجلالة والرفعة وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراة الخلافة في الزي واللباس والطيب والفرش والصناعات والتّفسيح والبذخ في النفقات مبلغا يفوق الوصف»، والظاهر أنّ أهمية هؤلاء الأطبّاء وحظوتهم عند الخلفاء تعود إلى مهارتهم الطبية بالإضافة إلى إتقانهم اللّغة العربية إلى جانب اللّغة اليونانية والفارسية[5].

---

[1]- علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص592.

[2]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص81.

[3]- نفسه، ص81.

[4]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص81.

[5]- ان النديم، الفهرست، ص413. أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام،دار الرائد العربي، بيروت ،1401هـ/1981م، ص64.

وبلغ من حذق الطبيب يحي بن ماسويه وبراعته في الطب وتأثيره العميق في الخليفة المعتصم أنّ الخليفة كان يعتمد على مشورته ولذلك كان يحتفظ بصحة جيّدة وبنية سليمة، وأنّه لمّا خالف مشورة طبيبه يحي اعتلّت صحته وتغيّر لونه وقد عبّر ابن ماسويه عن ذلك بقوله لمّا اعتل المعتصم «كان قبل ذلك إذا أكل السمك اتّخذ له صبّاغا من الخل والكراويا والكمون والسذاب والكرفس والخردل فيأكله بذلك الصبّاغ فيدفع أذى السمك وأضراره بالعصب، وإذا أكل الرؤوس اتّخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها، وكان في أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتي فصار اليوم إذا أنكرت شيئا خالفني وقال: آكل هذا على رغم ابن ماسويه»[1].

ولم يعتمد العبّاسيون على أطبّاء العراق والهند فقط، بل اعتمدوا على الطب الّذي خلفه اليونان، وقد نبغ في عهد الواثق من الأطبّاء حنين بن إسحاق الّذي نبغ في علم المواد السّامة، وآخرون وقد أتقنوا صناعة الطب ومرنوا عليها، واعتمدوا في علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب، كما أفادوا المسلمون من كتب اليونان ونظريّاتهم في تشخيص الأمراض[2].

ومن أشهر الأطبّاء أيضا أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة المتوفّى سنة 331هـ، وابنه إبراهيم المتوفّى سنة 336هـ ،وقد أراد الخليفة القاهر أن يحوله إلى الإسلام فهرب، ثمّ اعتنق الإسلام بعد ذلك[3].

وقد وصف الأطبّاء في هذا العصر الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها حتّى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحاق، وطلب منه أن يصنّف له كتابا يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته، فصنّف له كتابا جعله ثلاث مقالات، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهّل وآلات الحسد[4].

---

[1]- المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص40-41. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت، (د ت)، ج2، ص125.

[2]- ابن النديم، الفهرست، ص409. أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص 65-66 .

[3]- الصولي، أخبار الراضي، ص245. ابن النديم، الفهرست، ص421.

[4]- ابن النديم، الفهرست، ص410-411.

واتخذ الأطبّاء لهم مجالس عامة يتداولون ويتنافسون فيها أمور الطب والعلوم الأخرى، وكان لهم رئيس يشرف عليهم يدعى رئيس الأطباء، وقد حظيت هذه المجالس برعاية كبيرة من الخلفاء حيث ذكر المسعودي: «أنّ الخليفة الواثق كان محبا للإشراف على علوم النّاس وآرائهم ممّن تقدّم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين فجرى بحضرته أنواع من علومهم»[1].

كما عنيت هذه المجالس باختيار الأطبّاء وإجازتهم للعمل خشية من ادّعاء بعض النّاس الطب، وتعريض حياة النّاس للخطر خاصة بعد أن كثر عدد الدجّالين والمدعين بمعرفتهم بعلوم الطب[2]، فمثلا في عهد الخليفة المتوكل عقد سنان بن ثابت امتحانا لأطبّاء بغداد رخص فيه لثمان وستين شخص بمزاولة مهنة الطب، وكان ذلك على أثر وفاة مريض بسبب إهمال الطبيب، وكان يشرف على هؤلاء الأطبّاء رؤساء ومفتشون، وقد أمر كل طبيب بأن يحتفظ بصورة من تذكرة الدواء الّتي يعطيها للمريض لتقديمها إلى الرئيس ليفحصها ويحكم فيها إذا كان العلاج متفقا مع القوانين وكان ينزل العقاب على الطبيب إذا مات المريض بسبب إهماله أو عدم كفايته[3].

ثالثا- الطبقة العامة:

تشكّلت طبقة العامة من مختلف الأجناس الّتي تواجدت في العراق إبان الخلافة العبّاسية من عرب وديلم وترك وكرد، وفرس، وقد أطلق عليهم المؤرخون تسميّات متعدّدة كالسّفلة والغوغاء والسقّاط، والجماهير والدّهماء والأوباش[4].

وقد أجمع المؤرخون أنّ طبقة العامة هي خلاف الخاصة، ومن معاني العامة كذلك السوقة[5] وهناك من يجعل السلطة هي المعيار للاختلاف بين الخاصة والعامة فالخاصة هم الخلفاء والأمراء والوزراء والعامة بخلاف الخاصة[6].

---

[1]- المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص65-67.

[2]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص84.

[3]- أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص52.

[4]- أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص358-359. عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري، مكتبة النهضة، بغداد، (د ت)، ص7.

[5]- الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1418هـ/1998م، ص198. الصفدي، نكت الهميان، ص10. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، تح نهى النجار، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1993، ص157.

[6]- مصطفى علم الدين، الزمن العباسي، دار النهضة العربية للنشر، 1993، ص168. رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد في العصر العباسي (132-334هـ/749-946م)، مجلة سرّ من رأى، المجلد7، العدد35، السنة السابعة، نيسان 2011، ص150 .

وعلى هذا الأساس قسمت طبقة العامة إلى نوعين: النوع الأول يضم السوقة والجمهور وهم في أدنى المراتب، والنوع الثاني يضم التجار وأهل المراتب وهم يحصلون العيش من أحسن وجوهه، ويتميّزون بالاكتساب الدائم المعتدل، وبإظهار العدل في المعاملات وإظهار السيرة الحسنة[1].

وقد اتهمت العامة بالتقصير في القيام بالواجبات الدينية، كما أنّها عاجزة عن فهم الفقه، وتروي الحديث بطريقة تثير السخرية ولها مزاعم دينية بعيدة عن الحقيقة[2].

ومن فئات العامة نذكر:

1- **التجار:** وهم فئة من النّاس كانوا يتعاملون بالبيع والشراء مستهدفين طلب الزيادة فيما يأخذون على ما يعطون، فالتجارة على هذا النّحو محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء[3]، وكانت جماعات التجار وإن كثرت لديهم الأموال بسبب ما يجنونه من أرباح تشكّل طبقة من أدنى طبقات المجتمع العراقي خلقا خاصة تجار التجزئة لسوء أخلاقهم وخاصة تجار التجزئة وذلك لتعاهدهم الغش والخديعة والحلف بالأيمان الكاذبة على أثمان البضائع، ولذلك كان أهل الرئاسة ينفرون من الاحتراف بالتجارة نتيجة لما يكسب من هذه الحرفة من الأخلاق الدنيئة[4]، وهناك من التجّار من يسلم من هذه الطباع الشرسة لتعامله مع أهل الثروة وحاشية الدولة، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها أنّ يحيي البرمكي عزم على الاشتغال بالتجارة فنصحه أحد التجار قائلا: (أنت شريف وابن شريف وليست التجارة من شأنك)[5].

ويستلزم الاشتغال بالتجارة احتكاكا مباشرا بعامة الناس معرفة معاملة أمثالهم مع علم بأحوال الأسواق وما يروج فيها من سلع وجرأة كافية بسبب تعريض المال للضياع والتبديد إذا ما رخت الأسعار، ومعرفة بالحساب كما تستلزم الانتقال والرحلة وتكلف مشقة حمل السلع ثمّ بيعها بأغلى الأثمان، والتجّار نوعان نوع يعمل في السلع الضرورية وهؤلاء يتعاملون مع

---

[1]- ابن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، عناية ناجي التكريتي، بيروت، 1978، ص123.

[2]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص140.

[3]- إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، اعتناء خير الدين الزركلي، القاهرة، 1928، ج1، ص56.

[4]- مقدمة ابن خلدون، ص496.

[5]- الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص186.

الأهالي والعامة، ونوع يتاجر في السلع الكمالية وأدوات الزينة والتحف والمجوهرات والمصوغات وأفخر الثياب والرقيق وهؤلاء يتعاملون مع أولي السلطان والأعيان[1].

وإنّه لم يقتصر التجّار على البيع والشراء بل ظهر منهم جغرافيون ورحالة وأدباء مثل ابن حوقل التاجر الموصلي البغدادي صاحب الكتاب الشهير صورة الأرض والتاجر سليمان الّذي ذكر في رحلته أنّ خانقو(كانتون) كانت مجتمع تجارات العرب وأهل الصين[2].

أمّا تقسيم التجّار حسب تخصصهم التجاري في العصر العبّاسي فهم ثلاثة أنواع: التجار الركاضين الّذين يسافرون لجلب السلع المختلفة من البلدان الأخرى والتاجر المجهّز المستقر في السوق ببلده والنوع الثالث هم تجار الخزان الّذين يقومون بشراء السلعة وخزنها واحتكارها إلى حين ارتفاع سعرها[3].

وقد اتخذ للتجّار مراكز تجارية مهمة في داخل العراق للقيام بأعمالهم التجارية أهمّها البصرة الّتي كانت تعتبر «مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها» حيث كانت تصدّر عن طريقها كافة السلع والبضائع إلى سائر أقطار الأرض، كما كانت تأتيها المراكب التجارية المحمّلة بالسلع المختلفة[4].

ثمّ الأبُلة وهي ميناء صغير إلّا أنّ الحركة التجارية كانت نشطة فيها تقع عند فم نهر البصرة الّذي يتفرع منه نهر الأبلة حيث كانت السفن التجارية ترسو فيه، والأبلة مدينة عامرة بالسكان بها أسواق صالحة، وكان للتاجر الكبير جهابذة وحسّاب وكتّاب، وكانت لهم معاملات مع التجار الأجانب وكانت ترد إليهم البضائع ويبيعونها في الأسواق، كما كان التبادل التجاري يجري داخل العراق[5].

---

[1]- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص73.

[2]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص120. رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد، ص151.

[3]- رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد، ص151.

[4]- اليعقوبي، البلدان، ص323.

[5]- ناصر خسرو، سفر نامة، تح يحي الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983، ص167. أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، تح البشري الشوربجي، مكتبة الكليات الأزهرية، حسين أميابي وشركاه، القاهرة، (د ت)، ص116.

وقد كانت الدولة تشرف على التجّار وتراقبهم خشية التلاعب والتدليس في المعاملات التجارية، لذلك فقد أسست لهم ولأول مرة نقابة مسؤولة عن هذه الأمور كان لها رئيس يدعى رئيس التجار، كما كان من مهمّة المحتسب مراقبة الأسواق ومنع الغش والتدليس[1].

ومن مظاهر اهتمام الدولة في العصر العبّاسي الأول بالتجّار أنّ أبا جعفر المنصور أمر عند شروعه في بناء بغداد سنة 145هـ أن تقطع لهم بعض الأراضي لينزلوا فيها، وكانت تلك الأراضي تقع في منطقة الكرخ استنادا إلى نزولهم في هذه المنطقة، كما أمر أيضا أن تكون لكل «تجار وتجارة شوارع معلومة وأسواق بأنواع السلع في تلك الشوارع وحوانيت وعراض ولا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه»[2].

وكثيرا ما كانت الدولة العبّاسية تمد يد العون للتجار عند حدوث بعض النكبات الّتي يتعرضون لها، فذكر أنّه في سنة 225هـ عندما احترق الكرخ وشبّت النّار في الأسواق عوّض المعتصم التجّار في هذا الحادث بأن وهبهم خمسة آلاف ألف درهم[3].

ازدهرت التجارة ازدهارا كبيرا في العراق في القرن الرابع الهجري، وكانت بغداد أهم المراكز التجارية في الدولة العبّاسية، وعندما دخل البويهيون بغداد حاولوا تنشيط التجارة وتطويرها من خلال ضبط الأمن ومراقبة التجارة، والحد من جشع التجار من خلال مراقبة الأسعار ومنع احتكار المواد الغذائية[4].

وكانت التجارة في العراق تدر أرباحا كثيرة على التجار، ونتيجة لذلك اجتمعت ثروات كبيرة لدى البعض منهم بسبب ما يحصلون عليه من أرباح، ولذلك اتجهت أنظار الأمراء ورجال الدولة إلى الاقتراض من التجّار في أوقات أزماتهم المالية، فمثلا عند تأخر جباية

---

[1]- ابن طيفور، كتاب بغداد، ص12-13.

[2]- اليعقوبي، البلدان، ص242-243. سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1967، ص200 .

[3]- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج3، ص200.

[4]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص48.

الخراج كان الوزير علي بن عيسى يقترض من التجّار كلّما تعرضت خزانة الدولة لضائقة مالية، ويعطيهم لقاء ذلك سفاتج[1] تصرف حين يحل موعدها ضمانا للدين[2].

إلا أنّه في بعض الأحيان كان التجّار يرفضون إقراض الدولة خاصة إذا كان الوزير المقترض غير أمين في المعاملات المالية، كما حدث للوزير أبي جعفر بن شيرزاد سنة 332-334هـ حين رفض التجّار إقراضه لأنّه أساء معاملاتهم وصادر أموال بعضهم، كما كان التجّار عادة يأخذون فوائد على ما يقرضونه للدولة[3].

وعلى الرغم من كل هذه المحاولات الّتي بذلها بعض الأمراء البويهيين ووزرائهم لإنعاش التجارة فإنّ لعدم توفر الأمن الداخلي والاستقرار السياسي أثر بالغ في عرقلة النشاط التجاري خلال فترات الفتن والاضطرابات حيث تسلّط العيّارون الّذين ازدادت أعدادهم بمرور الأيّام وضعفت الدولة العبّاسية حتّى أصبح وجودهم ظاهرة فرضت نفسها على المجتمع العراقي، حيث وصفوا بأنّهم «إذا تحركوا ببغداد أهلكوا»[4].

فكان ينشب القتال بين هؤلاء العيّارين والتجّار في الأسواق والدروب وكان التجار يلجئون إلى ادّعاء الفقر والعوز، وبالغوا في الاقتصاد والتقشف كوسيلة من التمويه وصرف الأنظار عنهم لتجنب المصادرات الّتي أصبحت ظاهرة واضحة طوال العصر البويهي كوسيلة لابتزاز الأموال بالقوّة، وكذلك خشية اللصوص والعيّارين[5].

[1]- سفاتج: جمع مفرده سفتجة وهي كلمة فارسيّة عرفت منذ العهد الجاهلي وتعني ضمان أو كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالا قراضا يأمن به خطر الطريق وكانت توقّع أو تختم من صاحبها لصرّاف أو تاجر حتّى تكون قابلة للصّرف في أي بلد. الصابئ، الوزراء، ص452. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج7، ص411.

[2]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية،ص48.

[3]- اليعقوبي، البلدان، ص14-20. الصولي، أخبار الراضي، ص250. الصابئ، الوزراء، ص93. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص90.

[4]- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص130. حورية عبدة سلام، الحياة الاجتماعية، ص50.

[5]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص50.

ولذلك حرص البويهيون على حماية الطرق التجارية في العراق من عبث المفسدين فعيّنوا حراسا، يتناوبون العمل ليلا ونهارا وبذلوا لهم العطاء بسخاء وطالبوهم بتتبع المفسدين، فمثلا منح عضد الدولة البويهي ولّاته الأموال الكثيرة لحراسة الطريق وخفارتها[1].

كما فرض البويهيون الرقابة على التجّار لمنع احتكار السلع[2]، كما كانوا يتدخلون لمنع التجار من رفع أسعار السلع، بل أشرفوا إشرافا دقيقا على تجارة القمح والشعير[3].

وما ميّز حال التجّار في العهد البويهي هو التقلب بين الركود والانتعاش تبعا للأوضاع السياسية من جهة، وظروف التجارة نفسها، ونتيجة لذلك فقد قلّت أرباح التجّار الّذين كانوا يزودون قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة بمتاجرهم، ولم يجدوا ما يشجّعهم على البقاء في بغداد فرحلوا عنها إلى الشام وغيرها من الولايات الإسلامية[4].

2- طبقة الصنّاع والحرفية: قد شكل الصنّاع والحرفيون فئة نشطة في المجتمع العبّاسي على اختلاف عناصرهم وطوائفهم وكان أفراد كل صنعة أو حرفة يتكتّلون من أجل تنظيم مصالحهم المشتركة من ناحية والدفاع عن تلك المصالح من ناحية أخرى، وهؤلاء عاش معظمهم مستوى معيشة متوسطة في المدن، وقد قاموا بدور فعّال وكبير في الحركات الّتي قامت ضد الدولة العبّاسية مطالبين بتحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وأصبحت النسبة إلى الصنعة أو الحرفة فقد ذكر الجهشياري[5] أنّ الأنساب تمنع من الاكتساب وأنّ الصناعة نسب.

ويقسّم الصنّاع من حيث نوعية العمل إلى فئتين الأولى تضم المشتغلين بأجرة وهم الصنّاع الّذين يمارسون صنعتهم في مؤسسات دار الخلافة وفي دور الضرب أو في محلّات

---

[1]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص50. ومن أمثلة ذلك ما ذكره أبو شجاع حيث قال: «أنّ عضد الدولة أنفذ أحماله من الأمتعة إلى مكة مع تجار أو حجاج،فلمّا انتهوا إلى بعض الطريق خرج عليهم قوم منهم فقطعوا عليهم». ذيل كتاب تجارب الأمم،ص57.

[2]-Hedy. W, Histoire du commerce de levent au Moyen age, Leopzeg,1913, P 26- 28

[3]- مسكويه، تجارب الأمم، ج2، ص34-35. ونشير هنا أنّ الدولة احتكرت بعض الأصناف من البضائع كالمنسوجات الخاصة ولم تسمح الدولة البويهية لأحد من التّجار أن يحتكر بيع أي صنف من البضائع. أبو شجاع، ذيل كتاب تجارب الأمم، ص71.

[4]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص51.

[5]- الوزراء والكتاب، ص269.

التجارة الكبيرة، والفئة الثانية تشمل الّذين يشتغلون لحسابهم الخاص، حيث كان بعض الصنّاع في العصر العبّاسي يعملون في حوانيتهم الخاصة بهم[1].

وكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات والحرف تتجمع في مكان واحد يسمّى باسمها، ومن هذه الطوائف النسّاجون والخيّاطون والمطرّزون والبناؤون والحلاّجون والحدادون والورّاقون والسمّاكون والصاغة والقصّار ونو الصفّار ونو الفرّانون، والأساكفة والنّجارون والعطّارون، ونتيجة لهذا نسبت أسواق بغداد إلى أصحاب المهن والصناعات مثل أسواق الصيادلة وأصحاب المدهون والخزّازين وأسواق الحناء والأشنان[2]، وكانت الميزة الّتي ميّزت هذه الأسواق أنّها منفصلة عن بعضها البعض حيث ذكر اليعقوبي عند حديثه عن أسواق بغداد فقال «ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم، وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم»[3].

ونتيجة لاتساع مدينة بغداد اتسعت محلاتها وازداد نشاط الحرف إضافة إلى اختصاص كل حرفة بسوقها وظهرت تنظيمات ونقابات خاصة لكل طائفة من هذه الطوائف تعبّر عن تعاونهم وأصبحوا يعرفون ب «الأصناف» و«أصحاب المهن» و«أهل الصنائع»، وأصبحوا يكونون جبهة واحدة أمام أي خطر يتعرضون له[4]، فمثلا في سنة 305ه وثب أهل الأسواق في البصرة وحاصروا أميرها لأنّه فرض ضرائب على إنتاجهم ما جعل الخليفة المقتدر يقوم بعزله[5].

---

[1]– إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص91. رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد، ص152.

[2]– الأشنان: نبات حمض، والحمض من النبات كل نبات مالح أو حامض تغسل به الأيدي على أثر الطعام. ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص 66.

[3]– البلدان، ص239.

[4]– الصابئ، الوزراء، ص14 .رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد، ص152.

[5]– عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص67 .

وكانت للدولة العبّاسية مصانع واسعة كدور الطراز[1] الّتي تصنع الملابس الرسمية والبنود والأعلام مثل دور السكة وضرب النّقود وهناك مصانع أهلية كبيرة كمصانع الزجاج ومصانع النسيج وغيرها[2].

كما كان هناك تنظيم متدرج عند أهل الحرف والصناعات، فهناك شيخ الطائفة، وهو رئيس الجماعة وينتخبه الأساتذة من بين كبار رجال الحرفة، وبعد انتخابه يصبح حاكم الطائفة المطاع، فيجمع وظائف الرئيس وأمين الصندوق والكاتب، وله مساعد يقوم بتنفيذ أوامر الشيخ، ويليه المسنون من بين أساتذة الطائفة يتعاونون معه في إدارة شؤون الطائفة ثمّ يأتي بعدهم الأساتذة ويدعى الواحد منهم «معلما» وهم يشكلون القسم الرئيس من الطائفة، ويرقى المبتدئ إلى معلم بعد أن يكون قد تدرّب على الحرفة أو الصناعة، وكانت المهن عادة وراثية فكل ذي حرفة يفضلها على غيرها من الحرف وكان لكل أرباب حرفة زيّهم الخاص بهم[3].

وقد غلب الانتساب إلى المهنة في ألقاب النّاس خلال العصر البويهي، بجانب النّسبة إلى المدينة أو القبيلة فمثلا الثعالبي لقب كاتب ومؤرخ مشهور من مؤرخي العصر البويهي هو أبو منصور عبد الملك، والرّفاء لقب شاعر مشهور ترك حرفته واتّصل بالأمراء والوزراء ومدحهم بروائع شعره[4].

1- الطراز : لفظ فارسي معرب مشتق من كلمة ترازيدان، وكان يعني في البداية الكتابة الزخرفية الّتي توجد على الأقمشة ثمّ اتسع مدلوله وأصبح يستعمل للكتابة على الورق والنسيج، ثمّ أطلق على الموقع الّذي تنسج فيه هذه الثياب، وقد كانت هناك دور طراز للخاصة حيث كانت تصنع بها المنسوجات للخليفة، والأقمشة الّتي كان يخلعها على كبار رجال الدولة وأفراد حاشيته، ودور طراز العامة وكانت تصنع المنسوجات والثياب لعامة النّاس، وكانت أشهر دور الطراز في العراق دار الطراز في بغداد، وكان يعرف رئيس كل دار من هذه الدور بصاحب ديوان الطراز. ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص581.

2- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج3، ص143.

3- صباح الشيخلي، الأصناف والمهن في العصر العبّاسي نشأتها وتطورها، بيت الورّاق، بيروت، 2010، ص160.

4- النويري، نهاية الأرب، ج1، ص136. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص67. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج3، ص 246-247.

وقد ظهر في ذلك العصر إلى جانب الصنّاع عاملات كنّ يزاولن مهنا مختلفة بالإضافة إلى قيامهنّ بأعباء بيوتهنّ من طبخ وغسل كاشتغالهن بأعمال الغزل والبعض كخابزات في بيوت الموسرين لقاء أجر معلوم[1].

على أنّ الوضع الاجتماعي لأصحاب الحرف كان سيّئا إلى حد ما، وكانت مواردهم المالية تكاد تكفي ضروريات عيشهم خاصة أثناء اشتعال الفتن واضطراب الأمن[2].

3- **الفلاحون:** وهم سكان القرى في العراق، وكانوا يشتغلون بالزراعة وفلاحة الأرض، والمعلومات عنهم قليلة وخاصة فيما يتعلق بطرق حياتهم اليومية وعاداتهم الاجتماعية نظرا لعدم اهتمام المؤرخين بهذه النّاحية، ولقد كانت هذه الفئة من العامة تمثّل الغالبية العظمى من سكان العراق في العصر العبّاسي، وكان أكثر الفلاحين من العبيد الزنج الّذين جلبهم العبّاسيون وبقايا الزط الّذين جلبهم الحجّاج هم الّذين اشتغلوا بالزراعة بدليل أنّ الأراضي الزراعية الشاسعة كانت بيد رجالات من العرب[3] وهذا ما أشار إليه التنوخي[4] في قوله «أنّ العرب ملكوا الضياع والأراضي وزرعوا الأرض ما لا يتجاسر الأكرّة على زراعته وطولبوا بالخراج».

وقد وجه الخلفاء العبّاسيون عناية خاصة بطبقة الزرّاع وتشجيعهم للزراعة حيث وضعوا المشاريع والخطط الزراعية الّتي من شأنها زيادة الإنتاج الزراعي الّذي يؤدي إلى زيادة الدخل وبالتالي توفير حياة أفضل للمزارع[5].

وبعد انهيار أسعار المنتجات الزراعية الّتي تجبى وفق نظام المساحة بخراج معلوم، اتبع الخلفاء سياسة حكيمة ترمي إلى عدم إرهاقهم بالضرائب، حيث أشار الماوردي إلى ذلك فقال «ولم يزل السواد على المساحة والخراج إلى أن فكر المنصور في نقله إلى المقاسمة، ولم يتسن له ذلك لوفاته»[6].

1- ابن الجوزي، المنتظم، ج11، ص384. صباح الشيخلي، الأصناف والمهن، ص165.

2- الثعالبي، يتيمة الدهر، ج2، ص 264. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص178.

3- بدري محمد فهد، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1967، ص86. حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي، ص192.

4- الفرج بعد الشدة، تح عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م ، ج1، ص131.

5- إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص95.

6- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص229.

فلمّا تولى المهدي الخلافة سنة 158هـ فوض الأمر لوزيره أبو عبيد الله معاوية بن يسار الّذي قام بهذا الإصلاح الجبائي فنقله إلى المقاسمة على ما تنتجه مساحة معينة من الأرض من مزروعات ومن شجر ونخيل بالنصف إن سقي سيحا في الدوالي على الثلث وفي الدواليب على الربع لا شيء عليهم سواه، وأن يعمل في النخل والكرم والشجر مساحة خراج تقدّر بحسب قربه من الأسواق ويكون التبن مثل المقاسمة فإذا بلغ حاصل الغلة ما يفي بخراجين أخذ عنها خراجها كاملا، وإذا نقص ترك فهذا ما جرى في أرض السواد[1].

كما اعتنى الخلفاء العبّاسيون بحفر الأنهار فقد حفر الخليفة المنصور نهر شيلي وأتمّه المهدي، كما كان المنصور مهتما بالخراج في السواد، وكان ديوان الخراج في عهد الخليفة المهدي يقوم بالإنفاق على صيانة أجهزة الريّ وحفر قنوات جديدة وتقوية سدود الأنهار خاصة في مواسم الفيضانات، وحفرت الخيزران زوجة المهدي وأم الرشيد نهر الريّان في نواحي الأنبار وحفر الرشيد نهر القاطول، وحفر الخليفة المتوكل قناة كبيرة سنة 245هـ عمل فيها اثني عشر ألف رجل[2].

وقد دعا قاضي القضاة أبو يوسف في رسالة وجهها إلى الرشيد بأن تقوم الدولة عن طريق بيت المال بكري الأنهار الّتي تأخذ من دجلة والفرات لأهل السواد، وسد البثوق وهي ما يخرقه الماء في جانب النّهر وإصلاح البريدات (مفاتح الماء) والمسنيّات وهي السدود الّتي تبنى في وجه الماء على ضفتي دجلة والفرات[3].

إلّا أنّ الزراعة ضعفت في السواد بسبب ظهور ثورة الزنج (255-270هـ/868-883م) حيث أتلفت حروبهم الأراضي الزراعية، وهذا ما أدى إلى هجرة سكان السواد إلى بغداد وفقدان الأمن[4]، وكان قائد هذه الثورة هو علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، اشتهر بفصاحته وبلاغته ونبله، واستطاع أن

1- ابن الطقطقى، الفخري في الآداب السلطانية، ص 179-180؛ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص229.

2- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص212. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص63. بدري محمد فهد، العامة ببغداد، ص86.

3- أبو يوسف، كتاب الخراج،ص110.وفي هذا المجال نصح أبو يوسف الرشيد بأن يولي على هذا الأمر رجل صالح ثقة حيث قال له «ولا تولي النفقة على ذلك إلّا رجل يخاف الله يعمل في ذلك بما يجب عليه لله،قد عرفت أمانته وحمد مذهبه،ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يدع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئا يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم». كتاب الخراج، ص110.

4- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص262. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص416. رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد، ص153.

يستميل قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها، وقد كلفت هذه الثورة الخلافة العبّاسية أموالا طائلة حيث أفرغ بيت المال وذلك عندما جنّدت لها كل إمكانياتها، فكانت أطول ثورات العصر العبّاسي وأخطرها[1].

وقد ساهمت مجموعة من العوامل في قيام هؤلاء الزنوج بهذه الثورة والحركة منها سوء معاملة الزنوج الّذين يعملون في جنوب البصرة، والتي تحولت إلى عبودية تامة عكست مظاهر الفقر والجوع وهي آفات اجتماعية كافية لثورة المظلومين، فقد كانوا يقومون بإزالة ملوحة التربة دون أجور إلّا ما يأكلونه من التمر والطحين والسويق[2]، ولهذا مثّلت حركة الزنج ثورة الفلّاحين على الإقطاعيين أصحاب الملكيات الواسعة حيث يعمل فيها هؤلاء الزنوج الفلّاحين بالسخرة إذ أصبحوا رقيق الأرض[3].

وقد كانت غالبية الأراضي مملوكة أو مقطوعة لكبار رجال الدولة، الّذين سعوا إلى جمع المال ومحاسبة الوكلاء والجباة حرصا على الدخل دون الاهتمام بأوضاع الفلاحين أو محاولة رفع مستواهم، بل إنّ أصحاب الاقطاعات من القواد والأمراء كثيرا ما ردّوا إقطاعاتهم الّتي خربت وعوضوا عنها، جريا وراء الثروة فخرّبت الأراضي وتحمّل الفلّاح وحده الخسارة[4].

وقد كان المقطع يعمل على الإثراء وجمع المال ولا يتردد في إرهاق الفلّاحين حتّى يستطيع أن يؤد للحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد على ذلك، والفلّاحون مغلوبون على أمرهم، فلا نصل شكايتهم إلى المسؤولين في الدولة وكان الخراج الّذي يؤدي على الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة، ويبلغ العشر على ما قرّره الفقهاء، وتعود هذه الأرض المقطعة إلى الحكومة في حالة مصادرة أصحابها أو عند تطرق الخراب إليها[5].

---

[1]- محمد سهيل طقوس، تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، دار النفائس للنشر، بيروت، 1435هـ/2014م، ص17.

[2]- جميل محمد أبو الندى، الخلافة العباسية في مواجهة الفتنة الزنجية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2012، ص32.

[3]- محمد نجيب أبو طالب، الصراع الاجتماعي في الدولة العبّاسية، تقديم الطاهر لبيب، دار المعارف للنشر، تونس، 1990، ص205. رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد، ص153.

[4]- الصابئ، الوزراء، ص134 .حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص54.

[5]- أبو يوسف، كتاب الخراج، ص70-71. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي، ص242.

ومنذ سنة 334هـ أصبح الاقطاع يحمل الصفة العسكرية، حيث أعطى معز الدولة البويهي الاقطاعات لقادته وخاصته ثمّ توسع بعد ذلك وشمل قسما من الجند، ثمّ أصبح الإقطاع البديل العادي للعطاء، وتوسعت الاقطاعات العسكرية على حساب الأنواع الأخرى للأراضي مثل الضياع الخاصة وأراضي الخراج، وفي عهد عضد الدولة البويهي تطرف في منح الجند إقطاعات من أراضي الوقف[1].

وتدهوت الأحوال بسبب السياسة الخرقاء لمعز الدولة وقد صور مسكويه هذه الحال التي آلت إليها أراض السوَاد بحكم الإقطاع فاستغني عن أكثر الدواوين التي جمعت في ديوان واحد، فقد عقد عنوانا يصور فيه هذه الكارثة فقال: «إنّ التدبير إذا بنى على أصول خارجة عن الصواب وإن خفي في الابتداء ظهر على طول الزمان. ومثل ذلك مثل من ينحرف عن جادّة الطريق انحرافا يسيرا ولا يظهر انحرافه في المبدأ حتى إذا طال به المسير بعُد عن السمت وكلّما ازداد إمعانا في السير زاد بعده عن الجادة وظهر خطاؤه وتفاوت أمره.

فمن ذلك أنّه أقطع أكثر أعمال السواد على حال خرابه ونقصان ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته. ثمّ سامح الوزراء المقطعين وقبلوا منهم الرشى وأخذوا المصانعات في البعض وقبلوا الشفاعات في البعض فحصلت الإقطاعات لهم بعبر متفاوتة.

فلمّا أتت السنون وعمرت النواحي وزاد الارتفاع في بعضها بزيادة الغلّات ونقص في بعضها بانحطاط الأسعار- وذلك أنّ الوقت الّذي أقطع فيه الجند الإقطاعات كان السعر مفرط الغلاء للقحط الذي ذكرناه- فتمسّك الرابحون بما حصل في أيديهم من إقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء عليهم في العبرة.

وردّ الخاسرون إقطاعاتهم فعوّضوا عنها وتمّمت لهم نقائصها واتّسع الخرق حتّى صار الرسم جاريا بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ثمّ يردّوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح.

وقلّدت الإقطاعات المرتجعة من كان غرضه تناول ما يجده فيها ورفع الحساب ببعضه وترك الشروع في عمارتها ثم صار المقطعون يعودون إلى تلك الإقطاعات وقد اختلط بعضها ببعض فيستقطعونها بالموجود بعد تناهيها فى الاضمحلال والانحطاط.

---

[1]- عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص51-52.

وكانت الأصول تذوب على ممر السنين ودرست العبر القديمة وفسدت المشارب وبطلت المصالح وأتت الجوائح على التنّاء ورقّت أحوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شرّه وبوائقه

فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين وأمحى أثر الكتابة والعمالة ومات من كان يحسنها ونشأ قوم لا يعرفونها ومتى تولّى أخدهم شيئا منها كان فيه دخيلا متجلّفا. واقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجرى على أيديهم ولا يهتدون إلى وجه تثمير ومصلحة ويقطعون أموالهم بضروب الإفساد واعتاض أصحابهم ممّا يذهب من أموالهم بمصادراتهم وبالحيف على معامليهم.

وانصرف عمّال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان ووقع الاقتصار في عملها على أن يقدّر ما يحتاج إليه لها ويقسّط على المقطعين تقسيطات يتقاعدون بها وبأدائها وإن أدّوها وقعت الخيانة فيها فلم تتصرف إلى وجوهها، وقلّ حفل الناظرين بالحوادث تعويلا على أخذ ما صفا وترك ما كدر والرجوع على السلطان بالمطالبة وردّ ما تخرب على أيديهم من الإقطاعات وفوّض تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم فاتخذه مسكنا وطعمة والتحف عليهم المتصرفون الخونة وصار غرض أحدهم الترجية والتمشية والدفع من سنة إلى سنة.

وعقدت النواحي الخارجة من الاقطاعات على طبقتين من الناس إحداهما أكابر القواد والجند والأخرى أصحاب الدراريع والمتصرفون فأمّا القوّاد فإنّهم حرصوا على جمع الأموال وحيازة الأرباح ودعوى المظالم والتماس الحطائط فإن استقصى عليهم صاروا أعداءهم.

ولمّا كثرت أموالهم وانفتقت بهم الفتوق خرج منهم الخوارج وإن سومحوا استشرى طمعهم ولم يقفوا منه عند غاية.

وأمّا أصحاب الدراريع فكانوا أهدى من الجندي إلى تغريم السلطان والحيلة عليه في كسب الأموال ونظر بعضهم إلى بعض فيما تجرى عليه معاملاتهم وبذلوا المرافق واعتصموا بالوسائل ووجب أن يجمع الناس حكم واحد.

وتوالت السنون عليهم فتفردوا بنواحيهم وخلوا بمعامليهم فمن مستضعف يصادر ويغيّر رسمه وتنقص معاملته على قدر حاله وماله ومن مانع جانبه فيخفّف عنه الرسوم ويرتفق على ذلك منه بالأموال ويتخذه الضامن عضدا في شدائده وعند مناظرة سلطانه ويصطلم

المستضعفين. فبطل أن ترفع الدواوين جماعة أو تعمل لعامل مؤامرة أو يسمع لأحد ظلامة أو يقبل من كاتب نصيحة واقتصر في محاسبة الضمناء على ذكر أصول العقد وما صح منه وبقي من غير تفتيش عمّا عوملت به الرعية وأجريت عليه أحوالها من جور أو نصفة من غير إشراف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد إلى العمارة وجبايات تحدث على غير رسم ومصادرات ترفع على محض الظلم وإضافات إلى الارتفاع ليست بعبرة وحسبانات في النفقات لا حقيقة لشيء منها ومتى تكلم كاتب من الكتاب في شيء من ذلك فكان ذا حال ضمن ونكب واجتيح وقتل وباعه السلطان بالتطفيف، وإن كان ذا فاقة وخلّة أرضى باليسير فانقلب وصار عونا للخصم ولم يكن بذلك بملوم لانّ سلطانه لا يحميه إذا خاف ولا ينصره إذا قال.....ثمّ ركب معز الدولة الهوى في أمور غلمانه فتوسّع في إقطاعاتهم وزياداتهم وأسرف في تمويلهم وتخويلهم فتعذّر عليه أن يذخره ذخيرة لنوائبه أو أن يستفضل شيئا من ارتفاع ولم تزل مؤونته تزيد ومواده تنقص حتّى حصل عليه عجز لم يكن واقفا على حدّ منه بل يتضاعف تضاعفا متفاقما وأدى ذلك على مرّ السنين إلى الإخلال بالديلم فيما يستحقون من أموالهم وداخلتهم المنافسة للأتراك من أجل حسن أحوالهم.

وقادت الضرورة إلى ارتباط الأتراك وزيادة تقريبهم والاستظهار بهم على الديلم وبحسب انصراف العناية إلى هؤلاء ووقوع التقصير في أمور أولئك فسدت النيّات وفسد الفريقان أمّا الأتراك فبالطمع والضراوة وأمّا الديلم فبالضرّ والمسكنة واشرأبّوا إلى الفتن وصارت هذه المعاملة لقاحا لها وسبب لوقوع ما وقع فيها»[1].

لكن أظهر بعض الأمراء البويهيين (334-447هـ) رغبة في إصلاح أحوال الزراعة والمزارعين حيث قام معز الدولة البويهي بمحاولات لزيادة الثروة الزراعية بالاهتمام بإصلاح الترع وسد البثوق وإصلاح الأراضي البور، كما أمر بتخفيف الخراج عن الفلّاحين وذلك بتأجيل خراج سنة 350هـ إلى العام التالي ليتمكن من التوفيق بين موعد نضج الزرع وموعد الجباية بعد أن كان الزرّاع يضطرّون إلى الاستدانة لدفع الخراج، كما منح فقراء الفلّاحين قروضا من الأموال والغلال على أن تسترد منهم في موسم الحصاد، غير أنّ هذه

---

[1]- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج5، 282.

الإصلاحات لم تنجح نتيجة لسوء الإدارة وثورات الجند الّتي عرقلت جهود معز الدولة البويهي لإصلاح أحوال الزراعة والمزارعين[1].

وفي عهد عضد الدولة البويهي شهدت العراق فترة إصلاح تمثّلت في الاهتمام بالزراعة بإصلاح نظام الري وحفر بعض القنوات وتطهير الأنهار وإعادة حفر ما دثر منها، كما شق نهرا يصل بين الأهواز وبين نهر دجلة سمّي بالنّهر العضدي كما أقام السدود، غير أنّ تلك الإصلاحات لم تستمر طويلا بسبب اضطراب أحوال البلاد السياسية، فأهملت الزراعة ومشاريع الري وانخفض المستوى الاجتماعي والاقتصادي للفلاحين خلال حكم البويهيين رغم أنّ عهود التولية والأوامر الصادرة من الخلفاء والأمراء والوزراء طالبت بالعناية بالمزارعين وتحسين نظام الريّ ومراقبة الجباة والحماة وكبار الإقطاعيين[2].

4- الشطّار[3] والعيّارون:

وهم عبارة عن تكتل اجتماعي ظهر في نهاية القرن الثاني للهجرة، وشكّل هؤلاء جزءا مهما من الأحداث التاريخية لمدينة بغداد في العصر العبّاسي امتد إلى القرن السادس للهجرة، وقد اختلف المؤرخون في مواقفهم من العيّارين فمنهم من وصفهم باللصوصية مستندا إلى أحداث السرقة والحرائق والفتن الّتي سببوها، وآخرين يجدونهم طائفة ظهرت بسبب التباين الاقتصادي وأنّ حركتهم موجّهة ضد التجار[4].

وقد أطلقت عدة تسميات على هذه الفئة منها: الشطّار والعيّارين والزعّار واللصوص والسفلة والدعار والطرارون والفجرة والسوقة، وكل هذه العبارات ما هي إلّا تسميات متعددة لجماعات وحدت بينها الظروف الاجتماعية المتردية[5].

وترجع جذور هذه الحركة إلى رغبة هذه الطبقة المحرومة ماليا لأخذ الثأر من المثرين، وإنّ وضعهم هذا واستمرار حركتهم يوضح أنّهم يمثلون حركة اجتماعية ثورية بين العامة ظهرت نتيجة الظروف المعيشية السيئة والظروف الاقتصادية الصعبة، فكانت حركاتهم تمثل

1- الصابئ، الوزراء، ص338. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص56-59.

2- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص419. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص58.

3- الشطّار: جمع مفردها الشّاطر وهو الشّخص الّذي أعيا أهله خبثا، وقد شطر يشطر شطارة وشطر أيضا من باب الظرف. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص416.

4- محمد أحمد عبد المولى، العيّارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990، ص31.

5- محمد نجيب أبو طالب، الصراع الاجتماعي، ص215. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص3.

صراعا طبقيا في المجتمع العباسي، وقد وجهت ثوراتهم بشكل أساسي ضد السلطة وممثليها، وضد التجار والطبقة الثرية في الأسواق[1].

وقد أطلق العيّارون على أنفسهم اسم الفتيان، وهكذا يكون اسم الفتيان مرادف لاسم العيّارين والدعّار والشطّار، ويذكر المسعودي[2] أنّ لهؤلاء العيّارين تنظيمات خاصة بهم فكان عريف على كل عشرة منهم، ونقيب على كل عشرة عرفاء، وقائد على كل عشرة نقباء وأمير على كل عشرة قواد.

وأمّا في خصوص أجناس العيّارين فيذكر أنّهم ينتمون إلى أجناس شتى من الأحباش والبربر والسودان والصقالبة والنبط[3] والترك والأكراد، ولكن يبرز بيـــن هؤلاء الفرس ثمّ السنود والهنود والزط[4].

وقد ظهرت حركة الشطار والعيّارين أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون وبالذّات أثناء حصار جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين إلى بغداد سنة 196هـ حيث ذكر الطبري عنهم «أنّ الأمين رأى قوما ليس عليهم لباس الحرب والجند ولا عليهم سلاح فأمرهم أن يأخذوا من خزائن السلاح حاجتهم، وقد انتهبت الغوغاء سلاحا كثيرا وخزا، وكذلك قام السجناء بفتح سجونهم وخرجوا منها وكثرت الفتن واختلّت الأمور بحيث أصبح الفاجر عزيزا والمؤمن ذليلا»[5].

---

[1]- عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص77-79. إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد، ص98. رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد، ص98.

[2]- مروج الذهب، ج3، ص331.

[3]- النبط: أطلقت كلمة النبط على سكان العراق القدماء من الساميين عموما، حيث يرجع أصلهم إلى حام بن نوح ثم إلى بقايا ثمود، ويرى آخرون أن نبط السواد هم الكلدانيون (السريان والنماردة)، وإنه هناك ارتباط بين النبط والفلاحة حيث يذكر: «أنّ النبط إنّما سموا نبطا لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص36. ابن منظور، لسان العرب،ج7، ص407-712. وعنهم يقول الخطيب البغدادي: أن النبط هم الّذين استنبطوا الأرض وعمروا السواد وحفروا الأنهار العظام فيه». تاريخ بغداد، ج1، ص362.

[4]- رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد، ص156.

[5]- تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص430

وقد اعتبر الخليفة الأمين هؤلاء الشطار والعيّارين عدوا له شأنهم شأن جنود المأمون المحاصرين له لاسيّما إذا علمنا بأنّ عددهم قد قارب المائة ألف[1]، فقد ذكر لنا ابن الأثير كلاما على لسان الخليفة الأمين حيث قال «وددت أنّ الله قتل الفريقين جميعا فأراح النّاس منهم فما منهم إلّا عدو لي أمّا هؤلاء – يقصد العيّارين– فيريدون مالي وأمّا أولئك– جيش المأمون– فيريدون نفسي»[2].

ولمّا انتهت خلافة المنتصر بالله سنة 248هـ أيّد الأتراك انتقال الخلافة إلى ابن عمّه المستعين بالله بدلا من انتقالها إلى أخيه المعتز بالله إلّا أنّ هذا الاختيار لم يعجب طبقة العيّارين في سامراء حيث هاجموا الأتراك ونهبوا الكثير من الدواب والدروع والتراس والرماح[3].

وفي أثناء حصار الجيش التركي القادم من سامراء أثناء الصراع بين الخليفة المستعين والمعتز سنة 251هـ لجأ نائب بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر إلى العيّارين لطلب المعونة حيث اعتبرهم جنود منظمين وفرض لهم الأرزاق ووضع عليهم عريف (قائد) وأمر بتزويدهم بالسلاح[4].

ثمّ لمّا ظهرت ثورة الزنج في خلافة المهتدي سنة 255هـ استعانت الدولة العبّاسية أيضا بالشطار والعيّارين في حربها مع الزنج، حيث استقدمت طائفة منهم من الري وعيّنت عليهم قائدا اسمه جعلان العيّار، ولمّا ضغط صاحب الزنج بقوّاته على البصرة خرج مددا لأهلها من العيارين لمواجهة هذا الخطر[5].

وعلى الرغم من أنّ حركة الزنج قامت نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية الأمر الّذي كان يوجب أن يتوحد العيّارون معهم ويناصروهم إلّا أنّهم قد وقفوا ضدهم وحاربوهم والسبب يعود إلى سياسة الدولة الّتي أدركت هذا الأمر فعملت على تقريب العيّارين فأمرت لهم بالأرزاق لضرب الزنج وبهذا نجحت في التفريق بينهم[6].

---

[1]– إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي، ص98.

[2]– الكامل في التاريخ، ج5، ص397.

[3]– عبد اللطيف عبدَ الرحمن الراوي، المجتمع العراقي، ص8. رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد، ص155.

[4]– المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص417. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص167.

[5]– ابن طيفور، كتاب بغداد، ص98.

[6]– محمد أحمد عبد المولى، العيّارون والشطار البغاددة، ص89.

وبعد مقتل الخليفة المقتدر على يد الأتراك ازداد نشاط الشطار والعيّارون حيث عاثوا ببغداد فسادا وتعرضت دور بغداد إلى النّهب والسلب على أيديهم، وبلغ من قوتهم أنّهم قتلوا القائد التركي بجكم سنة 329هـ لشدته وسطوته على الخلافة العباسية[1].

وقد توالت الفتن والأحداث الّتي سبّبها العيّارين ففي سنة 334هـ عجزت الدولة عن مطاردة العيّار ابن حمدي[2] الّذي كان من عتاة العيّارين، فخلع عليه أمير الأمراء أبو جعفر بن شيرزاد بعد أن أمّنه، ووافق على أن يسدد له في كل شهر خمسة عشر ألف دينار ممّا يسرقه هو وأصحابه مقابل إطلاق يده في جباية القوافل التجارية الواردة على أسواق بغداد، واستعان ابن شيرزاد أمير الأمراء بالشطّار والعيّارين على حرب معز الدولة فكان يركب الماء وهم معه ويقاتل الديلم، ولم تنته هذه الحرب بنصر حاسم لأحد الطرفين، حيث جنح كلاهما للمصالحة، واستقرّ الصلح بينهما في سنة 335هـ، وهكذا اتّحد العرب والأتراك والعيّارون ضد بني بويه منذ الوهلة الأولى[3].

واستغل الشطّار والعيّارون في سنة 361هـ موقف السلطة البويهية من الاعتداءات المتكررة على منطقة الحدود الجزرية والشامية من طرف الروم، ففجّروا الموقف ضد السلطة البويهية حتّى اشتد خطرهم منذ أواخر سنة 362هـ وأصبحوا من الكثرة ببغداد بحيث إذا تحركوا ملكوا[4].

وذكر ابن تغرى بردي في حوادث سنة 364هـ أنّ العيّاريين أوقعوا ببغداد حريقا، فاحترق أكثر السوق، واستفحل أمرهم حتّى ركبوا الجند وتلقّبوا بالقواد وغلبوا على الأمور، وأخذوا الخفارة عن الأسواق والدروب[5].

ونشطت حركة الشّطار والعيّارين خلال الأعوام من سنة 379-380هـ في بغداد، وتحدّوا سلطة البويهيين، بحيث قتلوا من قاومهم، وتواترت سطوتهم وعمليّاتهم الّتي عرفت في ذلك الوقت بالعملات والكبسات[6].

---

[1]- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص411.

[2]- ابن حمدي: لم أجد ترجمة وافية له.

[3]- عبد الحسين مهدي، محاضرات في تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي، مكتبة التربية، (د ت)، ص35-36.

[4]- علي منصور نصر، العيّارون والشطار في العصر العبّاسي، مجلة المؤرخ العربي، ع6، القاهرة، 1998، ص265.

[5]- النجوم الزاهرة، ج4، ص111.

[6]- عبد الحسين مهدي، محاضرات، ص37.

وفي سنة 384هـ «اشتدّ أمر العيّارين ببغداد ووقعت الفتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة واحترق كثير من المحال ثمّ اصطلحوا»، كما ثار الشطّار والعيّارين في السنة نفسها وطالبوا السلطة البويهية بإنصافهم وإنصاف الشعب وعندما شعر البويهيون بخطورة هذه الحركة جنّدوا طاقاتهم لقمعها حيث تصدّوا لها بقوة، وهذا ما جعل العيّارون يقومون بتجميد نشاطهم بعد هذه الحملة القاسية عليهم، وفي سنة 390هـ اشتدّ النّهب والحرق والقتل، وتدارك بهاء الدولة الموقف فاستتاب على العراق أبا علي الحسن بن جعفر أستاذ هرمز بن الحسن الملقّب بعميد الجيوش والّذي استطاع أن يصلح الأمور ويشل نشاط الشطّار والعيّارين بشكل مؤقت[1].

وفي عهد جلال الدولة أبي طاهر المعتز بن بهاء الدولة سنة 416هـ قويّ أمر العيّارين برئاسة أبو علي البرجمي الّذي عرف بشدّته وشدّة أصحابه، وبالرغم من سطوة هذا القائد إلّا أنّه كان له مروءة حيث لم يتعرّض إلى النساء ولا إلى من يستسلم إليه، وإن كان قد أسرف في نهب الأموال[2] .

ثمّ تصاعد خطر العيّارين بقيادة أبي يعلى الموصلي[3]، فهاجم رجالات الشرطة في بغداد، وقتل بعضهم، فاضطر رجال الجيش البويهي إلى نقل خيولهم إلى دورهم، كما نقل الحاكم البويهي جلال الدولة دوابه إلى داخل دار المملكة، وظلّ أبو يعلى هذا خارجا على الدولة مدة تقرب من ثلاث سنين استمر خلالها بالقيام بالهجمات إلى أن لقي حتفه في إحداها[4].

وقد تعرض الشّطار والعيّارين إلى أزمة كبيرة سنة 425هـ عندما وقع البرجمي في شرك نصّبه له جلال الدولة البويهي، حيث قبض قرواش على عامله بمدينة عكبرا[5] بشرقي دجلة في شمال بغداد، ويعرف بابن القلعي فجاء البرجمي يتشفّع لإطلاق سراحه لمودة

1- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص167. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص814. عبد الحسين مهدي، محاضرات، ص37.

2- ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص47.

3- أبو يعلى الموصلي: لم أجد ترجمة وافية له.

4- علي منصور نصر، العيّارون والشطار، ص277.

5- عكبرا: اسم بليدة من نواحي دُجَيل قرب صريفين وأوانا،بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص142.

وصداقة كانت بينهما، فغدر قرواش به واعتقله، وبالرغم من أنّ البرجمي افتدى نفسه بمبلغ كبير غير أنّ قرواش أخذ الفدية وأغرقه بدل إطلاق سراحه، وقد حاولت السلطة البويهية استغلال موقف مقتل البرجمي لتفتيت حركة العيّارين فأصدرت أمر الأمان لهم، ودعتهم للتفاوض، وطلبت منهم الانخراط في مؤسسات الدولة أو الخروج من البلد، فخرجوا مؤقتا، ثمّ عادوا إلى نشاطهم واستهدفوا صاحب الشرطة محمد بن النسوي حيث اقتحم مائة من العيّارين داره وأحرقوها وأجبروه على الاستقالة من منصب رئيس الشرطة[1].

وقد استمرت هجمات الشطار والعيّارين طيلة العصر البويهي أي سنة 447هـ حيث ساءت الأحوال في بغداد، وعم الفساد والخراب وضعف نفوذ بنو بويه، حيث تفرقت كلمتهم، ولم يعد بإمكانهم الدفاع عن بغداد لا من الشطار والعيّارين، ولا من أي خطر جديد يهدد سيادتهم، وهذا ما حدث مع السلاجقة الّذين دخلوا بغداد في 25 محرم سنة 447هـ فاستقبلهم أهالي بغداد للتخلص من جور البويهيين ومن نشاط الشطار والعيارين[2]. وفي الأخير نقول أنّ مثل هذه الحركات في المجتمع العباسي كانت نتيجة حتمية للتناقضات بين الطبقة الخاصة والطبقة العامة، فكانت ردة فعل هذه الطبقات المحرومة بعد أن ملت من سوء أوضاعها القيام بالكثير من الحركات الاجتماعية حيث لجأت إلى الثورة في محاولة منها لتغيير أوضاعها الاجتماعية .

5- الخدم والرقيق:

إنّ تطور الحياة الاجتماعية في العراق كان مظهرا من مظاهر حضارته، فقد تزايد عدد الخدم في بيوت الخاصة والعامة، سواء كانوا من الرقيق الأسود والأبيض، ويأتي الخدم في أسفل السلم الاجتماعي الّذي يشملهم والجواري والخصيان[3].

وقد دخل العبيد إلى المجتمع الإسلامي بعدة طرق ووسائل، إمّا عن طريق الاسترقاق بالأسر في الحروب والفتوح، ومن الأمثلة على ذلك نذكر مثلا أنّ عبد الله بن عامر بن كريز أرسل «الربيع بن زياد الحارثي إلى زالق في سنة 30هـ فافتتحها عنوة وسبى منها عشرة

---

[1]- علي منصور نصر، العيّارون والشطار، ص279.

[2]- محمد أحمد عبد المولى، العيّارون والشطار، ص127.

[3]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص127.

آلاف رأس»[1]، وتمرّد أهل سجستان[2] في عهد المنصور فحاربهم معن بن زائدة الشيباني[3] حيث تمكن من فتحها و«أصاب سبيا كثيرا وكانت عدة من سباه منهم ثلاثين ألف رأس»[4]، وجاء على لسان شويس العدوي قائلا: «أتينا الأهواز وبها ناس من الزط والأساورة فقاتلناهم قتالا شديدا فظهرنا عليهم وظفرنا بهم فأصبنا سبيا كثيرا اقتسمناهم، فكتب إلينا عمر أنّه لا طاقة لكم بعمارة الأرض، فخلوا ما في أيديكم من السبي واجعلوا عليهم الخراج فرددنا السبي ولم نملكهم»[5].

وقد كانت آخر عمليات السّبي الكبرى بعد معركة عمورية 223هـ الّتي غنم فيها جند المعتصم السّبي الكثير وبيع هذا السّبي حتّى كان ينادي على الرقيق خمسة وعشرة عشرة[6].

وبعد أن نقص رقيق الحرب أصبح بيع الرقيق وشراؤه في أسواق النخاسة الوسيلة الرئيسية للحصول على الرقيق في القرن الرابع الهجري إذ لم يكن بالإمكان داخل حدود الإسلام الّذي لم يبق فيه إلّا المسلمون وأهل الذمة تحويل أي منهم إلى رقيق ضمن الحدود القانونية المعروفة، ومن الأمثلة على ذلك أنّ رقيق أرمينية من النّصارى في سنة 325هـ لم يكن يباع في بغداد «لأنّهم في ذمة معروفة ومعهم غير عهد»[7].

---

[1]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3،ص127.

[2]- سجستان: هي ناحية كبيرة وولاية واسعة، وقد ذهب بعضهم إلى أن سجستان اسم الناحيه وان اسم مدينتها زرنج، بينها وبين هراة عشرة أيام ثمانون فرسخا، وهي جنوبي هراة ، وأرضها كلها رملة سبخة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص190.

[3]- معن بن زائدة الشيباني: هو معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني، أبو الوليد، من أشهر أجواد العرب وشجعانهم أدرك الدولتين الأموية والعباسية، وطلبه أبو جعفر المنصور فاختفى منه ثمّ عفى عنه وولّاه سجستان حيث قتل فيها غيلة سنة 151هـ.الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج13،ص235. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص224. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 244 .

[4]- قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، 1981، ص399

[5]- البلاذري، فتوح البلدان، ص531-532.

[6]- ابن الجوزي، المنتظم، ج11، ص237. صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن 1هـ، دار الطليعة، بيروت، 1969، ص63.

[7]- ابن حوقل، صورة الأرض، ص295. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص141. ونذكر أنّه بمجرد توقف الفتح الإسلامي بمقتل السلطان ملك شاه سنة 486هـ/1093م شحّ الرقيق إلّا أنّه ما لبث أن ازداد في القرن الخامس الهجري على يد السلاجقة الّذين كانوا يجلبون أسراهم إلى بغداد ومن ثمّ بيعهم كرقيق. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص127

وقد كان من نتائج تجارة الرقيق المربحة انتشار الأسواق لبيعهم في بغداد والبصرة وغيرها، وقد عرفت مثل هذه الأسواق بـ«أسواق النّخاسين»، وبالرغم من سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للرقيق، فقد لقي البعض حظوة عند الخلفاء العبّاسيين فمثلا عندما نظر أبو عيسى الورّاق– ت247هـ– إلى خادم خرج من دار الخليفة بنجائب تقاد بين يديه وبجماعة تركض حواليه فرفع رأسه إلى السماء وقال: «أوحدك بلغات وألسنة وأدعو إليك بحجج وأدلّة وأنصر دينك بكل شاهد وبينة ثمّ أمشي هكذا عاريا جائعا ومثل هذا الأسود يتقلب في الخز والوشي والخدم والحشم والحاشية والغاشية»[1].

وهناك من الرقيق من أصبحنّ أمهات أولاد عند الخلفاء العبّاسيين، ومنهنّ من تدخلن في السياسة، فالمنصور أمه حبشية والهادي والرشيد أمهما الخيزران رومية، والمأمون أمه مراجل فارسية، وكذلك أم المعتصم ماردة، وكانت أم الواثق رومية وتسمى قراطيس، والسيّدة أم المقتدر، وشجاع أم المتوكل وقبيحة زوجة المتوكل وغيرهن كثير[2].

وقد استمرت تجارة الرقيق باستمرار الحروب بين المسلمين وأعدائهم، لأنّ هذه التّجارة كانت تعود بالربح الوفير على التّجار فكانوا يعرضونها في أسواق النخاسة باستمرار البيع، وللرقيق أعمال متعددة يعملون في خدمة النّاس ومساعدتهم في أعمالهم فمنهم البوّاب والطبّاخ ومنهم الفرّاش والخازن والنّقيب والركابي[3].

وكان الأغنياء يشترونهم بأعداد كبيرة، أمّا الرقيق الّذين يعملون في دار الخلافة فكانوا يقومون بعدّة أعمال، ولكل منهم عمله الّذي يختص به فمنهم الرسائلي الّذي يحمل الرسائل والشرابي الّذي يقدم الشراب والحرمي الّذي يختص بالدخول إلى حرم الخلفاء، وبعضهم يحمل المذاب بجانب الخليفة ليذب عنه ويطرد الذباب، وهناك الفرّاشون الّذين اختصوا بالفرش وما يتعلق بها، وقد يحملون الشموع في مواكب الخلفاء والأمراء والوزراء لإضاءة الطرق للداخلين والخارجين، كما كان يكلف الفراشون بكنس وتنظيف دار الخلافة وكان يشرف عليهم رئيس[4].

---

[1]– ابن الطقطقى، الفخري، ص295. علي منصور نصر، العيّارون والشطار، ص279.

[2]– ابن تغرى بردي، الفخري، ج2، ص295.

[3]– الجاحظ، الرسائل، ج2، ص161–162. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص419.

[4]– الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص419–420. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص128.

وكانت تجارة الرقيق تحقق ربحا كبيرا لأصحابها، كما اكتسبت صفتها الشرعية بين سائر التجارات،حيث يتصرف فيها الشاري والبائع تصرفات التجار كما في جميع البياعات.[1]

وقد تعدد أجناس الرقيق فمنهم الرقيق الصقلبي الّذي كان يرد من الغرب، ويقوم بهذه التجارة اليهود الراذانية[2] الّذين يتحدثون باللغات الغربية والفارسية والرومية، وكان هؤلاء التجار يحملون رقيقهم عبر الأندلس الّتي تضم مركز اخصاء ثمّ يصلون به إلى مصر حيث يتم توزيعه إلى بلاد الشام والعراق وبلاد الروم[3].

وتجمع الرقيق التركي في منطقة فرغانة والشاش وما وراء النّهر، ومنها يجري توزيعه على الأسواق حيث يصل الكثير منه إلى بغداد، وكان العبيد السود يردون من أماكن عدة من النوبة والحبشة والصومال،حيث وصل تجار العرب في القرن الرابع الهجري إلى سفالة الزنج، فيأتون برقيقهم إلى عدن حيث أهم مراكز بيع الرقيق الأسود[4].

وقد قسم المقدسي[5] الرقيق السود إلى ثلاثة أنواع:جنس يحملون إلى مصر وهم أجود الأجناس، وجنس يحملون إلى عدن وهم البربر، والجنس الثالث إلى شبه الحبشة.

وأدى ازدهار تجارة الرقيق إلى قيام أسواق واسعة تعرض فيها شتّى أنواعه، ومنذ بناء بغداد قامت فيها دار للرقيق لم تلبث أن أصبحت ربضا ضم رقيق أبي جعفر وهؤلاء يباعون من الآفاق بإشراف الربيع مولاه، كما قام في بغداد سوق «النخاسين» يقع في أول شارع باب الكرخ[6].

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص142.

[2]- اليهود الراذانية: كلمة فارسية تنقسم إلى راه ومعناها الطريق ودان ومعناها عارف أي عارف الطريق، ويقال سمّوا بذلك نسبة إلى راذان وهي كورة بسواد العراق، وقد لعبت اليهود الراذانية دورا كبيرا في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب حيث كانوا يسافرون برا وبحرا من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج والجلود ثمّ يعبرون البحر الرومي فيخرجون بالفرما أين يحملون تجارتهم برا إلى القلزم فيركبون البحر الأحمر(القلزم) إلى بلاد الحجاز ثمّ يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون منها المسك والعود والكافور ثمّ يرجعون إلى القلزم. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، عناية دي غويه، ليدن، 1889، ص153-154. يوسف رزق الله غنيمة،نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، المكتبة العربية، بغداد، 1342هـ/1924م، ص131.

[3]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص142.

[4]- نفسه، ص142.

[5]- أحسن التقاسيم، ص 232.

[6]- ابن الجوزي، مناقب بغداد، تح محمد زينهم ومحمد عزاب، دار غريب للنشر، القاهرة، 1998، ص 27. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص142.

وكانت أسواق النخاسة تنشط موسميا حيث يكثر عرض الرقيق بأنواعه، ومنذ القرن الرابع الهجري أصبح الخلفاء وكبراء الخاصة والأغنياء يشترون رقيقهم من الأسواق حتّى كان المقتدر يخصص في العام مبلغ مئة ألف دينار لشراء الرقيق[1].

واعتبر تجار الرقيق فئة اجتماعية متكاملة ولهم فروع وعيون واتّصالات مع الوسطاء والتجار في البلاد، وتولوا مهمّـة الإشراف على بيوت خصصوها لهذا الغرض، وفي هذا الصدد يذكر ياقوت الحموي[2] أنّه في القسم الشمالي من الجانب الغربي من بغداد كانت هناك دار للرقيق متّصلة بالحريم الطاهري، ولها شارع يسمّى شارع الرقيق.

وكان بيع هؤلاء الأسرى يتم في أسواق بغداد تحت مراقبة رسمية لأنواعهم وأثمانهم، لأنّ الدولة كانت تقتطع من هؤلاء الأسرى عددا معيّنا لسد حاجة الجيش، فكان الأرقّاء الأتراك والصقالبة تبعا لذلك أرفع الجنود منزلة، وعلى العكس يعد أرقاء بيزنطة وأرقّاء الهند للحرف الصناعية، وكان الأرقّاء الآخرون يخصّصون للأعمال المنزلية، ويستخدمون كخصيان ومحظيات وفقا لجنسهم، وكان الراقصون والممثّلون يختارون في العادة من بين الأرقّاء أمّا الأعمال الشاقّة في الحقل أو البحر فكانت توكل للأرقّاء السود[3].

كما كان يحصل على الرقيق بطرق أخرى حيث كان يرسل إلى الخليفة في بغداد ضمن واردات الضرائب من مختلف الأقاليم التابعة للدولة العباسية أو عن طريق الهدايا التي كانت ترسل إلى الخلافة، فمثلا أرسل إسماعيل بن أحمد السّاماني صاحب بخارى هدية إلى المعتضد ضمّت 49 جملا عليها محامل فيها غلمان مرد أتراك وخزرية، وضمّت الهدية أيضا 52 غلاما تركي وخزرا بدوابهم وسلاحهم[4]، ولهذا فقد امتلأت قصور الخلفاء والأمراء

---

[1]- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 242.

[2]- معجم البلدان، ج3، ص420. ويذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، ج16، ص266 أنّ هناك قطيعة للرقيق قال بعض الظرفاء فيها:

إنّي بليت بظبي × من الظباء رشيق

رأيته يتثنّى × بقرب دار الرقيق.

[3]- آدم متز، الحضارة الاسلامية، ج1، ص 297.

[4]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص141. نورة بنت إبراهيم الدوسري، خدم دار الخلافة، ص 28-29.

بهم، وامتلأت بهم قطائع وأماكن بغداد حتّى نسبت بعضها إلى الرقيق كدار الرقيق من جهة باب الشام، وباب النخّاسين في بداية شارع الكرخ الّذي يتجمع فيه باعة الرقيق[1].

وقد عاش في العراق في العصر العبّاسي عدد كبير من الرقيق حتّى أصبحوا يمثّلون عنصرا بارزا من عناصر المجتمع العراقي في ذلك العصر، حيث احتاج الخلفاء والوزراء وحاشيتهم إلى عدد كبير من الأرقّاء، كما كان يرد إلى العراق خمس الغنائم الّتي يحوزها المسلمون في الحرب بينما توزّع الأربعة الأخماس الباقية بالتّساوي على الجند[2]، وعيّنت الدولة العبّاسية عاملا خاصا للإشراف على أسواق الرقيق في بغداد، وكان بيع الرقيق الجيّد في السوق العام بمثابة عقوبة تحط من قدره، والأولى أن يباع في منزل خاص أو بواسطة تاجر كبير[3].

غير أنّ بعض الخدم تصرفوا تصرفات مليئة بالغرور والعجرفة فأساءت هذه إلى سمعة أسيادهم وملّاكهم، فقد قيل أنّ أحد خدم الموفق خمر وترنّم من شدة السكر فصادفه الجذوعي القاضي–ت291هـ– فاعتدى عليه وأهانه أقبح إهانة، فشاع خبره بين النّاس وطالبوا الموفق بوضع الحد على غلامه هذا، فأمر الموفق بأن يحمل الغلام إلى دار الجذوعي ويضرب هناك ألف سوط، غير أنّ الجذوعي صفح عنه وشفع له عند الخليفة الموفق[4].

لكن ظل الكثير من الرقيق والخدم يعيشون في الذل والفقر، ويباعون بأبخس الأثمان في أسواق النخّاسين، حتّى بلغ ثمن الغلام منهم ثلاثين دينارا، ممّا جلب لهم عطف المجتمع الإسلامي في تلك الفترة، فمثلا أوصى المأمون أحد أقاربه عنهم فقال له: «ارفق بهم فإنّهم بشر مثلك»[5].

---

[1]– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج2 295، عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام في القرن الثالث الهجري 198–295هـ/813–907م، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1987 ، ص109. عبد الحسين مهدي، محاضرات، ص42. محمد أحمد عبد المولى، العيّارون والشطار، ص127.

[2]– رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص162.

[3]– آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص302.

[4]– التنوخي، نشوار المحاضرة، ج2، ص26. عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص110.

[5]– التنوخي، نشوار المحاضرة، ج2، ص26. عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، المجتمع العراقي، ص25. عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص110.

وهكذا ظلّت مشكلة الرقيق من المشاكل المهمّة الّتي عانى منها مجتمع القرن الثالث الهجري بصفة خاصة والمجتمع الإسلامي عامة، على الرغم من أنّ الشريعة الإسلامية حضّت على فك رقابهم، والدليل أنّ الإسلام استحدث وظيفة المحتسب الّذي كان من جملة وظائفه أخذ السادة بحقوق العبيد والإماء وبألّا يكلّفوهم من الأعمال ما لا يطيقون[1].

وعلى أساس هذه القواعد فقد تنافس المسلمون في الرفق بالرقيق والإحسان إليه تقربا من الله تعالى وتأسيا بالرسول صلى الله عليه وسلم، حيث لمّا انتشر إنشاء الوقف الخيري في العصور الإسلامية المتأخرة كان منها ما هو موجه لفئة الرقيق في المجتمع[2].

ومن أنواع الرقيق نذكر الجواري، الغلمان والخصيان:

أ- **الجواري:** إنّ مصطلح الجارية هو من أكثر التعابير شيوعا في المصادر، ويغطّي عروقا وأجناسا متعددة، وصلت إلى دار الخلافة، فالجارية في اللغة هي الفتاة الّتي تباع وتشترى في سوق النخاسين[3]، وقد جيء بها من البلاد البعيدة إلى دولة الخلافة مثل بلاد الترك كالجارية شجاع أم الخليفة المتوكل على الله، والجارية مخارق أم الخليفة المستعين بالله، ومنها الحبشية مثل الجارية فريدة الصغرى زوجة الخليفة المتوكل، أو الرومية مثل الجارية قبيحة أم الخليفة المعتز بالله (252-255هـ/866-868م)[4]، ومنها الأرمنية مثل الجارية قرة العين أرجوان أم الخليفة المقتدي بأمر الله (467-487هـ/1074-1094م) وغيرهن إلى بغداد ليسكنوا في البيوتات العبّاسية فضلا عن ذلك، فإنّ الجارية الّتي تنجب للخليفة ولدا يطلق عليها أم ولد، أمّا الحرة فتدعى بأم البنين[5].

وقد شهد العصر العبّاسي ازديادا كبيرا في أعداد الجواري في البلاد خاصة بعد تأسيس مدينة بغداد، إذ جلبن إليها من مختلف البلدان من المدينة والطائف واليمامة ومصر، وأصبح

---

[1]- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص247. عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص11.

[2]- عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، المجتمع العراقي، ص25.

[3]- أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1963، ص555.

[4]- ابن الساعي، نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تح مصطفى جواد، دار المعارف، مصر، (د ت)، ص 80-98. مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي، القاهرة، 1950، ص19.

[5]- فاطمة المرنيسي، السلطانات المنسيات نساء رئيسات في الإسلام، ترجمة عبد الهادي عباس وجميل معلى، دار الحضارة للنشر، دمشق، 1998، ص67.

الحديث عنهنّ يشغل مجالس السلطة الحاكمة، خاصة الخلفاء الّذين امتلأت كتب التاريخ بمغامراتهم مع الجواري، وهذه الزيادة الكبيرة في أعداد الجواري ترجع إلى أسباب عدّة منها كثرة الحروب الّتي خاضها الأمويون والعبّاسيون من بعدهم، ممّا أدّى إلى اتّساع الدولة وانتشار تجارة الرقيق انتشارا واسعا فضلا عن حالة التّرف والرخاء الّتي عاشها العبّاسيون حيث تراكمت العائدات المالية المجلوبة إلى بغداد من جميع أنحاء البلاد، كما أنّ زيادة الرقيق قد جاءت أيضا نتيجة لتزاوجهم مع بعضهم بعضا، أو تزوج أمهاتهم برجال أحرار[1].

وهناك نوعين من الجواري: جواري للخاصة من الخلفاء يتم وضعهنّ في منازل خاصة، وجوار للعامة من اللواتي يتم بيعهنّ في الأسواق العامة، وقد ذكرت كتب التاريخ حكايات كثيرة عمّا يقمن به من مجون تحت إشراف النخّاسين استجلابا للأغنياء والشعراء، لذلك فقد حرص التجّار في عرض بضاعتهم من الجواري والإشراف على تأديبهن وتثقيفهن على صنوف العلم وحتّى في تحديد ملابسهن، وعرضها على رجال الدولة لاسيّما الخلفاء الّذين استهوتهم هذه البضاعة وتنافسوا في طلبها حتّى وصل سعر الواحدة منهنّ مئات الآلاف من الدنانير[2].

وقد اختلفت نظرة الخلفاء العبّاسيين وأمزجتهم في المزايا الّتي يفضلونها في الجواري اللّواتي يحظين عندهم، وكان الجمال أبرز هذه المزايا وفي ذلك يقول الخليفة محمد المهدي للخيزران إنّك غاية السنى والجمال[3]، وكذلك الأمر بالنّسبة لجارية الخليفة محمد الهادي (169-170هـ/785-786م) غادر التي حظيت عنده كثيرا، فضلا عن جاريته هيلانة – ت273هـ–، وكذلك نظم من أبرز محظيات الخليفة محمد الأمين، في حين كانت جارية المعتضد بالله «جيجك» مثلا في الحسن والجمال[4].

1– ناهضة مطر حسن، سلطة الجواري، ص113. فاطمة المرنيسي، السلطانات المنسيات، ص113.

2– فاطمة المرنيسي،السلطانات المنسيات ، ص114.

3– ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص570 . عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، المكتبة العمومية، بيروت، 1956م، ج1، ص54. ناهضة مطر حسن، سلطة الجواري، ص114.

4– ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص55– 58. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص572. عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص55. فاطمة المرنيسي، السلطانات المنسيات، ص114.

وجمعت جارية الخليفة عبد الله المأمون «عريب المأمونية» الجمال والأدب والغناء فكانت من أحسن النساء وجها وأدبا وغناء وضربا وشعرا ولعبا بالشطرنج والنّرد[1].

وقد انقاد الخلفاء العباسيين للمحظيّات من جواريهم، ويمكن أن تكون للصفات الّتي تتحلى بها الجواري، وقدرتهن الّتي تمتّعن بها في معرفة خبايا شخصيات الخلفاء هي الّتي قربتهن منهم، وجعلتهن في مرتبة قد تكون أعلى من مرتبة زوجاتهم الحرائر، لا يستطيعون الاستغناء عنهن، وهذا الأمر فرض وجوده على الخلفاء، إذ لا يتمكنون من رد أي طلب لهنّ سعيا وراء إرضائهن بمختلف الوسائل ما أدى في النهاية إلى حدوث تفكك وفوضى في البلاد[2].

وقد أثّرت الجواري في شتّى جوانب حياة الدولة العبّاسية، ففي الجانب الثقافي حرص تجار الجواري على اختيارهنّ وتزويدهنّ بالمؤهلات الّتي يتمكن بها من جذب أنظار الخلفاء والأمراء، فيتم تدريبهن على المجالسة والمنادمة ورواية الشعر والغناء حتّى أصبحت ثقافة الجواري محط أنظار الخلفاء والأغنياء، إذ تنقّلت مجالسهن من موضوع إلى آخر بحضور الشّعراء والمثقّفين الّذين يحضرون من مختلف المدن، ممّا جعل هذه المجالس منابر للعلم والثقافـة، وهذا شكل عاملا مهما من عوامل نشاط الحركة الأدبية والعلمية في قصور الخلافة، وانعكس بالتّأكيد على مجالس العلم والأدب في كافة البلاد[3].

وتنوعت العلوم الّتي تثقّفت بها الجواري ما بين الفقه والشعر والكتابة والخط والغناء وتميّزت بعضهن بعلوم معيّنة، فمثلا تميّزت عريب المأمونية بالفصاحة والبلاغة فضلا عن قول الشعر لعبد الله المأمون ومن بعده المعتصم بالله ثم المتوكل على الله[4].

كـما بـرزت الخـيزران في روايــة الحــديث النّبـوي، فــقد ذكر عنـها أنّــها «أخـذت العلم مـن الأوزاعـي»[5]، لذلك فقد روت الحديث في مجالسـها، وقد حدّد ابن

---

[1]- ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص58.

[2]- ناهضة مطر حسن، سلطة الجواري، ص114.

[3]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص570. عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص54.

[4]- ناهضة مطر حسن، سلطة الجواري، ص116.

[5]- عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص 54.

كثير[1] سند أحاديثها عن «الخليفة المهدي عن أبيه عن جده عن ابن عبّاس عن النّبي – صلّى الله عليه وسلم– ».

وتميّزت كل من محبوبة – ت بعد 247هـ– وفضل – ت260هـ– جواري الخليفة المتوكّل على الله بأنّهن كنّ يغنّين الشعر الّذي ينظّمنه، كما تفننت الجواري في كتابة الشعر والرسائل في المجالس عن طريق كتابتها على صدورهنّ أو عصائبهنّ أو على ما يلفت الأنظار إليهنّ[2].

وبالرغم من المستوى الثقافي الّذي تميّزت به أمهات أولاد الخلفاء إلّا أنّ أبناءهنّ في الغالب لم يكونوا بالمستوى الثقافي والفكري الّذي كنّ عليه وقد برز هذا الأمر واضحا في العصر العبّاسي الثاني إذ نـشأ الخلفاء على حياة الترف والانغماس في الملذات[3].

وقد امتلأت قصور الخلفاء والوزراء والأمراء وذوي الجاه بهنّ، وكانت الجارية الظريفة سعرها أعلى من سواها، كما أنّ النّخّاسين يعلمون الجارية الغناء، فحسن غناء الجارية مدعاة لشرائها لأنّ منهم من يشتري الجواري المغنيات ليجعل من بيته ناديا ليتكسّب من ورائه حيث يجتمع فيه الشباب ومحبو الغناء والمجون، فقد بلغ عدد المغنيات في بغداد في القرن الرابع الهجري 460 جارية[4].

كانت جواري دار الخلافة للزينة والأبّهة حيث لبسن أفخر الثياب وكنّ على قدر عال من الجمال، واشتغلنّ في خدمة زوجات الخلفاء كوصيفات لهنّ، وممّن اشتهر منهنّ في هذا العصر نويس المغنية زوجة ابن رئيس الرؤساء وعائشة السوداء زوجة ابن الكـــرخي، فقــد

---

[1]– البداية والنهاية، ج13، ص570.

[2]– ناهضة مطر حسن، سلطة الجواري، ص116.

[3]– نفسه، ص 117.

[4]– جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص132.

أجمع سكان بغداد بأنّ ما ببغداد مغنية أصنع من عائشة السوداء ولا غناء أطرب من غنائها ولا صوت أرق من صوتها[1].

وفي الشؤون السياسية ظهرت مشاركة الجواري بصورة واضحة في بداية العصر العبّاسي، فقد كان لنساء الخلفاء وأمهاتهم وجواريهنّ دور لا يمكن إغفاله فيها، وهذا الأمر انتبه إليه الخليفة أبو جعفر المنصور، لذلك كان من أبرز الأمور الّتي تضمنته وصيته لابنه محمد المهدي «إيّاك أن تدخل النّساء في أمرك»[2].

وقد تحدثت المصادر كثيرا عن أخبار الجواري في قصر الخلافة ومدى ضعف الخلفاء إزاءهنّ، ومن الأمثلة على ذلك ما كتب عن الخليفة محمد المهدي في المصادر عن حبّه للقيّان[3] وسماع الغناء، فقد تحدث الجاحظ[4] كثيرا عن ولعه بجاريته "جوهر" الّتي عدّها أولى منه بالخلافة قائلا: فلا والله ما المهدي أولى منك بالمنبر فإن شئت ففي كفك خلع ابن أبي جعفر، وعلاقته مع جاريته أم ولده «الخيزران» تبيّن حجم الضعف الّذي كان عليه بعض الخلفاء العبّاسيين أمام النّساء وخاصة الجواري، فقد تدخلت بشؤون السياسة كثيرا، فهي الّتي

---

[1]- ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تح حسني حبشي، القاهرة، عالم الكتب، 1968م، ص89.جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص 132. ونشير أنّه في سنة 454هـ أهدى السلطان طغرلبك الخليفة القائم 30 غلاما وجارية، كما أهدى قاضي القضاة جعفر الثقفي للخليفة المستنجد عدّة أفراس وعشرة أحمال من التحف وأنياب الفيلة وخشب السباع والجواري والمماليك، فتهادي الجواري الروميات والتركيات والفارسيات أدى إلى تكاثرهنّ في قصور الخلفاء والأمراء، تكان الجمال والحب سلاحهنّ النافذ إلى قلوب الخلفاء، حتّى أصبحن محظيات الخلفاء، فكانت خاتون – ت536هـ– زوجة الخليفة المستظهر من محظياته، وكذلك كانت بنفشا بنت عبد الله الرومية مولاة الخليفة المستضيء بأمر الله كانت من خواصه وسراريه لها المكانة الرفيعة عنده والمنزلة العالية والحكم النافذ، وقد بنى لها المستضيء بأمر الله دارا مجاورة لباب الغربة على شاطىء دجلة تسمّى الدار القطبية كانت من أجمل الدور تشتمل على مقاصير وحجرات ومنتزهات ، وأيضا كانت شرف خاتون التركية زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله أعتقها فكانت أم ولده الأمير أبي منصور هاشم، وكان للخليفة الناصر حضية اسمها شجر الدر التركية وتعرف بست نسيم كانت لها مقربة من الناصر، وكانت تقرأ له المطالعات الواردة عليه لمّا ضعف بصره ، ويملي عليها الأجوبة حيث كانت تكتب خطا جيّدا توفيت سنة 634هـ.التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، دار صادر، بيروت، 1412هـ/1992م، ص120. ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق، ص80-89. ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص15. ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص57.

[2]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص216.

[3]- القيّان: جمع مفردها القيّنة وهي الأمة مغنية كانت أو غير مغنية. زين الدين الرازي، مختار الصحاح، تح يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، 1420هـ/1999م، ص 294.

[4]- البيان والتبيين، ج3، ص 370-371.

دفعت الخليفة محمد المهدي على مبايعة ولديها موسى الهادي وهارون الرشيد للخلافة مع أنّ ابنه الأكبر كان عبد الله من ابنة عمه رابعة بنت أبي العبّاس، كما كانت تعيّن وتعزل الولاة والقادة، وما على الخليفة سوى الموافقة على أمرها فكانت «المواكب تغدو وتروح إلى مجلسها»[1].

إنّ رغبة الجواري في السيطرة على الحكم من خلال أبنائهنّ هو الّذي دفعهنّ إلى خوض هذا الصراع من أجل تنصيب أبنائهنّ ولاة للعهد وهذا ما حدث للخيزران حين أرادت الخلافة لولديها[2].

كما سعت قبيحة – ت264هـ– جارية الخليفة المتوكّل على الله إلى جعل ولاية العهد لابنها المعتز بالله وهو صبي، كما تسبّبت في قتل الخليفة المعزول المستعين بالله خوفا على حياة ابنها[3].

ويتميّز العصر العبّاسي الثاني بظهور نفوذ القهرمانات[4]، فقد بلغ من عظم نفوذ السيّدة شغب– ت321هـ/933م– والدة الخليفة المقتدر بالله أنّها جعلت قهرمانتها رقيبة على الوزراء والكتّاب، وجعلت لها سلطة عليهم[5].

وقد عاشت جواري قصور الخلفاء في نعيم ورفاهية، فقد كنّ أحسن حالا من سواهنّ، إذ كنّ مرفهات يلبسن الملابس الجميلة بما فيها من سراويل موشاة ذات تكك[6] من الابريسم[7]، وكانت الجارية الّتي تعيش في هذه القصور تستطيع أن تتقدم على قريناتها لموهبة ما

---

[1]– المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 346. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 570.

[2]– الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج5، ص369.

[3]– ناهضة مطر حسن، سلطة الجواري، ص115.

[4]– القهرمانة: مصطلح فارسي وهي مدبرة البييت ومتولية شؤونه، وهي المسيطرة على من تحت يدها. ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص180. أديب اللجمي وآخرون، المحيط ، القاهرة، 1993، ص55.

[5]– مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي، ص15.

[6]– التكك: كلمة آرامية معرّبة وأصلها في الآرامية تكتا، وهي جمع مفردها تكة ومعناها رباط أو شد، وكل ما تربط به السراويل، وهي مشد مطرز النهايتين بالحرير الملون في أغلب الأحيان يستعملها الرجال والنساء على حد سواء لربط التبان حول مدار السرة. رينهارت دوزي، المعجم المفصل، ص82.

[7]– الابريسم: لفظ فارسي معرب، ويعني الثياب المتخذة من الحرير الخام، وكانت ثياب الحرير تنتجها دور الطراز في بغداد وتصدر إلى الخارج. ابن سيدة، المخصص، تح خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1417هـ/1996م، ج4، ص659. أذي شير، الألفاظ الفارسية المعربة، دار العرب للبستاني، القاهرة، 1988، ص6.

تمتلكها فتفوز بمحبة الخليفة أو إعجابه بها، ونجح بعضهن في أن يصبحن أمهات أولاد وينلن نفوذا سياسيا كبيرا، كما أصبح بعضهن خادمات لدى زوجات الخلفاء،كما حظيت الجواري بمكانة متميّزة عند الأمراء والأثرياء ويذكر أبو شجاع[1] ولع عضد الدولة البويهي بإحدى جواريه إلى حد أنّه حين خاف على نفسه وملكه من انشغاله بها أمر بتغريقها وهو حزين عليها.

وكانت جواري الخليفة يحتجبن ويغطين رؤوسهنّ ولا يستطيع أحد من العامة الاختلاط بهنّ، وكذلك لم يكن يسمح لهنّ بالخروج خارج دور الخلافة إلّا إذا كانت إحداهن قهرمانة وهي منزلة أرفع شأنا من بقية الجواري إذ أنّها تستطيع أن تقترب من الخليفة نفسه أو تكون مقربة من زوجته[2].

وأمّا أصناف الجواري فتعددت،ولتعوّد النّاس على اقتنائهن دعا النخّاسون إلى استجلابهنّ من أقاصي البلاد،وقد اختلفوا في سماتهم باختلاف بلدانهم صغارا وكبارا فمنهنّ الهنديات والسنديات والمدنيات والطائفيات والبربريات واليمانيات والزرنجيات[3] والحبشيات والمكيات والزغاويات[4] والبجاويات[5] والنّوبيات والديلميات واللانيات[6] والروميات والأرمينيات والعراقيات[7].

---

[1]- ديل كتاب تجارب الأمم، ص42.

[2]- ابن الجوزي، ذم الهوى، تح مصطفى عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1381هـ/1962م، ص343

[3]- الزرنجيات: نسبة إلى زرنج عاصمة اقليم سجستان الواقع شرق إيران الحالية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص138.

[4]- الزغاويات: وتنسب إلى زغاوة وقد اختلف في أصلها فبعضهم يقول مدينة في جنوب تونس والبعض يقول أنها قبيلة من السودان جنوبي المغرب وأن الزغاوة جنس من السودان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص142.

[5]- الباجاويات: وتنسب إلى بجة المدينة الواقعة بين فارس وأصبهان، وقيل بين الحبشة والنوبة أي ضمن السودان الحالية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص314.

[6]- اللانيات: نسبة إلى اللان وهي بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخزر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص8.

[7]- ابن بطلان، رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، ضمن نوادر المخطوطات، تح عبد السلام محمد هارون، مطبعة الدار المصرية، القاهرة، 1954، ص374. مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي، ص15. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص135.

ونتيجة لكثرة الجواري في البيوت العراقية انتشرت العديد من العادات الجديدة والمختلفة منها حب الأزهار والاعتناء بها ونقش الأشعار الرقيقة، وعبارات الحب والعشق على الأردية والأكمام والعصائب والمناديل والوسائد حتّى أصبح هناك جماعة من المتأنقين راعوا التأنق في الزيّ والطعام والشراب والسلوك أيضا[1].

ب-**الغلمان:** الغلمان مفرد غلام، وهم الّذين يشكّلون طبقة الجند من العسكر، وهم غالبا من أصول تركية، ويراد بهنّ الجواري من الفتيات الصغار اللّاتي لم تتجاوز أعمارهن العشرين سنة، يحلقن رؤوسهن كالصبيان، ويرتدين ملابس الغلمان[2].

ويرجع سبب استخدام الغلمان في البلاط العبّاسي إلى شيوع ظاهرة الحجاب، لأنّه كان من غير الممكن جلب الغلام الصبي للعيش داخل البيوت مع الحريم، وإنّ هناك أميرات عبّاسيات تشبّهن بالغلمان، أمثال الأميرة بانوقة[3] ابنة الخليفة المهدي، وكانت تخرج مع والدها في الفتوحات والرحلات، ولاسيّما إلى البصرة، وهي بزي الغلمان[4].

وقد اهتم الخلفاء العبّاسيون بالأرقّاء الغلمان، فكانوا يلبسونهم الثياب الغالية الزاهية، وكان هؤلاء الغلمان يتجمّلون ويتعطّرون، وامتلأ قصر هارون الرشيد بعدد كبير من هؤلاء الغلمان، كما أغرم بعض الرجال بالغلمان فوصفوهم وقدموهم على الجواري، وقد لاحظ المحتسب في القرن الثالث الهجري ولع بعض النّاس بالغلمان ونصح بعدم معاشرتهم[5].

وأصبح النّاس في العصر العبّاسي يتهادون بالغلمان، مثل والدة جعفر البرمكي، فقد أهدت لابنها جعفر مائتين من الغلمان، كما أنّ السيّدة زبيدة زوجة الرشيد أهدت لابنها الأمين ثلاثمائة من الغلمان المكللين بالجواهر النفيسة الغالية[6].

---

[1]- الوشاء، الموشي أو الظرف والظرفاء، تح كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1372هـ/1953م، ص226-230. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص136. وللمزيد من المعلومات حول موضوع الجواري ودورهن في الدولة العباسية. سولاف فيض الله حسن، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية، دار ومكتبة عدنان، بغداد، 2013.

[2]- مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي، ص21 .

[3]- بانوقة: هي تسمية فارسية تعني الأميرة الصغيرة الجميلة. أحمد رضا، معجم متن اللغة، مطبعة دار الحياة، بيروت، 1960، م4، ص 668 .

[4]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص236.

[5]- البيهقي، المحاسن والمساوئ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1991م، ص244-246.

[6]- النويري، نهاية الأرب، ج4، ص207. الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح أبو هاجر محمد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ، بيروت، (د ت)، ج2، ص81. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص275.

واشتهر غلمان السند بالعمل عند الصيادلة وعمل الكثير من الغلمان فراشين، واستخدم الغلمان الزنج مع الرقّاصين والزمّارين والملهين، واستخدم غلمان الروم وخصيانهم في رعي الإبل، وتعهد فرش الدور وأثاثها، وأمّا الغلمان الأحداث فعملوا في خدمة دور اللّهو وتقديم الزهور للّاهين، واشتهر السود بشجاعتهم، فاتّخذوا مرافقين وشاكرية وجنودا، واعتبر الترك والصقالبة رجال الحرب والنّجدة[1]، واستخدم البحتري غلامه الرومي نسيما بابا من أبواب الرزق فكان يبيعه للأغنيّاء ثمّ يمدحهم فيهبونه له[2].

ت-**الخصيان:** وهم الصنف الثالث من أصناف الخدم، وكانوا يفضلون في الخدمة على الغلمان، والخصاء عادة شرقية قديمة، فقد كانوا يستخدمون الخصيان في دور النّساء وذلك حرصا على ربّات الخدور المحجّبات فهم أوثق في حراسة البيوت، وقد كانت أثمانهم باهضة وهم عدة أجناس شأنهم في ذلك شأن الرقيق والجواري من الروم والأحباش والصقالبة، وقد بالغ الخلفاء العبّاسيون في اقتناء الخصيان والمغالاة فيهم، وكان خصيان خراسان قليلي العدد، واعتبر الروم أفضل الأنواع[3].

وقد اشتهر الخصيان بلفظة «الخادم» وكان غالبيّة الخصيان في هذه الفترة من المماليك الّذين اختصوا بخدمة الخلفاء، وكان الغلمان والخصيان يباعون في سوق الرقيق، ويعرض الغلام بعشرة دنانير ويزيد ثمنه حسب حسن وجهه وجودة قدّه[4].

وللخصاء أغراض، أبرزها استخدام الخصيان في دور النّساء غيرة عليهنّ، ويذكر الجاحظ[5] أنّ الخص كان منتشرا بين العبيد والأمراء، وبين العرب والعجم، كما يذكر أيضا أنّ الصابئة بالعراق كانوا قبل الفتح يخصون أبناءهم ويوقفونهم على بيوت العبادة.

---

[1]- الجاحظ ، الحيوان، عناية عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1947، ج3، ص435. الشابشتي، الديارات، ص90-91.

[2]- الأصفهاني، الأغاني، ج21، ص45.

[3]- إبراهيم بن محمد البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص245. التنوخي، نشوار المحاضرة، ج1، ص180-190. ابن الجوزي، ذم الهوى، ص568. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص138. ونشير هنا أنّه عندما دخل هولاكو بغداد كان في قصر الخليفة المستعصم ثلاثمائة خصي .

[4]- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص475-479. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص137.

[5]- الجاحظ، الحيوان، ج3، ص53-56.

وقد عمل الغلمان والخصيان في خدمة البيوت، فمنهم السقّائين الّذين ينقلون المياه إلى دور أسيادهم، واستخدم السندية منهم في الطبخ حيث كانوا مفضّلين في ذلك عن غيرهم، وكان بعض الغلمان يرافق سيّده ويقود دابته ويفسح له الطريق وبعضهم يرافق سيّده إلى الأسواق للتّبضع، وكان لأبي العيناء خصيان يقودانه في الطريق، وكان بعض العميان يتخذ محفة يحيط بها خدمه وغلمانه وهم من عرفوا بعميان المواكب[1].

كما عمل الخصيان في صغار الصناعات كالخدمة والحجامة، وكان بعضهم يحسن صنعة الدبوق، ويجيد دعاء الحمام الطوري(الوحشي)، ولم ير أحدهم قط نفذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقّة، وتضاف إلى شيء من الحكمة، وعمل بعض السود في ورشة بناء، وعمل جماعة من الغلمان في صناعة الإبر، وعمل بعضهم في الخياطة[2].

وقد خضع الرقيق في علاقاتهم الاجتماعية لسلسلة من الإجراءات القانونية حدّدت موقعهم الاجتماعي وواجباتهم وحقوقهم ممّا يحمل على الاعتقاد بقيام نظام الرق الّذي يتمتّع بكل المواصفات القانونية والّذي كان من أهدافه الحد من حريّة الرقيق وحصر تصرفاتهم ضمن الحدود الّتي يسمح بها أسيادهم[3].

وإنّه بالرغم من أنّ الكثير من أصحاب الرقيق كان يوصي بتحرير رقيقه بعد وفاته، غير أنّ القاعدة كانت أن ينتقل الرقيق إلى ملكية الوارث، وفي وجوب ملكية الرقيق لم تكن البيّنة متوجّبة، كما لم يكن مقبولا أن يطالب بها أحد لأنّه لم يكن يوجد أي سند في يد من ابتاع عبدا أو أمة، ولهذا كان العبد الّذي يفر من سيّده يعتبر آبقا، وفي القرن الثالث الهجري كان «الناشد» يقوم برد العبيد الضّالين مقابل أجر يتقاضاه من السيّد[4].

ويمكن أن نستنتج الوضع القانوني للعبد في القصة التي ذكرها لنا التنوخي[5] عن قاض كان ينظر في دعوى رجل تاجر ضد عبد مكاتب[6] يطالبه بدين قيمته عشرين دينارا، حيث

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص144.

[2]- نفسه، ص144.

[3]- المرجع نفسه ، ص145.

[4]- المرجع نفسه، ص 146.

[5]- الفرج بعد الشدة، ج3، ص 74-76.

[6]- العبد المكاتب: هو الرقيق الّذي يتفق مع سيّده على أن يؤدي إليه مبلغا معيّنا ويكتبان بذلك كتابا، فإذا أدّاه صار حرا. التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج3، ص74.

من الحادثة يتضح أنّه يمكن أن يأذن السيّد لعبده في التصرف والتّجارة مقابل دفع العبد ضريبة معينة لسيّده، وأن لا يتحمل العبد الخسارة الّتي تنتج عن الإذن له بالتّصرف، ويحق للعبد الزواج من الحرة ويكون أولاده أحرارا كما لا يحق للعبد أن يرث أخاه العبد لأنّه بمنزلة الميّت لعبوديته، والسيّد يرث ما خلّفه عبده إن لم يكن له وارث حر، ويحق للولدين الحرين أن يرثا عمهما العبد في مذهب عبد الله بن مسعود، وهما في ذلك يتمتّعان بكامل حقوق الورثة ويحق للأب العبد المطالبة عن أولاده الأحرار بالتّركة.

رابعا- دورة المرأة في المجتمع العبّاسي:

لعبت المرأة في المجتمع العبّاسي دورا لا بأس به، وبرزت بعض النّساء في مجالات شتّى سياسية واجتماعية وثقافية ودينية، وتدل الكثير من الشواهد على أنّ المرأة في الدولة العبّاسية كانت تتميز بقدر من حرية الحركة، والمشاركة في الحياة العامة، كما تحفظ لنا كتب التاريخ نماذج عدّة لتدخل النّساء في شؤون الدولة وما كان يقمن به من دور في تسيير دفّة الحكم والسياسة، كما تقلّد بعضهنّ المناصب الرئيسية في الدولة كمنصب صاحبة المظالم[1].

وقد برزت عدة نساء في الدولة العباسية قمن بدور اجتماعي بارز طوال العصر العبّاسي، وأولى هؤلاء النّسوة زوجة المنصور وأم المهدي أروى بنت عبد الله بن ذي سهم بن أبي سرح، وينتهي نسبها إلى ذي رعين من ملوك الدولة الحميرية اليمنية[2].

ومنهنّ ريطة بنت أبي العبّاس زوج الخليفة المهدي الّتي اشتهرت بحب الرياضة العنيفة وكانت تشارك أخاها محمد بن أبي العبّاس في هذه الهواية، فكان محمد إذا لوى العمود الحديدي رمى به إلى أخته ريطة، فتعيده إلى شكله الأول بذراعيها[3].

ومن أشهر النّساء أيضا الخيزران بنت عطاء الجرشية نسبة إلى جرش وهي من أصقاع اليمن، وقد اختلف الروّاة في كيفية وصول الخيزران إلى الخليفة المهدي، فقال بعضهم أنّ المهدي رآها في سوق الجواري فأعجب بها فاشتراها، وقيل أنّها كانت مملوكة

---

[1]- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص253-254

[2]- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص319

[3]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص350. رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص340

لرجل من بني ثقيف في الحجاز، وعرضها للبيع في مكة، وكان أبو جعفر المنصور حاضرا فاستحسنها، وسألها عن أهلها فادّعت بأنها وحيدة لا أهل لها فاشتراها وأهداها لابنه[1].

ولدت الخيزران لمحمد المهدي قبل أن يتولى ولاية العهد بعام واحد موسى الهادي، وأصبح للخيزران عند المهدي شأن عظيم لمّا أنجبت له ابنه البكر، فأعتقها وتزوّجها وساوى بينها وبين زوجته الأولى ريطة بنت أبي العبّاس، واستطاعت الخيزران أن تكسب محبة الحاشية والبلاط وتوثّقت صلاتها بكثير من الأسر[2]، وقد كانت بها رغبة جامحة في جمع المال، والتظاهر بالثراء ووجدت في أخلاق المهدي ما وافق طبيعتها وشجّعها على التمادي فكانت تأمر وتنهي وتشفع وتبرم وتنقض، وأصبحت في أواخر أيّامها أغنى نساء عصرها لكثرة ما ملكت من القرى والإقطاعيات والجواهر، وكان دافعها إلى حب الثراء والبذل هو شعورها بالنقص في مكانتها الاجتماعية بين الهاشميات والحرائر من نساء الأمراء ورجال الدولة الأخرى، بحكم نشأتها كجارية فكانت تحاول تغطية هذا النقص بالتفوق المادي ثمّ بالسخاء والإغداق على من حولها[3].

وأدرك الكثيرون منزلة الخيزران عند زوجها المهدي، فكانوا يقصدونها لتتوسط لهم لدى المهدي لقضاء حوائجهم، وكان المهدي يستجيب لطلبها لمنزلتها عنده، وأصبح قصرها قبلة الأنظار، ومقصد النّاس[4].

ولمّا توفي المهدي وتولى ابنها الهادي، أرادت الخيزران أن تحتفظ بما وصلت إليه من مكانة ونفوذ، ولكن الهادي كان غيورا على نسائه، فنهاها وزجرها في قسوة، ممّا لم تشهده في عهد المهدي، وحدث صدام بينهما، وقد روي أنّها سألت ابنها الهادي يوما قضاء حاجة لرجل، ورأى الهادي أنّه من العسير تحقيق طلبها، فألحّت في الطلب وأبدت غضبها، ممّا أثار الهادي فصاح في أمّه: «لئن بلغني أنّه وفد ببابك أحد من قوادي أو من خاصتي أو خدمي لأضربنّ عنقه، ولأقبضنّ ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب الّتي تغدوا

---

[1]- عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص55 .

[2]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج4، ص282.

[3]- الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص136.عبد الله بن عفيف الباجوري، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مكتبة الثقافة، المملكة العربية السعودية، 1350هـ/1932م، ج3، ص76. رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص341.

[4]- رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص342.

وتروح إلى بابك كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك، إيّاك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي»[1].

ثمّ قال الهادي لأصحابه: «أيّما خير أنا وأمي أم أنتم وأمهاتكم؟ قالوا: بل أنت وأمك، قال فأيّكم يحب أن يتحدث الرجال بحب أمّه، فيقال فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان؟ قالوا لا نحب ذلك، قال فما بالكم تأتون أمي فتتحدثوا بحديثها؟ فلمّا سمعوا ذلك انقطعوا عنها»[2].

وروى الطبري[3] أنّ الهادي حاول قتل أمّه بالسم فبعث لها بصحن فيه طعام، ولكن إحدى جواريها حذّرتها من وجود سم في الطعام، فأطعموا كلبا منه فمات في الحال، ممّا أدّى إلى غضب الخيزران وتدبيرها مقتل ابنها الهادي.

وقامت الخيزران كذلك بدور كبير في الصراع الّذي كان قائما بين العرب والفرس في خلافة ابنها الرشيد، فقد كان الرشيد يميل كثيرا إلى تولية الفضل بن الربيع وهو عربي بعض أمور الدولة وكانت السيّدة زبيدة زوجة الرشيد تؤيّده في ذلك، بينما كانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك، فلمّا ماتت الخيزران ولّى الرشيد الفضل ديوان الخاتم وغيره من شئون الدولة، ممّا كان في يد جعفر ويذكر عن الرشيد أنّه لمّا عاد من دفنها، دعا الفضل بن الربيع، وقال له: « وحقّ المهدي إنّي لأهم لك بشيء من التولية وغيرها فتمنعني أمي فأطيع أمرها»[4].

توفيّت الخيزران على أثر مرض قصير، وتألّم الرشيد كثيرا لوفاة أمه، وخرج مع كبار شخصيات الدولة يشيّعها إلى مثواها الأخير، وقد اشتدّ به الألم والجزع، فقد أخذ بقوائم النّعش، وسار حافيا حتّى إذا وصل الموكب إلى مقابر قريش أتوا له بماء فغسل الرشيد رجليه وتوضأ وصلّى في النّاس عليها[5].

كما برزت البانوقة- ت 165هـ- ابنة الخليفة المهدي والتي كانت تسير في موكبه لما زار البصرة في هيئة الفتيان عليها قباء أسود ومنطقة وشاشية متقلّدة السيف[6].

---

[1]- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص329.

[2]- ابن الطقطقى، الفخري، ص191.

[3]- تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص206.

[4]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص338. رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص349.

[5]- الصابئ، الوزراء، ص59. رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص349.

[6]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص186

وكانت النّساء في عهد الرشيد يمتطين الجياد ويقدن الجنود إلى ميدان القتال، وقد بلغت المرأة في العصر العبّاسي أيضا مبلغا عظيما من الثقافة، وكانت تنظم الشعر وتناظر الرجل في شتّى نواحي الفكر والثقافة[1].

ومن أبرز سيّدات بغداد في العصر العبّاسي الأول أيضا زبيدة وهي زوجة الخليفة هارون الرشيد، وكانت تعتز بعروبتها وانتسابها إلى البيت الهاشمي، وقد أصبحت سيّدة القصر بعد وفاة الخيزران وكانت شاعرة متقّفة تكرم القرّاء والمغنين، كما كانت تكرم الأطبّاء فقد عيّنت راتبا شهريا قدره خمسين ألف درهم للطبيب جبرائيل بن بختيشيوع[2].

وحين حجّت إلى بيت الله الحرام سنة 186هـ وأدركت ما يعانيه أهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب دعت خازن أموالها، وأمرته بأن يدعوا المهندسين والعمّال من أنحاء البلاد وقالت له اعمل ولو كلّفتك ضربة الفأس دينارا، ووفد على مكة أكفأ المهندسين والعمّال ووصلوا بين منابع الماء في الجبال، واعتمدوا على عين حنين فأرسلوا منها الماء تحت الصخور حتّى تغلغل من الحل إلى الحرم، وبذلك وصل الماء إلى مكة، قبلة المسلمين الّتي يجتمع فيها حجّاج بيت الله ولا يزال هذا الماء يجري إلى مكة حتّى اليوم [3].

وقد بلغت المرأة مبلغا عظيما من الثقافة حتّى كانت تنظم الشعر وتناظر الرجل في عهد الرشيد والمأمون، وكانت السيّدة زبيدة شاعرة متقّفة، وكثيرا ما كانت تبعث برسائلها الفيّاضة أبياتا شعرية إلى زوجها الرشيد، وإنّ القصيدة الّتي بعثت بها إلى الخليفة المأمون على أثر مقتل ابنها الأمين لتدل دلالة واضحة على إجادتها وتمكّنها في الشعر والأدب والسياسة[4].

وكذلك ساهمت المرأة في هذا العصر في الحروب، فاشتركت فيها أم عيسى ولبابة بنتا علي بن عبد الله بن عبّاس عم الخليفة المنصور، وكنّ في عهد الرشيد يمتطين الجياد ويقدن الجند إلى ميدان القتال، ولمّا سبى الروم نساء المسلمين ومثّلوا بهنّ في عهد المعتصم

---

[1]- رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص340

[2]- نفسه، ص350.

[3]- رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية ، ص351.

[4]- المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص316 .

صاحت امرأة هاشمية وقعت أسيرة في أيديهم «وامعتصماه» فلبّى الخليفة نداءها وثارت ثائرته، وقاد جيشه وانتصر على الروم في وقعة عمورية المشهورة سنة 223هـ[1].

وظلت المرأة في العصر العبّاسي الثاني كما كانت في العصر العبّاسي الأول، تتمتع بقسط وافر من الحريّة، فقد تدخلت بعض النّساء في شؤون الدولة كالسيّدة أم المقتدر وقهرمانتها ثومال، وأم موسى، وقد قامت قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز -252-255هـ- بدور هام في عزل الخليفة المستعين ليصفو الجو لابنها المعتز، واشتهرت قبيحة بالثراء، حتّى ذكر ابن الأثير[2] أنّهم وجدوا عندها مليونا وثمانمائة ألف دينار، ومع ذلك عرضت ابنها لعنـــة الأتراك الّذين تأخّرت رواتبهم المستحقّة لهم وقدرها خمسون ألف دينار فقط، ولم يلبث أن ذهب ضحيّة هذا البخل.

واستأثرت السيّدة أم الخليفة المقتدر بنفوذ كبير في الدولة العبّاسية، والدليل على عظم نفوذها وتدخلها في شؤون الدولة وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة من ذلك الكتاب الّذي بعث به إليها الوزير علي بن عيسى يتنصل فيه من التبعات الّتي ألقتها عليه في إدارة شؤون الدولة المالية[3].

وليس هذا كل ما كانت تتمتع به السيّدة أم المقتدر من نفوذ، فقد اتّسعت سلطتها، وبلغ من عظم نفوذها أنّها جعلت قهرمانتها رقيبة على الوزراء والكتّاب، وجعلت لها سلطة عليهم، وتذكر الروايات أنّها إذا غضبت هي أو قهرمانتها أم موسى على وزير أعفي من منصبه، وهذا ما حدث لعلي بن عيسى إذ أمرت بالقبض عليه بسبب سوء استقبال حاجبه لقهرمانتها، وليس هذا كل ما كان للسيّدة من نفوذ، بل إنّ سلطتها تجاوزت حدود ذلك، فعيّنت قهرمانتها ثمل - ت317هـ- رئيسة للمظالم فكانت تنظر في رقاع النّاس كل جمعة، ويحضر القضاة والأعيان، وتبرز التواقيع وعليها خطها، كما جعلت زيدان القهرمانة مسؤولة عن السجن[4].

وقد أدى تدخل السيّدة في شؤون الدولة إلى ضعف الخلافة العبّاسية، كما أنّ إلقاء القبض على الوزير علي بن عيسى بسبب اعتذاره عن إجابة قهرمانتها أم موسى إلى ما

---

[1]- سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ص190.

[2]- الكامل في التاريخ، ج7، ص70.

[3]- مسكويه، تجارب الأمم، ج1، ص247 .

[4]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص807.

طلبت قد حرم الخلافة الاستفادة بمواهبه الممتازة وسياسته الرشيدة، كما كان من أثر تعيين ثومال قهرمانة السيّدة صاحبة المظالم أن استهتر العامة بالخلافة ونظروا إلى حكّامها نظرة الاحتقار والازدراء[1].

هذا فيما يخص نساء الطبقة الخاصة، أمّا بقية النساء في المجتمع العباسي فقد تمتعن بحرية في الحياة العامة، وكنّ يبرزن للناس أو يختلفن إلى الأسواق، فقد كان للمرأة مكانتها ومنزلتها الاجتماعية وكان لها دور في حياة المجتمع، كما أنهّا شاركت في الوظائف والمهن التجارية وزاولت الحرف والصناعات خاصة الحرف التقليدية والّتي تتصل مباشرة باحتياجات المجتمع النسائي خاصة[2].

ومن أمثلة هذه الأنشطة بيع الطيب وأدوات الزينة، كما اشتغلت بعض النسوة في إدارة البيوت وتدبيرها، إلى جانب اتخاذ بعض الأسر حاضنة أو مربية تقوم على رعاية الأبناء، وما ميّز هؤلاء الحاضنات أنهن كنّ من أصول غير عربية، كما شاعت بين نساء العامة حرفة الحياكة والغزل[3].

وفي العصر البويهي إذا نظرنا إلى ألقاب بعض النسوة نستنتج نظرة الاحترام والتقدير لهن من قبل كبار رجال الدولة، ومن أمثلة ذلك «الحرة» و«أم ولاة عهد المسلمين» و«الدار العزيزة» و«شاة الزمان»، وقد تعلمت النسوة في هذه الفترة على أيدي كبار العلماء كطاهرة بنت أحمد التنوخية الّتي توفيت سنة 436هـ ومنهنّ من أصبحت عالمة مثقفة في الدين مثل ستيتة ابنة القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي الّذي توفي في 377هـ والّتي كانت تفتي مع العلماء، وكانت من أعلم النّساء في وقتها بمذهب الإمام الشافعي، فكانت تقرأ القراءات والفرائض والنّحو وغير ذلك من العلوم، كما اشتهرت بالزهد وكثرة العبادة والصدقة، وكانت تقوم بالإفتاء فكانت حجّة فيه[4].

---

[1]- نفسه، ص800.

[2]- إبراهيم مرزة محمد علمي، مدينة بغداد الأبعاد الاجتماعية وظروف النشأة دراسة بنائية تاريخية، العارف للمطبوعات للنشر، بغداد، 2008، ص 262.

[3]- إبراهيم مرزة محمد علمي، مدينة بغداد ، ص263.

[4]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج14، ص442-445. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص67.

كما أشاد الكثير من العلماء بذكر أمة السلام ابنة القاضي أبي بكر محمد بن أحمد – ت390هـ– وتكنّى بأم الفتح، حيث اعترفوا بعلمها وأثنوا عليها، ووصفوها بالمتديّنة والعاقلة والفاضلة، وخديجة بنت موسى بن عبد الله الواعظة، وكريمة بنت أحمد الماوردي الّتي وصفت بسعة العلم في الحديث، كما كان منهنّ من اشتهرت برجاحة العقل فقلن الحكم والأقوال المأثورة مثل ميمونة بنت ساقولة الواعظة البغدادية الّتي توفّيت سنة 393هـ[1].

وقد كانت المرأة لا تخرج كاشفة الوجه أو حاسرة الرأس في الأسواق والطرقات، فكان عليها أن تغطي وجهها، وتتخذ التحفّظ والحشمة، والابتعاد عن الرجال عند حضورها مجالس الوعظ أو في الأسواق، غير أنّ هذا لم يمنع من اختلاط المرأة بالرجل في الأسواق، وعلى شواطئ الأنهار وفي زيارة القبور[2].

وكان المحتسب يقوم بمهمة مراقبة النّساء في الأسواق والمحال، وأثناء سيرهنّ في الشوارع ليلتزمن بالآداب العامة حفاظا عليهنّ، فكان يقوم بتفتيش الدور فإن وجد نبيذا أراقه، وإن عثر على مغنية ضربها وكسر آلة غنائها[3].

وفي خلاصة هذا الفصل يتضح أنّ المجتمع العبّاسي عرف حالة التمايز والتفاوت الطبقي الاجتماعي، وكان ذلك التمايز واضحا بين الطبقة الخاصة الواسعة وما يحيط بها من فئات اجتماعية مختلفة الأدوار، والطبقة الوسطى بفئاتها، وبين الطبقة الفقيرة بفئاتها المتنوعة أيضا، وقد كان هناك تمايز بين تلك الفئات المكونة للطبقة الواحدة.

وأنّ المجتمع العباسي ظل محافظا على السمات الاجتماعية للمجتمع الإسلامي المنفتح أمام سائر أفراده على اختلاف مراكزهم الاجتماعية إذ لم يكن به حواجز طبقية اجتماعية، فالفرد العبّاسي يستطيع أن يرتقي السلم الاجتماعي حتّى يصبح من مجتمع الخاصة كالوزراء والأمراء وكبار موظفي الدولة الّذين تدرجوا في المراتب الإدارية وأصبحوا من الخاصة.

---

[1]– ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص209. حوريه عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص67.

[2]– الماوردي، الأحكام السلطانية، ص222. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج12، ص76. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص68.

[3]– ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص229–230.

الفصل الثالث

مظاهر الحياة الاجتماعية في العراق في العهد العباسي

أولا- المجالس الاجتماعية

ثانيا- الزواج والطلاق

ثالثا- القصور والدور

رابعا- الاحتفالات والأعياد ووسائل التسلية

خامسا- الألبسة والأزياء والأطعمة

تحتل دراسة الحياة الاجتماعية ومظاهرها لمجتمع معين في العصر الوسيط بصفة خاصة مكانة هامة في الدراسات التاريخية ذات الطابع الاجتماعي، وهي من القضايا الهامة التي يثيرها البحث في المجتمعات الإنسانية رغم أنّ المصادر التاريخية اهتمت في غالب الأحيان بدراسة الجانب السياسي للمجتمعات، ولم تول اهتماما كبيرا بدراسة الجوانب الاجتماعية، وعليه سنحاول معالجة أهم المظاهر الاجتماعية للمجتمع العباسي في فترة الدراسة في هذا الفصل.

أولا- المجالس الاجتماعية:

إنّ كلمة المجلس في اللغة والاصطلاح تفيد إلى معان عدّة منها الموضع الّذي يجلس فيه القوم، والجلسة بالكسر الحالة الّتي يكون عليها الجالس، وتفيد كلمة المجلس معنى النادي أيضا، فقيل الندي: المجلس، ومنتدى القوم مكان متحدّثهم، والأندية جمع ندي، ومن ثمّ فالنادي هو المجلس والنادي[1].

وكانت تطلق كلمة المجلس في عصر ما قبل الإسلام على مجلس القوم الّذي يعقدونه لمعرفة الأحداث وتبادل الأخبار وإنشاد الشعر والتعرف على الموروث الحضاري القديم لأمة العرب وغيرهم، والتباحث في الأمور العامة كنادي قريش وهي دار الندوة، ولكن ازدادت أهمية ودور المجالس بعد ظهور الإسلام ففيه عقدت الاجتماعات للتباحث في أمور الدين الجديد[2].

ثم ظهرت بعد ذلك مجالس أدبية وعلمية، وبهذا شكّلت المجالس ظاهرة مهمّة في حياة العرب والمسلمين هدفوا من خلالها عقد المناقشات للتوصل إلى أحكام معيّنة أو وضع الحلول والمعالجات للقضايا الّتي تطرح فيها، وأحيانا كان القصد منها المسامرة[3].

ومن أهم المجالس في المجتمع العباسي نذكر:

1- **مجالس العلم:** كانت مجالس العلم بالعراق وخاصة بغداد عامرة بعلوم الفقه والحديث واللغة والاجتماع، والعلوم الطبيعية، فقد كانت بغداد مقصدا لطلاب العلم والعلماء على

---

[1]- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص212.

[2]- خلود مسافر الجنابي، المجالس العلمية، ص14.

[3]- نفسه، ص15.

حد سواء، وبرز العشرات من كبار العلماء في الدراسات الدينية واللغوية والعلوم الطبيعية، وما تركه العلماء من تراث علمي كبير في هذا العصر لهو دليل على التطور العلمي الّذي بلغته بغداد فقد كانت المساجد والجوامع عامرة بحلقات العلم المنتشرة فيها، ولم تقتصر المجالس العلمية على بغداد فقط بل شملت كل مدن العراق[1].

وقد لازم العديد من العلماء التدريس والوعظ بالمساجد والجوامع الّتي كانت عامرة بحلقات العلم المنتشرة فيها، فقد كان جامع المنصور ببغداد مرتحلا لطلاب العلم تعقد به المجالس العلمية لكبار العلماء، كما كانت تعقد المجالس الأدبية في جامع المنصور عصر كل جمعة، كما كان جامع القصر مجمعا لآلاف العلماء وطلاب العلم[2].

ولم تكن هذه المجالس مقتصرة على الجوامع والمساجد وقصور الخلفاء والوزراء، بل كانت منازل العلماء أيضا من أماكن العلم الّتي تدور بها المناظرات العلمية في شتى فروع المعرفة، فقد كان هارون الرشيد يزور العلماء أمثال مالك بن أنس وسفيان بن عيينة – ت198هـ– في بيوتهم، ويحضر حلق العلم، ويتعلم على أيدي هؤلاء العلماء أسوة مع غيره من طلاب العلم من عامة المسلمين، وسأل الرشيد الفضيل بن عياض أن يأتيه ليأخذ عنه العلم والنصح فرفــض إتــيانه، فما كان من الخليفة إلّا أن أتاه في داره[3].

كما كان يأتي ابن السماك– ت183هـ– في مجلسه، وقد أثنى عليه ابن السماك في ذلك حيث قال: «تواضعك في شرفك أشرف من شرفك»، وقصد المتوكل الإمام أحمد بن حنبل للاستئناس بآرائه، وإن كان الإمام أحمد رفض مقابلته، كما كانت حوانيت الوراقين وباعة الكتب عامرة بمجالس العلماء والأدباء ومحبي العلم حيث وصفها ابن الجوزي[4]: «إنّها مجالس للعلماء والشعراء».

1– جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص335.

2– ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص276–277.

3– ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج2، ص211. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين، العلماء والسلطة، ص163.

4– مناقب بغداد، ص26.

وفي العهد البويهي قرّب الأمراء البويهيون العلماء والفلاسفة إليهم وأحاطوهم بعنايتهم وتشجيعهم، ومن بينهم «إخوان الصفا»[1]، وهم من أشهر فلاسفة عصرهم، وكانوا من الشيعة المتطرفين وحاولوا الربط بين العلم والدين، وقد تأثّروا بالثقافة اليونانية وحاولوا التوفيق بينها وبين الشريعة الإسلامية[2].

ومن أشهر المجالس العلمية في العهد البويهي نذكر مجلس أبي سليمان المنطقي- ت حوالي 380هـ- حيث كان من أوسع علماء بغداد نظرا وأعمقهم فكرا، فقد كان النّاس يترددون إلى مجالسه ينهلون منه العلم والأدب، وفي المجالس الّتي كانت تعقد لدى الأمراء كان العلماء يمنحون المنح من نقود وملبوس ومركوب[3].

2- **مجالس الوعظ والوعاظ:** وكانت من أهم الظواهر الاجتماعية الّتي ميّزت المجتمع العبّاسي، فانفرد الكثير من العلماء لها، وكانت هذه المجالس خاصة وعامة، ونتيجة لما كان يتميّز به هذا العصر من حرية في التدريس والوعظ، تصدى لذلك من لم يكونوا أهلا للوعظ[4].

ولم تكن هذه المجالس تعقد في المساجد فقط، بل كانت تعقد في الأسواق والطرقات كذلك، وبعضهم اتخذ له منبرا يجلس عليه وقد ألبسه الثياب الملونة وعلق على الحائط

1- ظهرت جماعة إخوان الصفا في نهاية القرن الثالث الهجري في مدينة البصرة، وأقاموا لدعوتهم فروعا في مدن العراق، وعملوا على وضع دائرة معارف تجمع بين مذاهب الشيعة والمعتزلة وبين نتاج الفلسفة، والتأليف بينهما في مذهب يناسب العامة، وقد قامت هذه الجماعة بكتابة إحدى وخمسين رسالة وكان شعارهم أن يكون الواحد منهم مخلصا حتّى الموت وفلسفته تبدأ بالنظر في الرياضيات ثمّ تنتقل إلى النظر في الطبيعيات والمنطق وتنتهي إلى معرفة الله على نمط الصوفية، وقد تأثّرت طوائف الإسماعيلية كالدرزية والنزاية بآرائهم وكان من أشهرهم أبو سليمان محمد بن نصر، وأبو الحسن علي بن هارون، وأبو أحمد المرجاني، وزيد بن رفاعة، وابن سيناء الطبيب المشهور. رسائل إخوان الصفا، ج2، ص119. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص170.

2- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص107.

3- نفسه، ص107.

4- خلود مسافر الجنابي، المجالس العلمية، ص140. أشار ابن الجوزي إلى ذلك بقوله: «خسئت هذه الصناعة فتعرض لها الجهّال فبعد عن الحضور وعندهم المميّزون من النّاس، وتعلق بهم العوام والنساء، فلم يتشاغلوا بالعلم وأقبلوا على القصص، وما يعجب الجهلة، وتنوعت البدع في هذا الفن». تلبيس إبليس، دار القلم للنشر، بيروت، (د ت)، ص120.

مصلّى ممّا يوجب في القلوب هيبة القائل أكثر، وقد فرق ابن الجوزي[1] بين المشتغلين بالوعظ وبين المذكرين الّذين يغلب على مجالسهم القصص الحديثي بقوله: «إنّ لهذا الفن ثلاثة أسماء: قصص وتذكير ووعظ»، وبهذا كان لبعض القصاص أثر سلبي على الحياة الاجتماعية، فقد نشر بعضهم الخرافات والمعتقدات البدعية في مجالس قصصهم الديني.

وفي أوقات الأزمات المذهبية وانتشار البدع عن طريق الوعظ، كانت دار الخلافة تمنع الوعاظ من الوعظ وتصدر «الاعتقاد» وهو المرسوم الّذي يصدره الخليفة موضحا فيه مجال القول بالنسبة للفقهاء والوعاظ ويوقع عليه القضاة بعد الخليفة ويوزع على الوعاظ[2].

ولم تقتصر مجالس الوعظ على الرجال فقط، بل كانت تحضرها النساء أيضا مع الرجال، أو في المجالس الخاصة بالنساء الواعظات، وكان المحتسب يشرف على مجالس الوعظ يتفقدها فلا يدع الرجال تختلط بالنساء، وكان يجعل ستارة تفصل بين الرجال والنساء، وإذا انفض المجلس يخرج الرجال ويذهبوا في طريق ثمّ تخرج النساء ويذهبن في طريق آخر، كما كان يقوم المحتسب بمراقبة الوعاظ فمتى عرف عن شخص أنه يسيء القول أو أنّه يشتط في أحكامه ممّا يؤدي إلى فتنة مذهبية، فإنّه يمنع من الجلوس للوعظ ويحضر إليه الفقهاء ليناقشوه في أقواله وعلى أساس أقواله يحكم عليه الخليفة، فقد لا يكتفي بمنعه من الوعظ بل بطرده من العراق[3].

3- **مجالس الشعراء**: وكانت هذه المجالس تمثل مهرجانا سنويا حافلا، يتوافد فيه الشعراء إلى أبواب الخلفاء من كل حدب وصوب، لأنّ الشعراء كانوا يدخلون على الخلفاء في كل عام مرة، وهذا يمثل اجتماعا موسميا عاما، إلّا أننا نجد عدا ذلك الاجتماع أنّ الشعراء

---

[1]- كتاب القصاص والمذكرين، تح محمد بن لطفي الصبّاغ، المكتب الإسلامي، بيروت، 1403هـ/1983م، ص157. وفي هذا نشير أنّ ابن الجوزي أنكر على بعضهم أنّه إذا صعد المنبر غطّى وجهه وارتعد حتّى يفرغ القرّاء من القراءة ومنهم من يتبخر بالزيت والكمون ليصفر وجهه ومنهم من يمسك معه بصلا حتى إذا ما شمّه سال دمعه ليظن النّاس أنّه خاشع فينال احترامهم،كما قد يقوم الواعظ بأفعال وحركات مستنكرة، كما أنكر على الوعاظ الغناء والتطريب حيث قال: «تأملت أشياء في مجلس الوعظ يعتقدها العوام وجهال العلماء قربة وهي منكرة، وذلك أنّ المقرئ يطرب ويخرج إلى الغناء والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجون». كتاب القصاص والمذكرين، ص296-297.

[2]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص339.

[3]- نفسه، ص339.

موجودين في كافة المناسبات في البلاط العبّاسي، ومنهم من كان يقيم بصورة دائمة، فتفرش له حجرة وتقام له وظيفة[1].

وقد اختص الخلفاء بعضهم لاصطحابهم في حلهم وترحالهم، وأجروا عليهم الجرايات الدائمة عدا الجوائز بحيث وصلت جراية البعض منهم إلى خمسين ألف درهم في السنة، ومنهم من تميّز عن رفاقه فيما يأخذه من الخلفاء من الجوائز، إذ لا يعطى دون ذلك القدر، مثل مروان بن أبي حفصة فقد «كان رسمه على الخلفاء مائة ألف درهم»[2].

كما كانت بيوت الشعراء أنفسهم من أجمل المجالس الشعرية، إذ ضمّت العديد منهم، وأنشدت فيها أروع القصائد كدار المفضل الضبي، كما جرت عادة بعض الشعراء ببغداد على التجمع يوم الجمعة من كل أسبوع في مكان ما يتناشدون الشعر، ويعرض كل واحد منهم على صاحبه أحدث ما نظم من شعر بعد مفارقتهم الجمعة السابقة[3].

وكان الشعراء أيّام الرشيد يتجمعون في بغداد عند طاق أسماء[4]، وإذا أذن لهم يقدمون واحدا واحدا لإنشاد ما عندهم من الشعر، وكان الرسم في ذلك الزمان إذا وصل الخليفة أحد الشعراء وحرم الباقون أن يصلهم ذلك الشاعر ويعطيهم على منازلهم ومراتبهم[5].

غلب على الشعر الّذي ينشد في مجالس الخلفاء طابع الشعر السياسي كالمديح والرثاء، فإذا مات خليفة وقام آخر وقف الشاعر ليرثي الخليفة الراحل ويمتدح الخليفة الجديد، كما أكثر شعراء هذا العصر من مدح الخلفاء الّذين قادوا الجيوش بأنفسهم ضد الروم ودحروهم في أكثر من مرة مثل الرشيد والمأمون والمعتصم[6].

---

[1]- الأربلي، خلاصة الذهب، ص128.

[2]- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص238. الأربلي، خلاصة الذهب، ص128.

[3]- خلود مسافر الجنابي، المجالس العلمية، ص152.

[4]- طاق أسماء: بالجانب الشرقي من بغداد بين الرصافة ونهر المعلّى منسوب إلى أسماء بنت المنصور وإليه ينسب باب الطاق، وكان طاقا عظيما، وكان في دارها الّتي صارت لعلي بن جهشيار صاحب الموفق الناصر لدين الله الّذي أقطعه إيّاها الموفق، وعند هذا الطاق كان مجلس الشعراء في أيّام الرشيد، والموضع المعروف ببين القصرين هما قصران لأسماء هذا أحدهما والآخر قصر عبد الله بن علي. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص5.

[5]- ابن المعتز، طبقات الشعراء، تح عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، (د ت) ، ص150.

[6]- نفسه، ص151. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص364. الأربلي، خلاصة الذهب، ص174.

كما أشاد الشعراء بمدائحهم على المثل الخلقية الرفيعة للخلفاء، وكانوا يضيفون إلى مثالية الخلفاء، مثالية الحكم وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة، وبهذا أسهموا من خلال مجالسهم في صنع الأحداث السياسية في البلاط العبّاسي من خلال الترويج للأفكار الّتي ينوي الخليفة الإقدام عليها[1].

ولم تقتصر هذه المجالس على أولى الشأن من خلفاء ووزراء وأمراء،بل كان للأحزاب والفرق المختلفة شعراؤها ومجالسها الخاصة بها الّتي تسعى لتوسيع قاعدتها الشعبية وكسب مزيد من الأنصار عن طريق الشعر والخطب البليغة فمثلا كان للأشراف بالكوفة مجالس شعرية يتناشدون الأشعار ويتحدثون ويتذاكرون فيها أيّام الناس، فمثلا عرف كل من حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان بأنّهم من شعراء الزنادقة، كما كان للمتصوفة شعراء وللشعوبية الّتي ظهرت في العصر العباسي شعراء أيضا [2].

4- **مجالس الشراب:** انتشرت مجالس الشراب[3] في العراق بسبب انفتاح المجتمع العباسي على غيره من الشعوب وبخاصة الفرس والروم، وقد أتاح هذا المناخ المتحرر إلى انتشار مجالس الشراب الّتي تداولوا فيها شعر المجون، وأطلق المجان على جماعتهم اسم الفتيان حتّى ارتبطت الخمرة بالفتوة في القرن الثالث الهجري ارتباطا متلازما[4].

وقد اكتسب ساقي الخمر أهميه خاصة في هذه الجلسات، حتّى أنّ وتيلا لطاهر بن الحسين اشترى ساقيا بألف دينار، وفضّل الشّاربون السقاة النّصارى واليهود، واستهجنوا أن يكون الساقي مسلما، واعتبروه خروجا على تقاليد الحانات[5].

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك،ج8، ص21-26.طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة ، ص158.

[2] - طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة ، ص159.

[3]- ظهرت مجالس الشراب لأول مرة في عهد الهادي 169-170هـ/ 785-786م، ولكن كان يقصد به شرب النبيذ أي ما ينبذ من الفاكهة (عصير الفاكهة)، وكان هذا النوع غير محرم عند الحنابلة مالم يسكر صاحبه، غير أنّه حرم عند المالكية للشبهة، لكن هذه المجالس تطورت بعد هذا الخليفة وأخذت منحى واتجاه آخر.

[4]- شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ،ج4، (د ت)،ج4، ص91- 104. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص404.

[5]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص405. وقد تعرّضت حانات بغداد في القرن الخامس الهجري للسرقة ولغزوات الجند، كما تعرّضت لنقمة المحتسب الّذي أراق خمورها وكسر عيدانها وطبولها.أبو شجاع، ذيل كتاب تجارب الأمم، ص411.

وكانت طبقة العامة تستهلك الأنواع السيّئة من الخمور، في حين كانت طبقة الخاصة تستهلك أجود الأصناف، فمثلا كان إسحاق الموصلي يشرب نبيذ القاطرميز المشمس، وكان أبو نواس وابن المعتز يفاخران بشرب الخمرة المعتقة في جرّار مزفّتة[1].

وقد كان إنتاج الخمور وبيعها محصورا بأهل الذمّة لأنّ الإسلام حرّم شرب الخمر وإنتاجها وتسويقها، لهذا نجد أهل الذمة على معرفة كبيرة بالخمور الجيّدة وصناعتها، وقد قيل عن الخمرة هي تلك الّتي يبيعها «شيخ لا يفصح العربية، مجوسي اسمه شهريار، أو يهودي اسمه شلوما، أو نصراني اسمه يامروا»، وكان أفضل أنواعها تلك الّتي أنتجت في محلة دير الروم أو الّتي عتقها يهود سورا[2]، أو الّتي عتقت في كركين[3].

5- **مجالس الغناء والطرب:** انتعشت الموسيقى انتعاشا كبيرا في العصر العباسي، وكان لظهور أنواع الشعر من القصائد والموشحات أثر على تقدم الغناء، وقد وضعت القواعد والآداب لحضور المجالس الخاصة بالشعر والغناء والموسيقى الّتي كانت تعقد في بيوت الخلفاء والوزراء والأمراء، كما نقشت أبيات الشعر على أواني الذهب والفضة، وتفننوا في نقشها على آلات الطرب[4].

وكانت دار ابن رامين بالكوفة ملجأ يؤمه هذا السواد الأعظم من المغنين والمغنيات والفتيان والجواري، ونتيجة لتشجيع الخلفاء وعشّاق الملذات والشهوات، اتّسع الغناء وازدهر حتّى يخيّل إلى الإنسان وأنّ كافة مدن ودور العراق قد تحولت إلى مقاصد كبرى للغناء والرقص[5].

وممّا يروى عن شغف خلفاء بني العبّاس بالغناء والموسيقى، والطريقة الّتي كانت تعد عليها مجالسهم أنّ أبا العبّاس السفاح كان في أول أيّامه يظهر للندماء، ثمّ ما لبث أن

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص407.

[2]- الشابشتي، الديارات، ص21. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص408.

[3]- كركين: قرية من قرى بغداد قرب البردان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص453.

[4]- مصطفى بيطام، مظاهر المجتمع وملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص58.

[5]- نفسه، ص58.

احتجب عنهم، وصار يستمع الغناء من وراء الستارة، فإذا بلغ به الطرب درجة الإعجاب، صاح وراء الستارة قائلا: «أحسنت والله، أعد هذا الصوت»، وممّا يدل على شغفه بالغناء وحبّه للمطربين والمطربات، أنّه لم يكن يفارقه من بحضرته إلّا ووصله بصلة أو كسوة[1].

وكان أبو جعفر المنصور لا يظهر للندماء حيث جعل بينه وبين الستارة الّتي تحجبه عشرين ذراعا، فإذا غنّاه المغني، وشعر بأنّ الطرب قد استحوذ على شعوره، أسرعت بعض الجواري إلى تحريك الستارة، وعلى إثر ذلك يقوم صاحب الستارة بتبليغ ما يقترحه الخليفة من أغان وأناشيد، مبلّغا إيّاهم قول الخليفة بعد كل أغنية يغنّونها له: «أحسنت، بارك الله فيك»[2].

كما كان الخليفة المهدي في أوّل أمره يحتجب عن ندمائه متشبّها في ذلك بالمنصور، ثمّ ما لبث أن صار يظهر لندمائه،فلمّا أشار عليه عبد الملك بن يزيد الخراساني الأزدي بأن يحتجب عليهم قال له: «إنّما اللذّة في مشاهدة السرور وفي الدنو ممّن سرني، فأمّا وراء وراء فما خيرها ولذتها»، كما خالف المهدي أيضا أباه في الإغداق على المغنّين حيث كان كثير العطاء[3].

وكان الرشيد محبا للشعر ومعجبا بالغناء، وكان لا يتردد في تخصيص جوائز ثمينة لمن أجاد وأحسن في الإنشاد والغناء، كما كان له أكثر من مغن ومغنيّة، فممّن اشتهروا بالإضافة إلى إبراهيم الموصلي ابن جامع السهمي، وزلزل وعمرو الغزال وسلويّة وغيرهم[4].

وقد أحصي عدد المغنين في بغداد من الذكور سنة 305هـ فقدر بخمسة وسبعين مغنيا، وبلغ عدد الجواري المغنيات في بغداد سنة 306هـ أربعمائة وستين جارية مغنية، بالإضافة إلى عشر مغنيات من الحرائر، هذا إلى العديد من الجواري والحرائر اللواتي كنّ يغنين في البيوت، أو اللواتي كنّ لا يتظاهرن بالغناء لشدة الرقابة الأبوية عليهنّ، ومن أشهر

1- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص221. مصطفى بيطام، مظاهر المجتمع، ص58.

2- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص385.

3- مصطفى بيطام، مظاهر المجتمع، ص58.

4- ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1404هـ/1983م ، ج6، ص31.

مغنيات بغداد في القرن الثالث الهجري عريب وبدعة، وسراب وشارية، وندمان ومنعم ونجلة وتركية وفريدة وعرفان[1].

وإلى جانب الأماكن الخاصة والحانات الّتي كانت تقام فيها مجالس الطرب، فقد كانت تقام أيضا في أماكن مفتوحة ومعزولة، فقد انتشر الغناء في جميع محلات العراق وشوارعها، حتّى أنّ أحد الفقهاء ذكر أنّه كان يمشي في شوارع العراق فيسمع أصوات المغنيات من البيوت[2].

وقد حظي الغناء باحترام العراقيين في القرن الرابع الهجري، وعبّر نصر بن يعقوب الدينوري عن هذا الموقف باقتران المغني بالحكيم أو المذكّر أو الخطيب، ومع هذا فقد اعتبر احتراف الأشراف للغناء عملا مشينا، كما اعتبر غناء الأغنياء في المحلات العامة أمرا قبيحا، وسمح للفقراء والموالي باحتراف هذه المهنة[3].

وفي العهد البويهي اهتم الأمراء والوزراء وعليّة القوم بمجالس الغناء والطرب الّتي ازدهرت في العراق طوال العصر البويهي، وقد شهدت قصور الأمراء البويهيين الاهتمام بمجالس الغناء والطرب، فقد كان الأمير البويهي معز الدولة يقضي وقتا طويلا مع الموسيقيين، وكذلك كان عضد الدولة من المهتمين بالموسيقى، كما ظهر في عهد البويهيين أفذاذ الموسيقيين الّذين صنفوا الكتب في الموسيقى والغناء، أمثال أبي نصر محمد بن طرخان الفارابي – ت سنة 339هـ- الفيلسوف التركي الّذي أتقن ببغداد الموسيقى وهو أوّل من ركّب آلة القانون ذلك التركيب الّذي اشتهرت به[4].

ويرجع انتشار الغناء في ذلك العصر إلى كثرة الجواري، إذ كان معظم القيان اللاتي احترفن الغناء في أوائل القرن الرابع الهجري من الجواري، وقليل منهن من الحرائر،وكانت الجواري تغنين من وراء ستار، أمّا إذا أقيم حفل خاص وأرادوا إكرام الضيف غنّت المغنيات

---

[1]- الشابشتي، الديارات، ص154. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص415.

[2]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص415.

[3]- نفسه، ص422.

[4]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص207. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص103. وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص132.

أمام الستار، وقد انتشر الغناء في العهد البويهي في المحال العامة والندوات الخاصة وفي قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وفي بيوت الأغنياء ودور الفقراء[1].

ضمّت مجالس الغناء والموسيقى الّتي أقامها الأمراء والوزراء كثيرا من الندماء،وكان على النديم أن يكون أديبا ملتزما بالشمائل الخلقية وملما بعلوم الطب والفلك، والنجوم والطرد والقنص ولعب الصوالج، والموسيقى والغناء[2]، ويذكر المسعودي[3] أنّ كاتبا فاخر نديما فقال له النديم «أنا قرين وأنت تابع وأنا سمّيت نديما للندم على مفارقتي».

وكان من أشهر المجالس: مجالس الوزير أبي الفضل بن العميد الّذي اشتهر بكثرة الندماء والمغنين، ومجالس الوزير أبي محمد المهلبي – ت352هـ- وزير معز الدولة البويهي الّذي اجتمع عنده كثير من الندماء والشعراء والمغنين والموسيقيين وأهل الأدب والفضل[4].

ونقول أنّ انتشار مثل هذه المجالس في العراق في العصر العبّاسي دليل على تخلي المجتمع عن العادات والتقاليد والقيّم الأخلاقية الّتي جاء بها الإسلام بعد البذخ والترف الّذي وصل إليه المجتمع العبّاسي حيث انصرف النّاس عن أمور دينهم وانشغلوا بأمور الدنيا وملذاتها.

ثانيا- الزواج والطلاق:

شكلت العائلة عماد البيت العبّاسي، وكان تشجيع الزواج سياسة معمولا بها، فقد رفع أحد مستشاري المهدي إليه اقتراحا بتزويج العزّاب، وفي القرن الرابع الهجري كان أحد القضاة يحض على تزويج البنات وحفظهن بالأزواج[5].

---

[1]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص 207. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص104.

[2]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص105.

[3]- مروج الذهب، ج4، ص152.

[4]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص105. وفاء محمد علي، الخلافة العباسية، ص133.

[5]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص119. التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج4، ص6.

وكان الزواج يتم غالبا عن طريق الخاطبة الّتي تتولى المراسلة بين الرجل والمرأة، مبيّنة صفات كل منهما، كما أنّ الدلّالة أو الخاطبة كانت تساعد في تلبية مواصفات الخاطبين في زوجة المستقبل، كأن تبحث عن زوجة أو وارثة غنية[1].

إلّا أنّ الزواج عن طريق الخاطبات لم يكن يخلو من المخاطر، وذلك أنهنّ كنّ يتسترن على عيوب العرائس، لذا كان الزواج يتم عن طرق أخرى أيضا منها الاتصال المباشر بين الخطيبين، حيث يتعارفان في الأسواق التجارية أو عن طريق الصداقات العائلية، وعلى العموم فإنّ الرجال كانوا يتشددون في اختيار نسائهم[2].

وكان الرجل يكتفي عادة بزوجة واحدة، وأمّا الصداق فكان يختل باختلاف الطبقات الاجتماعية أي حسب قدرة الزوج، حيث يصل لدى الأثرياء إلى أكثر من مائة ألف دينار، عدا ما يحمل الزوج إلى بيت الزوجية من الثياب الفاخرة والأواني الثمينة والفرش الكثيرة النّادرة، وما ينفقه في العرس من أموال قد تصل إلى سبعمائة ألف دينار مبالغة في تكريم المرأة، وكانت العامة تحرص على تقديم الصداق بقدر ما تستطيع، فقد دفع زوج في القرن الرابع الهجري صداقا قيمته ألف دينار ،ودفع آخر ألفي درهم، وأعتق أحدهم جاريته وتزوّجها على صداق قيمته عشرة دنانير، وأعطى زوج زوجته دارا عن مهرها[3].

ومع أنّ النّاس يفضلون إنجاب الذكور على الإناث إلّا أنّهم كانوا يهنئن بعضهم بعضا عند مولد البنت، فقد كتب الصاحب بن عباد سنة 385هـ للتهنئة بمولد بنت فقال: "أهلاً وسهلا بعقيلة النّساء وأم الأبناء، وجالبة الأصهار والأولاد، والمبشرة بأخوة يتنافسون، ونجباء يتلاحقون"، كما كتب الخوارزمي[4] معزيّا لرجل فقد ابنته داعيا أن يعوّضه الله عنها.

وأمّا زواج المرأة بعد وفاة زوجها فرغم أنّ الشريعة الإسلامية أجازته، إلّا أنّه لم يكن من الأمور المستحسنة في المجتمع العراقي في العهد العباسي، واعتبرت المناسبة أقرب إلى العزاء منها إلى التهنئة فقد تلقى أحدهم رسالة من صديق له يعزيه عن زواج أمه، وكتب

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد،ص362.

[2]- نفسه،ص362.

[3]- ابن الجوزي، أخبار الأذكياء، عناية بسّام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم للنشر، بيروت، 1424هـ/2003م، ص291. فهمي سعد، العامة في بغداد،ص363.

[4]- رسائل أبي بكر الخوارزمي، طبعت بمطبعة الجوائب، قسطنطينية، 1297هـ، ص61.

إبراهيم بن هلال الصابئ رسالة إلى صديق له تزوّجت أمّه يهنيه فيها بزواجها، كما يعزيه لتمكنّه من إسخاط نفسه وإرضاء أمه[1]، وحين تزوّجت أم المؤرخ مسكويه بعد وفاة والده كتب إليه الخوارزمي[2]: «وقد كنت أسأل الله أن يبارك لك في حياتها، والآن أسأله أن يعجّل بوفاتها، فإن القبر أكرم صهر، وإنّ الموت أستر ستر، ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليه الدهر وغلبك عليه الرزق».

كما كان من عادات أبناء بغداد واحترامهم الشديد لآبائهم أن لا يجرؤ أحد منهم أن يقول لأبيه مثلا أريد أن أتزوج حيث كان الزواج يتم عادة بموافقة الآباء، بل إن ذلك من واجبات الأب، وقد قيل قديما من حق الأب التربية والتّسمية والزواج أي أنّ الزواج يتم عادة بموافقة الآباء، لهذا فقد يقرر الأب تزويج ابنه الّذي صار رجلا، والرجل عند أهل العراق هو من أكمل العشرين من عمره ومارس شغل أبيه، وباستطاعته أن يحل محل والده في غيابه، وأن يكون مسؤولا، وفي إطار بحث الأم عن الزوجة المثلى لابنها فإنّها تراعي مجموعة من الخصائص والصفات منها الحسب والشرف ومكارم الأخلاق، بالإضافة إلى المحاسن الجسمية المتعارف عليها[3].

وبالنسبة للمجتمع العبّاسي وبما أنّه كان أغلبه إسلاميا فإن نظرته للزواج لم تتغير عمّا كانت عليه في المجتمع الإسلامي فهو يرى في الزواج الوسيلة الأمثل لإعفاف كل طرف من الزوجين وإحصانه حتّى لا يقع في الفاحشة، ولا يسلك مسلكا خاطئا في قضاء الشهوة، كما يرون في الزواج سبيلا لاكتمال خصائص الرجولة والأنوثة عند الرجل والمرأة، فكثير من الخصائص تكتمل وتتحقق في ظل الحياة الزوجية[4]، وكان للزواج في المجتمع العراقي أيضا

[1]- التنوخي، نشوار المحاضرة، ج2، ص.264

[2]- رسائل أبي بكر الخوارزمي، ص173. ونشير في هذا الأمر أنّ الشريعة الإسلامية قد أحلت ذلك ولم تمنع المرأة من الزواج بعد انقضاء عدتها حيث توجب الشريعة المرأة أن تمكث في بيت زوجها بعد وفاته أربعة أشهر وعشرة أيام لا تتزوج ولاتخطب خطبة صريحة، ولا تتزين، ولا تخرج في غير حاجة وهذه العدة ثابتة في القرآن والسنة حيث **قال تعالى في سورة البقرة آية 234** : **«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »**.

[3]- واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي وآخرون، حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985، ج5، ص119.

[4]- سعيد كاظم العذاري، آداب الأسرة ، ص13.

مراسيم معيّنة تبدأ عادة بالخطبة، حيث كان الزواج يسير طبقا للشريعة الإسلامية والتقاليد الموروثة من المجتمع العربي الإسلامي[1].

إن إقامة حفلات الزواج كانت من الأمور الشائعة بالمجتمع الإسلامي منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والعهود الّتي تلته حيث كانت تقام حفلات الزواج، ولكن الأمر الجديد الّذي طرأ على هذه الحفلات هو المبالغة في إقامة الحفلات ونثر[2] الأموال والجواهر والحلي وغيرها، وكان ذلك بسبب التأثر بثقافات المجتمعات الأخرى الّتي اختلطت بها الأسر العربية الإسلامية كالفرس والروم وغيرهم، واعتمادهم على هذه العناصر في إدارة كافة أمور الخلافة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ونتيجة كذلك المصاهرات الّتي كانت تحدث داخل المجتمع بصورة عامة وقصور الخلافة بصورة خاصة،[3].

ففي عهد كل من أبي العبّاس السّفاح والمنصور، لا نجد معلومات أو اشارات عن الحفلات، والسبب في ذلك يرجع إلى أنّ السّفاح كان عهده ابتداء دولة جديدة حيث اهتمّ بتثبيت دعائمها، أمّا المنصور فإنّه كان شديد التقتير ووصف بالبخل.

ومن حفلات الزواج الّتي ذكرت عرس زبيدة زوجة هارون الرشيد في عهد المهدي حيث يذكر الشابشتي[4] رواية تبين حجم الأموال الّتي أنفقت في ذلك العرس بقوله : «استعد لها ما لم يستعد لامرأة قبلها من أصناف الجواهر والحلي والتّيجان والأكاليل وقباب الفضة والذّهب والطيب والكسوة والخدم، وأنفق من بيت المال الخاص سوى الّذي أنفقه هارون الرشيد من ماله خمسين ألف ألف درهم».

---

[1]– العزيز جاسم الحجية، بغداديات تصوير للحياة الاجتماعية والعادات البغدادية خلال المائة العام، سلسلة ثقافية، مديرية الفنون والثقافة الشعبية والإرشاد، ع14، بغداد، 1967، ص10.

[2]– نثر أو نثار : وهي الأموال الّتي تنفق في حفلات السرور والزواج من حلوى أو نقود وتنثر عادة في الحفلات الّتي يقيمها الخلفاء العبّاسيين على اختلاف أسبابها ومناسباتها حيث تنثر الأموال والجواهر على رأس صاحب المناسبة أو تنثر على الحاضرين. الأزهري، تهذيب اللغة، تح محمد عوض مرعب،دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م ، ج14، ص270.

[3]– صبيح نوري خلف وزينب عبد الحفيظ جاسم، نفقات بيت المال الخاص للخلفاء العباسيين 158-320هـ/774-932م: النفقات في المناسبات الخاصة أنموذجا، ملحق خاص بالعدد (السابع عشر) كانون الأول، 2014 للبحوث المستلة، ص208.

[4]– الديارات، ص67-68.

فكان العبّاسيون يهتمون كثيرا بحفلات الزواج، ويتجلّى إسراف خلفاء العصر العبّاسي وبذخهم ما فعله الخليفة المهدي عند زواج ابنه هارون الرشيد بالسيّدة زبيدة، فقد أقام يوم زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد في الإسلام، ووهب النّاس في هذا اليوم أواني الذّهب مملوءة بالفضة وأواني الفضة مملوءة بالذّهب والمسك والعنبر، وزيّنها بكثير من الحلي والجواهر حتّى إنّها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلي والجواهر[1].

ومن حفلات الزواج الّتي ذكرتها كتب التاريخ زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل سنة 210هـ حيث بلغ مجموع ما أنفق في هذا العرس حوالي 49.000.000 درهم، فقد وضع المأمون بساط من ذهب ونثر عليه اللؤلؤ وأقطع المأمون إلى أخ بوران فم الصلح، غير الّذي أنفقه الحسن بن سهل في يوم العرس والّذي بلغ 40.000.000 درهم وقيل أربعة ألف ألف دينار غير ما حملته بوران معها وما نثر عليها من أموال وذهب ومسك وعنبر[2].

ولمّا أدخلت بوران على المأمون نثر على القوّاد والمدعوين بنادق مسك فيها رقع بأسماء ضياع وجوار وخيل وكل من وقع بيده رقعة أصبح يملك ما كتب فيها ونثرت جدتها على رأسها ألف حبّة لؤلؤ نفيسة وقد أوقدت ليلة الزفاف شمعة عنبر وزنها أربعون منا[3] في فانوس من ذهب[4].

وأنفق الحسن بن سهل في زواج ابنته ما لم يفعله ملك قط في جاهلية ولا إسلام، وقد عبّرت جدّة بوران عن سرورها بهذا الزواج وتلك الصلة بالخلافة فنثرت على المأمون وعلى بوران ألف درهم في صينية ذهب[5].

---

[1]- عبد الحسين مهدي، محاضرات، ص54.

[2]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص609.الشابشتي، الديارات، ص68. ابن الأثير، الكامل، ج5، ص478.

[3]- المن الشرعي: هو رطلين، والرطل 130 درهم، والدرهم هو 2.97غ ذهب، وكان المن شائعا في العراق في العصور الوسطى. فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري. ترجمة كامل العسلي، روائع مجدلاوي للنشر، 2001، ص45.

[4]- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص186-187. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص609.

[5]- ابن طيفور، كتاب بغداد، ص 114. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص607. المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص26. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص288-289.

ومن الحفلات المشهورة كذلك في التاريخ زواج الخليفة المعتضد من قطر الندى بنت خمارويه –ت288هـ– سنة 282هـ وقد ذكر المسعودي أنّ صداقها كان «ألف ألف درهم، وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق»، وحملت معها 4000 تكة مجوهرة وعشرة صناديق جوهر.[1]

ومن خلال ماسبق يتضح لنا مدى إسراف الخلفاء العباسيين في الحفلات التي أقاموها، حيث أنّ هذا الإسراف بعيد كل البعد عن تعاليم الدين الإسلامي الّذي أباح إقامة ولائم الزواج، ولكن الشئ المحرم هو الإسراف والمبالغة في نثر الأموال والجواهر، كما يدل هذا الإسراف على درجة البذخ والترف الّذي وصل إليه المجتمع العباسي، وأيضا يوضح درجة التأثير بالشعوب الغير العربية خاصة الفرس والروم الذين احتكوا وتعاملوا معهم.

وكانت حفلات أعراس عامة النّاس تقام وسط ضجيج الطبول والزمور، وتدعى إليها جماعات النّساء اللواتي يتزيّن ويتحلين بأنواع الحلي، وكانت المدعوات الفقيرات يلجأن إلى استعارة الملابس والحلي ليلبسنها في مثل هذه المناسبات، وكان الأهل يوصون بناتهم بمعاملة أزواجهن بالمعروف، فقد أوصت أم ابنتها بأن تكون لزوجها فراشا ووطاء، وألّا تكتئب إذا كان فرحا، وأوصت أخرى ابنتها بأن تدني سترها،وأن تكرم زوجها وأن تتجنب المراء، وأوصى رجل ابنته بطاعة زوجها وعدم الغيرة والعتاب، وقال آخر لابنته ليلة الإهداء: «كوني لزوجك أمة يكن لك عبدا، وعليك باللطف فإنه أبلغ من السحر».[2]

وأمّا في خصوص الطلاق في المجتمع العباسي، فلم نجد معلومات كثيرة حول هذا الموضوع، وإنّما الّذي وجدناه أنّه لم يكن شائعا في العصر العباسي، وكان من أهم الأسباب في ذلك هو سوء سلوك أحد الزوجين، أو إقبال الرجل على الجواري وإهماله لزوجته الحرة التي تزوجها دون أن يرى وجهها[3].

---

[1]– المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص187. اليافعي، مرآة الجنان، ج2، ص145. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص99.

[2]– العزيز جاسم الحجية، بغداديات، ص15.

[3]– السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العصر العباسي، ص238.

ثالثا- القصور والدور:

حرص الخلفاء العبّاسيون على إقامة القصور الفخمة في العراق، وأصبحت هذه القصور من أبرز مراكز الحياة الاجتماعية في العاصمة، وممّا أسهم في الإفراط في بناءها توزع الخلافة في ولايات شتّى، وكثيرا ما كانت هذه القصور تتهدم وتزول مع أفول نجم صاحبها[1].

فقد اشتهرت العراق بقصورها الفخمة الواسعة ذات الأروقة، إذ اهتم الخلفاء العبّاسيون بتشييد القصور، وإحاطتها بالحدائق والمتنزّهات،وزخرفتها من الداخل والخارج بأنواع الزخارف المذهّبة والمرصّعة بالجواهر والفرش الفاخرة من الوشي والديباج[2]، فقد كانت قصور الخلفاء تمتد على مساحات كبيرة وتشتمل على دور واسعة ذات قباب[3] وأروقة، واشتملت هذه القصور على حدائق وبساتين، كما جلب إلى هذه الحدائق أنواع الحيوانات للتّسلية والزينة[4]، فازدحمت بغداد بالقصور الّتي شيّدها الخلفاء منها دار الخلافة الّتي بناها المنصور، وقصر الخلد وقصر الرصافة وقصور البرامكة وقصر الثريا وقصر التاج الّذي اتخذه الخليفة العبّاسي القادر بالله مقرا له، وكان به مجلس للقضاة والأشراف والأعيان[5]، هذا إلى جانب الدار الّتي بناها «المقتدر» بالدار المعظمة الخليفية وسميّت بدار الشجرة[6].

---

[1]- وليم الخازن، الحضارة العباسية، ص38.

[2]- الديباج: من الدبج وهو النقش والتزين وهو نوع من الثياب الخضر. ابن سيدة، المخصص، ج4، ص76.

[3]- القباب: هي أشكال نصف كروية من البناء أخذها المسلمون عن العمارة البيزنطية، وقد ظهرت بأشكال وأنواع عديدة المضلعة ونصف الكروية والبيضاوية والمخروطية، وتعد القباب من العناصر المعمارية المميّزة في العمارة الإسلامية عامة وفي العمارة الدينية بصفة خاصة. ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 1981، ص101.

[4]- Philip k.Hitti ,The Arabs A Short History,of London,1948,p 852.

[5]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص99- 110. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص38.جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية،ص 216-217.

[6]- دار الشجرة: سميّت دار الشجرة لأنّه كان «في بركتها شجرة صنعت من الذّهب والفضة، فلها من الذّهب والفضة ثمانية عشر غصنا لكل منها فروع كثيرة مكلّلة بأنواع الجواهر على شكل ثمار، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذّهب والفضّة إذا مرّ الهواء عليها أبانت عن عجائب من أنواع الصفير والهدير، وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا، مثله عن يسار البركة وفي أيديهم المطارد يتحركون على خط واحد، فيظن أنّ كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد». ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص9.

وكان لاعتماد العبّاسيين على الفرس في قيام دولتهم واستخدامهم للعناصر الفارسية تأثيره في التكوين الاجتماعي للمجتمع، والامتزاج الحضاري فيما بينهم وبين سكان بغداد، وهذا التأثر بالفرس أصبح واضحا في بناء القصور العبّاسية، ففي منتصف القرن الثالث الهجري عرف العبّاسيون نمطا جديدا من القصور عرف باسم الحيري أو الكمين[1]، وهو مختلف عن القصور القديمة الّتي بنيت على نمط الحصون، وأول من أحدث بناء الحيري هو الخليفة المتوكل على الله ثمّ اتّبعه الخلفاء من بعده[2].

والحيري أو الكمين أصله يوناني شرقي، وينقسم إلى ثلاثة أقسام الباب الأكبر في الوسط وإلى جانبه بابان صغيران، وفي الطريق الموصل إلى القصر ثلاثة أبواب ضخمة يدخل فيها الفارس برمحه، أمّا الرواق فكان فيه مجلس الملك وهو الصدر والكمّان ميمنة وميسرة، ويكون في البيتين اللّذين هما الكمّان، به من يقرب إليه من خواصه، وفي اليمين منها خزانة الكسوة، وفي الشمال ما أحتيج إليه من الشراب، والرواق قد عمّ فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق[3].

وأول هذه القصور الفخمة، قصر باب الذهب الّذي أنشأه الخليفة أبو جعفر المنصور مؤسس مدينة بغداد، وكان هذا القصر هو أول بناء في بغداد، وكان العرب في صدر الإسلام وفي العصر الأموي، يبدأون ببناء المسجد الجامع ويجعلونه مركز المدينة الجديدة الّتي يقيمونها، ثمّ يقومون ببناء قصر الإمارة، ولكن المنصور بدأ ببناء القصر، بل كانت مساحة القصر أكثر من مساحة جامع بغداد، فقد بلغت مساحة القصر 160 ألف ذراع مربع، بينما بلغت مساحة الجامع 40 ألف ذراع مربع[4].

---

[1]- الحيري: منسوب إلى الحيرة وإلى ضرب من الثوب المصنوع فيها، والحيّر اسم قصر كان بسامراء أنفق على عمارته المتوكل أربعة آلاف درهم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص328.

[2]- طالب علي الشرقي، قصور العراق العربية والإسلامية حتّى نهاية العصر العبّاسي656هـ، دار الشؤون العربية العامة، بغداد، 2001، ص163.

[3]- المسعودي، مروج الذهب، ج7، ص192-193.

[4]- اليعقوبي، البلدان، ص27-29. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص 107. ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العبّاسي، دار الرشيد، بغداد، 1981، ص9.

وكان يطلق على قصر باب الذهب أيضا اسم «قصر القبّة الخضراء» إذ كان يقع في وسط القصر القبّة الخضراء الّتي بناها المنصور، ويبلغ ارتفاعها الإجمالي 80 ذراعا فوق سطح الأرض[1]، وعلى رأس القبّة تمثال على صورة فارس، وفي يده رمح، وفي صدر قصر المنصور إيوان وصفه الخطيب البغدادي[2] بأنّ طوله ثلاثون ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا، وسقفه قبّة تحتها مجلس، وفوقه القبّة الخضراء.

ومن ضخامة حجم القبّة كان يراها القادم إلى بغداد من خارج أسوارها، ويصفها المؤرخون بأنّها: «تاج بغداد، وعلم البلد، ومأثرة من مآثر بني العبّاس عظيمة»، وكانت تضم خزانة المنصور الّتي يرأسها صاحب بيت المال، وسقطت القبّة الخضراء سنة 329هـ/940م وكان ليلة سقوطها مطر عظيم ورعد هائل[3].

أقام المنصور في قصره نفقا خاصا أو سردابا[4] يلجأ إليه في اللّحظات الحرجة،وقد انفرد الخطيب البغدادي[5] بالحديث عن هذا السرداب حيث روى أنّ المنصور قال لحاجبه الربيع بن يونس[6]: «يا ربيع هل تعلم في بنائي هذا موضعا إن أخذني فيه الحصار خرجت حاربا منه فرسخين[7]؟ فقال الربيع لا. فقال المنصور: في بنائي هذا ما إن أخذني منه الحصار خرجت خارجا منه على بعد فرسخين ».

أصبح قصر الذهب المقر الرسمي للمنصور وللخلفاء العبّاسيين الأوائل الّذين تولوا الحكم بعده، وبالرغم من أنّ الخليفة هارون الرشيد فضّل الإقامة في قصر الخلد المشرف

---

[1]- ك. كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، 1404هـ/1984م، ص241.

[2]- تاريخ بغداد، ج1، ص73.

[3]- اليعقوبي، البلدان، ص23. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص73. ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص13.

[4]- السرداب: هو بناء تحت الأرض للصيف والكلمة مركّبة من «سرد» أي بارد ومن «آب» أي ماء. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص178.

[5]- تاريخ بغداد، ج1، ص77.

[6]- الربيع بن يونس: هو الوزير، الحاجب الكبير، أبو الفضل الأموي، من موالي عثمان رضي الله عنه حجب للمنصور، ثمّ وزر له بعد أبا أيوب المورياني، وكان من نبلاء الرجال وفضلائهم، توفي سنة 169هـ، وقد ذكر أن الهادي سمه، وهناك من يقول بأنّه مرض ثمانية أيام ومات. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج8، ص414. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص294-299. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج7، ص335-336.

[7]- الفرسخ: الفرسخ يساوي ثلاثة أميال أي أنّ طول الفرسخ كان حوالي 6 كم. فالترهنتس، المكاييل والأوزان ، ص94.

على نهر دجلة، إلّا أنّ ابنه الخليفة الأمين عاد فاتّخذ قصر الذّهب مقرا لإقامته مع حاشيته، وأضاف إليه قسما جديدا، وأمر بإنشاء ميدان حول قصر الذّهب، وكان الأمين قد احتمى بهذا القصر في أثناء محاصرة جيوش أخيه المأمون له سنة 198هـ، وتحصن رجاله بأسوار المدينة المدوّرة، وكان من جراء ذلك إصابة القصر بكثير من التلف نتيجة قذفه بالمنجنيق الّذي نصّبه طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون في أرباض المدينة[1].

وفي سنة 157هـ أمر المنصور بتشييد قصر جديد على شاطئ دجلة وسمّاه الخلد، وفي سنة 158هـ نزل المنصور هذا القصر، وقد اختار الخليفة هذا الاسم حسب ما روى ياقوت الحموي[2] تشبيها له بالخلد، وهو اسم من أسماء الجنّة وأصله من الخلود، وهو البقاء في دار لا يخرج منها،ويرى الخطيب البغدادي[3] أنّ القصر سمّي بقصر الخلد لما حواه من حدائق واسعة، وفي هذا القصر أقيم حفل عرس هارون الرشيد أيّام خلافة والده المهدي على ابنة عمه زبيدة بنت جعفر، كما كان هذا القصر من أحب المنازل للرشيد.

وأوكل المنصور إلى الربيع بن يونس وصاحبه إبان بن صدقة بناء قصر الخلد، ولمّا انتهيا من بنائه وتأثيث أجنحته وقاعاته وتزيين جواسقه[4]، وتنوير ساحته، أنزل الخدم في مواضعهم الخاصّة وأقام الحرس على أبوابه ومنافذه، ثمّ انتقل المنصور إليه مع أسرته في فصل الربيع، حيث تكثر الرياحين والأزهار في بغداد، ولم يكن القصر الجديد بعيدا عن قصر الذّهب في مدينة السلام ولكن كان في معزل عن ضوضاء النّاس والأسواق، وأقرب إلى الماء، وتميّز بحدائقه الخضراء الواسعة[5].

بدأ المنصور بناء قصر الخلد ومدينة الكرخ في سنة 157هـ، واهتمّ بتطويرها وإضفاء الجمال والفخامة عليها، حتّى أصبحت دليلا على عظمة الدولة العبّاسية، فقد كان المنصور

---

[1]- حسين أمين، بغداد تاريخ وحضارة، منشورات المجمع العلمي، 1427هـ/2006م، ص9-10.

[2]- معجم البلدان، ج2، ص382.

[3]- تاريخ بغداد، ج1، ص75-76.

[4]- الجوسق: تسمية فارسية تعني القسم الّذي يعلو المظلة ويحمل الذروة أو القلنسوة أو القبة ونحوها، وقد يكون محمولا على أعمدة فيعرف حينئذ باسم الجوسق المتعامد. علي ثويني، معجم عمارة الشعوب ، ص621.

[5]- الطبري،تاريخ الرسل والملوك،ج7، ص654-655.

حريصا على الأموال مقترا، فكان يهتم بالجوهر أكثر ممّا يهتم بالمظهر، بينما كان المهدي كريما سخيا اهتم بالزخرفة والفنون الجميلة ولهذا تحولت مباني بغداد إلى قطعة فنية رائعة[1].

ومن القصور الّتي أنشأها الخليفة أبو جعفر المنصور كذلك القصر المعروف بالقرار ونزله في أواخر أيّامه، وقد أنشأه في حدائق قصر الخلد، ولم يكن في أيّام أبي جعفر ذا بناء ضخم،وكان هذا القصر يعرف أيضا باسم قصر زبيدة نسبة إلى زوجة الرشيد كما جاء فيما أورده الطبري[2] في حوادث سنة 198هـ، وكان يعرف أيضا بقصر أم جعفر، وهو القصر الّذي سكنه الأمين وجاء ذكره في حصار طاهر بن الحسين لبغداد من نفس السنة.

ومن أشهر القصور أيضا قصر الرصافة والّذي أسّسه المنصور في الوقت الّذي كان يشيّد فيه بغداد ليكون مقرا لابنه وولي عهده المهدي، وكان موضع هذا القصر بالقرب من ضفة النّهر في محلة الرصافة الّتي احتلت أرضا مثلثة الشكل يحصرها انحناء دجلة العظيم ، وعلى ذلك فموضع القصر كان في الشمال الغربي من الجسر الّذي أنشأه المنصور فوق دجلة من جهة باب خراسان ليصل به القسم الغربي من مدينته بمحلة الرصافة الشرقية، وكان يحيط بقصر المهدي سورا وخندقا وبجواره الميدان أو الساحة الكبرى، وكان الماء يجري إلى بساتين الرصافة من نهر المهدي[3].

وكان قصر الخليفة المنصور قصرا جادا لا يعرف اللّهو حيث قضى المنصور معظم فترات عهده في القضاء على أعداء دولته وإخماد الفتن والثورات، وقد وصف لنا الطبري[4] يوما في حياة الخليفة المنصور، فذكر أنّه كان ينظر في أمور الدولة في صدر النّهار، فإذا صلّى العصر جلس مع أهل بيته، فإذا صلّى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثّغور، وشاور وزيره ومن حضر من رجالات الدولة في الشؤون الهامة، فإذا مضى ثلث الليل انصرف سمّاره، وقام إلى فراشه، فنام الثلث الثاني، ثمّ يقوم من فراشه فيتوضأ ويجلس

---

[1]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص76-78.

[2]- تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص474-476.

[3]- أحمد سوسة، فيضانات بغداد في التاريخ، مطبعة الأديب البغدادية، 1963، ص268. يذكر لسترانج أنّ قصر المهدي في الرصافة كان النواة الّتي نشأت منها بغداد الشرقية وازدهرت. بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص148.

[4]- تاريخ الرسل والملوك، ج7،ص71.

في محرابه، حتّى مطلع الفجر، ثمّ يخرج فيصلي بالنّاس ثمّ يدخل فيجلس في إيوانه، ويبدأ عمله كعادته في كل يوم.

ومن القصور المشهورة أيضا قصر السلام الّذي أنشأه المهدي سنة 164هـ، ولا توجد معلومات كثيرة عن هذا القصر، ويذكر ابن عبد الحق[1] أنّ القصر أصابه الخراب،وقد وصف قصر المهدي بأنّه كان محكمة للنظر في المظالم، حيث افتتح أمره بالنظر في المظالم والكف عن القتل، وأمن الخائف، وإنصاف المظلوم، وبسط يده في الإعطاء فكان المهدي يجلس للنظر في المظالم، وبين يديه القضاة فينظر في شكاوي رعاياه ولو كانت الشكوى منه شخصيا، وفي بداية الأمر كان لا يسمح لأصحاب المظالم بدخول القصر والاكتفاء بعرض مظالمهم في رقاع من الورق، فينظر المهدي في كل رقعة بعناية واهتمام، ولمّا علم المهدي أنّ بعض أتباعه يأخذون رشوة من أصحاب المظالم في مقابل عرض مظالمهم على الخليفة، أمر بفتح شبّاك من حديد في قصره، ليلقي كل صاحب مظلمة بالورقة الّتي عرض فيها مظلمته من هذا الشبّاك إلى داخل القصر، ثمّ سمح بدخول المظلومين إلى مجلسه ليعرضوا عليه مظالمهم[2].

ومن قصور العراق المشهورة كذلك القصر الجعفري، أنشأه جعفر بن يحي البرمكي في الجانب الشرقي من بغداد، وادّعى جعفر البرمكي أنّه بناه للمأمون، وقد بناه في المنطقة المعروفة اليوم باسم شارع المستنصر، ولمّا انتقل القصر إلى المأمون كان من أحب المواضع إليه، وقد أقام فيه ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوالجة الّتي كان الرشيد أوّل من لعبها في بغداد حسب رأي المسعودي وجعل فيها حيّز الوحوش[3]، كما جعل للقصر بابا مفتوحا على السهل متّجها نحو الشرق وبابا آخر يجري منه فرع يحمل من نهر المعلى[4]،

---

[1]- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح علي محمد البجاوي، منشورات الحلبي،بيروت، 1373هـ/1954م، ج2، 725-726.

[2]- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص259. ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص226-228.

[3]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص3-5.

[4]- نهر المعلّى: نسبة إلى المعلّى بن طريف، كان من كبار قوّاد المهدي والرشيد، جمع له من الأعمال ما لم يجمع لكبير أحد، ولّي المعلى والبصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين ويسمّى أيضا بنهر الفردوس، وهو من أشهر وأعظم محلّة ببغداد وفيها دار الخلافة المعظّمة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص324.

كما أنّه أنشأ المحلة المجاورة له والّتي دعيّت باسمه فعرفت بالمأمونية وبنى رجاله المقربون إليه دورهم فيها وتمّت كل هذه التغيّرات في قصر المأمون في أواخر عهد الرشيد وقبل إرسال المأمون حاكما على بلاد خراسان والولايات الشرقية الخاضعة للدولة، ولمّا آل القصر إلى الوزير العبّاسي الحسن بن سهل الّذي كان المأمون قد تزوج ابنته بوران صار هذا القصر ملكا للسيدة بوران بعد وفاة والدها[1].

وأصبح قصر الخلافة في عهد المأمون مركزا من المراكز العلميّة الكثيرة المنتشرة في مدينة بغداد، وأبدى المأمون اهتماما كبيرا بترجمة الكتب الأجنبية حيث كتب إلى إمبراطور الروم يطلب مده ببعض الكتب الرومانية لترجمتها، وخصّص المأمون عددا من العلماء للقيام بترجمة هذه الكتب، وبلغ من حرصه على أن تكون الترجمة حرفية ودقيقة أنّه كان يضع علامته على كل كتاب يترجم له، وكان يحث أيضا النّاس على قراءة الترجمات والاستفادة منها[2].

ومن أشهر قصور الخلافة العبّاسية أيضا قصر التاج، وكان أوّل من وضع أساسه وسمّاه بهذه التّسمية الخليفة المعتضد حيث أمر ببنائه على أرض قصر الجعفري (الحسني)، وكان هذا القصر على نهر دجلة وعمل له مسناة عظيمة لصد تيار المياه، وكان القصر يشرف على المسناة كأنّه التاج فسمّي بالتاج وجعل وجه القصر مبنيا على خمسة عقود[3] كل عقد على عشر أساطين[4] بخمسة أذرع، ولم يتم بناؤه في أيّامه فأتمّ عمارته ابنه المكتفي،

---

[1]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص99.

[2]- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ص237-240. خالد محمد أحمد بديوي، الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية في عصر الخليفة المأمون، 170-218هـ، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، كلية التربية، قسم التاريخ ،جامعة عين شمس، (د ت)، ص171.

[3]- العقد: عنصر معماري مقوس على شكل قطاع دائرة يعتمد على نقطتي ارتكاز ،ويرجع الباحثون نشوء العقد إلى بلاد ما بين النهرين، ويمكن أن يكون مصدر التفكير به بيوت القصب التي ربطت بها حزم القصب لتشكل أول أنواع العقد الّذي قلد تباعا كما هي العادة في تطور الأشكال،وهو أنواع، وله عدة مرادفات قوس وطاق وقنطرة. علي ثويني، معجم عمارة الشعوب ، ص501.

[4]- الأساطين: جمع مفردها أسطوان وأسطون، وهو عبارة عن دعامة ينهض عليها البناء. السيد عبد العزيز سالم، بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد الخامس، ع1-2، مدريد، 1377هـ/1957، ص245 .

الّذي بنى إلى جانب القصر قبّة عرفت بقبّة الحمار ذلك أنّ الخليفة كان يصعد إليها في مدرج حولها على حمار صغير وكانت عالية مثل نصف الدائرة، وقد تولى أمر بنائه أبو عبيد الله النقري وأمره بنقض ما بقي من قصر كسرى، فكان الآجر ينقض من شرق قصر كسرى وحيطانه فيوضع في مسناة التاج، وكانت تصل إلى دجلة، ثمّ يحمل ما كان من أساسات قصر كسرى وبنى به أعالي التاج وشرفاته، وأمّا تصميم التاج الداخلي فقد اتّبع في تصميمه قصر الحير، وكان وجهه مبنيا على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين خمسة أذرع[1].

ومن القصور كذلك قصر الثريا الّذي أنشأه الخليفة العبّاسي المعتضد (279-289هـ/892-901م) بينه وبين قصر التاج ميلان[2] وعمل بينهما سردابا (نفقا) تمشي فيه حظاياه من القصر الحسني وهي الآن خراب[3].

وقد تعرض هذا القصر أيام الخليفة المقتدر إلى الشغب من طرف الفرسان حيث نهبوا ما في خزائن قصر الثريا وأحرقوا عامته وخربوا القبة والقصر المعروف بالأترجة والكوكب وسلبوا ما كان فيه من الآلات والمتاع والوحش والطير، وظل هذا القصر قائما حتّى فاضت دجلة فيضانا شديدا فأحدثت خرابا عظيما في بغداد وكان من جملة ذلك خراب قصر الثريا[4].

ومن أشهر مدن العراق الّتي حفلت بالقصور الفخمة بغداد حيث ذكر الخطيب البغدادي أنّ الجاحظ وصفها[5] بقوله: «قد رأيت المدن العظام، والمذكور بالإتقان والإحكام، وبالشّامات وبلاد الروم وفي غيرها من البلدان فلم أر مدينة قط أرفع سكا ولا أجود استدارة،

[1]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد،ج1، ص99.ابن الجوزي، المنتظم، ج12، ص335-336. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص219 . ونشير هنا أنّه في سنة 549هـ شبّ حريق في قصر التاج من جراء انقضاض صاعقة عليه واستمرت النّار فيه تسعة أيّام متتالية فحولت قصر التاج وقبته المتّصلة به إلى ركام من الرماد إلّا أنّه أعيد بناؤه على عهد الخليفة المقتفي العبّاسي، ثمّ أعاد بناءه من جديد الخليفة العبّاسي المستضيء سنة 574هـ/1178م ولم يبق من قصر التاج القديم إلّا اسمه في أواخر الدولة العبّاسية. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج2،ص 5.

[2]- الميل: الميل مقياس للطول يساوي 400 ذراع شرعية أي 1/3 فرسخ. فالترهنتس، المكاييل والأوزان ، ص95.

[3]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص108. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص4.

[4]- مسكويه، تجارب الأمم، ج5، ص32.

[5]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص 77.

ولا أنبل نبلا، ولا أوسع أبوابا ولا أجود فصلا من الزوراء – أي بغداد– وهي مدينة أبي جعفر المنصور، كأنّما صبّت في قالب، وكأنّما أفرغت إفراغا».

كما شملت العراق المباني الشاهقة الّتي تتألف من عدة طوابق، وفرشت بأثمن الأثاث والريّاش الّتي جلبت من كل مكان في العالم، وكان قصر الخليفة بما يحيط به ملحقات للحريم والخصيان وموظفي الخاصة يشغل ثلث المدينة، وكانت قاعة الاجتماعات بما حفلت به من بسط وستور ووسائد من أحسن ما أنتجه الشرق وتدل على عظمة الخلفاء العبّاسيين وثراء دولتهم[1].

كما تميّزت القصور الّتي ضمّتها دار الخلافة من وجود طريق معقود بإزاج[2] تحت الأرض وسراديب تصل القصور ببعضها البعض، كما كانت قصور الخلفاء تضم دورا وبساتينا ومسطحات مظللة بالأشجار، كما تضم قبابا وأروقة، وكانت تزيد في جمالها البرك والأنهار المرصصة يجري فيها الماء، وكانوا يرصصون الأنهار الصغيرة والسواقي «أي يبطلون أسافلها بالرصاص القلعي شديد البياض وهو أجود من الفضة المجلوة لكي لا يذهب الماء سدى»[3].

وكانت الأروقة تسمّى بالأربعيني أو الستيني أو التسعيني بحسب الغلمان أو الحرس الّذين يجتمعون فيها، وكان الأمراء إذا جاؤوا إلى دار الخلافة دخلوها راكبين حتّى إذا وصلوا إلى الموضع الّذي ينزلون فيه ترجلوا ودخلوا والحجّاب بين أيديهم[4].

---

[1]– رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص186.

[2]– الأزج: بفتح الألف والزاء، وجمعها أزاج وهو في اللغة يعني الحاجب الرقيق، وهو في العمارة عبارة عن بناء معقود طويل كأنّه إيوان مستطيل المساحة وهو في حقيقته قبو طويل نصف اسطواني، وأشهر الآزاج مدينة بغداد المدورة عند مداخلها المزورة المبنية عام 145هـ/762م. علي ثويني، معجم عمارة الشعوب، ص97.

[3]– جيهان سعيد الراجحي،الحياة الاجتماعية،ص223.

[4]– نفسه، ص 223.

وقد وصف لنا أبو المطهر الأزدي[1] تزيين قصور العراق بقوله: «بها الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية، مع الأواوين[2] والأساطين، فقد غشيت سقوفها بالسّاج وزيّنت تعاريجها بالأبنوس والعاج»، كما وصفها لنا أيضا بنيامين[3] بقوله: «وقصر الخلافة واسع الأرجاء تنوف استدارته على ثلاثة أميال تتوسطه روضة غنّاء فيها أشجار مثمرة من كل صنف وفيها من الحيوان ضروب كثيرة، وفي الروضة أيضا بحيرة واسعة يأتيها الماء من دجلة، وفي قصر الخلافة من الأبنية ما يحيّر العقول، ففيه من الرخام والأساطين المزوّقة بالذّهب المزيّنة بالحجارة النادرة المنقوشة بالريازة البديعة تكسوا الحيطان، وفي القصر كنوز وافرة وخزائن طافحة بالذّهب والثياب الحرير والجواهر الكريمة».

كما كانت تكتظ بالتحف والأواني من الذّهب والفضة، والأثاث الفاخر، فقد ذكر لنا الخطيب البغدادي[4] أنّ عدد ما علق في قصور الخليفة المقتدر بالله من الستور الديباج المذهّبة بالطرز المزيّنة بصور الفيلة والخيل والسباع والطرد، والستور الأرضية والواسطية، والستور الديبقية المطرّزة حوالي ثمانمائة وثلاثين ألف ستر، منها الستور الديباج المذهّبة وعددها إثنا عشر ألف ستر وخمسمائة ستر عدا البسط الطويلة الجرهمية والدورقة في الممرات، سوى ما في المجالس من الأنماط الطبري والديبقي إثنان وعشرون ألف قطعة[5].

وبلغ من الميل إلى الأبّهة أنّ الخلفاء كانوا يغطون جذوع أشجار النخيل في حدائقهم بطبقة من الخشب الفضي والمذهّب، كما اعتنوا ببناء قصورهم ومساكنهم وتشييدها على طراز هندسي جميل، يقوم معظمها على طابقين بحيث يبنى الأسفل منها بالحجارة دفعا لأخطار المياه أثناء الفيضان، ثمّ يشيّد الباقي بالآجر المجلل بالكلس، وترتفع فوق أسطحها

---

[1]- حكاية أبي القاسم البغدادي، مطبعة كردونتر، هيدلبرج، 1902، ص34-37.

[2]- الأواوين: جمع مفردها إيوان وهو لفظ فارسي معرب، ويعني في العمارة الإسلامية فضاء عماري مقبّي ومفتوح ورثته العمارة الإسلامية من العمارة العراقية- الإيرانية، يقع عادة في الواجهة الجنوبية من الدار ليضفي على المكان الراحة المرجوة، ويكون بعتبات مرتفعة عن الأرض للجلوس أو على الأرض مباشرة، وهو قسم الضيافة الصيفي في الدار، وتكون أمامه النافورة أو البحرة متمركزة على محوره في الباحة السماورية. علي ثويني، معجم عمارة الشعوب، ص122.

[3]- رحلة بنيامين التطيلي، ص131.

[4]- تاريخ بغداد، ج1، ص102-103.

[5]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص102-103.

قباب تركز على أسطوانات دقيقة وتحاط بعض مقاصيرها بجدارين منعا لتسرب الحر والبرد إلى الداخل[1].

ولم يقتصر تشييد القصور الفخمة على الخلفاء العبّاسيين بل حذا الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة حذوهم في تزيين القصور والدور، وبناء القاعات ذات القباب والأروقة والبساتين، فقد كان للوزير دار يقيم فيها في دار الخلافة ليكون قريبا من الخليفة ويتلقى أوامره، وكانت دار الوزير تسمّى بدار الوزارة باعتبارها مقر الوزارة، حيث أنّ المعلومات المتوفرة في المصادر تذكر أنّ دار الوزارة هي مقر الوزارة ويسكنها الوزراء خلال شغلهم ذلك المنصب، وإنّ ملكيتها تعود إلى الدولة كدار ابن الفرات الّتي يذكرها الصابئ[2] فيقول: «إنّ ابن الفرات في وزارته الثانية سنة 311هـ اشتهى أن يجمع حرمه وبناته وإخوته وأصاغر ولده في الدار المعروفة بدار البستان من الدار الكبرى المعروفة بدار سليمان بن وهب فتقدّم بإصلاحها وتنظيفها وإنفاق ما يحتاج إليه في تبييضها وإعدادها فبلغت النفقة خمسين ألف دينار وجلس وهم فيها يوما واحدا ولم يعد بعد ذلك إلى الجلوس معهم فيها».

وكانت منازل الأمراء والوزراء وأعيان النّاس ببغداد تتألف من قصور كثيرة شيّدت على طراز واحد هو طراز الحيري والكمين، وكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد وهي مقاصير الحرم، وحجرات الخدم وأماكن للضيافة،ويحيط بالقصور بساتين غنّاء تحفل بالأزهار والرياحين والفاكهة، وقد زيّنوا أسطح قصورهم بقباب مرفوعة على عمد دقيقة، ويحيط بكل قصر سور واحد[3].

وقد كانت تشتمل على طابقين مبنية بالجص والآجر الّذي كان شائع الاستعمال في بناء الدور ببغداد، أمّا سقوف الدار فقد كان أكثرها من الساج المذهّب، كما كانت تزين الدور الرواشن[4] الّتي تشرف على خارج الدار والرجاشات[5].

---

[1]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص102.

[2]- الوزراء، ص199.

[3]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية ،ص 249.

[4]- الرواشن: كلمة فارسية وهي منظرة تشرف عادة على خارج البيت وتعرف اليوم بالشرفة وهو الكوه. الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص16. الزبيدي، تاج العروس، ج17، ص211.

[5]- الرجاشية: بالجيم من زينة الأبنية وتقويتها وبديع محسناتها، ويقال أنها من أصل آرمي وتنتسب إلى مدينة أرجش. الزبيدي، تاج العروس، ج17، ص211.

ومن أشهر قصور الأمراء قصر الوضاح الّذي شيّد ببغداد للخليفة المهدي العبّاسي، وتولى أمر بنائه رجل يدعى وضاح بن شبا، فنسب القصر إليه وكان هذا القصر في الجانب الغربي[1]، وقصر عيسى بناه عيسى بن علي عم الخليفة المنصور وهو أول قصر بناه الهاشميون ببغداد، و«كان قصر عيسى على شاطئ نهر الرفيل[2] عند مصبه في دجلة وهو اليوم وسط العمارة من الجانب الغربي وليس للقصر أثر الآن وإنّما هناك محلة كبيرة ذات سوق تسمّى محلة قصر عيسى»، ولمّا زار المنصور عمّه عيسى في قصره، ومعه أربعة آلاف رجل في وليمة أقيمت بمناسبة سعيدة، فلمّا رأى المنصور ذلك القصر أعجبه، «وقال لعمّه: يا أبا العبّاس لي حاجة. قال: ما هي يا أمير المؤمنين، فأمرك طاعة. قال: تهب لي هذا القصر.قال عيسى:ما بي ضن عنك به، لكن أكره أن يقول النّاس أنّ أمير المؤمنين زار عمّه فأخرجه من قصره وشرّد عياله وبعد، إنّ فيه من حرم أمير المؤمنين، ومواليه أربعة آلاف نفس فإن لم يكن بد من أخذه فليأمر لي أمير المؤمنين بفضاء يسعني ويسعهم، أضرب فيه مضاربا وخيّما، أنقلهم إليها إلى أن أبني لهم ما يؤويهم، فقال له: المنصور عمّر الله بك منزلك يا عم، وبارك لك فيه»[3].

وممّا سبق يتضح أن هناك اختلافات واضحة في عمارة القصور بين قصور الأمويين والعباسيين تعود في جزء منها إلى الاختلاف في مراسم البلاط الّتي كانت في ظل الأمويين تبتعد عن الرسميات ومحكومة بالأفكار البدوية عن المساواة، بينما سادت التأثيرات الفارسية في ظل العباسيين وتبنى الخلفاء مراسيم البلاط الفارسي الذي أله الملك إلى حد بعيد، ولذلك نجد قاعات العرش المعقدة والّتي تعلوها القباب عموما من أجل الاستقبالات الخاصة، ويتقدمها الإيوان المقنطر أو الايوانات الأربعة المروحية للاستقبالات العامة.

وأمّا دور طبقة العامة فأغلبها كانت بسيطة البناء، مجهّزة بالمرافق المنزلية، والمرافق الصحية، وقد كانت إمّا ملك يسكنها مالكها أو مؤجرة لغيره، ولم يكن إيجار البيوت أمرا

---

[1]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص 81.

[2]- نهر الرفيل: نهر يصب في دجلة مأخذه من نهر عيسى، وهو الّذي عليه قنطرة الشوك ويصب في دجلة عند الجسر، منسوب إلى الرفيل واسمه معاذ بن خشيش بن أبرويز بن خشين بن خسروان، وكان كثير السماع، مات سنة 465هـ. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص320.

[3]- ياقوت الحموي،معجم البلدان، ج4، ص361.

سهلا لفقراء العامة، فقد يشترك عدة أفراد في إيجار دار وسكناها، ومنهم من بنا أكواخا للسكن خاصة المعدمين والزهاد من الصوفية [1]. كانت بيوت الميسورين من طبقة العامة مقسّمة إلى ثلاثة أقسام قسم للاستقبال وقسم للحريم، وقسم للخدم، وكانت تحتوي على الكنيف والمستراح، وقد كان الأغنياء من النّاس لهم في دورهم مستراحات خاصة لا يستعملها غيرهم من خدمهم، ومجاري تحت الأرض وكثيرا ما يكون فيها آبار [2].

وأمّا دور غالبية العامة ببغداد فقد كانت تبنى في الغالب من طابق واحد أو طابقين، لها سطح مكتمل التّجهيز لأنّه من الأمور المهمّة لسكان بغداد خاصة في الصيف حيث اعتاد النّاس النوم فوقه ليلا، فقد كانوا يحبذون أن يكون السطح مرتفعا حتّى يكون معرض للهواء البارد لاستغلاله في فصل الصيف[3].

ومن داخل الدار بعد الباب الخارجي كان هناك دهليز مسقوف يصل باب الدار بالصحن الّذي يتوسط الدار، وفي نهاية الدهاليز في بعض الدور كان هناك باب للصحن عرف بباب الصحن، وهناك من يجعل كنيفا (مستراحا) بدل الدهليز لعدم الأهمية لهم[4].

وكانت الغرف مشرفة على الصحن وفي الغالب كانت غرف مربّعة، ولم يكن هناك عدد محدد للغرف في دور بغداد فقد كان عددها بحسب الحالة الاجتماعية لصاحب الدار، كما كان في معظمها أفنية صغيرة ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية[5].

كما كانت الدور تحتوي على سراديب الّتي كانت أحد وسائل التّهوية والتبريد في فصل الصيف حيث اتّخذت للسكن، غير أنّ الميسورين من العامة كانوا يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة من الخيش أو بيت الخيش الّذي يبلونه بالماء وهو من الأمور المألوفة ببغداد[6].

---

[1]- بدري محمد فهد، العامة ببغداد، ص165.

[2]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص257.

[3]- نفسه، ص258.

[4]- نفسه، ص257.

[5]- نفسه، ص257.

[6]- بدري محمد فهد، العامة ببغداد، ص167.

وكذلك كانت غالبية دور العامة مزوّدة بميازيب[1] لإخراج ماء المطر من على سطح الدار في فصل الشتاء، ومنهم من يجعل عوضا عنها مسيلا محفورا في الحائط يجري فيه ماء السطح ويقذف بالمياه إلى الطريق[2].

وبالنسبة لمواد البناء المستخدمة في ذلك الوقت فكان بالإضافة إلى الطين واللبن[3] الآجر والجص والكلس والنورة[4] والأسفيناداج[5]، كما استخدموا الأخشاب للأسقف ومنها جذوع النّخيل وأخشاب أشجار أخرى، وقد كان البناء في بغداد يكلف أكثر منه في البصرة[6].

وأمّا أهل الثراء من النّاس فكانوا يستخدمون خشب السّاج في السقوف ويزيّنون تعاريجها بالأبنوس والعاج، كما كانوا يطيّنون أسطح الدور حماية لها من تسرب مياه الأمطار ويبيّضون حيطانها ويطلونها بالأصباغ، كما كان لمعظم دور بغداد شبابيك للتّهوية والإنارة تقفل بألواح من الزجاج المتنوع الألوان، وتزيّنها الرواشن من الخارج الّتي كانت تطل على الطريق، أو تطل على نهر دجلة إذا كانت الدار قريبة منه، وغالبا ما تكون في الطابق السفلي للدار[7].

وكانت دور العامة تجتمع بعضها قرب بعض في مراكز الأحياء المكتظة بالسكان، وليس حولها أسوار أو حدائق، وتطل نوافذها على الشوارع بحيث إذا ارتفع المار على حجر تيسّر له أن يرى ما بداخل البيت، وقد وصف أحدهم بيوت منطقة الكبش والأسد في بغداد، وهي منطقة سكنها الفقراء، فكانت كهيئة القرية يسكنها المزارعون والحطّابون، وكانت البيوت

---

[1]- الميازيب: جمع مفردها ميزاب ويقال له في بعض اللهجات مزراب أو مزريب كما في العراق، ويعني في العمارة مجرى للماء يلزمه العناية بالميول اللازمة لأجل سيلانه، وهو عادة ما يستعمل لتصريف مياه المطر، وقد استعملت ألواح لذلك ألواح المعدن أو الفخار. علي ثويني، معجم عمارة الشعوب، ص678.

[2]- الشيزري، نهاية الرتبة، ص 14.

[3]- اللبن: لفظ فارسي معرب ومعناه الطين المفخور أي الآجر المجفف تحت وهج الشمس. علي ثويني، معجم عمارة الشعوب، ص84.

[4]- النورة: هو الجير الّذي لم يصبه ماء. الشيزري، نهاية الرتبة، ص117.

[5]- الأسفيناداج: رماد الرصاص والرمح والانك. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص146.

[6]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص 107. بدري محمد فهد، العامة ببغداد، ص167-169.

[7]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص258-259.

الفقيرة مؤلفة من الصفة فقط، وكانت ميازيبها تصب على الطريق فتؤذي المارة، وبنى الجنود سنة 252هـ بيوتا لهم في بغداد من البواري والقصب[1].

وأمّا عن تأثيث أغلب بيوت العامة فكان يقتصر على استعمال الحصر والمخاد والغضائر [2] والجرار، والكيزان[3]، وأمّا الميسورين من العامة فإن بيوتهم أكثر تأثيثا وزينة، فقد فرشت بالبسط المختلفة والزرابي المغربية والطنافس[4] الخرشنية والقطف الرومية، والمخاد المذهّبة الديبقية والديباج التستري المقصّب بالذّهب، كما أرخيت فيها أنواع الستور لتزيين الجدران وبها نقوش وتصاوير في الغالب تكون خاصة ببيوت أهل الذمة الّذين كانوا جزءا من نسيج المجتمع العراقي آنذاك[5].

ومن أثاث دور العامة كذلك كانت القدور المستعملة في الطبخ والصواني والغضائر، وأدوات الشراب كالأقداح والطاسات، ومن الأدوات المستعملة في غسل الأيدي الطست والإبريق إضافة إلى الأشنان، والمناديل لتنشيف الأيدي بعد غسلها، كما كانت هناك أدوات للزينة اقتصر استعمالها على الأغنياء من العامة مثل قماقم الذهب والفضّة المستعملة في حفظ ماء الورد، كما اعتاد أصحاب البيوت الكبيرة تجهيز دورهم بالمواد الغذائية الضرورية في مواسمها كالحنطة والشعير والعسل والسمسم، وكانت الدور تضاء بالسرج والقناديل والشموع[6].

أمّا عن أسعار البيوت وتكاليف البناء فالمعلومات قليلة، فمثلا في سنة 252هـ باع موظف داره بمائة ألف دينار، وأعطي رجل دمّرت داره بالفيضان عشرة آلاف درهم ليبني دارا يعلو بناءه السابق، وفي القرن الثالث الهجري كان إيجار دار الفضل بن الربيع ألف

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص360.

[2]- الغضائر: طيب العيش والغضراء طينة خضراء علكة، ويقال أنبط فلان بئره في غضراء وغضر عنه يغضر أي عدل عنه، ويقال غضره أي حبسه ومنعه والغاضر: الجلد الّذي أجيد دباغه، والغضور: نبات. ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص168.

[3]- الكيزان: كوز جمع أكواز وكيزان، والكوز إناء بعروة من فخار أو غيره له أذن يشرب فيه أو يصب منه، وكوز الذرة سنبلها. ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص154.

[4]- الطنافس: مفردها طنفسة والطنفسة هو البساط. ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص243.

[5]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص259.

[6]- نفسه، ص260.

درهم في الشهر، وفي القرن الرابع الهجري اشترى قاضي القضاة دارا بأربعة وعشرين ألف دينار[1].

وفي العهد البويهي سكن الخلفاء العبّاسيون طوال مدة حكم البويهيين هذه القصور الّتي شيّدها الخلفاء السابقون وأضاف بعضهم إليها دورا جديدة، وسمحوا لخواصهم من رجال البلاط والحاشية بالإقامة فيها، ومن أبنية دار الخلافة دار الطواريس والدار المربّعة والدار المثمّنة وهي من عمارة الخليفة المطيع لله، كما بني أيضا القصر المعروف بدار شرشير وأحاطها بالبساتين وملأ حدائقها بالحيوانات، كما كان من دور الخلافة ببغداد دار عظيمة تسمّى دار الخيل وهي دار واسعة عادية البناء لها صحن واسع، وكانت أكثرها أروقة بأساطين رخام كان يوقف فيها في الأعياد وعند ورود الرسل من البلاد، وفي كل جانب منها خمسمائة فرس بالمراكب المذهّبة والفضيّة، وكان لكل فرس منها على يد شاكري بالبزة الجميلة[2].

وصارت كل هذه الدور تعرف باسم دار الخلافة حيث اتخذها العبّاسيون مقرا لحكمهم، وسورت بسور على هيئة نصف دائرة، وسمّي جميع ما يشمل عليه بحريم دار الخلافة وكان يضم قصور الخلفاء والمحال والأسواق ودورا كثيرة للرعية، ويجتاز السور سور له أبواب يقع شرقي دار الخلافة ويعزلها عن منازل السور من الشرق ونهر دجلة من الغرب، ويحيط بدار الخلافة والحريم سور ذو تسعة أبواب رئيسية أشهرها باب الغربة وباب الخاصة وباب النوبي وباب العامة[3].

ومع فقدان هيبة الخليفة العبّاسي خلال عهد نفوذ البويهيين (334-447هـ) كانت دار الخلافة تتعرض لنهب العامة بعد عزل الخليفة أو في فترات الاضطراب والفتن، فحين خلع بهاء الدولة البويهي الخليفة الطائع سنة 381هـ «أخذ ما في دار الخليفة من الذخائر»،

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص360.

[2]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص82.

[3]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص 99-105. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص419-422.

وفي سنة 423هـ جلس الأمير البويهي جلال الدولة مع ثلاثة من رجال حاشيته ومغنيّاته يتسامرون في بستان الخليفة القائم بأمر الله غير عابثين بحرمة الخلافة[1].

واستقر معز الدولة البويهي في قصر مؤنس الخادم حتّى شيّد له القصر الّذي عرف بالدار المعزية التي أمر بإنشائها سنة 303هـ-356هـ، وصار يخطب له على منابرها ويضرب اسمه على النقود، وهو أول القصور البويهية الّتي شيّدت في بغداد،وكان موقع هذا القصر في محلة الشماسية المجاورة لدار الروم في أعلى مدينة بغداد على ضفة نهر دجلة، وممّا عجّل ببناء هذه الدار أنّ معز الدولة مرض بمرض شفي منه بعد طول عناء، فقرّر مغادرة بغداد غير أنّ أصحابه أشاروا عليه بالمقام بها وأن يبني قصرا في أعلاها حيث «الهواء أرق والماء أصفى وأعذب»[2].

وكانت دار عظيمة حيث بدء في بناءها سنة 350هـ، وقد اضطر معز الدولة لتوسعتها إلى هدم الكثير من الدور والقصور، وأرغم أصحابها للتخلي عنها، وكان خراب هذه الدار سنة 418هـ[3].

ويذكر مسكويه[4] أنّه جلب لبناء هذه الدار «البنّاؤون الحذاق المشهورون من جميع البلدان الكبار من الأهواز والموصل وأصبهان وبلدان الجبل وغيرها، ونزل سفلا في الأرض لبعض الأساسات ستا وثلاثين ذراعا، ورفعها إلى وجه الأرض بالنورة والأحر إلى أن ارتفع فوق الأرض بأذرع، ولزمه على هذا البناء إلى أن مات ثلاثة عشر ألف ألف درهم، صادر فيها أسبابه، سوى ما لم يشتره من الآلات الّتي ذكرناها والّتي لم نذكرها، وكان مقيما طول المدة في بستان الصيمري ثمّ انتقل إلى الدار الّتي بناها في شهر ذي القعدة سنة 350هـ قبل أن يكتمل بناؤها».

وقد زوّد معز الدولة داره بالاصطبلات الواسعة الّتي تناسب روعة البناء،أمّا عن ميدانها فكان ميدانا فسيحا على دجلة متّصلا بين القصر والبستان حيث يجمعهما سور

---

[1]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص83.

[2]- مسكويه، تجارب الأمم،ج5،ص 328-329.ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص184.ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص163.

[3]- ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص184. ابن الأثير،لكامل في التاريخ، ج8، ص163.

[4]- تجارب الأمم، ج5، ص329.

واحد، وقد كانت هذه الدار محصّنة بأبواب سميكة، كما زيّنت سقوفها خاصة السقف الّذي كان يعلو بيت المائدة فكان مزخرفا بالذّهب، كما بني بالدار روشا بديعا أي منظرة تشرف على داخل البيت وخارجه، كما اشتملت على سور يحيط بالقصر والميدان، وميدان فسيح، وأساس متوغل في الأرض لتدعيم صرح البناء وتمكين بنائه إلى ما يقرب من خمسة عشر مترا، إضافة إلى بناء مسناة لوقاية بناء الدار، وليمنع تسرب المياه إلى داخلها، وكان طول ما بني منه ألفا وخمسمائة ذراع وعرضه نيف وسبعون ذراعا من الآجر، ولم يكمل معز الدولة من مسناتها إلّا جزء، وقد أراد أن يصل المسناة بدار الصميري غير أنّه توفي سنة 356هـ دون أن يكملها[1].

وتميّز عهد عضد الدولة البويهي بكثرة ما أنشئ فيه من الأبنية والقصور بعدما تعرّضت بغداد للخراب لتوالي الفتن عليها، ففي سنة 369هـ قام عضد الدولة البويهي بعمارة المساجد والأسواق في بغداد، كما اهتم بتحسين مجاري الجداول فيها الّتي تخترقها وتنقل الماء الصالح لشرب أهلها،وسقى حدائقها فجدّد ما دثر منها وأعاد حفرها وتسويتها وأقام قناطرها، كما شيّد عضد الدولة البويهي في بغداد قصورا عدة، حيث وسّع قصر معز الدولة معظمه وأطلق عليه اسم سراي السلطان ولم يبق من القصر القديم غير القسم المعروف بالبيت الستيني[2].

وقد جعل عضد الدولة البويهي الدار الّتي في هذا البيت دار العامة، والبيت برسم جلوس الوزراء، وما يتصل به من الأروقة والقباب مواضع للدواوين، والصحن مناما لديلم النوبة في ليالي الصيف أي لقوات الحرس من الديلم وغيرهم الّذي يتناوبون الحراسة، وألحق بالقصر بستانا أنفق عليه عضد الدولة مالا كثيرا[3].

---

[1]- مسكويه، تجارب الأمم، ج5، ص328-330. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص85.

[2]- حورية عبدة سلام، الحياة الاجتماعية، ص85-86.

[3]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد،ج1،ص105.

كما ضاعف مساحة الميدان الّذي سمّي بالميدان السبكتكيني[1]، ثمّ استدعى المهندسين وأمرهم بشق نهر يسبح ماؤه إلى داره، واستخدم «الفيّلة فداست الأرض المعلاة والدور المنقوضة الّتي أصبحت ضمن البستان» وقد قدرت تكاليف هذه الأعمال بخمسة مليون درهم، وقد ظل قصر عضد الدولة المقر الرسمي للأمراء البويهيين الّذين أعقبوه، إلّا أنّ جلال الدولة قام ببعض التغييرات والتعديلات فيه[2].

وتألفت دور الأغنياء من سكان العراق في العهد البويهي من عدة طوابق ، يحيط بها سور، وكانت تبنى بالآجر المغطّى بالكلس، واشتملت على ثلاثة أقسام:قسم للنّساء،وقسم للخدم، وقسم للضيافة عرفت بمجالس السلام، وقد زيّنت جدرانها بالفسيفساء المذهّبة والرسوم الملوّنة[3].

كما اهتموا بغرس الأزهار في جنبات دورهم وبإقامة الحدائق حولها، واتخذوا لأنفسهم بها مقاعد بين الماء المتدفق من تماثيل السباع وأنواع الطيور، كما اتّخذوا بالدور مراوح تجذب باليد فتنعش جو الحجرة في أيّام الحر، وهم في ذلك يتشبّهون بقصور الأمراء والوزراء، فقد وصفوا بأنهم كانوا «في أفنيتهم كالملوك على أسرتهم»[4].

وقد أمر عضد الدولة البويهي أهل الدور والمساكن على جانبي دجلة بعمارة المسنّاة وتجديدها بعد أن كانت خرابا،كما ألزم أصحاب الأملاك الّتي خربت بإعادة عمارتها، وأمر بأن «يغرس في كل خراب لا صاحب له غرس»، ومن قصرت يده أقرضه من بيت المال وغرس هو، وأمر بحفر الأنهار الّتي اندرست وعمل عليها أرحاء، كما أعاد عمارة بستان دار العبّاس بن الحسين بعد أن كانت خرابا، واهتمّ بتعبيد الطرق لضمان راحة المسافرين، كما

---

[1]- سمي الميدان السبكتكيني نسبة إلى سبكتكين حاجب معز الدولة وكانت إمارته شهرين وثلاثة عشر يوما، خلع عليه الطائع وطوقه وسوره، ولقّبه نصر الدولة، فسقط سبكتكين عن الفرس، فانكسر ضلعه فاستدعى ابن الصلت المجبر فرد ضلعه ولازمه إلى أن برأ فأغناه وأعطاه يوم أدخله الحمام ألف دينار وفرسا ومركبا وخلعه، وكان يقدر على الركوب والقيام في الصلاة والسجود ولا يقدر على الركوع، توفي سنة 364هـ، وحمل تابوته إلى بغداد، فدفن في تربة ابنته بالمخرم. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص106. ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص237- 238.

[2]- ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص141. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص87.

[3]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص87.

[4]- نفسه، ص87- 88.

أمر ببناء عمارة عظيمة على قبر الإمام علي بن أبي طالب في مدينة النجف، وأنفق عليها أموالا طائلة، وستر حيطانها من الداخل بخشب السّاج المنقوش، وعمّر مسجد الحسين بن علي بكربلاء[1].

وبعد موت عضد الدولة البويهي لم تشهد بغداد ولا بقية مدن العراق إصلاحات جديرة بالذكر سوى بعض الإصلاحات النادرة لبعض أمراء بني بويه كشرف الدولة الّذي أشار أبو شجاع[2] إلى إصلاحاته في حوادث سنة 377هـ حين طالب العمّال «بعمل المصالح وأخذهم بإقامة العمارات».

وكانت قصور الأمراء والوزراء ودور الأغنياء تضاء بمصابيح ذات أرجل مصنوعة من الفخار والنحاس وتشعل بدهن الخروع، كما كانت تعلق القناديل المتقنة الصنع في أسقف الدور، وكان من الّذين اشتهروا في صناعة القناديل في عهد عضد الدولة البويهي علي بن عبد الله الأديب الّذي صنع قنديلا لمشهد موسى بن جعفر في الكاظمية في غاية الإتقان، بينما كان يستخدم المشعل في المجالس الكبيرة، كما استخدموا الشموع الّتي كانت تخلط بأنواع العطور، وقد أنفق الوزير أبو طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة البويهي مبالغ كبيرة في استخدام هذا النوع من الشموع[3].

وأمّا دور متوسطي الحال من السكان فكانت تتكون من طابق واحد، وتطل نوافذها على الطرقات، ولم يكن لها سور يحيط بها، ولا حمامات خاصة فكان سكانها يلجأون إلى الحمامات العامة[4].

---

[1]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص88.

[2]- ذيل كتاب تجارب الأمم، ص137.

[3]- الصابئ، المختار من رسائل الصابئ، عناية شكيب أرسلان، دار النهضة الحديثة، بيروت، (د ت)، ج3، ص108.

[4]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص89.

رابعا- الاحتفالات والأعياد ووسائل التّسلية:

1- الاحتفالات والأعياد:

أ- الأعياد الإسلامية:

تنوعت صور الاحتفالات بالعراق تبعا للعادات والتقاليد الاجتماعية الّتي اختلفت باختلاف عناصر السكان الّتي ضمتها الخلافة العبّاسية كالعرب والفرس والأتراك والتركمان وغيرهم الّذين اقتبس منهم العبّاسيون الكثير من العادات والتقاليد الّتي تتعلق بمظاهر حياتهم الاجتماعية، كما اختلفت تلك العادات والتقاليد باختلاف المناسبات ،فهناك عادات تظهر في المناسبات والأعياد الّتي شارك فيها المسلمون والمسيحيون، إلّا أنّ الطابع الإسلامي للمجتمع ظل أحد سمات المجتمع العبّاسي في مظاهر احتفالاته بالمناسبات الدينية.

ومن أهم المناسبات الدينية بالعراق كان يوم الجمعة،حيث اكتسبت صلاة الجمعة أهميّة خاصة ليس في العراق فقط، بل في كافة العالم الإسلامي إذ هو عيد الأسبوع بالنسبة لجميع المسلمين، وكان المسلمون يحافظون على طهارتهم في هذا اليوم بدخولهم الحمامات وارتدائهم الثياب الجميلة[1].

ونظرا للأهمية الاجتماعية لصلاة الجمعة، كان الخلفاء يقلّدون إمامة مساجد بغداد للرجال المقربين، وفي سنة 361هـ كان الحسن بن عبد العزيز الهاشمي إماما لجامع الرصافة، وابنه أبو بكر إماما في جامع دار الخلافة، وابنه عثمان إماما في جامع المنصور[2].

والدليل على أهمية هذا اليوم هو كثرة عدد المصلين حيث كانت صفوفهم في القرن الثالث الهجري تمتد من جامع المنصور إلى باب خراسان، وفي القرن الرابع الهجري كان المصلون في جامع الرصافة يقفون على مسافة توازي المسافة السابقة، ووصفت صلاة الجمعة في بغداد بأنّه يوم مشهود[3].

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص.378

[2]- الخطيب البغدادي،تاريخ بغداد، ج1،ص 48-49.فهمي سعد، العامة في بغداد، ص378.

[3]- ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص22.

ويتم إعلان مواعيد الصلوات بقرع الطبول بدار الخلافة الّتي كانت بها دار خاصة عرفت بدار الطبل عامرة بالساعات لإدراك وقت الآذان، فإذا دخل وقت الصلاة ضربت النوبة في جميع الأوقات ، وفيما بعد لمّا تراجعت سلطة الخليفة العباسي تمكّن معز الدولة البويهي من الحصول على الإذن بأن تضرب الطبول أمام داره في أوقات الصلوات الثلاث: الغداة والمغرب والعشاء، ثمّ أقرّ الأمر في عهد عضد الدولة[1].

ونشير هنا أنّ هذه البدعة انتشرت ووجدت صداها في المجتمع العباسي – على الرغم من أنّ وقت الصلاة يعرف بالآذان– وهذا راجع إلى السيطرة البويهية ذات المذهب الشيعي، لهذا نجد مثل هذه العادات المنافية للشريعة الإسلامية في المجتمع العراقي في العهد البويهي.

كما كان العباسيون يقضون بعض الوقت في يوم الجمعة في غير الصلاة كالفرجة والتنزه، حيث كان من عادتهم الخروج للنزهة بجامع المنصور كل جمعة، كما كان الشعراء يجتمعون كل جمعة في القبّة المعروفة بهم من جامع المنصور فيتناشدون الشعر، ويعرض كل واحد منهم على أصحابه ما أحدث من القول بعد مفارقتهم في الجمعة الّتي قبلها، وكان يحضرها دعبل وأبي الشيص وابن أبي فنن وأبو تمام، والنّاس يستمعون إنشادهم[2]، وكان من روّاد هذه القبّة في القرن الرابع الهجري أبو بكر الشبلي– ت334هـ–.

وقد فاقت مواكب الخلفاء العبّاسيين مواكب الأمويين في الروعة والبهاء، ففي أيّام الجمع يسير الحرّاس على اختلاف طبقاتهم في مقدمة موكب الخليفة حاملين الأعلام، ثمّ يليهم أمراء البيت العبّاسي على الخيول الحسنة، ثمّ الخليفة ممتطيا جوادا شديد البياض، وبين يديه كبار رجال الدولة، وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب القباء الأسود ويتمنطق بمنطقة مرصّعة بالجواهر، ويتشّح بعباءة سوداء ويلبس قلنسوة طويلة مزيّنة بجوهرة غالية، وبيده قضيب النبي صلى الله عليه وسلم وخاتمه، ويتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصّعة

---

[1]– ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص260. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص378.

[2]– ابن الجوزي، المنتظم، ج11، ص131. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص378.

بالجواهر النفيسة، وكان الخليفة الهادي أول من أدخل هذا النظام، ولكن الرشيد والمأمون كثيرا ما كانا يميلان إلى البساطة، فلم يكن يصحبهما غير حارس واحد أو حارسين[1].

وكانت عادة الخلفاء أن يصلّوا الجمعة بجامع القصر حيث رتّب حاجبا خاصا للمنبر يكون متأهبا ليوم الجمعة بإزاء المنبر، وعليه الثياب السوداء ويشد وسطه بمنطقة متقلدا بسيف حليته فضة، وكانت مهمّة الحاجب أن يقف بين يدي المنبر يأخذ من المتظلمين شكواهم ويستعلم عن أحوالهم، وكان له جماعة من الغلمان المستخدمين مقيمين بباب العامة ينفّذون أوامره ويستخدمهم كيف يشاء، وإذا تكاملت الرقاع معه أخذها في منديله، فإذا أنقضت الصلاة سلم تلك الرقاع للوزير أو نائب الوزير الّذي جرت العادة أن يصلي في مقصورة الجامع، وبعد أن يشرح للوزير أحوال أرباب تلك الرقاع فما يحتاج عرضها على الخليفة يرجع بها إلى الخليفة وما لا يحتاج يقضي فيها الوزير أو نائبه[2].

أمّا الأعياد الدينية الإسلامية الأخرى فكان رمضان وعيد الفطر فالبنسبة لرمضان: لقد فرض الله على المسلمين صيام شهر رمضان، وهو الشهر التّاسع من التقويم الهجري وهو الشهر الّذي أنزل فيه القرآن، وكان شهر رمضان عيد في جميع أيّامه،وكان المسلمون يمارسون شعائر خاصة بهذا الشهر، وربّما انقطعوا عن الممارسات العادية في حياتهم اليومية لينصرفوا إلى المسجد الّذي يصبح مكانهم الرئيسي يقيمون فيه صلاة التراويح، فكانت دار الخلافة تعتني فيه بالمساجد حيث تضاء ليلا بالمصابيح والقناديل طوال الشهر وأوصى المأمون بالإستكثار من القناديل في شهر رمضان لأنّ فيها أنسا للسابلة وضياء للمجتهدين[3].

ومن العادات العراقية الّتي تمارس في رمضان فتح دور الضيافة في أول الشهر للعوام والفقراء والأيتام، كما كان الطعام يصل إلى الفقير والسائل، وإذا بقي من الشهر أربع ليال خلع مخزن الخلافة الهدايا على كبار رجال الدولة، ثمّ يتوسع حتّى ينال الخاص والعام، وكان النّاس يتبادلون التهاني بحلول الشهر، ويخرجون من أموالهم صدقات ويقيمون المآدب،

---

[1]- أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص357. علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص586.

[2]- ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص22-23. أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص52.

[3]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص284.

وقيل إنّ الصاحب بن عباد كانت تبلغ نفقاته في هذا الشهر جميع ما يطلق منها في جميع شهور السنة[1].

كما كان أهل العراق يحتفلون بشهر رمضان بإحياء لياليه بتلاوة القرآن الكريم في المنازل، وكان الأغنياء يقومون بإطعام الفقراء، فمثلا كان يفطر عند الصاحب ابن عباد في كل ليلة عدد كبير من الفقهاء[2].

وكانت العامة تنقطع عن الممارسات العادية في حياتهم اليومية، فيحيون لياليه إمّا بالذهاب إلى المساجد لصلاة التراويح ثمّ يقومون بعد ذلك بزيارة الأقارب والأصدقاء، فقد كانت أيّام رمضان كلها أعيادا وأوقاته طاعة وعبادة، حتّى إذا قاربت ليالي رمضان على الانتهاء أخرجت دار الخلافة الأنعام إلى الفقراء وبدأ النّاس بالاحتفال بعيد الفطر، فكان النّاس يهيئون للعيد النفقات الضرورية لعائلاتهم، وكانوا يحتفلون برؤية هلال شوال، وهي من المناسبات الّتي تسر لها النفوس، حيث تقرع الطبول احتفالا بليلة العيد[3].

وتبدأ مراسيم إعلان عيد الفطر بمشاهدة هلال شوال ثمّ الشهادة لدى القضاة بذلك حيث يقوم القضاة بنقل هذه الشهادة إلى قاضي القضاة ومنه إلى الخليفة حيث يصدر أمره بآذان العيد، أمّا إذا لم يتحقق للنّاس رؤية هلال شوال فإنّهم يكملون عدة رمضان، وفي صباح أول أيّام عيد الفطر المبارك يخرج الخليفة مبكرا في موكب حافل يحيط به كبار رجال الدولة، وكانت عامة النّاس تصطف على جانبي الطرق للسلام على الخليفة حتّى إذا دخل الخليفة الجامع وصلّى صلاة العيد ألقى في النّاس خطبة العيد، وبعد انتهاء الخطبة ينهض المصلّون وهم يرتلون الدعاء للخليفة ثمّ يخرج الخليفة في موكبه ليعود إلى دار الخلافة[4].

---

[1]- التنوخي، نشوار المحاضرة، ج1، ص197-198. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص267.

[2]- الثعالبي، يتيمة الدهر، ج3، ص230.

[3]- ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص38.

[4]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص379-380. وقد وصف لنا الصابئ هذه المناسبة في عهد المقتدر حيث ذكر أنّ الخليفة يخرج إلى المصلى ومنه يتوجه إلى دار الخليفة، ويخرج نازوك صاحب الشرطة في خمسمائة فراش يحملون الشموع المواكبية الضخمة، ويجري استعراض الجند ويخرج النّاس لرؤية الموكب والعساكر، ثمّ ينصرف الخليفة إلى القصر فيجلس لتقبل التهاني، وبعدها توضع المآدب وتوزع الهدايا، فيما ينصرف العامة لتبادل زيارات التهاني بالعيد، وقد لبسوا ثيابا جديدة لهذه المناسبة. رسوم دار الخلافة، ص10-12.

وفي شهر ذي القعدة تبدأ احتفالات جديدة بحلول موسم الحج فقد كان من أعظم مواكب الخلفاء العبّاسيين موكب الحج، حيث يبدأ قدوم الحجّاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية من العراق وخاصة واسط والبصرة والكوفة، وفارس وخراسان فيجتمعون في غربي العراق ويضربون خيامهم، وقد أعدّوا عدّتهم من الإبل واللّباس والطعام والّذي كان يتكون من الأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج، ويكون معهم مجموعة من الجند لحراستهم ويسير في مقدمة هذا الموكب هوادج يعلوها قباب مزيّنة بالديباج المطرّز بالذّهب حيث يقيم في أحدها أمير الحاج[1].

وكانت الدولة العبّاسية توفر لهم مياه الشرب والطعام إلى أوان رحيل الحجاج إلى الأراضي المقدّسة بالحجاز ،كما كانت تشرف على مواكب الحج، وتولي على الحجاج أميرا غالبا ما يكون من بني العبّاس ويصاحب الموكب بعض القوات العسكرية لحماية الحجاج من غارات البدو، وكان أمير الحج يصحب معه كميات كبيرة من المؤن والثياب إلى جانب الإبل، ويتصدّر أمير الحج الموكب، ويجلس في هودج يعلوه قبّة مزيّنة بالديباج المطرّز بالذّهب، وكثيرا ما يخرج الخليفة مع موكب الحج، ويكون هو أمير الحج، ومن هؤلاء الخلفاء الخليفة أبو جعفر المنصور، وقد توفي وهو في طريقه إلى الحجاز حيث أصيب في الطريق بضربة شمس، فمات وهو على بعد ستة أميال من مكة في ذي الحجة سنة 158هـ[2].

وبرزت فخامة وأبّهة الحج في عهد الخليفة المهدي الّذي كان من أكثر الخلفاء العبّاسيين تديّنا وتمسكا بتعاليم الإسلام، حيث اهتم كثيرا بالأماكن المقدّسة في مكة والمدينة بإنشاء البريد بينهما وبين بلاد اليمن جنوبا وبلاد العراق شمالا، كما أقام محطات البريد،وزوّد الطريق بالماء، وزاد اهتمامه بشؤون الحج وتيسيره على المسلمين، وكانت مواكب الحج الّتي تخرج من الحجاز أعظم المواكب الّتي شهدتها بلاد العراق كما حرص المهدي على التوسيع على أهالي مكة والمدينة فزاد من أعطياتهم وأغدق عليهم الصلات والمنح، وقد سنّ الخليفة المهدي سنّة كسوة الكعبة في كل عام فإنّه لمّا قدم مكة نزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر، وألبسها كسوة جديدة من الحرير إذ خاف أن تتهدم لكثرة ما عليها من

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص381- 382.

[2]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص59-62. السيوطي، تاريخ الخلفاء،ص 442.

الكسى الّتي ألبسها الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فأصبح ذلك سنّة اتّبعها الخلفاء الّذين جاءوا بعد المهدي، وهي سنّة إلباس الكعبة كسوة جديدة كل عام، واختصت مصر بصناعة هذه الكسوة منذ ذلك الوقت[1].

كما لقيت مواكب الحج أيضا عناية الخليفة هارون الرشيد فقد كان من أفضل الخلفاء وعلمائهم، كان يحج سنة ويغزو سنة، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم وإذا لم يحج أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة والكسوة[2].

وأمّا عودة الحجيج إلى بغداد فقد كانت مناسبة أخرى للاحتفال حيث يخرج المستقبلون والمتفرجون يتلقونهم بالزينة ويضربون لهم القباب في الشوارع، فمثلا في سنة 319هـ وصل الحجاج إلى بغداد، فخرج الأهالي إلى استقبالهم، وأظهروا الفرح والسرور، ونشروا الزينة في الأسواق، وأخرجوا الثياب والحلي والجواهر ونصبّت القباب في الشوارع[3]، وقد ذكر المقدسي[4] أنّ الحجّاج يدفعون مكسا في بغداد عند عودتهم من الحج للمحمل ستين درهما، وأحيانا يغتنم الخليفة الفرصة ليخبر التجّار الشرقيين أوامره الإدارية، فقد قرأ المعتضد على مسامع حجاج خراسان سنة 285هـ أمره بتولية عمرو بن الليث الصفار -ت289هـ- ما وراء نهر بلخ وعزل أحمد بن إسماعيل، وفي سنة 391هـ جلس القادر بالله للحجاج الخراسانية وأعلمهم أنّه قد جعل ولاية العهد لابنه الأمير أبي الفضل ولقبه بالغالب بالله حيث قرأت عليهم الكتب المنشأة بذلك، وقد حضر الأشراف والقضاة والشهود[5].

وإنّ أهم المخاطر الّتي كان يتعرض لها الحجاج هي غارات الأعراب والقرامطة، ففي سنة 266هـ هجم الأعراب على كسوة الكعبة وانتهبوها، كما قطعوا طريق قافلة الحجاج سنة 269هـ وساقوا نحوا من خمسة آلاف بعير مع أموالها، وفي سنة 285هـ خرج الأعراب على الحجاج وانتهبوهم، وفي سنة 294هـ اعترض القرامطة قافلة الحج فسبوا النساء وقتلوا

---

[1]- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 456.

[2]- ابن الطقطقى، الفخري، ص140.

[3]- ابن الجوزي، المنتظم، ج13، ص 299.

[4]- أحسن التقاسيم، ص134.

[5]- ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص26.

الحجاج، ونهبوا ما في القافلة، وكان أعظم ما لحق الحجاج ما جرى سنة 311هـ حين هاجمهم أبو طاهر القرمطي[1] فنهبهم وسبى البعض ومات أكثرهم بسبب العطش والجوع[2].

وفي عهد الخليفة المقتدر بطل الحج بسبب استمرار القرامطة بالإغارة على قوافلهم خاصة بعد أن أغاروا على مكة واقتلعوا الحجر الأسود،ولم يستأنف الحج إلّا في سنة 327هـ بعد أن تم اتفاق في عهد الراضي مع القرامطة على خفارة الحج، فكان يطلق عن الجمل خمسة دنانير وعن المحمل سبعة،وكان مبلغ ما دفعته الدولة على نفقات الحج سنة 328هـ خمسين ألف دينار، وفي سنة 357هـ هلك الحجاج الخراسانية، وهلكت جمالهم بالعطش، ولم يتم الحج إلّا لنفر يسير من أهل بغداد [3].

وفي مطلع القرن الخامس الهجري عادت الإضرابات والفتن،حيث توقف فيها الحجاج الخراسانيون وبطل الحج من خراسان والعراق سنة 403هـ لفساد طريق الحج، وفي سنة 406هـ تأخر واضطرب الحج لأنّ السلطة في بغداد لم تتفق مع الأعراب على تأمين الحجاج[4].

وكان التجّار الخراسانيون يتّخذون من بغداد مركز تجاري هام في موسم الحج حيث تعرف بغداد حركة من النشاط غير عادية، يحملون إليها بضائع المشرق، ويحملون البضائع البغدادية إلى الحجاز ،كما أنّ التجّار البغداديون كانوا يرافقون قوافل الحج إلى مكة والمدينة[5].

غير أنّ ولاية الحج أصبحت منذ العهد البويهي توكل إلى أحد العلويين، وتوكل إلى والي الحج مهمة حفظ الحجاج ومساعدتهم، ومنذ أن ظهرت صعوبات تأمين خدمات

---

[1]- أبو طاهر القرمطي: هو سليمان بن الحسن بن بهرام الجنّابي الهجري، ملك البحرين وزعيم القرامطة، هاجم البصرة سنة 311هـ، وكتب إلى المقتدر يطلب ضمها إليه هي والأهواز، فلم يجبه، ثم أغار على الكوفة سنة 312هـ، فضجّ الناس خوفا من شره، فاهتم الخليفة لأمره، حيث سيّر لقتاله جيشا كبيرا،فشتته القرمطي واستولى على الرحبة وربض الرقة، وبعدها أغار على مكة يوم التروية سنة 317هـ والنّاس محرمون، فاقتلع الحجر الأسود، وأرسله إلى هجر، كما نهب أموال الحجاج وقتل كثير منهم، مات كهلا في هجر بالجدري سنة 332هـ. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص184-185.ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص325.

[2]- ابن الجوزي، المنتظم، ج13، ص49-50.

[3]- نفسه، ص189. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص382.

[4]- ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص92 وص112.

[5]- مسكويه، تجارب الأمم، ج4، ص392. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص382.

الحجاج وحمايتهم عيّن الخلفاء مساعدا لرئيس البعثة، وكان يسمّى في الغالب والي الأحداث أو والي أعمال الموسم[1].

وتنتهي مناسك الحج في ليل التاسع من ذي الحجة بالوقوف بعرفة، وفي صبيحة اليوم العاشر يقدم الحاج الأضاحي ويبدأ بالاحتفال بعيد الأضحى المبارك فيخرج النّاس في الصباح الباكر لآداء صلاة العيد، وبعد الانتهاء يبدأون بنحر الأضاحي، وقد حرص العبّاسيون على اختلاف طبقاتهم على نحر الأضاحي، فالخليفة ينحر على باب داره، وكذلك أهل بلده، فمثلا فرق المقتدر يوم التروية ويوم عرفة من البقر والغنم ثلاثين ألف رأس ومن الإبل ألف رأس[2].

وجاء في لائحة علي بن عيسى أنّ نفقات المقتدر كانت تضم مخصصات مالية للأضاحي، وكان النّاس يوزعون الأضاحي ويتهادونها، وكانوا جميعا حريصين على لحوم الأضاحي حتّى لم يكن يخلو منها دار يوم العيد حتّى الفقراء منهم، وكان النّاس يرتدون الثياب الجديدة في العيد، وكانت بغداد ترتدي حلة زاهية، وتسير فيها المواكب، يحمل رجالها الأعلام، وينفخون بالبوقات، ويتخذون المحامل[3].

ومن الاحتفالات كذلك الّتي كانت تقام في العراق تشييد الأبنية ومثال ذلك الحفل البهيج الّذي أقامه المنصور وشهده جميع رجال الدولة من الأمراء والعلماء والقوّاد والأعيان وعامة الشعب قدموا جميعا ليشهدوا وضع الحجر الأساسي للعاصمة الجديدة، أو الانتصارات العسكرية فبعد أن نجح المهدي وخازم بن خزيمة التميمي في القضاء على حركة أستاذ سيس[4] عاد المهدي من الري إلى العراق في زيارة قصيرة لوالده فاستقبله بحاشيته ورجال

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص381.

[2]- ابن الجوزي، المنتظم، ج13، ص62.

[3]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص24- 25. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص383.

[4]- أستاذ سيس: خرج أستاذ سيس سنة 150هـ، في أهل هراة وباذغيس وسجستان، وغيرها من مدن خراسان، وقد كانوا حوالي ثلاثمائة ألف مقاتل، فغلبوا على عامة خراسان، وساروا حتى التقوا هم وأهل مرو الروذ، فخرج إليهم الأجثم المروروذي في أهل مرو الروذ، فقاتلوه قتالا شديدا حتى قتل الأجثم، وكثر القتل في أهل مرو الروذ، وهنا وجّه المنصور وهو بالبرذان خازم بن خزيمة إلى المهدي لقتال أستاذ سيس مع القواد فتمكنا من القضاء عليه. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص29. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص190.

دولته واحتفل به احتفالا يليق بالفاتحين، كما كان يحتفل أيضا بتنصيب الخلفاء أو الاحتفال بانتصاراتهم على أعدائهم سواء الأعداء الخارجيين كالبيزنطيين أو الأعداء الداخليين من الخارجين على طاعة الدولة[1].

ومن الاحتفالات البهيجة الّتي شهدتها العراق احتفالها بانتصار قوات الخليفة المعتصم على حركة الزط ، وهم قوم من أخلاط النّاس غلبوا على البصرة، ومنعوا وصول المؤن والأقوات إلى بغداد وانتهزوا فرصة ذلك الصراع الّذي نشب بين الأمين والمأمون ليعيثوا في الأرض فسادا، وقد أرسل المأمون بعد موت أخيه عدة جيوش للقضاء على الزط ولكن لم ينجح فاستمر خطرهم طوال خمسة عشر سنة، وقد أبدى أهالي بغداد جزعهم حتّى إذا تولّى المعتصم الخلافة انتدب لقتال الزط القائد العربي عجيف بن عنبسة الّذي استمر يقاتل الزط تسعة أشهر وأرغمهم على طلب الأمان، وحملهم إلى بغداد في عدة سفن وكان عددهم سبعة وعشرين ألفا بين رجال ونساء وأطفال ودخل بهم بغداد يوم العاشر من محرم سنة 220هـ حيث أبدى الخليفة المعتصم وأهالي بغداد سرورهم بنهاية الزط ثمّ أمر المعتصم بنفيهم إلى آسيا الصغرى وإلى جبال الأكراد بشمال الشام[2].

كما أقام العباسيون حفلات الختان للأولاد وهي عملية ضرورية ومناسبة للاحتفال، ويرى العامة فيها مناسبة للغناء، ومن أشهر تلك الحفلات ختان المتوكل لابنه المعتز[3] الّذي وصفته المصادر وصفا دقيقا حيث ذكر الشابشتي عنه[4]: «ولمّا صح عزمه على ختان أبي عبد الله المعتز أمر الفتح بن خاقان بالتأهب له، وأن يلتمس في خزائن الفرش بساطا للإيوان في عرضه وطوله، وكان طوله مائة ذراع، وعرضه خمسون ذراعا، فلم يوجد إلّا فيما قبض عن بني أمية، فإنّه وجد في أمتعة هشام بن عبد الملك على طول الإيوان وعرضه، وكان بساطا أبريسما غرز مذهّب مفروز مبطّن، فلما رآه المتوكل أعجب به وأراد أن يعرف قيمته، فجمع عليه التّجار فذكر أنّه قوّم على أوسط القيّم عشرة آلاف دينار».

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص29- 32. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص190- 192. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية،ص 278.

[2]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص 10- 11.

[3]- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص300.

[4]- الديارات، ص66.

أعتق المتوكل احتفالا بختان ولده ألف عبد وأعطى لكل واحد مئة درهم وثلاث أثواب، كما نثرت من الأموال مليون درهم على الحاشية، وقد حضر الشاعر ابن أبي الجنوب فأنشد شعرا يتبين فيه حجم وضخامة الأموال المنفقة في ذلك الختان، كما ضربت دراهم خاصة بأعذار المعتز مكتوب عليها "بركة من الله لإعذار أبي عبد الله المعتز بالله"، وعندما أعذر المكتفي بالله ابنه أبا أحمد في سنة 294هـ خلع على النّاس غلالة قصب وجبّة فوقها ودراعة على حسب منازلهم وهي ما كان منسوج بالذّهب من الوشى والديباج[1].

وأعذر المقتدر بالله أولاده الخمسة في يوم واحد سنة 302هـ وهم محمد وهارون وعباس وإبراهيم وإسحاق ونثر عليهم 5000 دينار و100.000 درهم ووزّعت الكسوة وبلغت النفقة على هذا الإعذار 600.000 دينار، كما أعذر المقتدر بالله عددا من الأيتام وفرق فيهم الدراهم والكسوة وبلغت النفقة في هذا الإعذار 600.000 دينار[2].

كانت عادة المسلمين أن يختنوا أولادهم وهم غلمان، إذ يذكر الجاحظ أنّ ختان الغلمان أيسر من ختان المواليد الجدد، وأنّ أناسا من أطبّاء النصارى زعموا أنّ اليهود يختنون أولادهم في اليوم الثامن، كما لاحظ أنّ الكثيرين من أولاد النصارى والمسلمين كانوا يصابون بسوء من أثر الختان بسبب استعمال أدوات غير نظيفة، وأنّ أولاد السفلة والفقراء يؤمن عليهم خطأ الخاتن، وذلك غير مأمون على أولاد الملوك وأشباههم[3].

ب- الأعياد النصرانية والفارسية:

الأعياد النصرانية: مارس النّصارى أعيادهم الدينية بحرية، وقد شارك المسلمون العراقيون في هذه الأعياد، معتبرين هذه المناسبات فرصة للتنزه واللهو في مناطق أديرة بغداد المخضّرة، وكانت معظم هذه الأعياد تقام في الأديرة، فقد ترك المسلمون للنصارى حرية الاحتفال بأعيادهم الدينية، واشتركوا معهم في الجانب الاجتماعي المسلّي في تلك الأعياد[4].

---

[1]- الشابشتي، الديارات ، ص66.

[2]- ابن الجوزي، المنتظم، ج13، ص150. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص299.

[3]- الحيوان، ج7، ص25-27.

[4]- الشابشتي، الديارات، ص46. رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص102.

وقد كانت أعياد النّصارى ببغداد مقسومة على ديارات معروفة منها أعياد الصوم الكبير[1]، حيث كانت أهم أعيادهم تقع في أيّام الآحاد الأربعة من الصوم الكبير، فكان يحتفل في الأحد الأول في دير العاصية[2]، وفي الأحد الثاني في دير الزريفية وفي الأحد الثالث في دير الزندورد والأحد الرابع في دير درمالس[3] حيث يأتي المسلمون لمشاهدة الشمامسة والرهبان والراهبات، والتمتّع بسماع الغناء والجلوس في المتنزهات خاصة عند دير درمالس حيث كان «عيده أحسن عيد»، وكان يكثر فيه الغناء والموسيقى، والبيع والشراء ممّا يشجع الزوّار على الإقامة حول الدير في خيام نصبت خصيصا لذلك لعدة أيّام[4].

وكان يسبق الصوم الكبير عند النصارى ما يسمّى بصوم العذراء، ومدته ثلاثة أيّام فإذا انقضى الصوم اجتمعوا في دير العذارى[5] للعبادة وتقديم القرابين، وكان المسلمون من أهل العراق يجيئون للتنزه عند هذا الدير بين البساتين وحدائق الكروم[6].

وفي آخر شهر من سبتمبر من كل عام كان يقام عند دير الثعالب وهو دير ببغداد بالجانب الغربي منها على ميلين من الموضع المعروف بباب الحديد، وكان لا يتخلف عن الاحتفال بهذا العيد أحد من النّصارى أو المسلمين، «لأنّه في أعمر موضع وأنزهه حيث البساتين والنخيل والرياض، ولتوسطه بغداد،فلا يكاد يخلو من قاص وطارق» إذ كان مكانا

---

[1]- الصوم الكبير: ويقع في ثمانية وأربعين يوما أولها يوم الإثنين وفطرهم يوم الأحد التاسع والأربعين من أول صومهم، ويسمّونه الشعانين ومن شروطهم وقع الفصح بين الشعانين والفطر وهو الأسبوع الأخير من الصوم. البيروني، الآثار الباقية، ص302.

[2]- الشابشتي، الديارات، ص60. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص117.

[3]- دير درمالس: يقع هذا الدير في رقة باب الشماسية ببغداد، قرب الدار المعزية، وهو نزه كثير البساتين والأشجار والبساتين. الشابشتي، الديارات، ص2. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص138.

[4]- الشابشتي، الديارات، ص61.

[5]- دير العذارى: يقع دير العذارى على مقربة من بغداد على شاطئ دجلة، وهو دير حسن عام حوله البساتين والكروم، وسمّي بذلك لأنّه كان به جوار عذارى قد ترهبن فيه للعبادة. الشابشتي، الديارات، ص46. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص156.

[6]- الشابشتي، الديارات، ص69.

للطرب والنزهة، مزدحما بالزائرين، كما كان يجاور دير «الجرجوث» ويكونان معا منطقة واحدة من أجمل المواقع في بغداد ، يؤمّه المتنزهون خاصة أيّام الأعياد[1].

ومن أعياد النصارى كذلك عيد الفصح[2] ببغداد حيث كان المسلمون والنّصارى يقصدون دير سمالو في شرقي بغداد بباب الشماسية على نهر المهدي حيث يجتمع أهل الطرب والموسيقى[3].

واحتفل أهل العراق بعيد القديسة أشمونى[4] الّذي كان يحتفل به في دير أشمونى غربي دجلة احتفالا كبيرا، حيث كان يجتمع أهل الغناء واللّهو، وتضرب لهم الخيام ويتنافس النّاس في إظهار الزينة، وكان النّاس يأتون إلى بغداد لحضور الاحتفال بهذا العيد الّذي كان أحد المظاهر الاجتماعية الخاصة ببغداد[5].

وكان النصارى يحتفلون بليلة الميلاد ويسهرون فيها، ومن عاداتهم فيها إشعال النيران واللعب بالجوز، كما كان الاحتفال بعيد الشعانين أيضا من المناسبات الّتي يخرج فيها العراقيون من أهل الظرف والقيان، فيرون النصارى ويشربون ويتفرجون، وكانت الجواري الروميات يظهرون في هذا العيد في قصر الخلافة، وقد تزيّنّ بالديباج وعلّقن في أعناقهن صلبان الذهب، وفي أيديهن الخوص والزيتون [6].

واحتفل النصارى بعيد رأس السنة الّذي يسمّونه القلنداس، وقد كان الخليفة يشارك في هذا العيد، إذ ورد في لائحة نفقات القصر الّتي أعدها علي بن عيسى سنة 306هـ ما يدل على هذه المشاركة، وكان صبيان النصارى يجتمعون ويطوفون في بيوتهم ويخرجون من دار

---

[1]- الشابشتي، الديارات ، ص70.

[2]- عيد الفصح: وهو عيد للنصارى يوم الفطر من صومهم الكبير. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص415.

[3]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية،ص274.

[4]- أشمونى: اسم امرأة بنى الدير على اسمها ودفنت فيه، وهو بقطربل غربي دجلة، وعيده من الأيّام العظيمة ببغداد. الشابشتي، الديارات، ص31.

[5]- الشابشتي، الديارات، ص19-20. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص385.

[6]- الشابشتي، الديارات، ص77. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص 415. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص284. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص385.

إلى أخرى ويغنون: قالندس قالندس بصوت عال ولحن، فيطعمون في كل دار ويسقون أقداحا من الشراب[1].

وشارك المسلمون النّصارى أيضا الاحتفال بليلة الوقود وهي ليلة عيد الميلاد، وصار من التقاليد مشاركة المسيحيين في إبقاء النيران وتأجيجها وإرسال الوحوش فيها وتطيّر الطيور في لهبها والتلهي حولها[2].

وكذلك احتفل أهل الضياع في كل عام بعيد دير الخنافس حيث أنّه في كل سنة ثلاثة أيّام تسود حيطان الدير وسقوفه الخنافس الصغار اللواتي كالنمل، فإذا انقضت تلك الأيّام تذهب هذه الخنافس، فكان الرهبان إذا علموا بمجئ تلك الأيّام الثلاثة أخرجوا جميع ما لهم فيه من فرش وطعام وأثاث وغير ذلك هربا من الخنافس، فإذا انقضت تلك الأيام عادوا، وقد كان عامة النّاس كثيرا ما يتحدثون عن هذه الظاهرة ويتندرون بها[3].

الأعياد الفارسية: انتشرت أعياد الفرس بين العبّاسيين ومارسوها بطقوسها لاسيّما النيروز[4] والمهرجان[5] والرام، فكان النيروز من المواسم القديمة اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد، وهو أول أيّام السنة عندهم، ويقع عند الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل أي عند ابتداء فصل الربيع، وقد سنّ ملوك خراسان سنة جديدة، فاتّخذوا هذا اليوم موسما يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف، وفيه يحتفلون بعيد النيروز، وأول من اتّخذ

1- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص24- 25. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص419.

2- رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص102.

3- الشابشتي، الديارات، ص137.

4- النيروز: من الأعياد الفارسية القديمة، وهو أول أيّام السنة في تقويمهم، وكان الفرس يتهادون فيه كما اعتادوا الاغتسال بالماء وأن يرشوا بعضهم بعضا في ذلك اليوم تبركا ودفعا للأمراض.البيروني،الآثار الباقية، ص215. ويذكر التنوخي أنّ النيروز معناه اليوم الجديد، وهو عيد الربيع، وهو أول يوم من أيام السنة الشمسية في 21 مارس ويمثل الاعتدال الربيعي.نشوار المحاضرة،ج8،ص246.

5- المهرجان: إنّ الكلمة فارسية الأصل تنقسم إلى قسمين: مهر وتعني محبة، وكان بمعنى متصلة فيكون تعريب الكلمة معناها المحبة المتصلة ويمثل المهرجان الاعتدال الخريفي في أول أكتوبر، بينه وبين النيروز مائة وسبعة وستون يوما، وكان من أكبر أعيادهم. التنوخي، نشوار المحاضرة، ج8، ص246. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص410.

هذا اليوم حسب ما ذكره البيروني[1] هو جم شيد، وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس، غير أنّه عاد في العصر العبّاسي.

وكان الخلفاء العباسيين يحتفلون به ويتقبلون الهدايا على طريقة ملوك الفرس، ويقال أنّ أول من احتفل به المأمون، فقد أهداه أحمد بن يوسف الكاتب سفط ذهب فيه قطعة عود هندي، وكان الخليفة المتوكل يجلس إلى الظهر فيتقبل الهدايا، ثمّ يعيد توزيعها على خلصائه، ومن هذه الهدايا تماثيل من العنبر، كما كان المتوكل يحتفل بيوم النيروز وبين يديه أهل السماجات وعلى وجوههم أقنعة تغير أشكالهم، فيما الخليفة يضحك منهم وينثر عليهم الدراهم، وكان الاحتفال يرافقه تناول الخمور حتّى لو كان في شهر رمضان، ويستقبل الخليفة الشعراء بمدائحهم[2].

وكان العراقيون على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم يحتفلون بالنيروز وهو عيد رأس السنة الفارسية في فالوحد والعشرين من شهر مارس، وجرت العادة في الاحتفال به أن يتبادل النّاس الهدايا ويرش بعضهم بعضا بالماء، حتّى حرّم المعتضد ذلك سنة 282هـ[3]، وقد أراد المعتضد أن يغيّر من تقاليد هذا العيد، فكان تحديده ليوم النيروز في 11 جوان رأفة بالمزارعين، إلّا أنّ العامة استمرت في الاحتفال بليلة النيروز بإشعال النيران ورش الماء وحتو التراب والملاعب حتّى أصبح يسمّى بالنيروز المعتضدي، ممّا اضطره إلى أن يأمر بمنع الاحتفالات بهذه الطريقة سنة 284هـ ولكنّه عاد من منعه بعد يومين، ففعلت العامة من ألعابها حتّى تجاوزوا الحد فصبّوا الماء على أصحاب الشرطة[4].

وكانت ترافق احتفالات النيروز مظاهر فرح كبيرة استخدم فيها العامة ألعابا كبيرة تسمى الدوباركة، وهي ألعاب على قدر الصبيان يجعلها العبّاسيون على سطوحهم في ليالي النيروز المعتضدي، ويلعبون بها ويخرجونها في زي حسن من أفخر الثياب والحلي ويجمّلونها كما يفعل بالعرائس، وتخنق بين يديها الطبول والزمور وتشعل النيران[5].

---

[1]- الآثار الباقية، ص216- 217.

[2]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص 409-410. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص386.

[3]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج10، ص39.

[4]- نفسه، ص53. البيروني، الآثار الباقية، ص266.

[5]- التنوخي، نشوار المحاضرة، ج2، ص232.

ولم يشارك النّصارى في القرن الثالث الهجري في هذا العيد، إلّا أنّهم أخذوا في القرن الرابع الهجري يحتفلون به ويجعلون في بيوتهم موائد عامرة تضم أنواع مختلفة من الأطعمة والفواكه احتفالا به[1].

وكانت أم المقتدر تحتفل بالنيروز المعتضدي، وقد استخدمت أقمشة نفيسة جعلتها مثل حب القطن وأشبعتها بدهن البلسان[2] وغيره من الأدهان الطيّبة، وأوقدت في المجامر الرام على رؤوس الحيطان بدلا من حب القطن والنفط والمجامر والطين الّتي كان يستخدمها العامة[3].

وبعد عيد النيروز يحتفل أهل العراق بعيد فارسي الأصل أيضا وهو عيد المهرجان الّذي يعلن بدء الشتاء، وكانت طقوس هذا العيد تمارس طوال هذا الشهر، ويسمّى اليوم السادس عشر من هذا الشهر مهروز أو يوم المهرجان، وقد كانت الرعية تهدي في يوم المهرجان الهدايا إلى الخلفاء، كما كان القواد ورجال الدولة يوم المهرجان يخلع عليهم الأمراء ملابس الشتاء، ويجدد العامة فيه الأثاث والملابس استعدادا للبرد والشتاء، وفي هذا العيد كان النّاس يتبادلون الهدايا، وكان أبو إسحاق الصابئ محبوسا بأمر عضد الدولة في يوم المهرجان، فأرسل إليه الصابئ بقصيدة مرفقة بدرهمين خسروانيين وكتاب المسالك والممالك، وأرسل في يوم المهرجان اسطرلابا بقدر الدرهم محكم الصنعة[4].

كما كانوا يحتفلون بعيد السذق أو السدق، وتفسيره المائة لأنّه يبقى مائة يوم على دخول السنة الجديدة من سنينهم، ويسمّى أيضا ليلة الوقود، وفي هذا العيد يوقدون نيرانا

---

[1]- AHSAN, M.M, Social Life under the Abbasides, New york, 1979, p289.

[2]- البلسان: شجرة كانت تنبت بعين شمس بضواحي القاهرة، وتشرط الشجرة في وقت معين من السنة، ويجمع ما يرشح منها، فلا يتجاوز بضعة أرطال من الدهن الطيب الرائحة، وكان البلسان مستعملا في الطقوس الدينية المسيحية، وقد اشتهرت مصر بوجوده بها في العصور الوسطى. ابن سينا، القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين الضنّاوي، تقديم خليل أبو خليل ، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1420هـ/1999م، ج1، ص273. الشيزري، نهاية الرتبة، ص47.

[3]- التنوخي، نشوار المحاضرة، ج1، ص293-294.

[4]- الثعالبي، يتيمة الدهر ، ج2، ص331. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص387.

وينحرون قرابين لدفع مضراته ويشعلون البخور، ومن تقاليدهم فيه إرسال الوحوش في ليلته، وتطيير الطير في لهب النّار، والشرب والتلهي حولها[1].

وجرت العادة أن يحتفل العبّاسيون في أول يوم من آذار ماه (شهر مارس) الشهر السادس من التقويم الفارسي بيوم الكوسج، ومن وصفه يبدو أنّه يشبه الكرنفال، ويتناول الكوسج في هذا اليوم بعض الأدوية المسخنة ويطلى ببعض الأطلية الحارة، ويخرج راكبا في شهرة خاصة من الثياب المضحكة للنّاس، ويحمل الكوسج في يده مروحة ويقول: الحر الحر، والنّاس يتضاحكون، وكان يحمل أيضا نقيع المغرة، وهو طين أحمر يلطخ به ثياب من لم يسمح له بشئ، واعتبر احتفال الكوسج سنّة بغدادية ينصرف فيها النّاس إلى التنعم بمعايشهم[2].

وفي فترة النفوذ البويهي كثرت الأعياد الدينية بالعراق حيث شهدت البلاد احتفالات اشترك فيها المسلمون وأهل الذمّة، إلى جانب ابتداع الشيعة بعض المواسم الّتي تعبّر عن معتقداتهم والّتي تخلّد ذكرى أئمتهم، فأسرف الأمراء البويهيون الشيعة في مظاهر احتفالاتهم وأعيادهم، وكثيرا ما نشبت بينهم وبين أهل السنة الفتن والمنازعات أثناء الاحتفال بتلك المواسم [3].

أمّا العيدان اللّذان كان لهما النّصيب الأكبر في مظاهر الاحتفال عند المسلمين فهما عيد الفطر وعيد الأضحى خاصة في بغداد حيث تسطع الأنوار في أرجائها ليالي العيدين، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتّكبير، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزيّنة بأبهى الزينات، وتسطع من جوانبها القناديل، وتتلألأ الأنوار من قصور الأمراء، وقد لبس النّاس القباء السود تشبّها بالخلفاء العبّاسيين، وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مبطّنة بالسواد ويلبسون دراعات[4] كتبت عليها الآية القرآنية[5]: ﴿ **فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾

---

[1]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص 412. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص388.

[2]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص413-414. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص388-389.

[3]- مسكويه، تجارب الأمم، ج5، ص405.

[4]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص97.

[5]- سورة البقرة، آية 137.

وكانت مظاهر الاحتفال بعيد الفطر تبدأ في العشر الأواخر من شهر رمضان حيث كان الأغنياء يبعثون بالكسوة ويخرجون الصدقات إلى الفقراء، وتغنى الشعراء في قصائدهم بروعة وبهجة العيدين من ذلك ما كتبه أبو إسحاق الصابئ مهنئا الأمير البويهي صمصام الدولة بعيد الأضحى، كما جرت العادة أن يهنئ النّاس بعضهم بعضا ويتزاورون في أيّام الأعياد[1].

وكان يعتبر يوم عاشوراء وهو العاشر من شهر محرم يوم حزن عام عند الشيعة، حيث يغلق النّاس حوانيتهم، ويكثر العويل والبكاء، وتخرج النّساء كاشفات الشعور، مسودّات الوجوه، وقد شققن ثيابهنّ ولطّمن خدودهنّ حزنا على ذكرى مقتل الحسين بن علي يوم كربلاء[2].

ففي سنة 352هـ أمر معز الدولة النّاس بإقامة ذكرى عاشوراء، وأن يغلقوا دكاكينهم، ويبطلوا البيع والشراء في هذه المناسبة، وأن يظهروا النياحة، ويلبسوا قبابا عملوها بالمسوح، وأن يخرج النساء منشرات الشعور، مسودات الوجوه، وقد شققن ثيابهن، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي، وكان من تقاليدهم زيارة كربلاء، لذا كره فيه العامة تجديد الأواني والأثاث[3].

وفي يوم 18 ذي الحجة سنة 352هـ أمر معز الدولة بإظهار الزينة والفرح في بغداد وفتحت الأسواق بالليل وذلك فرحا بعيد الغدير[4] وهو عيد «غدير خم»، وهو اليوم الّذي يعتقد

---

[1]- الثعالبي، يتيمة الدهر، ج2، ص333. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص98.

[2]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص279.

[3]- نفسه، ص279.

[4]- غدير خم: على مرحلة من مكة نزل بها النبي صلى الله عليه وسلم عند منصرفه من حجة الوداع وجمع القتب والرحال وعلاها آخذا بعضد علي بن أبي طالب وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. الثعالبي، ثمار القلوب، ص636. البيروني، الآثار الباقية، ص334.وهو حديث صحيح رواه مسلم وأحمد ويدل على فضل علي أنّه من آل بيت النبي ومكانته وذكر أحمد بن حنبل عن هذا الحديث: «ليس في هذا الحديث – حديث غدير خم– ما يدل على أنّه نص على خلافة علي، إذ لم يرد به الخلافة أصلا، وليس في اللفظ ما يدل عليه، ولو كان المراد به الخلافة لوجب أن يبلغ مثل هذا الأمر العظيم بلاغا بينا». مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1421 هـ/2001 م، ج2، ص71-72. صحيح مسلم، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، 1412هـ/1991م ، ج4،رقم الحديث 2408، ص1873. وقال عنه ابن كثير: «أمّا ما يفتريه كثير من جهلة الشيعة والقصاص الأغبياء من أنّه أوصى – أي النبي صلى الله عليه وسلم– إلى علي بالخلافة فكذب وبهت وافتراء عظيم، يلزم منه خطأ كبير من تخوين الصحابة وممالأتهم بعده على ترك إنفاذ وصيته وإيصالها إلى من أوصى إليه وصرفهم إيّاها إلى غيره لا لمعنى ولا لسبب». البداية والنهاية، ج10، ص418.

فيه الشيعة أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلم عهد فيه إلى علي بن أبي طالب واستخلفه "فنصّبوا القباب وعلّقوا الثياب، وأظهروا الزينة وفي ليلته أشعلت النيران بمجلس الشرطة، وضربت الدبادب والبوقات، وفي صبيحته نحروا جملا"[1].

وجرت عادة الشيعة في الكرخ وباب الطاق زيارة مقابر قريش والكاظمين، ودفع هذا الموقف أهل السنّة في بغداد إلى أن ادّعوا أنّ اليوم الثامن من يوم الغدير (26 ذي الحجة) هو اليوم الّذي تحصن فيه النبي صلى الله عليه وسلم في الغار وأبو بكر معه، ففعلوا كما فعل الشيعة في يوم الغدير، كما جعل السنة بإزاء عاشوراء يوما بعده بثمانية أيام نسبة إلى مقتل مصعب بن الزبير، وزاروا قبره بمسكن، كما يزار قبر الحسين[2].

وقد كانت الفتن تشتد بين أهل السنّة والشيعة في هذا العيد لكثرة ما ابتدعته الشيعة من بدع تحرمها الشريعة الإسلامية، فتحدث الفوضى ويعم الاضطراب وتنهب الأموال،لهذا كان يصدر الأمر في بعض الأحيان بمنع الشيعة من النواح وعمل المآتم مخافة الفتن[3].

2- **وسائل التّسلية والترفيه:** تعددت وسائل التسلية والترفيه في المجتمع العراقي واشترك فيها الخاصة والعامة على حد سواء، وكان معظمها موروث من العهود السابقة، كما كانت بعض هذه الهوايات تمارس داخل البيوت، ومنها ما يمارس خارجها ونذكر منها:

أ- **الفروسية وسباق الخيل:** كان سباق الخيل في العصر العبّاسي من أبرز ألوان النشاط الترويحي عند أهل العراق ولدى كل من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة، فقد أسسوا الحلبات ونظموها، واعتنوا بتربية الخيل عناية كبيرة، كما مارسوا التدريب على الفروسية وألعابها، وتعد سباقات الخيل من المهرجانات الشائقة الّتي كانت تستهوي الخلفاء والوزراء وعامة الشعب[4].

ونظرا لأنّ الفقهاء أباحوا هذا اللون من الرياضة شرط أن لا تكون مقامرة للحصول على المال تنافس الخلفاء والوزراء وعامة النّاس في تربية خيل السباق،وبلغ من شغف النّاس

---

[1]- الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص371. ان الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص280.

[2]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص279.

[3]- ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص118.

[4]- كامل طه الويس، النشاط الترويحي في العصر العبّاسي، بحث منشور في مجلة آفاق عربية، ع4، مطبعة دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1988، ص97.

بسباق الخيل واهتمامهم به أن كان السابق يستولي على الحصان المسبوق في بعض الأحيان [1].

كانت الفروسية مطمع أنظار الشباب إذ تستهوي قلوبهـم لما فيـها من ألوان الشجاعة، ولهذا كان الشباب من عامة بغداد يمارسونها فيتخذون لهم أزياء خاصة، وكان الرشيد أكثر خلفاء بني العبّاس ولعا بالخيل حيث كان يمارس الكثير من ألعاب الفروسية، وكانت له حقول وإسطبلات لتوليد عتاق الخيل وتربيتها وتمرينها، وكان يشرف على العناية بخيله عدد كبير من أمهر الأخصّائيين العرب، وقد ذكر الجهشياري أنّ هارون الرشيد أمر جعفر بن يحي البرمكي «أن يتخذ خيلا يجريها في الحلبة، فأجرى جعفر يوما خيله بالرقة، فسبقت خيل الرشيد، فغضب الرشيد لذلك»[2]، وبهذا أنشئت ميادين للسباق في الكرخ والرصافة والرقة حيث يقضى فصل الصيف[3].

وعندما شيّد الخليفة المعتصم بالله مدينة سامراء سنة 221هـ واتّخذها عاصمة لملكه اعتنى عناية فائقة بإقامة وإنشاء الحلائب وميادين الفروسية وساحات لعب الصوالج (الصولجان) فوصلت أوّج مجدها وعزّها على يديه ويدي ابنه المتوكل[4].

ب- **لعبة الصولجان:** وقد عرفها العرب في جاهليتهم، واعتنى بها الأمراء بعض الشيء أيّام بني أمية، وازدادت عنايتهم بها أيّام بني العبّاس، وهذه اللعبة عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين، تلقى في أرض الميدان فيتسابق الفرسان إلى التقاطها بعصا عقفاء يسمّونها الصولجان أو الجوكان ويرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم[5].

1- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص215.

2- الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص207.

3- المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص299-300. عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص276. رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص286.

4- يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ مدينة سامراء، مطبعة دار البصري، بغداد، 1968، ص247.

5- أسعد أطلس، الحياة الاجتماعية في القرنين الثالث والرابع، مقالة منشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي، م2، بغداد، 1952، ص278.

وكان الخلفاء العبّاسيون والوزراء يمارسون لعبة الصولجان في ميادين خاصة في قصورهم، وأول من لعبها من الخلفاء هارون الرشيد حيث قرّب الماهرين بها، فانتشرت بين النّاس، وشكل مع وزرائه وقوّاده وخاصته فرقا تتميز عن بعضها بالألوان، وجعل لها ميادين خاصة أنيقة تحيطها مقاعد مريحة لجلوس المتفرجين، وفي عهد الأمين أمر في ثاني يوم من خلافته ببناء ميدان قرب قصر المنصور للعب الكرة، كما انتشرت هذه اللعبة على عهد المعتصم الّذي كان شديد الرغبة بها[1].

ت- **لعبة الشطرنج:** كان الشطرنج من الألعاب الّتي عرفها العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، وقد اشتهر اللعب بالشطرنج في العصر العبّاسي ونبغ معدودون منهم العدلي وهو أول من عمل كتابا في الشطرنج، وأمّا إمام هذه الصناعة فهو أبو بكر محمد يحي الصولي الكاتب ويعتبر أوحد عصره في لعبة الشطرنج،حتّى اعتقد البعض أنّه واضع أساس هذه اللعبة، وقد ضرب به المثل فيقولون لمن يتقن هذه اللعبة «فلان يلعب الشطرنج مثل الصولي»، وكانت هذه اللّعبة تلعب في حضرة الخلفاء، فيروى أنّ الصولي غلب أبا الحسن الماوردي في حضرة الخليفة المكتفي، ولم يقتصر لعب الشطرنج على الرجال بل لعبتها النّساء على سبيل التّسلية[2].

وكان الرشيد أوّل من لعب الشطرنج من خلفاء بني العبّاس، وقدّم لاعبيه وأجرى عليهم الرزق فشاع اللّعب بالشطرنج، ولشدّة اهتمام الرشيد بالشطرنج فإنّه أرسل من بين الهدايا الّتي بعث بها إلى شارلمان ملك الفرنج رقعة جميلة وأحجارا ثمينة كاملة لهذه اللعبة[3].

ث- **النرد:** تسمّى بالفارسية نردشير أي أكبر نرد وهي عبارة عن رقعة مقسّمة مثل الشطرنج وهي من ألعاب الفرس وقد ذكر لنا التنوخي أنّ في لعبة النرد فصان اثنان، لكل فص أوجه ستة، وقد نقش على كل وجه نقط من 1 إلى 6 وتنقل أحجار النرد

---

[1]- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص355. عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص278. كامل طه الويس، النشاط الترويحي، ص98.

[2]- ابن النديم، الفهرست،ص215. كامل طه الويس، النشاط الترويحي، ص98

[3]- عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص280. كامل طه الويس، النشاط الترويحي، ص98.

حسب الأرقام الناتجة عن رمي الفصين، وما كان يسمى من قبل فصا يسمى الآن في بغداد زار[1].

وتعد من الألعاب الشائعة حيث كان من الملاهي الّتي لعبها الخاصة والعامة يلهون ويقامرون ويمضون بها أوقات فراغهم، وكان البوابون والطفيليون يتقنونها، كما كان السجناء يلعبونها داخل سجونهم[2].

وهي لعبة أصولها أعجمية، وقد قيل في لعبها ووصفها أشعار كثيرة حتى بولغ فيما قيل فيها، وكان الخليفة الرشيد أول من لعب النرد من خلفاء بني العباس حيث شجع اللاعبين به، وأجرى عليهم الأرزاق[3].

ولعب الخليفة الأمين بالنرد مع وزيره الفضل وتراهنا على خاتميهما، فغلب الأمين وأخذ الخاتم[4].

وكان يشترط في اللاعب أن يكون صحيح النقل وسابقه، صحيح الحساب، حسن الترتيب وجيّده، لذلك اعتبرت هذه اللعبة ذات نتيجة سلبية في شحذ الذهن ، وأنّها جعلت مثلا للمكاسب الّتي لا تنال بالكياسة والحيل[5].

ج- رمي البندق والرمي بالسهام:

- **رمي البندق:** اقتبس العرب هذه اللعبة أواخر أيّام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وشاعت ممارستها في العصر العبّاسي، واللّعب بالبندق عبارة عن اللّعب بكرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها، وتطلق بالمزاريق، وهي أنابيب ترسلها بضغط

---

[1]- التنوخي، نشوار المحاضرة، ج2، ص292.

[2]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص391.

[3]- كامل طه الويس، الألعاب الرياضية في العصر العباسي: رياضة العدو ولعبة النرد والرقص في العصر العباسي، مجلة التربية الرياضية، المجلد الثاني عشر، 2003، ع1، ص4.

[4]- الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص298.

[5]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص391.

الهواء، أو بالنشاب، أو بالأقواس، أو بما يسمّى أيضا بقوس البندق أو الزبطانة وهي البندقية[1].

وقد اهتم النّاس أيّام بني العبّاس بهذا النوع من الرمي في الصيد والرياضة حتّى صار رماة البندق في زمن العبّاسيين طائفة كبيرة يخرجون إلى ضواحي المدن للسباق وصيد الطير بها، ورووا أنّ الرشيد كانت له فرقة من أصحابها اسمها النمل، وأنّها كانت تسير بين يديه ترمي البندق[2].

- **الرمي بالسهام:** شاع لعب الرمي بالنشاب، وكان الرشيد من أمهر الرماة بالسهام، وله في ذلك ألعاب خاصة منها لعبة الحمام، وهي أنّهم يشدّون في أرجل الحمام خيوطا ذهبيّة، ثمّ يرمون الخيوط بالسهام فتنقطع وينطلق الحمام، كما كان النّساء يمارسن أيضا الرمي بالسهام[3].

ح- **سباق العدو والسباحة:** اهتمّ الخلفاء العباسيون بسباق العدو، فكانوا يقيمون مباريات خاصة للعدو للمسافات الطويلة، وكان يشهدها جمع غفير من النّاس وعلى رأسهم الخليفة وحاشيته وكبار المسؤولين، ومن أشهر العدّائين معتوق الموصلي المعروف بالكوثر[4]، وقد ظهر العداءون والسعاة في الدولة العباسية في عهد الخليفة المطيع لله سنة 334هـ، وكان أول من أنشأ نظام السعاة في الدولة العباسية معز الدولة البويهي في بغداد لإعلام أخيه ركن الدولة أبي علي الحسن بفارس بالأخبار سريعا، وهو نظام

---

[1]- عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972، ص142. كامل طه الويس، النشاط الترويحي، ص99.

[2]- أسعد أطلس، الحياة الاجتماعية، ص278.

[3]- عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص279.

[4]- وقد كان من أشهر العدّائين معتوق الموصلي المعروف بالكوثر، ففي سنة 625هـ/1227م جرى معتوق من واسط إلى بغداد في يوم وليلة، كما جرى في سنة 643هـ من دقوقا ساعيا على قدميه إلى بغداد، ومن العدّائين الّذين نافسوا الكوثر علي بن الأربلي، ففي سنة 646هـ سعى من دقوقا إلى بغداد فوصل بعد العصر وفضل على الكوثر بنصف ساعة، ولمّا وصل الأربلي إلى بغداد كان الخليفة المعتصم في استقباله.ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تح مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م ، ص234. كامل طه الويس، الألعاب الرياضية، ص3-4

أشبه ما يكون بدائرة الاتصالات حيث كانت مهمة السعاة نقل الأخبار بسرعة فائقة بين أرجاء الدولة العباسية الشاسعة[1].

وأمّا **السباحة** فقد شغف الشباب في العصر العبّاسي بالتدريب عليها بهمّة عالية ونشاط دؤوب حيث اعتبرت السباحة من أهم أنواع التسلية عند العباسيين[2].

وكانت تجرى سباقات للسباحة في نهر دجلة يحضرها الخليفة العباسي، وتخصص جوائز للفائزين كتشجيع لهم، وقد شيّد الخلفاء العباسيين برك للسباحة في قصورهم منهم الخليفة المتوكل على الله الّذي شيّد بركتين للسباحة في قصر الخليفة بسامراء وهما البركة النهارية والبركة الليلية، وتستمدان بالمياه من القناة الرئيسية الّتي تجرى تحت الأرض[3].

وقد أغرى المستكفي بالله السبّاحين فانهمك شباب بغداد في تعلمها حيث ذكر السيوطي[4] عن هذا فقال: «وأغوى المصارعين والسباحين، فانهمك شباب بغداد في تعلم المصارعة والسباحة، حتّى صار السبّاح يسبح وعلى يده كانون فوقه قدره، فيسبح حتّى ينضج اللحم».

خ-**الشاذكلي:** لفظ فارسي مركب من « شاد» بمعنى الفرح أو السرور و« كل» بمعنى الورد وبهذا المصطلح يعني السرور بالورد[5]، وهي إحدى المناسبات الّتي شارك فيها العبّاسيون، ولم تترك لنا المصادر إلّا معلومات قليلة عن هذه اللعبة منها رواية تقول بأنّ المتوكل طلب من ندمائه أن يعملوا له شاذكلاه، فأخبروه بأنّه لا يكون إلّا بالورد، فأمر الخليفة أن يضرب له خمسة ملايين درهم صغار وأن تصبغ بالحمرة والصفرة والسواد، واستغل يوما تحركت فيه الريح وأمر بنثرها وسط حضور كبير، والخبر الثاني

---

[1]- كامل طه الويس، الألعاب الرياضية، ص1.

[2]- عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص100.

[3]- كامل طه الويس، رياضة السباحة في العصر العباسي، مجلة التربية الرياضية، المجلد الحادي عشر، العدد الرابع، 2002، ص7.

[4]- تاريخ الخلفاء، ص613.

[5]- علي لازم مزبان، الألفاظ الفارسية ومجالاتها الحضارية في المجتمع العربي في القرن الرابع الهجري، مقال منشور بمجلة دراسات إيرانية، ع6-7، (د ت)، ص84.

عن أبي القاسم البريدي، فإنّه شرب على ورد بعشرين ألف درهم على رخصه في البصرة، وطرح فيهم الكثير من قطع الند والكافور والتماثيل ولعب به شاذكلي[1].

د- **السماجة والتمثيل:** كان التمثيل إحدى المهن المنتشرة بالعراق، كما كانت من الحياة الهزلية أنّ أصحاب السماجة يهزلون ليضحكوا النّاس، فقد كان المتوكل يحتفل بالنيروز والسماجة بين يديه، ويجذبون ثيابه ويضحك منهم، فلاحظ ذلك أحد أعوانه وحذره من أنّه يمكن للأعداء أن يندسوا بين هؤلاء المقنعين ويغتالوه، وعند موت الأفشين أخرج من منزله صور السماجة وأصنام محلاة[2].

وكان في بغداد سوق للّعب توضع فيه مختلف أنواع اللعب، بعضها من الطين على أشكال الحيوانات تباع للصبيان في الأعياد، إلّا أنّ أبا سعيد الاصطخري محتسب بغداد في عهد المقتدر أحرق طاق اللعب لما كان يعمل فيه من ملاه[3].

ومن أنواع الرياضة الأخرى الّتي مورست في زمن العبّاسيين لعبة الكريكت، ولعبة الطبطاب وهي خشبة عريضة تشبه لعبة التنس الحالية[4].

وفي عهد البويهيين تنوعت وسائل الترفيه وتعددت وسائل التّسلية، فمارسوا الألعاب المسلية، فانتشرت لعبة الشطرنج الّتي عرفت منذ عهد الرشيد كما سبق الذكر، وعرف النّاس لعبة النرد كلعبة مألوفة من الألعاب المنزلية وتسمّى أيضا الكعاب، وقد شغف النّاس في لعبها بالرغم من تحريم الإسلام للميسر، كما كان سباق الخيل الّذي أقيمت له الميادين من أحب ألوان التّسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة في هذا العهد، وشغف أهل بغداد بهذه الرياضة حيث كان السباق يقام في الميدان السبكتكيني في بغداد[5].

---

[1]- الشابشتي، الديارات، ص69. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص392.

[2]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص393. وصف أبو حيان التوحيدي أحد الرجال فقال عنه: «إنّ هي حاكي المومسات ويخرج في أصحاب السماجات». الإمتاع والمؤانسة، تح أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1942، ج1، ص59.

[3]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص393.

[4]- رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص289.

[5]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص109.

واهتم الأمراء البويهيون برياضة المصارعة فقد ذكر ابن الجوزي[1] أنّ الأمير «معز الدولة لمّا جاء إلى بغداد اشتهى رؤية الصراع، فكان يعمل بحضرته حلقة في ميدان فتقام شجرة، وتعمل عليها ثياب الديباج والمروى ونحوهما، وتوضع تحتها أكياس فيها دراهم، ويقف على سور الميدان أصحاب الطبول والزمور، وعلى الباب أصحاب الدبادب، ثمّ يؤذن للعامة في دخول الميدان فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم، ثمّ دخل في ذلك أحداث بغداد، حتّى صار بكل موضع صراع فإذا برع أحدهم صارع بحضرة معز الدولة، فإن غلب أجريت عليه الجرايات، فكم من عين ذهبت بلطمة، وكم من رجل اندقت».

وقد ظل الصيد من أهم أنواع التّسلية، حيث كان يخرج هواة الصيد إلى البراري، ويركبون الخيل ويستعملون الحراب، ومعهم جوارح من طيور الصيد كالباز والشاهين وهي صقور بيضاء، والعقاب وهي طيور مدربة تدريبا كافيا على صيد الوحوش والغزلان، كما استخدمت كلاب الصيد المدربة في أعمال القنص، واعتنوا بتلك الكلاب اعتناءا كبيرا، وكانت بقصور الأمراء بيوت للحيوانات حيث تحبس في أقفاص، وكان بعضهم يضعها في مجلسه مثلما فعل عضد الدولة البويهي حيث كان يضع بجواره أسدا بالسلاسل[2]،

وكان الاهتمام كبيرا بصيد الحيوانات المفترسة خاصة الأسود فقد كان في قصور الخلفاء في بغداد أماكن خاصة بها، فمثلا كان في قصر الخليفة المقتدر سنة 300هـ/912م دار بها قطعان من أصناف الوحوش كان يجمع بها ما يصل إليه من كافة البلدان، وكانت الحيوانات المفترسة على مقربة من بغداد نفسها فيذكر أنّ الخليفة المتقي خرج إلى الشماسية بجوار بغداد لصيد السباع[3].

كما كان الخروج إلى المتنزهات والبساتين الّتي انتشرت حول الأديرة القريبة من بغداد متنفسا للسكان حيث الفواكه والأعناب والهواء الطلق وقد كانوا يقصدونها خاصة في أيّام الأعياد[4].

---

[1]- المنتظم، ج14، ص341.

[2]- حوريه عبدة سلام، الحياة الاجتماعية، ص111.

[3]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص99-100.

[4]- نفسه، ص100.

وكذلك عرفت لعبة الصوالجة كإحدى الرياضات الّتي انتشرت بصورة كبيرة، وهي ضرب الكرة من على ظهور الخيل، وكان الخلفاء والأمراء يلعبون بالصوالجة في ميادين خاصة في قصورهم أو في الميادين العامة[1].

واهتم البويهيون كذلك بالسباحة، فقد شجع معز الدولة البويهي التدريب عليها «فتعلمها أهل بغداد وأجادوها وأحدثوا فيها الطرائف»، كما كان الرمي بالقوس رياضة مسلّية عند الخاصة والعامة وحتّى النساء، كما ظهرت أيضا أنواع أخرى من التّسلية على يد الأتراك منها منافرة الديوك، وتحريش الكلاب ومناطحة الكباش[2].

خامسا- الألبسة والأزياء والأطعمة:

1- الألبسة والأزياء:

استمر العباسيون في الاهتمام بديوان الطراز الذي يتولى الإشراف على صناعة الألبسة الرسمية للدولة للخلفاء والجيش وغيرهما الّذي كان قائما في عهد بني أمية، إضافة إلى الاستفادة من الصناعات الحرفية النسيجية الّتي كانت قائمة في العراق الّتي كانت تحسن نسجها الفئات الاجتماعية المختلفة[3].

ثمّ تطور ديوان الطراز كثيرا على عهد العباسيين وأضاف الخلفاء أسمائهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير والديباج وتكون كتابة خطها من نسيج الثوب الخام وإسداء بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز وهذا ما يعرف بالوشي أو التحبير[4].

ويتم التطريز عادة بعد إتمام نسج الثوب وخياطته ويقتصر التطريز أحيانا على حواشي الثوب أو حواشي الأكمام أو في منطقة العضد أي في منتصف الكم، وتكون الزخرفة على شكل شرائط كتابية تتخللها زخارف، وقد يعبر الطراز عن فكرة معينة أو موقف سياسي يتخذه

---

[1]- حورية عبدة سلام، الحياة الاجتماعية، ص110.

[2]- نفسه، 110-111.

[3]- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة ، ص44.

[4]- مقدمة ابن خلدون، ص237. طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص45.

الحاكم لترسيخ منهجه[1]، فمثلا أمر المنصور أصحابه أن يكتبوا على ظهور دراريعهم **قوله تعالى**[2] ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾.

وقد طرز الخلفاء العباسيين أسمائهم وألقابهم على المنسوجات والملابس، فقد ورد لقب الخليفة الرشيد على قطعة من النسيج بتاريخ سنة 190هـ كما أنّ ذلك لم يقتصر على الملابس حيث نقشت الألقاب على الأعـلام أيضا فضـلا عن ما يكتـب عليها من الآيات وعبارات التوحيد إذ نقش المأمون على أعلامه (المأمون يا منصور)[3].

وكان يشترط في الشخص الّذي يشرف على دور الطراز أن يتمتع بمكانة سياسية وإدارية كبيرة كالبرامكة في عهد الرشيد، أو من هو في عدادهم، ونلمس هذه الأهمية أيضا من إنفاق المبالغ الطائلة الّتي كانت تخصص لدور الطراز، وكان يطلق على الشخص المسؤول عن خزن الكسوة وترتيبها اسم خازن الكسوة[4].

وفي الحقيقة إنّ المعلومات عن الألبسة في العصور العبّاسية قليلة المصادر، إلّا أنّه استطعنا أن نجمع بعض الشيء عنها من مصادر ومراجع متفرقة ومتنوعة، وقد تأثروا في طريقة لباسهم ونوعيته بالفرس نتيجة لانتشار النفوذ الفارسي في الدولة العبّاسية، وقد تنوعت الألبسة والأزياء في المجتمع العباسي تنوعا كبيرا يعكس الامتزاج الحضاري بين عناصر المجتمع المختلفة والتباين الاجتماعي بين فئاته، حيث كان لكل فئة من النّاس لباسا خاصا تميّز به حسب الدرجة العلمية والوظيفة والمنزلة الاجتماعية، فقد كان للخلفاء زيّهم الخاص وللأمراء زيّهم الّذي يميّزهم كذلك وأهل العلم والقضاة وموظفي الدولة من جند وغيرهم.

إلّا أنّ السمة العامة الّتي جمعت بين فئات المجتمع المختلفة أنّ لهم ثلاثة أنواع للّباس من حيث الغاية فلباس للرأس ولباس للبدن ولباس للقدم.

ألبسة الرأس: من ألبسة الرأس عند العباسيين نذكر:

---

[1]- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص45

[2]- سورة البقرة، آية 137.

[3]- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص45.

[4]- نفسه، ص46.

أ- **العمامة:** وهي من لباس الرأس المنتشرة بين النّاس، وهي اسم لما يعقد ويلوى عليه من صوف أو قطن أو كتّان أو نحو ذلك، وتكون في العادة بيضاء، وقد تكون من ألوان أخرى أيضا، وهي لباس الرجال لدى جميع الطبقات، وهي تختلف من حيث الشكل والنوعية، فللخليفة عمامة وللفقهاء عمامة وللقضاة عمامة وللكتّاب عمامة وللنّصارى عمامة إلى آخره، فالعمامة هي لباس موروث عربي الأصل اتخذت قبل الإسلام ووصفها العرب في كلامهم إذ شبهوها بالتيجان على رؤوس الرجال وأظهروا فوائدها، فقد قيل لأعرابي مالك لا تضع العمامة على رأسك، قال إن شيئا فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من الحر والقر[1].

اعتبرت العمامة في العصر الإسلامي شعارا دينيا بالإضافة إلى أنّها كانت تعطي لصاحبها الوقار والهيبة، وكان لها أصول منها أنّ الرجل عليه ألّا ينزع العمامة أمام النّاس لأن ذلك يجعله غير محترم ويعتبر ساقط المروءة وتارك الآداب، ويعاقب فيما لو نزعها في دار الخلافة، وقد تنزع في بعض المناسبات عند التعبّد لله، وعند تعزية الخلفاء، كما كانوا إذا أرادوا عقوبة شخص ما خلعوا عمامته من رأسه[2].

وقد وضع الخلفاء العمائم على القلانس، وجعلها الظرفاء طويلة، وكانوا يتخذونها إمّا من الخز، أو من الصوف الخشن، وتكون حتّى من الخرق البالية كعمامة الفقراء[3].

وقد أصبحت العمائم في العصر العباسي متنوعة بتنوع منزلة الناس الاجتماعية فمثلا كان لكل من الخلفاء وكبار رجال الدولة والفقهاء والتجار واللصوص وأهل الذمة عمائم خاصة تميّز كلا منهم عن غيره، ومن قول أبو الأسود الدؤلي عن العمامة يتبن لنا فوائدها وأهميتها حيث قال «هي جنة في الحرب ودثار في البرد وكنة في الحر ووقار في الفدى وشرف في الأحدوثة وزيادة القامة وهي عادة من عادات العرب»[4].

---

[1]- مليحة رحمة الله، الملابس في العراق خلال العصور العباسية، المجلة التاريخية المصرية، نشر في المجلد 13، طبعة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، (د ت)، ص187.

[2]- مليحة رحمة الله، الملابس في العراق، ص187.

[3]- نفسه، ص187.

[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص99-100. صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية، ص38.

ب-القلانس: وهي من الأزياء الفارسية الّتي تأثر بها المجتمع البغدادي نتيجة لتأثره بالعنصر الفارسي في كثير من مظاهر حياته الاجتماعية، والقلنسوة هي لباس مستدير ومبطّن من الداخل توضع على الرأس[1]، وهي لباس مشترك بين الخلفاء والأمراء وعامة النّاس إلّا أنّهم يختلفون في شكلها ونوعيتها فالخلفاء وضعوا فوقها العمائم وجعلوها طويلة وأحيانا قصيرة[2].

وأوّل من لبس القلانس المفرطة في الطول هو المنصور، فقد اتّخذها لباسا رسميا لجنوده سنة 153هـ إلّا أنّ ذلك لم يعجب كثيرا من الرجال فيذكر «أنّ أبا دلامة دخل على المنصور يوما وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابس الّتي أمر بها الخليفة فقال له: كيف أصبحت يا أبا دلامة قال بشر قال المنصور: كيف ويلك، قال ما ظنك برجل وجهه في نصفه وسيفه في أسته وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره، فأمر المنصور تغيير الزي»[3].

وأمّا الرشيد فلم تعجبه القلانس الطويلة حتّى قيل أنّ العماني الراجز دخل يوما على الرشيد لينشده شعرا وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج، فقال إيّاك أن تنشدني إلّا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان، ولكن المعتصم أعجب بها فأرجعها تشبها بملوك الأعاجم فلبسها النّاس اقتداء بفعله وسميّت بالمعتصميات[4].

والقلانس أنواع مختلفة منها ما تسمّى بالسمورية وهي المصنوعة من الجلد والقلانس الطاقية والشاشية والمجالسية والدورقية وأشهرها جميعا الرصافية، كما أنّها كانت متنوّعة الألوان فالمتوكل أمر يوما غلمانه من الخدم والحواشي البالغ عددهم سبعمائة أن يلبسوا الأقبية والقلنسوة كل واحد على خلاف الآخر، وللقلانس أصول ورسوم تلبس عند الدخول على الخليفة والأمراء والعظماء ويستنكر نزعها في حضرتهم[5].

---

[1]- أذي شير، الألفاظ الفارسية المعرّبة، ص128.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص117.

[3]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص42- 43. أذي شير، الألفاظ الفارسية المعرّبة، ص128. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص225.

[4]- ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص109-110. مليحة رحمة الله، الملابس في العراق، ص189.

[5]- مليحة رحمة الله، الملابس في العراق، ص189.

وقد اختلفت القلانس من حيث طولها وشكلها فبعض الخلفاء جعلوها طويلة ووضعوا العمائم فوقها وزادوا من طولها حتّى تكون فوق القلانس، ومنهم من لبسها بدون العمائم كما فعل القضاة وزادوا من طولها ومنها القلانس العادية البسيطة الّتي لبسها عامة النّاس[1].

2-لباس البدن:

أ- **الإزار:** الإزار أو المئزر كما يسمّى أحيانا عبارة عن قطعة قماش كبيرة تلف الجسم وتعقد في وسطه من تحت السرة فيها أزرار،وهو لباس شائع بين طبقات المجتمع منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، واستمر خلال العصور العبّاسية[2].

وهو لباس الرجال والنساء على السواء استعمل لأغراض التستر لدى المرأة عند الخروج خارج البيت، واتخذه الرجل لباسا عند ذهابه إلى المسجد، كما استعمل لستر العورة في الحمامات للرجال والنساء أيضا[3].

وفي العصر العباسي اهتمت المرأة بالإزار فتفنّنت في خياطته وحياكته، فوضعت فيه الزنانير وخيوط الحرير والذّهب ليزيدها جمالا وأناقة ومنهنّ من لبسن إزارين مختلفين في الألوان، أمّا الألوان فالشائع الأبيض وهناك الأزرق واللّون الّذي تغلب عليه الحمرة والصفرة والمسمّى خلوفي، واللون المشرب بالصبغ أو ما يقارب الاحمرار[4].

ب- **الجبة:** وهي عبارة عن حلة تلبس فوق الثوب في الشتاء عادة تكون قصيرة الأكمام، فيها حشمة ووقار يتبع في خياطتها مقاييس لها أكمام وجيوب طويلة وعريضة لبسها المسلمون في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم–، وكانت بسيطة في شكلها مصنوعة من الصوف، واتخذها عمّال الخلفاء الراشدين عند دخولهم على الخليفة،وقد تطورت في العصر العبّاسي وتنوعت فمنها المكفوفة الحواشي، ومنها المحشوة المبطّنة[5].

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص117.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص16-18.

[3]- مليحة رحمة الله، الملابس في العراق، ص191.

[4]- نفسه، ص191.

[5]- نفسه، ص163.

وقد توسعت أكمام الجبب فلم تعد الأكمام مجرد جزء من الجبة بل أصبحت أداة تحمل الكثير من الأشياء فيها كالدنانير، وكانت أكمام الفلاحين أوسع من غيرها حيث كانوا يحملون فيها بعضا من حاصلاتهم كالحنطة وغيرها[1].

وتعتبر الجبّة لباسا عاما لجميع فئات المجتمع، فالغني يتخذها من قماش غالي حريرا أو خزا أخضر تكون طويلة وعريضة، وأمّا المتصوّف فيجعلها من الصوف مع أكمام طويلة مرقّعة، والفقير قد لا يلبسها إن كان من عامة النّاس، أمّا الفقير من العلماء والفقهاء فلا بد من لبسها، فقد قيل أنّ أحد العلماء الفقراء اضطر أن يمكث في البيت لأنّه لا يملك جبة، وكانت الجبة السوداء تعطى خلعة للعلماء والمدرسين وكبار رجال الدولة، كما لبست النسوة الجبة من القماش أو المخمل أو الحرير مطرزة بالذهب أو الحرير الملون وهي أحبك من جبة الرجل[2].

ت- الكساء: وهو لباس شتوي قد يقوم مقام الجبّة المحشوة يلبس فوق الثياب، ويطلق عليه اسم الملاءة ويسمى بالبرنكان وهو الكساء الأسود، ومنها الغالية الثمن المسمّاة بالكساء الطبري والرخيصة المسمّاة بالكساء القومسي ونوع آخر يسمى بالكساء القرهي وغيرها[3].

ث- الدراعة: وتشبه الجبة إلّا أنّها تكون مشقوقة من المقدمة، وهي لباس يلبسه كافة النّاس، فقد لبسها الخلفاء والوزراء والأغنياء كما لبسها الفقراء، وهي أنواع منها الرقيقة المفردة ومنها دراريع الديباج المفردة، ومنها السوداء اللون، ومنها الخضراء المصنوعة من الخز، ومنها المصنوعة من الصوف وتسمّى بالمدرّعة[4]، فدراعة الوزراء ورجالات الدولة كانت مشقوقة من النحر أسفل الصدر بأزرار، وتصنع من الديباج والخز وتنسج بالذّهب

---

[1]- صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية، ص58.

[2]- رجب عبد الواحد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثّقة من الجاهلية حتّى العصر الحديث، تقديم محمود فهمي حجازي، دار الآفاق العربية، 1423هـ/2002م، ص106. مليحة رحمة الله، الملابس في العراق، ص164.

[3]- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص128. مليحة رحمة الله، الملابس في العراق، ص164.

[4]- رجب عبد الواحد إبراهيم، المعجم العربي، ص171.

وترصّع بالياقوت والجواهر، وكانت الدراعة السوداء من الخلع الّتي تعطى من قبل الخليفة عند الوزراء والأمراء وغيرهم من رجال الدولة[1].

وتطلق على الدراعة الصدرية وتلبسها البنات، وعند العامة كانت عبارة عن لباس على هيئة المعطف القصير ومطرّزة الأكمام أحيانا[2].

ج- القباء: لباس طويل قد يصل إلى الأرض ومفتوح عند الرقبة يبدو القفطان من تحته كما يفعل الخلفاء، وكانت أكمام القباء ضيّقة حتّى عهد المعتصم الّذي استحدث الأكمام الواسعة، ومنه ما شق من الخلف أو من لبس الأكمام الواسعة الّتي يصل عرضها ثلاثة أشبار[3]، يسمّيه أهل العراق اليوم بالزبون وأهل مصر والشام القنباز، والقباء فارسي الأصل أصبح لباسا رسميا لرجال الدولة العبّاسية عام 300هـ وكان لا يدخل المقصورة في ليلة الجمعة إلّا من كان من الخواص المتميّزين بالأقبية السود، فقد قيل حضر يوما أحد الخواص بدراعة فردّ حتّى مضى ولبس القباء، وكان لبسه جاريا في جميع الجوامع حتّى سنة 400هـ، ثمّ أصبح مقصورا على الخطباء والمؤذنين[4].

ولبس الخلفاء قباء مولدا مصمتا أو ملحما أو خزا، أمّا الأمراء والقوّاد فلبسوا الأقبية السوداء من كل صنف، وكان لباس الوزراء والكتّاب، كما أنّه لباس الخدم والحاشية وصغار الصبيان وحتّى المرأة، أمّا الألوان فالشائع الأسود وهو الرسمي، كما كان الأخضر والأبيض ومنه المختلف الألوان[5].

وأمّا الأكمام فكانت ضيّقة وقصيرة في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- حتّى عهد المستعين الّذي أحدث لبس الأكمام الواسعة، فبلغ عرضها نحو ثلاثة أشبار، وفي القرن الرابع الهجري أصبحت مشقوقة عند القضاة، ولهذا الاتساع فائدة إذ استعملت للخزن مقام

---

[1]- رجب عبد الواحد إبراهيم، المعجم العربي ، ص171.

[2]- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص72. رجب عبد الواحد إبراهيم، المعجم العربي، ص171.

[3]- سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب ، ص380.

[4]- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص229.

[5]- مليحة رحمة الله، الملابس في العراق، ص165.

الجيوب، فالمأمون مثلا خزن فيها حبات الدر الكبار ونثرها على حصير من ذهب عندما جلبت بوران[1].

ح- **الطيلسان:** من الألبسة العبّاسية ذات الأصول الفارسية، حيث لبسه المسلمون اقتداء بالرسول – صلّى الله عليه وسلم – مع العمامة، وهو عبارة عن كساء ليس له أكمام أو جيوب خال من التفصيل لحمته أو سداه من صوف ويوضع فوق الكتف أو الرأس ويتدلى على الجبين ويغطي نصف الوجه[2]، وقد يلف الطرفان الأماميان حول الرقبة ويتدليان على الأكتاف، أمّا الطرفان الخلفيان فيتركان على الظهر، ويعتبر الطيلسان من الألبسة الجميلة المنظر والغالية الثمن، وقدّم الطيلسان كخلع من الخلفاء إلى الأمراء والوزراء وكذلك بين أصحاب المراتب العالية، وقد ذكر أيضا في الشعر باسم السيجان[3]،

وللطيلسان ألوان الأخضر وهو الشائع والأبيض والأسود، هذا وقد لبس الطيلسان كل من القضاة والخواص من العلماء والمشايخ والنسّاك والكتّاب والجند والوعّاظ والأدباء وحتّى العامة[4]، فقد ذكر المقدسي[5] في القرن الرابع الهجري أنّ أهل العراق في عهده كان من رسومهم التجمّل والتطيلس.

خ- **السروال:** من ألبسة البدن الشائعة بين عامة النّاس للرجال والنّساء، وهو من الألبسة الفارسية استخدم في العصر العبّاسي لستر العورة أسفل الجسم، وقد اهتمت النّساء بلبس السراويل البيض المذيّلة والمزيّنة بتكة الإبريسم، أمّا عمّال الحمامات فيلبسون ما سمّي بالتبان وهو سروال صغير داخلي مقدار يسير يستر العورة المغلّظة فقط[6].

وأمّا الثياب فهي تختلف من فئة إلى أخرى، فكان العامة من النّاس كالفلاحين يلبسون الثياب القطنية الغليظة، والخلفاء والوزراء وأغنياء العامّة كانوا يميلون إلى الثياب ذات

---

[1]- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص226.

[2]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص91-92.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص342. الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص91.

[4]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص91-92.

[5]- أحسن التقاسيم، ص129.

[6]- الوشاء، الموشي أو الظرف والظرفاء ، ص160-163. أذي شير، الألفاظ الفارسية المعرّبة، ص88. سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ص379.

النّوعية الجيّدة والغالية الثمن كالحريرية والمقصّبة والثياب الموشاة بالذّهب والفضة، ومنها الثياب الديبقية والبغدادية[1]، ومنها الرخيصة الثمن كالصوفية والقطنية والكتّانية، واشتهرت الثياب الصمتة والثياب المسمّاة بقلمون، والثياب التسترية[2] الّتي اهتم بها المعتمد وثياب القوهى والقصب والابريسم والقز والملحم وهي الّتي أدخلها المتوكل وسمّيت باسمه المتوكليات وانتشرت بين النّاس، وثياب الخز والمشهور منها خز البصرة، والثياب العسلية وتصنع في مدينة النعمانية، ومن الثياب نوع تسمى بالفوطة وهو ثوب قصير غليظ يجلب من السند وقد يكون من الصوف، ونوع آخر يسمّى بالدرع وهو ثوب قصير تلبسه المرأة فتشدّه على الوسط وتجعل له يدين وتخيط فرجيه[3]، ويذكر ابن منظور[4] أنّ درع المرأة قميصها وهو أيضا ثوب قصير تلبسه الجارية في بيتها.

3- لباس الأرجل:

أ- **الخفاف:** عرفت عند المسلمين منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم،فقد جاء عن علي قال: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر خفيه»[5]، كما ذكرها الإمام علي رضي الله عنه إذ قال: «تمام جمال المرأة في خفّها وتمام جمال الرجل في لمته»، وكان مهما بالنّسبة لجميع الطبقات حتّى الفقيرة، كما لبسته المرأة فقد قيل أنّ امرأة ماتت فاشترى لها زوجها كفنا قصيرا فقالت له الغاسلة الكفن قصير فقال ألبسيها خفها، كما أنّه مهم بالنّسبة للطبقة الأرستقراطية إذ لا يدخل أحد على الخلفاء والأمراء والسادة العظماء، إلّا وفي

---

[1]- الثياب البغدادية: منسوبة إلى مدينة بغداد وهو قماش حرير غالي مزيّن بالصور وموشى بالذّهب وقد اقتصر استعماله على الكسوات السلطانية لغلاء ثمنه. رجب عبد الواحد إبراهيم، المعجم العربي، ص89.

[2]- الثياب التسترية: وهي ثياب جميلة الصنعة رقيقة الملبس تتخذ من الحرير والديباج وهي نسبة إلى محلة التسترين في الجانب الغربي من العراق بين دجلة وباب البصرة. رجب عبد الواحد إبراهيم، المعجم العربي، ص92.

[3]- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص128. الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص91.

[4]- لسان العرب، ج8، ص81- 82.

5- البيهقي، السنن الصغير، شرح وإخراج وتعليق عبد المعطي أمين قلعجي، منشورات جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي، باكستان، (د ت)، ج1، ص61.

رجله خف وهو دليل على الاحترام والتّعظيم على أن تكون من النوع الجيّد وكانت من لباس الخلفاء أيضا[1].

وكانت الألوان المتداولة السوداء والحمراء والصفراء ومنها ما اختلط فيها لونان الأسود والأحمر أو الأسود والأصفر، واعتبر الأحمر من لباس الخلفاء فقط في القرنين الثالث والرابع الهجري ولا يسمح لغيرهم بلبسها بينما في السابق نهى أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلم نساءهنّ من لبسها وقالوا عنها أنّها مثل زينة نساء آل فرعون[2].

إنّ الخفاف الحمر وإن لبسها عامة المسلمين إلّا أنّها عدّت من لباس المتخنثين المتطرفين الجهّال، فقد ذكر أنّ أحد العامة لبس الخفاف الحمر، وذكر أيضا أنّ أحد الخطباء في الموصل لبس خفا أحمرا في سنة 401هـ[3].

ب-**النعال:** عرف النعال عند العرب منذ زمن بعيد ووصفوه في شعرهم[4]، وقد اشتهرت النعل الّتي لها خصران دقيقان حيث كان أهل العراق يكثرون التنعل في القرن الرابع الهجري، وكان المجوس يلبسون النعال السندية [5].

واشتهرت نعل الطبقة الغنية فتفنّنوا في صنعها فالسيّدة أم المقتدر عرفت بنعلها المصنوع من ثياب ديبقية والمحشو بالمسك والمخيط بالحرير، وكذلك نعال السيّدة زبيدة المرصّعة بالجواهر والأحجار الكريمة، وقد قيل أنّ بعض النّساء استعملن النعال في الضرب على صدروهنّ في حالة الحزن[6].

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص114-115. الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص91.

[2]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص90-91.

[3]- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص230.

[4]- كقول الشاعر: يا ليت لي نعلين من جلد الضبع × وشركا من استها لا ينقطع.

الجاحظ، البيان والتبيين، ج3،ص 109.

[5]- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص128. سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ص380.

[6]- سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب ، ص 379-380.

هذا وتهادى النّاس النعل كما فعل أبو العتاهية إذ أهدى للرشيد نعلا[1]، والنعال أنواع منها الزنجية والكتانية المشعّرة واليمانية، وقد اعتنت نساء الخلفاء والمترفات بالنعل وصناعته مرصعينه بالجواهر والأحجار الكريمة، وكانت نعال الصغيرات من النّساء صرارة أي تصر عند المشي[2].

ت- **اللكّاك:** وهو نوع من الأحذية الفارسية كانت من لباس الخلفاء خاصة الحمراء، أمّا السوداء فإنّها كانت لباس الأمراء والقوّاد وكانت تربط بالزنانير[3]، وأمّا العامة فتختار جميع الألوان ما عدا الأحمر وهي من لباس الرجال والنّساء، غير أنّ الداخل إلى دار الخلافة كان يمنع من لبس لكة حمراء لأنّها لباس الخليفة[4].

ث- **الجوارب:** وكانت تلبس بالأرجل وتشمل الرجال والنساء، إلّا أنّهم اختلفوا في نوعيتها وأشكالها، وكثيرا ما كانت تلبس في الشتاء، ووفقا للتباين الطبقي الاجتماعي فقد كانت جوارب الأمراء والقوّاد سوداء اللون من الخز والقز[5]، والمرعزي[6] وكان يلبسها الأغنياء ، وأمّا الأقمشة الرخيصة كالصوف والكتان فعلى الأرجح اختص بها الفقراء من العامة[7].

---

[1]- وقد كتب إليه يقول:

نعل بعثت بها لتلبسها × قدما تسير بها إلى المجد

لو كان يمكن أن أشركها × خدّي جعلت شراكها خدّى.

ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص232.

[2]- الوشاء، الموشي أو الظرف والظرفاء، ص160-161. الشيزري، نهاية الرتبة، ص73- 76.

[3]- الزنانير: هو في الغالب نسائج ملونة من الحرير تصنع لأجل التمنطق فقط. بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، (د ت)، ص281. رجب عبد الواحد إبراهيم، المعجم العربي، ص215.

[4]- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص75-76.

[5]- القز: القز مشتق من دودة القز التي تنتج الحرير، وهو ثياب من صوف كالمرعزى وربّما خالطها حرير. ابن سيدة، المخصص، ج1، ص68.

[6]- المرعزي: هو اللّين من الصوف وقيل هو الزغب الّذي تحت شعر الماعز. أبي منصور الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق، 1410هـ/ 1990م، ص307.

[7]- الوشاء، الموشي أو الظرف والظرفاء، ص160-161. الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص92. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص229-230.

وأمّا عن **ملابس النّساء**، فقد اختلفت باختلاف الطبقات الاجتماعية فالمترفات من النّساء كنّ يلبسن الألبسة الثمينة الغالية مثل اللاذ[1] واللالجة[2] والحرير والديباج والثياب الموشاة بالذّهب والفضة، أمّا بقية نساء العامة فإنّهن تتفاوت ما بين ترف المترفات والظريفات وبساطة المتصوفات الفقيرات في ملابسهنّ الخشنة الغليظة من الصوف أو القطن، وكانت النّساء يملن كثيرا إلى الملابس الملوّنة والمنقوشة، وقد أشار أبو المطهر الأزدي[3] إلى تلك النقوش بأنّها أفضل من نقوش الصين.

وأهم ما ميّز ملابس النساء عن ملابس الرجال هو كثرة الألوان والنقوش إلّا أنّها اختلفت باختلاف أذواق النساء وأوضاعهن الاجتماعية والمالية، فمثلا كانت النساء المهجورات يلبسن الملابس البيضاء بينما الأرامل كنّ يلبسن الملابس ذات اللون الأزرق والأسود[4].

وأمّا النساء المترفات فلم يلبسن من الثياب الأصفر والأسود والأخضر والمورد والأحمر إلّا ما كان جنسه الصفرة والتزريق والخضرة والتوريد والحمرة مثل اللاذ والحرير والقز والديباج والخز لأنّ لبس المورد والأحمر والأخضر (أي المصبوغة بالألوان) إنّما هو لبس النساء الفقيرات[5].

فمن ألبسة البدن الداخلية كان القميص الداخلي وهو ما يسمّى بالتحتاني[6]، ويكون عادة بدون أكمام تلبسه المرأة في الدار وعند الخلوة، وله عدة أسماء منها الأتب والصدار والقرقر والمجول والشوذر وهي تختلف من حيث الطول والقصر[7].

1– اللاذ: ثوب حرير أحمر اللّون فارسي. أدي شير، الألفاظ الفارسية المعرّبة، ص142.

2– اللالجة: من لباس القدم للمرأة. ابن الجوزي، ذم الهوى، ص89.

3– حكاية أبي القاسم البغدادي، ص53.

4– صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية، ص23.

5– نفسه، ص24.

6– الثياب التحتانية: ثياب قطنية تلبس تحت الثياب. رجب عبد الواحد إبراهيم، المعجم العربي، ص90.

7– الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تح عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1422هـ/2002، ص181.

وكانت هناك الغلالة وهي ثوب رقيق شفّاف يلي الجسد،ومنها الغلالة الرخانية[1] والقصب واشتهرت بها النّساء الظريفات من الجواري[2]، وأمّا ألبسة البدن الخارجية فإضافة لما ذكر منها كالإزار كان الرداء وله عدة ألوان منه المقصب العودي[3].

وأمّا الثياب الخارجية فهي أنواع، الثمينة الغالية كالديباج الموشاة بالذهب، ومنها الرخيصة المصنوعة من الصوف أو القطن المسمّاة بالأسمال أو الخلقان[4].

ويتكون اللباس الخارجي من الإزار والسروال الأبيض اللون، والقباء وهذا نادر ما تلبسهن، كما فعلت عريب وصيفة الأمين، وهناك الأثواب والقمصان وهي متنوعة الأشكال منها الطبرية والفوهية والرشيدية والديبقية، ولبسن الريطة وهي كالملاءة ولكنّها تتكون من قطعة واحدة بينما الملاءة تكون من قطعتين، وتكون الريطة طويلة نسبيا وبيضاء اللون دائما، وقيل عن الريطة أيضا بأنّها كل ثوب ليّن ودقيق.[5].

كما لبسن البدنة وهي قميص لؤلؤ وجوهر لبستها بوران ليلة زفافها من عبيدة بنت عبد الله التي لم ير في الإسلام مثلها[6].

وأمّا لباس الرأس فيتكون من المقانع، والخمار وقد يكون من الصوف وغالبا ما تكون المقانع والخمار أسود اللون، والعصابة والّتي منها المرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة وهي من ابتكار علية أخت الرشيد، فقد ذكر أنّ أبو الحسن دخل على الرشيد يوما وحوله وقفن جواري لبسن عصابة منضدة بالدر والياقوت مكتوبا عليها بصفائح الذهب شعرا، وقد يزيّن الرأس بحلية ذهبية حولها عصابة منضدة بالجواهر[7].

وفي العهد البويهي تنوعت الملابس بحسب مكانة الفرد الاجتماعية، والمهنة الّتي يعمل بها، وكان الخلفاء يرتدون قباء أسودًا يبرز من تحته قفطانا زاهيا له منطقة مرصّعة

---

[1]- الغلالة الرخانية: نسبة إلى رخان إحدى قرى مرو. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص38.

[2]- الثعالبي، فقه اللغة، ص181.

[3]- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص55.

[4]- صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية، ص212.

[5]- ابن سيدة، المخصص، ج1، ص77. صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية، ص67.

[6]- ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص67-68.

[7]- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج8، ص128- 132.

بالجواهر، وفوق ذلك عباءة سوداء، وقد استعمل الخلفاء لباس الملحم وهي ثياب سداها من الحرير، ولحمتها من القطن تصنع في بغداد[1].

وقد غطوا رؤوسهم بقلانس طوال وحولها عمامة ذات لون أسود وهو شعار العبّاسيين، وكان الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة يقلدون الخلفاء في ملابسهم، غير أنّ الفقهاء والقضاة كانوا يرتدون الطيلسان وهي طرحة توضع على المنكب والعمامة مقتدين في ذلك بالرسول صلّى الله عليه وسلم[2].

وقد تنافس الأغنياء في ارتداء الملابس الثمينة، وكانوا يمتلكون صناديق كبيرة تحتوي على كثير من الثياب الفخمة، فعندما قبض بهاء الدولة على القاضي عبد الجبّار سنة 385هـ وصادر أمواله كان من جملة ما بيع في المصادرة ألف طيلسان وألف ثوب مغربي، وكان ارتداء الملابس الحريرية دليل الثراء والترف، وكان الصاحب بن عبّاد يلبس الخز في داره ويلبسه جميع من في داره من الخدم[3].

وغلب على الثياب اللون الأبيض ومنذ بداية القرن الرابع الهجري كان القباء الأسود لباس رجال الدولة الرسمي إلى أن اقتصر ارتداؤه في أواخر القرن الرابع على الخطباء والمؤذنين، ويذكر المقدسي[4] أنّ الأقبية والمناطق كانت لباس الخطباء في عصره.

واشتهر الكتّاب بارتداء الدراعات المصنوعة من الصوف، وأمّا غير العلماء من علّية القوم فكانوا يلبسون داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق طاقية صوف مخلوط بالقطن والحرير الأبيض، ثمّ استعاضوا عنها بطاقية خفيفة بنفسجيّة اللون، وكان القوّاد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة، وأمّا الجند فيرتدون سراويل ذات شرائط وتحيط أوساطهم أحزمة عريضة، وكان زيّ عامة النّاس يشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمّى قمربند، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال، غير أنّهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجي المسمّى الجرموك عند دخول المساجد أو القصور[5].

---

[1]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية ، ص90.

[2]- نفسه، ص90.

[3]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص453.

[4]- أحسن التقاسيم، ص129.

[5]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص91.

وكان الفقراء يلبسون المدرعة وهي ثياب من الصوف الخشن بينما يلبس الفلّاحون الثياب القطنية، وأمّا الزهّاد والمتصوفون فيلبسون ثيابا بسيطة من الصوف الخشن، وكان بعض الفقراء لا يملك ثمن جبّة يرتديها، فكان الواحد منهم يبقى طوال الشتاء لا يرتدي سوى ثوب واحد، فمثلا بقي أحمد بن محمد الأبيوردي طيلة الشتاء في بيته لا يخرج منه لأنّه لم يكن يملك ثمن جبّة يلبسها[1].

وأمّا ثياب النّساء فكانت تختلف بحسب أوضاعهنّ الاجتماعية والاقتصادية، فالثريات اتخذن غطاء الرأس مرصّعا بالجواهر ومحلّى بسلاسل ذهبيّة مطعّمة بالأحجار الكريمة[2]، وأمّا نساء الطبقة الوسطى فكنّ يضعن على رؤوسهنّ حلية مسطّحة من الذّهب ويلففن حولها عصابة مطرّزة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل في أرجلهنّ، كما اتخذن ثيابا ملوّنة تسمى القصب، واستخدمن الملابس الّتي تحلى بزخارف كتابية، وكانت المرأة ترتدي عند الخروج من بيتها عباءة طويلة تغطي جسمها ومن تحتها قميص مشقوق عند الرقبة يغطيه غطاء الرأس الّذي يلتف حول الرقبة وعلى وجهها تضع النقاب، وكانت هذه الأزياء زاهية الألوان، غير أنّ المسنّات والأرامل كنّ يرتدين الثياب البيضاء[3].

- **التزين:** وقد اعتنى العراقيون بالتزيّن والتجمل في العصر العبّاسي خاصة إذا أراد أحدهم الخروج من المنزل، فاهتموا بدهن الشعر وتسريحه للتّحسين من منظره، وكانت هناك أنواع كثيرة من الدهون سواء لشعر اللحية بالنسبة للرجال أو شعر الرأس بالنسبة للرجال والنساء[4].

كما استخدم الكحل للزينة المشتركة، فقد كانوا يكتحلون بالمكاحل والمراود الّتي هي من أدوات الزينة المشتركة بين النساء والرجال، فبالنسبة للرجال كان الاكتحال بالكحل بالنسبة لهم إتباعا للسنّة فقد جاء عن النّبي صلّى الله عليه وسلم أنّه كان يستعمل الكحل خاصة كحل الأثمد، وأمّا بالنسبة للنساء فكان وما زال استخدامهن الكحل لتجميل عيونهنّ

---

[1]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية ، ص91-92.

[2]- كان هذا الزي من ابتكار علية ابنة الخليفة المهدي كما أنّ السيّدة زبيدة قد اتخذت النعال المرصّعة بالجواهر.

[3]- حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص92.

[4]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص306.

وكذلك استعمال الأمشاط والملاقط والمقابض الّتي تستخدم لحجر الحمّام الّذي كان يستعمل لتنظيف القدم[1].

أمّا الحلي فهي من أدوات الزينة للنّساء منذ القدم وتطورت من فترة لأخرى، وكانت خزائن الخلفاء العبّاسيين تمتلئ بالأحجار الكريمة والثّمينة كالياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقد كانت نساء الخلفاء والمترفات من نساء الأغنياء أكثر استخداما للحلي الثمينة، حيث كانت قلائدهن تصنع سبحة من العنبر والصندل وكذلك كنّ يضعن على خصورهنّ أحزمة من ذهب مرصّعة بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر[2].

كما كنّ يتقلدن قلائد من عظام الحيوانات والخزف والودع واللؤلؤ والدر والياقوت والّتي بلغ سعرها عشرة آلاف دينار كقلادة أم سلمى الّتي أهدتها إلى أبي العباس، ولبسن الخلاخل في الأرجل وتتدرج من الفضة إلى الذهب المرصع بالجواهر، كما اشترك كل من النّساء والرجال في لبس الخواتم الّتي نقشت عليها أسماء وألقاب الأشخاص كالخلفاء، وأمّا نسائهم وأمهاتهم فقد كنّ ينقشن على خواتمهن أسماء أبنائهن أو أزواجهن، كما كانوا يتهادون الخواتم كرمز للمحبة أو للقطيعة[3].

وفي العهد البويهي اهتمت المرأة العراقية بزينتها أيضا، وكان احتشاد بيوت العراق بالإماء عاملا كافيا لإثارة غيرتها، فأقبلت على التزيّن، وسهل لها ذلك وجود أسواق لبيع العطور ووسائل التطيب، كما اهتمت النساء بزينة شعرهن، فبعضهن كنّ يعرقبنه على أصداغهن، وبعضهن يجعلنه غداير وضفاير، ويبدو أنّ بعضهن كنّ يجعلن شعرهن مجعدا، كما أنّهن كن يعتنين بزينة سوالفهن[4].

واستخدمت النساء الخضاب لشعرهن والحناء لأيديهن فكنّ يستخدمن الحنّاء لأطراف الأصابع والأرجل، وكذلك الشعر وكنّ يستخدمن النشادر وهو صبغ أحمر يستخرج من النبات لتحمير الخدود وصبغ الشفاة، وكان العطّارون يؤمنون مواد الزينة، فاشتهر منهم جمرة

---

[1]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية ، ص306.

[2]- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص53.

[3]- صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية، ص23.

[4]- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص10.

العطارة في القرن الثالث الهجري، واشتهر في القرن الرابع الهجري شركة العطار الّذي اشتهر ببيع المحلب، وهو يستعمل في السواك الّذي يعول عليه في جمال الأسنان وصيانة الفم، كما كانت النساء ترتدي الجوارب الحريرية وينتعلن القباقب أو الزرابيل وهي نوع من الخفاف شاع لبسه بين الجواري[1].

2-الأطعمة:

إنّ تعدد ألوان الطعام وكثرة أنواعه كان شائعا بالعراق منذ العهود العبّاسية الأولى خاصة لدى الخلفاء والوزراء وأهل الثراء من النّاس.

ومـمّا يؤكد مدى اهتمام النّاس بالطعام على اختلاف طـبقاتهم الاجتماعـية اعتبارهم أنّ علم الطبخ علم قائم بذاته، فقد ألّفوا فيه كتبا تعكس مدى اهتمامهم بالطبيخ وآدابه منها كتابي الأغذية وآلات الغداء لحنين بن إسحاق، وقد تناول فيه الغذاء من الزاوية الطبية، ومن أشهر المؤلفين في مجال الطبخ نذكر محمد بن الحارث بن بحتر وإبراهيم بن المهدي، ويوحنا بن ماسويه وإبراهيم بن العبّاس الصولي[2].

كما اهتم العبّاسيون بالموائد عناية خاصة، وكانوا يسمّونها خوانا، وكانت للموائد آداب منها: غسل الأيدي قبل الطعام في وعاء يسمى بالطست ويبدأ رب البيت بالغسيل قبل البدء بالطعام بينما يغسل يديه بعد الضيوف عند الانتهاء من الطعام، وبعد أن يرفع الطعام يأتي فراش متهلل الوجه، يرتدي ملابس نظيفة ويحمل بيده الخلال لتنظيف الأسنان بعد الأكل وأكثر ما يستعمله النّاس هو التخلل بالسواك وهو أنواع أشهرهم السواك المأموني، ثمّ الغسل بعد ذلك بالأشنان، وكان الأغنياء وكبار رجال الدولة يضيفون إليه مواد مطيّبة كالأرز المطحون أو الصندل الخراساني والكندر[3] والمسك والكافور والورد الجوري[4] عند ذلك يصبـح

---

[1]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص306. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص 368.

[2]- ابن طيفور، كتاب بغداد، ص36. صلاح الدين المنجد، مآكل الخلفاء العبّاسيين، مجلة الرسالة، ع653، 1946م، ص61. آدم متز، الحضارة الإسلامية، م2، ص242.

[3]- الكندر: هو اللبان وأجود أنواعه ما جاء من اليونان. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت)، ج2، ص215.

[4]- الورد الجوري: سمي بذلك لأنّه يزرع في مدينة جور ببلاد فارس ومنه يستخلص ماء الورد، وهو عدة أنواع منها الأحمر، والأبيض والأصفر وتكون زراعته في بداية الشتاء ويزهر بعد ثلاث سنوات من زراعته. عبد الجبار حامد أحمد وزينب سالم صالح، صناعة العطور في العصر العباسي (132-656هـ/749-1258م): دراسة تاريخية، مقال منشور بمجلة التربية والعلم، المجلد19، ع3 ، 2012، ص2.

سلطانيا، ثمّ بعد ذلك يغسل الضيوف أيديهم في طست ثمّ ينشفوها بالمناديل[1].

ومن عادات العبّاسيين أيضا أن يبخر صاحب الدعوة المدعوين ويطيّبهم بالطيب الهندي وعلى المدعوين أن يشكروا صاحب الدعوة ويدعون له بالبركة[2].

وكانت من الآداب العامة للطبيخ لدى العبّاسيين كذلك هو اختيار الطبّاخ بحيث يكون ماهرا عارفا بقوانين وأصول الطبيخ، وأن يتميّز بالنظافة العامة والنظافة الشخصية، وكان اختيار الطبّاخ خاص بالخاصة والأغنياء من النّاس، وأمّا عامة النّاس فإنّهم يعتمدون على خدمة نسائهم أو يقومون بأنفسهم بالطبيخ في منازلهم، كما أنّ هناك آدابا عامة تتعلق باختيار أدوات الطبيخ في القصور، فقد كانوا يفضلون القدور البرم ثمّ الفخّار، وكانا أفضل ما يمكن الطبخ فيه، ثمّ عند الضرورة يمكن الطبخ في قدور النحاس المبيضة[3].

وكان من الآداب أيضا اختيارهم للحطب الّذي يوقد عليه، فيختارون اليابس منه وهو ما ليس له دخان ساطع كحطب الزيتون والسنديان، وأن يتجنب الطبخ على ما فيه نداوه، وحطب التين لأنّه كثير الدخان وأن يعرف الطبّاخ مقدار ما يحتاج من وقود، كما كانوا يعتنون بنظافة الأواني المستعملة في الطبخ فتغسل بالطين وتدعك بالأجر والأشنان، والورد والياسمين المدقوقين، ثمّ بورق الأترج[4] الطري[5].

وكانت الأطعمة تعد داخل البيوت للإستهلاك الخاص، ويستثنى منها بعض الأصناف القليلة كمحلات الشوائين والسماكين والهرائسيين، وبعض المحلات الّتي تصنع الحلويات، وقد كان الشائع بين العبّاسيين تخزين الأطعمة، وهي طريقة موروثة عن سكان الشرق في القديم والّذين كانوا يخزنون الحبوب في الاهراءات والمطامير، كما عرفت مجموعة من

---

[1]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص282.

[2]- نفسه، ص 282.

[3]- البغدادي، كتاب الطبيخ، أعاد نشره فخري البارودي، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 1964، ص11.

[4]- الأترج: هو نبات تبقى ثمرته عليه جميع السنة، وهو معروف عند جميع النّاس وثمره طويل لونه شبيه بلون الذهب طيب الرائحة، وله بزر شبيه ببزر الكمثري، وورقه يشبه ورق الجوز وهو طيب الرائحة، ولشجره شوك حديد. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ج1، ص10.

[5]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ص11.

التعليمات الّتي ترمي إلى حفظ الفواكه الطازجة، وعلى الأخص العنب الّذي روعي أن يحفظ من التسوس كي لا يتلف[1].

وكان للطعام آداب عامة بين النّاس ولكن هذه الآداب تكون رسوما جارية في حضرة الخلفاء إذ لا يصح في مجالسهم التبذل والادلال لسمو وعظيم هيبتهم، ويبتدأ الطعام عادة بغسل اليد وهي من العادات والآداب العامة الضرورية لاسيّما قبل تناول الطعام، فلربّما كان اتساخ يد البعض يؤذي الآخرين، وعن موسى الرضي أنّه قال لرجل امتنع أن يغسل يده للطعام عنده: اغسلها فالغسلة الأولى لنا والثانية لك فإن شئت فاتركها[2].

ولغسل اليد عند مؤاكلة الخلفاء آداب خاصة توجب على من حضر موائدهم الالتزام بها فيجوز أن يحمل الطست إلى من دعاه الخليفة لمؤاكلته فيغسل يده للطعام في حضرة الخليفة في نفس الطست، وظلّ هذا الأدب جاريا طوال هذا العصر، إلّا أنّه ينبغي على من كرم بذلك أن يراعي هذه الحرمة ويخف في تصرفه من دون تفريط، وعلى من غسل يده للطعام أن لا يمس بها شيئا قبل ذلك فعندما غسل رجل مع المأمون يده وأبطأ الطعام مدّها إلى رأسه أو لحيته فقال له المأمون أعد غسل يدك، وقال لا يلي غسل اليد إلّا الخبز[3].

وإذا كان غسل اليد جائزا في حضرة الخلفاء قبل الطعام فهو غير جائز بعده، ويبدو أنّ أسبابا أدبية كثيرة تمنع ذلك لذا يجب التنحي جانبا للغسل بعد الطعام «لما يحتاج إليه استقصاء الغسل والمبالغة في التنظيف وإجالة الأنامل في اللهوات والخلال في الأسنان، وأنّ المرء يتأذى أن يرى ذلك من نفسه ومن غيره»[4].

كما كان يكرم بعض الخلفاء أحد خواصهم أن يغسل يده عند مكانه بعد الطعام، مثلما فعل الهادي بعيسى بن يزيد بن دأب الليثي، وهو من رواة الأخبار والأشعار ومن حفّاظها وكان تيّاها، فقال «أنا لا أتغدى في مكان، لا أغسل فيه يدي فقال له الهادي فتغدّ، فكان النّاس إذا تغدوا تنحوا لغسل أيديهم، ودأب يغسل يديه بحضرة الهادي»[5].

---

[1]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص 397.

[2]- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة، ص140-142.

[3]- نفسه، ص143.

[4]- أبو الفتح محمود بن الحسين الكاتب المعروف بكشاجم، أدب النديم، طبع بمصر سنة 1873، ص104.

[5]- نفسه ، ص28. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج6، ص2144-2150.

وأمّا عن رسوم وآداب ومؤاكلة الخلفاء فقد ورث العبّاسيون عن بني أمية إقامة المآدب للنّاس، وكان يطلق على هذه الولائم أسماء تختلف بحسب مناسباتها الاجتماعية.

ومن آداب حضور مآدب الخلفاء نذكر أن يجلس النّاس على مراتبهم الخاص والعام، وأن لا يمد أحد يده للطعام قبل أن يبدأ الخليفة بذلك، ومثال ذلك: لمّا مات جعفر بن أبي جعفر، وأذن أبو جعفر بالدخول للتعزية، ثمّ حضر الطعام، ووضعت الموائد بين يديه فلم يمد يده فلمّا رأى النّاس انقباضه عن الأكل فقبضوا أيديهم فجثا شبيب بن شيبة، وقال: «أصلح الله أمير المؤمنين إن رأيت أن تأذن لي في كلمات،فأنشده مرثية أحد مشاهير العرب في ولده قال فبسط يده فأكل وأكلنا»[1].

كما كان لا يجوز لأحد أن يرد دعوة الخليفة لمؤاكلته، وقد أوجع الربيع الحاجب أحد شبان بني هاشم ضربا، حين اعتذر عن دعوة المنصور لتناول الطعام معه وعندما سأل المنصور الربيع عن سبب معاقبة الشاب عند مجيء أبيه متشكيا قال: الربيع إنّ هذا الشاب بلغ من جهله بفضل المرتبة الّتي جعله فيها أمير المؤمنين[2].

ومن رسوم مؤاكلة الخلفاء، أن لا يأذنوا للخدم في مشاركتهم الطعام مهما بلغوا من المنزلة عندهم،حتّى ولو دعوهم إلى ذلك من باب آداب الطعام،فقد ذكر أنّ المأمون دعا أحد الخدم إلى طعامه وعندما شرع ذلك الخادم في الأكل لم يعترض الخليفة ولكنّه أوصى الحاجب أن يتركه شهرا كاملا خارج باب دار الخلافة وعند عودته دعاه إلى الأكل فرفض الخادم، فقال له الخليفة: «ويلك أظننت بي بخلا على الطعام؟ لا والله ولكنّي أردت تأديبك لمن بعدي لأنّ الملوك والخلفاء لا يؤاكلها خدّامها وأخاف أن تتعود»[3].

وممّا أثر عن خلفاء العصر العبّاسي التواضع مع من يواكلهم على الطعام، فقد روي أنّ أحد قادة المنصور كان يؤاكله، إذ سقط بعض الطعام من يد الرجل في الغضارة، فلم

1- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص211-212.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص329.

3- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة ، ص142.

يمتعض الخليفة من ذلك فالتفت إليه الرجل فقال: «يا أمير المؤمنين أمّا الدنيا فهي أقل وأيسر من أن أتركها لك، لكن والله لأتركن في مرضاتك الدنيا والآخرة»[1].

وقد كان الخلفاء يتفقدون بأنفسهم مقادير الطعام الّتي تقدم للنّاس على موائدهم، وقد غضب المنصور لقلة الطعام، عندما كان النّاس يتغدّون في داره فقال: «يا غلام عليّ بالقهرمان، فقال له: مالي رأيت الطعام في خف من بين أيدي النّاس قبل أن يشبعوا؟ ابطحوه. قال:فبطحوه فضربه سبع درر»، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ مطبخ العامة كان أحد محتويات دار الخلافة[2].

ويقسّم الطعام عند العبّاسيين إلى ثلاثة أنواع: نوع معقّد التركيب يكلف غالبا لما يحتاج إلى آلات ومطيّبات وجهد وهو طعام الأغنياء وكبار موظفي الدولة، ونوع آخر طعام شائع بين النّاس جميعا رغم اختلاف مستوياتهم الاقتصادية وأنواع هذه الأكلات، ونوع ثالث يمكن تسميته بأنّه طعام رخيص بسيط وهو طعام الفقراء والمعدمين[3].

أ- **طعام الخلفاء والطبقة الخاصة:** كانت اللحوم وخاصة الدجاج من الأطعمة المفضّلة للخلفاء، ولذلك كان سعر الدجاج غاليا فعلى سبيل المثال كان سعر الدجاجة بدينار، بينما الباذنجال يباع المائة بدانق[4].

وكان طبخ مادة اللحوم واحدة إلّا أنّها تختلف باختلاف المواد المضافة إليها من المطيّبات، فمثلا كان يؤخذ لحم الدجاج ويسلق ثمّ يقطع ويعرق في الشيرج[5]

---

[1]- طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة ، ص142.

[2]- نفسه ، ص143.

[3]- رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية، ص255.

[4]- الدانق: كلمة فارسية معربة وهو سدس الدرهم وربّما قالوا للدانق دانقان، وعند اليونان حبتا خرنون، والدانق الإسلامي حبتا خرنون وثلث حبة. الزبيدي، تاج العروس، ج6، ص349. الفيومي، المصباح المنير، ج1، ص201.

[5]- الشيرج: هو الدهن المستخرج من السمسم. محمود مصطفى الدمياطي، معجم أسماء النبات الواردة في تاج العروس، القاهرة، 1965، ص68.

الطري المضاف إليه الكسفرة[1] والمصطكي[2] والدارصين[3]، ثمّ بعدها يطبخ حسب نوع الأكل، وكان العراقيون لا يستعملون البصل والثوم في طبخ الدجاج، بل كانوا يجعلونه في الحوامض بحيث يوضع لحم الدجاج في ماء حب الرمان أو ماء الليمون، أو الحصرم[4] أو الخل والسكر ثمّ يضاف إليها اللوز المدقوق ناعما والذي سبق وأن نقع في الماء وأزيل قشره، ثمّ يرش بماء الورد ويوضع فوقه نعناع يابس[5].

وإذا نقع الدجاج في الخل ثمّ طبخ سمّي مصوصا ثمّ بعد سلقه يوضع عليه الكرفس والخل مصبوغا بالزعفران، وهناك من يضع عليه البيض، إذا سلق بالمصطكي والدراصين، وإذا أضيف اللوز الحلو الناعم مع الحمص المقشور وجعلت عليه عيون البيض سمّي ذلك خشكنانة أو فالوذجية، وإذا نقع في الخل ثمّ طبخ سمّي مقمورة[6]، وبعد أن يوضع لحم الدجاج في الخل والمري[7] بمقدار متساوي يوضع عليه شيء من ماء السلق، وإذا طجن بالشيرج سمّي مطجنة[8].

كما أكل العبّاسيون لحوم الطيور مشوية أو مطبوخة من فراريج، وفضل الأغنياء كبد الدجاج المسمن وصدور البط بماء حب الرمان وماء التفاح والتوت الشامي، والكبود المفروكة بالبيض الطري المعمول بالكزبرة الحديثة والزعفران، ولحوم الحملان والجداء السمان المطيّبة بالدارصين وبماء الزبيب المدقوق وبماء حب الرمان[9].

---

[1]- الكسفرة: وهي الكسبرة أو الكزبرة وهو نبات الجلجلان هي نوع من التوابل والمنكهات لم أجد تعريف واضح لها في المعاجم والقواميس.

[2]- المصطكي: شجرة تنبت في جزيرة خيوس، في بحر الأرخبيل اليوناني، تستخدم في علاج بعض الأمراض وتركيب بعض المعاجين، وهي كاللبان إذا مضغت. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية ، ج4، ص 158.

[3]- الدارصين: اسمه باليونانية «أفيمونا» وبالسريانية «مرسلون»، وهو شجر هندي يكون بتخوم الصين كالرمان، أوراقه كأوراق الجوز، وهو نبات لونه مائل للحمرة وأعواده ملتفّة. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ج2، ص83. الشيزري، نهاية الرتبة ، ص36.

[4]- الحصرم: هو غض العنب ما دام أخضر، والحصرم أيضا ما لم ينضج من الفاكهة، ويعرف غض العنب بالحصرم .أبي الخير الاشبيلي،عمدة الطيب في معرفة النبات، تح محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، (د ت)، ج1، ص188 .

[5]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ص 50-51

[6]- نفسه، ص13

[7]- المري: نوع من أنواع المطيّبات والمنكهات. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ج2، ص 162.

[8]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ص14.

[9]- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص39. عبد الواحد ذنون طه، مجتمع بغداد من خلال حكاية أبو القاسم البغدادي، مقال منشور بمجلة المورد، دار البحرية للطباعة، م3، ع4، بغداد، 1394هـ/1974م، ص19.

وأكلوا الأسماك بأشكالها المختلفة، وطبخوا الأكارع، وحشوا الأمعاء وشووا الرؤوس، واعتبروا أفضلها الرؤوس التنورية، وكان الشواؤون في الأسواق يعدون الأصناف المختلفة، وقد اشتهر شواء باب الكرخ بجودته في بغداد، ومن ألوان الشواء المعروفة الدجاج المسمن الهندي، والبط الكسكري والأسماك بأنواعها، ولحوم الحملان التركمانية الأصل المدورة الّتي لا يعرف طولها من عرضها نظرا لسمنها، فكانت هذه الحملان الرضع تشوى على النّار، ويوضع في أفواهها ضروع أمهاتها[1].

ومن أكلاتهم المترفة السكباج والّذي يقال عنها بأنّه «مخ الأطعمة وسيّد المرق»[2] ، ولطبخها كان يقطع اللحم السمين إلى قطع ويوضع في قدر ويغمر بالماء، ثمّ يضاف إليه الكسفرة الخضراء والدارصين والملح قدر الحاجة، وبعد أن يغلى ترمى رغوته وزبده، وتضاف إليه الكسفرة اليابسة وتنحى عنه الكسفرة الخضراء، وإذا كان وقت البصل الأبيض والكرات والجزر، أو الباذنجال يقشّر الجميع ويوضع كل ذلك في قدر آخر فيها ماء وملح، ثمّ ينشف من مائه ويترك في دبس[3] أو عسل، ثمّ يصب في القدر ويترك على النّار لتغلى ساعة من الزمن ثمّ يرفع من على النار ويؤخذ من مرقه قليلا، ويضاف إليه قدر الحاجة زعفران، ثمّ يوضع عليه اللوز المقشّر الحلو مع قليل من العنّاب، والزبيب والتين اليابس، ويغطى ساعة على نار هادئة، وخلال ذلك تمسح جوانب القدر بخرقة نظيفة ويرش على القدر ماء الورد، ثمّ يرفع عندما يصبح جاهزا للأكل[4].

ومن الأطعمة المعروفة الديكبريكة، وهي من طعام الخلفاء وكبار القوم والأغنياء وتصنع من اللحم والبصل والكراث والكسفرة، وبعد أن تغلى يلقى عليها خل ومري، وبعضهم يضيف إليها القليل من السكر، وكانت كثيرة الدهن[5].

وطبخ الأغنياء والخاصة الزيرياج الّتي تتخذ من قطع من اللحم السمين والحمص، ويطرح عليها الخل وبعض السكر واللوز، وتصبغ بالزعفران، ويمكن أن يستبدل اللحم

---

[1]- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص39. عبد الواحد ذنون طه، مجتمع بغداد، ص19

[2]- الثعالبي، ثمار القلوب، ص 491.

[3]- الدبس: هو عسل التمر أو عصارته من غير طبخ. الشيزري، نهاية الرتبة، ص 40.

[4]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ص13.

[5]- نفسه، ص15.

بالدجاج، والطباهجة الّتي تتألف من شرائح اللحم والإلية[1] وبعض البهارات، وهي المعروفة بالمؤلّفة العطرية المعمولة بماء التوت وماء العنب[2].

ومن الأكلات المعروفة أيضا الإبراهيمية، وطريقة طبخها هي أن يقطّع اللحم أوساطا ويوضع في القدر مع غمره بالماء ثمّ يوضع عليه الملح بقدر الحاجة ويترك يغلى، ثمّ تجمع الكسفرة والزنجبيل والفلفل المدقوقة الناعمة وتوضع في خرقة كتان مشدودة وتلقى عليه مع قطع من الدارصين والمصطكي، وتقطع ثلاث بصلات صغيرة وتلقى فيها، ويدق لحم أحمر ويعمل كيسا على القانون ويلقى في القدر، فإذا نضجت نحيت تلك التوابل الّتي في الخرقة على القدر، وتمرق بماء الحصرم العذب العتيق فإن لم يوجد فماء الحصرم الطري الّذي يعصر باليد أو بالخل، ثمّ يصفى ويرمى باللوز الحلو المدقوق بالماء ناعما، ثمّ يحلّى قليلا بالسكر الأبيض، ولا يكن شديد الحموضة ويترك مدة ساعة حتّى تهدأ النّار، ثمّ يرش بماء الورد ثمّ يرفع من على النار[3].

كما كانت المضيرة من الأطعمة العراقية المشهورة، وطريقة صنعها أن يختار لها اللحم السمين مع الإليه ويقطع ويوضع في قدر ثمّ يضاف إليه الملح والماء، فإذا قارب النضج يؤخذ البصل والكرات النبطي أيضا ويقشّر ويقطع ثمّ يغسل بالماء والملح وينشّف، ثمّ يضاف إلى اللحم في القدر، مع إضافة كسفرة يابسة وكمون ومصطكي ودارصين، فإذا نشّ ونشف الماء منه ولم يبق سوى الدهن غرف في صحن، ثمّ يؤخذ اللبن الحامض قدر الحاجة ويوضع في قدر ويضاف إليه الليمون المملوح والنعنع الطري ويترك حتّى يغلى، ثمّ يبعد عن النّار فإذا سكن غليانه يضاف إلى ذلك اللحم والتوابل، ثمّ تمسح جوانب القدر ويترك حتّى يهدأ[4].

كما كان البازماورد من أشهر الأطعمة العبّاسية، وهو أن يؤخذ الشواء الحار الّذي قد فتر قليلا ويقطّع ويجعل عليه ورق النعنع وقليل من الخل والليمون المملح ولب الجوز،

---

[1]- الإلية: أردأ من اللحم السمين رديئة الهضم والغذاء وهي أحر وأغلظ من الشحم، وتصلحها التوابل الحارة كالزنجبيل والفلفل والدارصيني والمري. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية ، ج1، ص54.

[2]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ص 17.

[3]- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص61. البغدادي، كتاب الطبيخ، ص14 .

[4]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ص23.

ويرش عليه قليلا من ماء الورد ويدق بالساطور دقا ناعما، ويضاف الخل إليه حتّى يشربه جيّدا، ويؤخذ الخبز السميد الملبب ويخرج لبه، ثمّ يحشى من ذلك الشواء جيّدا ويقطع بالسكين قطعا متوسطة مستطيلة، كما يؤكل البازماورد باردا أيضا ويكون طيّبا، وقد عرف طعام البازماورد في العصر العبّاسي بلقمة الخليفة ولقمة القاضي ونرجس المائدة، وهذا يدل على أن الخلفاء والقضاة كانوا يفضلونه ويحلون به موائدهم[1].

- **الفواكه:** كانت تقدم على الموائد قبل الطعام، وكانوا يكثرون من تناولها، ونذكر من الفواكه اليابسة اللوز والجوز المقشر الأبيض والفستق المقشور والبندق وجوز الهند والصنوبر والزبيب الطائفي، وقصب السكر المقطوع المغسول بماء الورد، كما كانت هناك الفواكه الرطبة كالرمان والتفّاح والتين الوزيري والموز والخوخ والأعناب والنارجيل والسفرجل والمشمش كما قاموا بتجفيف بعض المنتجات لحفظها ومنها الفواكه كالتين والمشمش والخوخ والزبيب والإجاص، كما كبسوا الخضار وجعلوا منها المخللات[2]، ومن الحوامض استخدموا ماء الليمون والأترج، وماء الحصرم، وماء الريباس[3]، والملح الدراني، والحلتيت والمحروث[4].
- **الأشربة:** وكانت تقدم على موائد العراقيين بعد الطعام على رأسها الماء الّذي اهتموا به كثيرا وبتبريده صيفا، والألبان كلبن الإبل والبقر والأغنام ثمّ يليها عصير الفواكه المستخرج منها سواء من الجزر أو الليمون والتفّاح والتمر والسفرجل وغيرها [5].

---

[1]- البغدادي، كتاب الطبيخ ، ص57.

[2]- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 38.

[3]- الريباس: نبات يشبه السلق في أضلاعه وورقه، لكن طعمه حامض إلى حلاوة، يؤكل كالعنب، والغالب أنّه الحمّاض الجبلي، لونه أصفر، في طعمه شيء من مرارة يسيرة مع حمضة. أبو الخير الاشبيلي، عمدة الطيب، ج1، ص266. ابن سينا، القانون في الطب، ج1، ص 266.

[4]- الحلتيت والمحروث: الحلتيت وهو الصمغ، والمحروث هو أصل شجرة الحلتيت وهي ذكية الرائحة. محمود مصطفى الدمياطي، معجم أسماء النبات ، ص45.

[5]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية،ص294.

- **الحلوى:** عرف العبّاسيون أنواعا مختلفة من الحلويات كان قوامها الشهد والسكر والمن والتمر، ومن أهم أنواع الحلويات الّتي اشتهرت في المجتمع العباسي الخبيص[1] والفالوذج[2] واللوزينج[3] والصابونية[4] والعصيدة والمربيات والقطائف، والزلابية وبخاصة الزلابية القاهرية والزلابية المحشوة بدهن الفستق[5].

ب-**الأطعمة الشائعة:** كانت هناك أطعمة شائعة بين النّاس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية، وهي عديدة ومتنوعة ومن أهمّها السمك وقد كان يؤكل إمّا مقليا أو مشويا أو مطبوخا إلّا أنّ المقلي كان الأكثر استعمالا، وكانوا يأخذون السمكة، ثمّ ينظفونها، ثمّ تقلى بالشيرج، وينثرون عليها البهارات، وهناك طريقة أخرى لأكلها وهي بعد قليها تؤخذ وهي حارة فتطرح في لبن فيه ثوم مدقوق ثمّ ترش بالكمون والكسفرة والدارصين وتؤكل إمّا حارة أو باردة حسب الرغبة[6].

وأمّا المشوي من السمك فله عدة طرق لعمله منها أن تؤخذ السمكة بعد تنظيفها فيرش عليها المطيّبات كالسماق[7] والثوم الّذي كان يخلط مع الملح والدارصين والمصطكي والكمون وتعجن جميعها وتحشو به السمكة، ثمّ تدهن بالشيرج والزعفران المخلوط بماء الورد من الداخل والخارج وتربط بخيط كتان قوي وتوضع في سيخ حديدي وتوضع في التنور على نار هادئة حتّى تنضج وتؤكل حارة أو باردة[8].

---

[1]- الخبيص: نوع من الحلوى، وهو أنواع خبيص القرع وخبيص اللوز، والخبيصة اليابسة، والأهوازية، ويقول عنه الفيومي: أنه نوع من الطعام. المصباح المنير،ج1، ص251.

[2]- الفالوذج: من الحلويات المشهورة المعروفة لدى أهل بغداد، وقد اشتهر الفالوذج المصري بجودته. أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص92. بدري محمد فهد، العامة ببغداد، ص 131.

[3]- اللوزينج: هو بالفارسية لوزينة، وقد ورد للدلالة على نوع من الحلويات الفاخرة. أذي شير، الألفاظ الفارسية، ص142.

[4]- الصابونية: وهي نوع من الحلوى، تصنع من الدقيق الّذي يحمص بالسمن، ثم يضاف إليه السكر واللبن، ويعمل منه قوالب مثل الصابون، ثمّ توضع في طبق وتبقى في الفرن حتّى تنضج. الشيزري، نهاية الرتبة، ص41.

[5]- الشيرزي، نهاية الرتبة، ص 40-41. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص292-293.عبد الواحد ذنون طه، مجتمع بغداد، ص20.

[6]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ص 60.

[7]- السماق: وهو شجر ينبت في صخور طولها نحو من ذراعين وفيها ورق طويل لونه إلى حمرة الدم، وثمره عناقيد فيها حب صغير يطبخ، وهذا الحب يسحق مع الملح لينثر على الرؤوس المطبوخة بعد بيعها. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ج3، ص29.

[8]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ص61.

ومن الأطعمة الشعبية الشائعة خاصة البحرية منها والّتي تعمل بما يصطاده الملاّحون الروبيان[1] والصف والسمك النهري كالشبوط[2] وغيره، وهي أكلات شائعة إلى وقتنا الحاضر، إلى جانب الأرز الّذي يؤكل مع اللبن ويقدم مع غيره من الأطعمة، أو مع العدس وهو ما يعرف بالمجدّرة[3].

وكانت الهريسة والرؤوس والأكارع تباع بالأسواق في الصباح الباكر مطبوخة ونيّئة، وقد كان الخلفاء يفضلون أكلها في الشتاء خاصة رؤوس الحملان لأنّها من الأطعمة الحارة ولا يخلطون مع أكلها شيئا آخر كما لا يشرب الماء بعدها، كما كان النّاس يأكلون لحم البقر ثمّ تركوا ذلك وأصبحوا يربّون البقر لأجل لبنها واعتبروا لحمها ضارا[4].

وتعتبر الباقلاء من الأطعمة الشائعة والمفضّلة بين النّاس وبعض العامة والصوفية، وكانوا يكثرون من أكلها بسبب انخفاض مستواهم المعيشي، ولقد رفع إلى صاحب الشرطة في عهد كل من المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل أن يباع من الباقلاء المطبوخ في كل يوم في أحد جانبي بغداد ستون ألف دينار، وهذا يدل على كثرتها في الأسواق وعلى رخصها في الوقت نفسه وبالنسبة لطريقة طبخها فبعد تقشيرها وتنقيّتها وشقّها نصفين يضعون عليها الشيرج أو دهن الجوز لعمل ثريد الباقلاء، وكانوا يأكلون الباقلاء مع ماء الليمون أو السماق المدقوق ناعما وتعتبر من المشهيات وكانوا يسمّونها بحلية الخوان[5].

إلى جانب الكباب وهو من الأكلات الرخيصة والمحبوبة لكونه من الأكلات الشّعبية، وله أصول في طبخه، فكان يؤخذ اللحم المشروح ثمّ ينثر عليه الماء والملح وقليل من الليمون ثم يطبخ، وهو أنواع ومنه الكباب الرشيدي[6].

---

[1]– الروبيان: سمك بحري، سمّاه أهل مصر الفرندس، وأهل الأندلس يعرفونه بالقمرون. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ج2، ص 749 .

[2]– الشبوط: هو نوع من الحوت معروف بالشرق وهو موجود بكثرة في الفرات وبالشط، وتستعمل مرارته في أدوية العين. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ج3، ص54.

[3]– ابن طيفور، كتاب بغداد، ص105. الشيزري، نهاية الرتبة، ص30.

[4]– الشيرزي، نهاية الرتبة،ص 36-37.جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية،ص 291.

[5]– البغدادي، كتاب الطبيخ، ص38. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص 113.

[6]– أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص39. الشيزري، نهاية الرتبة، ص13.

واشتهرت أنواع عديدة من الجبن في بغداد مثل الجبن الرومي، والجبن الدينوري الّذي يعتبر من الأنواع الرديئة[1]، وهناك أيضا الزيتون المدخن المخلوط باللوز المقشور والصعتر، وقد اشتهر ببيع الجبن والزيتون بقال في الكرخ يدعى كيكي[2].

ت-**طعام طبقة العامة:** تميز طعامهم بالبساطة وتكوّن غالبا من الخبز الّذي كان يصنع عادة من القمح والشعير والأرز وحبوب أخرى أقل جودة، واعتبرت الحنطة "أم الطعام" لأنّ لها فضلا على سائر الحبوب[3].

وقد كان الخبز أنواع حسب مادته من القمح الحواري النقي وهو من زهرة الطحين، وكانت تستهلكه الطبقة الغنية، ومنه الحواري الحال، وقد وصف بأنّه يشبه خبز الأغنياء، ومنه الخبز الخشكار وهو من النوع الوسط الممزوج بالنخالة قليل الجودة، قليل النقاء وهو كثير التداول[4].

واعتبر خبز الأرز في الدرجة الثانية وهو أعسر هضما، لذا كان النّاس يأكلونه مع المالح أو الدسم الكثير أو اللبن أو الثوم، وكان شائعا بين العامة، كما اعتبر تناول خبز الشعير من أنواع العيش النكد[5].

وكان الفقراء والزهّاد من الصوفية يأكلون خبز الحنطة وخبز الشعير، وكان أفضلها الخبز المتّخذ من الحنطة الحمراء الرزينة واللزجة، أو ما يتّخذ من الحنطة البيضاء الهشة الخفيفة الّتي تحتاج إلى كميات أقل من الملح والخميرة ، إلّا أنّ أغلب أطعمتهم تعتمد على الحبوب خاصة الباقلاء، فكان من الفقراء من يشتري ماء الباقلاء لينقّع فيه رغيفا ويقتات به، ومن الفقراء من يأكل ممّا يتصرف به النّاس خاصة الّذين اتّخذوا المساجد والربط أماكن سكنى لهم، كما كانت الهريسة وهي من طعام الخاصة والعامة[6].

---

[1]- أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص122.

[2]- عبد الواحد ذنون طه، مجتمع بغداد، ص20.

[3]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص292.

[4]- البغدادي، كتاب الطبيخ، ص34.

[5]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص396.

[6]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص292. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص 397.

وكانت الأطعمة الّتي تستهلكها العامة فقيرة من الدسم، فهي تتألف عادة من الشواء المنتشر في الأسواق ومن لحوم الرؤوس والأكارع والسمك الصغير المقلو أو المكبب الصغير والصحناة والربيثاء ولحوم البقر والجمال وبطونها[1].

وقد ذم أبو المطهر الأزدي[2] العامة ونعتهم بأصحاب الشواء والقلايا، ووصف موائدهم بأنّها بلا خل ولا بقل، عليها الباذنجال والشلجم[3] والقثاء[4] والزعرور[5]، ووصف طعامهم بأنّه من «الكركر[6] والكرنب والشلجم والأرز والعدس واللوبيا والعرمة[7] والأربيانة ممّا يأكله الوقّادون والزبّالون».

ومن أطعمتهم الشورباء والباذنجال الساذج أو المحشو باللحم والّذي اعتبروه زبدا في وعاء، وذمّ كثرة استهلاكهم للخس، والكرفس والقرنبيط والجبن الدينوري، والجبن الرومي، وفي الأحوال الأكثر سوءا كان الفقراء يلجئون إلى أكل الحيوانات من غير المواشي والطيور، وتحدّث الجاحظ[8] عن جماعة من الحوّائين في بغداد والبصرة، يأكل أحدهم أي حية في جونته غير مشوية، ويأكل عشرين عقربا نيّئا بدرهم، وأمّا الجراد والكمأة فقد كانا من الأطعمة التقليدية للفقراء، وقد ورد إقبال العراقيين على شرائهما في أخبار سنة 299هـ والّتي كانت خصبة بإنتاج الجراد والكمأة، حتّى بيعت 20 رطلا من الكمأة بدرهم و8 أرطال من الجراد بدانق، وفي سنة 330هـ وأثناء أزمة اقتصادية خانقة كثر الجراد وجيء به من القرى المجاورة وبيع المائة رطل بدرهمين وثلاثة وعاش به الفقراء، وكان الجراد يباع في بغداد

---

[1]- الشيرزي، نهاية الرتبة، ص30-31. فهمي سعد، العامة في بغداد، ص400.

[2]- حكاية أبي القاسم البغدادي، ص 100.

[3]- الشلجم: نبات معروف واللفظ الفصيح هو سلجم وهو كما يغلب الظن اللفت. ابن سينا، القانون في الطب، ج1، ص 289.

[4]- القثاء: هو الخيار. الفيروزأبادي، القاموس المحيط، ص49.

[5]- الزعرور: شجرة مشوكة، ورقها شبيه بورق مثنى ولها ثمر صغار شبيه بالتفاح في شكله إلّا أنّه أصغر من التفاح، لذيذة في كل واحدة منه ثلاث حبات. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ج2، ص163.

[6]- الكركر: صغار حب الصنوبر. محمود مصطفى الدمياطي، معجم أسماء النبات ، ص49.

[7]- العرمة: هي السردين.أحمد عيسى بك، معجم أسماء النبات، طبع بالمطبعة الأميرية، القاهرة، 1349هـ، ص46

[8]- الحيوان، ج4، ص 303-305

مطبوخا من قبل باعة خاصة به، ولدينا أخبار عن فقراء كانوا يأكلون السنانير من شدة حاجتهم إلى الطعام[1].

والواقع أنّ العامة لم تكن تعرف الأنواع الطيّبة من الأطعمة، وقد ترك لنا التنوخي[2] حوارا بين المقتدر وأحد الملاّحين، فبعد أن تناول الخليفة طعام الملاح طلب الحلوى، فأجابه الملاح: «نحن لا نعرف الحلوى، فاستغرب المقتدر وقال: ما ظننت أنّ في الدنيا من يأكل طعاما بلا حلوى بعده، فقال الملاح: حلوانا التمر والكسب»، وفي موضع آخر يذكر أنّ الفقراء كان لهم في عصيدة التمر كفاية، وذكر أبو المطهر الأزدي[3] أنّ حلوى العامة هي عادة من العنب الأسود وحلاوة مدلوكة باليد كالناطف[4] والمبريخ[5].

وهكذا يمكن تصوير الوضع المعيشي للعامة بما قاله الجاحظ[6] عن الفقير: «مرقته سلفة، ورداؤه علقة، وجردقته فلفلة، وسمكته شلقة». وممّا سبق نقول أنّ تراجع المستوى المعيشي لطبقة العامة، واستفحال ظاهرة الفقر، هي مظاهر تدل على تخلي الدولة العباسية عن مسؤوليتها اتجاه هذه الفئة المحرومة اجتماعيا من أدنى حقوقها، وتقصيرها الواضح في تقديم أبسط الخدمات الاجتماعية الضرورية لها.

وفي العهد البويهي تألق الأمراء البويهيون في الأصناف المختلفة للأغذية وإعداد الموائد وكيفية تقديمها، وألفت في فن الطهو العديد من الكتب منها كتاب ابن مسكويه في تركيب الباجات من الأطعمة، وقال القفطي[7] ناقدا لهذا الكتاب «بأنّه قد أحكمه غاية الإحكام وأتى فيه من أصول علم الطبخ وفروعه بكل غريب حسن»، وقد تضمنت أشعار الشعراء في القرن الرابع الهجري وصفا لكثير من هذه الأطعمة.

---

[1]- التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج4، ص 210-212.

[2]- نشوار المحاضرة، ج3، ص189-191.

[3]- حكاية أبي القاسم البغدادي، ص42.

[4]- الناطف: نوع من الحلوى، تدخل في تركيبها العسل والسكر والفستق والبندق. الشيزري، نهاية الرتبة، ص40.

[5]- المبريخ: لم أجد تعريف واضح لها.

[6]- الحيوان، ج1، ص107.

[7]- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص438 .

وظهر من الأمراء البويهيين من تشبّه في كرمه بالبرامكة ووزراء المقتدر بالله منهم أبو محمد المهلبي وزير معز الدولة الّذي عرف بتأنقه في المأكل، كما كان كريما في تقديم الطعام، وقد شوهد له مجلسا في شهر رمضان سنة 351هـ كأنّه من مجالس البرامكة حيث قال التنوخي[1] «ما شاهدت مثله قط قبله ولا بعده».

كما اعتنوا هم كذلك بالمآدب حيث كانت تقام المآدب أمام دور بني بويه، مثلما حدث في عهد عضد الدولة البويهي حيث كانت تقام أمام قصره المآدب ثلاث مرات يوميا في الصباح والمغرب والعشاء، وأمام كذلك دار جلال الدولة البويهي من بعده خمس مرات يوميا وهي أمور كانت مقصورة على الخلفاء العبّاسيين وحدهم[2].

وكانت الفواكه الطازجة تجلب إلى بغداد من عدة مدن للأمراء البويهيون وخاصتهم رغم توفر ذلك في العراق، فمن غزنة واصطخر كان يجلب التفاح، ومن إيران كان يجلب تمر كازرون إحدى مدن فارس ويعرف بالجيلاندار على الرغم من كثرة تمور العراق، وكان البطّيخ يرد إليهم من خوارزم ومرو، كما كانت تنقل مختلف الفواكه من شيراز وفارس وخوزستان إلى الأمير البويهي عضد الدولة البويهي في بغداد كل أسبوع مع البريد وأهمّها الخوخ والرمّان الّذي كان ينتج أفضل أنواعه في الري[3].

غير أنّ غداء الغالبية العظمى من السكّان في العهد البويهي يتكون عادة من خبز الشعير وكانت الحلوى من التمر، فقد اكتسح الغلاء والمجاعة مدنا بأكملها حيث" فشت الأمراض الحادة، فأفنت رجالا ثمّ جدّ الغلاء، وفقد الطعام، ووقع الموت، فمن النّاس من لم يطعم أسبوعا حتّى هلك جوعا ومنهم من تبلغ بالميتة، وهو ينتظر نحبه ليلحق بصحبه"[4]،وقد وصف لنا التنوخي[5] هذا الوضع بقوله «تحارينا ذكر شدة زماننا، وفقر النّاس فيه، وضيق أحوالهم، واستحبابهم البخل حتّى إنّ بعضهم يسمّيه احتياطا وبعضهم إصلاحا وتحذّر التجار من معاملة النّاس، ومسك النّاس أيديهم عن الإحسان إلى أحد أو برّه أو إغاثة ملهوف أو

[1]- التنوخي، نشوار المحاضرة، ج1، ص69.
[2]- حوريه عبده سلام، الحياة الاجتماعية، ص95.
[3]- نفسه، ص94.
[4]- مسكويه، تجارب الأمم، ج5، ص237. حورية عبد سلام، الحياة الاجتماعية، ص94
[5]- نشوار المحاضرة، ج2، ص275.

التنفيس عن مكروب وإنّ ذلك في الأكثر لضيق أحوالهم»، ومن هذا الوضع يتضح لنا حجم الوضع الاجتماعي والاقتصادي في العهد البويهي لعامة المجتمع، وما وصل إليه من حالة الفقر والمجاعة.

وذكر الخطيب البغدادي أنّ الضعفاء من أهل بغداد سنة 360هـ كانوا «يستهلكون سويق الحمص شهرين أو ثلاث مع كونه غير طيب»[1]، ويمكن القول هنا أنّ بغداد كانت أكثر مدن العراق عرضة لتلك الموجات من القحط والجوع بسبب الفيضانات خاصة بعد إهمال السدود وسوء السياسة الإدارية والاقتصادية وثقل الضرائب.

وفي ختام هذا الفصل يتضح لنا أنّ المجتمع العباسي عرف تحولات كبيرة في مختلف أوجه الحياة نتيجة لعدة أسباب أهمّها: حالة الترف والبذخ الّذي وصل إليه المجتمع العباسي، وأيضا عامل الاختلاط والتزاوج بين الشعوب الّتي يتشكل منها المجتمع العبّاسي والّذي أثر ايجابا وسلبا على مختلف المظاهر الحضارية للدولة العباسية، ومنها رغبة العرب وقبولهم للحضارة الجديدة وأساليبها ومظاهرها المختلفة، وتعد مبادئ الدين الإسلامي أيضا عاملا حاسما في تعارف الشعوب على بعضها البعض ومد قنوات التواصل فيما بينها.

---

[1]- تاريخ بغداد، ج1، ص119.

الفصل الرابع

المرافق الاجتماعية العامة في العراق في العهد العباسي

أولا- المساجد

ثانيا- المدارس

ثالثا- الأربطة

رابعا- البيمارستانات

خامسا- الحمامات والأسواق

شكلت المرافق والخدمات الاجتماعية جانبا مهما من حياة المجتمع العباسي وقد ساهمت إلى حد كبير في إنعاش الحياة الفكرية والاجتماعية، وذلك من خلال الاهتمام الكبير بهذه المرافق من طرف الدولة العباسية سواء الخلفاء والأمراء والوزراء أو حتى الطبقة العامة وعليه سنحاول في هذا الفصل معرفة أهم هذه المرافق الّتي نالت نصيبا وافرا من التطور والبناء.

أولا- المساجد:

المسجد في اللّغة: مشتق من سجد، يسجد، سجودا إذا وضع جبهته على الأرض، والمسجِدُ والمسجَدُ اسم للمكان الّذي يسجد فيه، وأمّا في الاصطلاح، فقد قال الزركشي[1] في تعريفه لكلمة مسجد: كل موضع من الأرض **لقوله صلّى الله عليه وسلم:«جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا»** فلفظة مسجد معناها كل موضع يصلى فيه.

وقد ارتبط تاريخ التعليم الإسلامي بالمساجد ارتباطا وثيقا، حيث أصبح المسجد المكان الرئيسي الّذي انتشرت منه التعاليم الإسلامية، وظل المسجد مدة أربعة قرون يغطي احتياجات المجتمع الإسلامي في التعليم حيث قام بدور المدارس والمعاهد والجامعات طوال تلك الفترة إلى أن ظهرت المدارس فيما بعد[2].

وممّا يزيد من أهمية المسجد أنّه بيت الله الّذي تهوي إليه قلوب العباد عند كل صلاة فيقصده الصغير والكبير، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، حيث يظل مفتوحا أمامهم، ثمّ إنّ حرية التعليم مكفولة فيه لكل النّاس على اختلاف مستوياتهم، ولم يشترط للتدريس في المسجد أية درجة علمية أو شهادة أكاديمية، ولم يكن في المسجد أيضا منهج محدد للتدريس، وإنّما كان الشيخ هو الّذي يختار المنهج حسب تمكنه في العلم ورغبته واجتهاده[3].

1- **المسجد الحرام:** كان من المساجد الّتي خدمت العلم زمنا طويلا، فقد ظهرت فيه الحركة العلمية في عهد مبكر من عمر الأمة الإسلامية، فبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بالجهر بالدعوة أصبح المسجد الحرام المكان الجديد لنشر تعاليم الدين الإسلامي،

---

[1]- إعلام الساجد بأحكام المساجد، تح أبو الوفا مصطفى المراغي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1416هـ /1996م، ص27.

[2]- مفتاح يونس الرباصي، المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الأول(132-232هـ/749م-846م) ، ص69.

[3]- أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1976، ص67.

واستمر المسجد الحرام يؤدي دوره حتّى بعد الهجرة النبوية، ومن أبرز معالم الحركة العلمية فيه في عصر الخلفاء حلقة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس[1].

وفي زمن الخلافة العباسية بادر الخليفة أبو جعفر المنصور على توسيع المسجد الحرام، حيث اشترى المساكن الملاصقة له من جهتيه الشمالية والغربية، وبعد هدمها أدخل أرضها في ساحة المسجد، وكانت هذه الزيادة موازية للزيادة الّتي أحدثها الوليد بن عبد الملك من الناحية الشرقية، واشتملت هذه الزيادة على رواق[2] واحد مرفوع على أعمدة من الرخام، وجعل هذا الرواق دائرا مع صحن المسجد، وبهذا تضاعفت سعة المسجد عمّا كانت عليه زمن بني أمية، واستغرقت هذه الزيادة حوالي ثلاث سنوات إذ ابتدأ العمل فيها سنة 137هـ وانتهى سنة 140هـ، وكان هذا العام يدعى بعام الخصب لأنّ أبا جعفر المنصور وزع فيه عطاء كثيرا على أهل المدينة[3].

ثمّ جاءت توسعة المهدي سنة 160هـ حيث أنّه في هذه السنة حج المهدي وحمل معه أموالا كثيرة، وعندما كان في مكة المكرمة كلف قاضيها محمد بن عبد الرحمن بن هشام الأوقصي المخزومي بشراء المنازل الواقعة بين المسجد وبين السعي (الصفا والمروة)، وكذلك شراء المنازل الواقعة في أسفل المسجد من جهة باب العمرة حتّى باب إبراهيم، فهدمت هذه المنازل جميعها وألحقت أرضها بالمسجد[4].

---

[1]- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية في المدارس في العصر العبّاسي (132-656هـ)، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر، أريد الأردن ، 2004، ص92.

[2]- الرواق: هو أحد مكونات المسجد وهو فن معماري داخل المسجد ونشأ منذ نشأة المسجد النبوي ويطلق الرواق عادة على القاعات الّتي تحمل أسقفها الأعمدة. ثروت عكاشة، القيم الجمالية ، ص95.

[3]- طه الولي، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1409هـ/1988م، ص394. فوزية حسين مطر، تاريخ عمارة الحرم المكي إلى نهاية العصر العباسي الأول، منشورات جامعة المملكة العربية السعودية، 1402هـ/1982م ، ص133.

[4]- ميسون بنت مزكي فردوس العنزي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في العصر العباسي الأول منذ 132-232هـ/749-846م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير من جامعة اليرموك بالأردن، 1425هـ/2004م، ص67.

وفي سنة 167هـ أمر المهدي بزيادة كبيرة في المسجد الحرام، وقد ولى أمر التوسعة إلى يقطين بن موسى[1] الموكل بأمر الحرمين، وعندما توفي المهدي سنة 169هـ لم يكن العمل قد تم بالكامل، فلمّا تولي ابنه الهادي الخلافة قام بإتمام ما بدأه والده، وهذه الزيادة اشتملت على التوسعة المذكورة ودعم البناء بأعمدة الرخام، وسقفه بخشب الساج المزيّن بالنقوش المذهبة، كما أقيمت المئذنة المطلة على باب أجياد الكبير، وقد عمرت هذه الزيادة ثلاث مآذن، الأولى على باب السلام، والثانية على باب علي، والثالثة على باب الوداع[2].

كما قام المعتمد على الله العباسي ببناء وترميم بعض أجزاء المسجد الحرام، فقد جدد السقف في سنة 271هـ ونقشه بالزخارف المتعددة الألوان، كما أصلح العمودين الّذين سقطا منه في الجانب الغربي، وكان أبو العباس المعتضد من الخلفاء العباسيين الّذين اهتموا بتوسعة المسجد الحرام والجراية على أهل الحرم أيضا حيث ضم إليه دار الندوة فهدمت وحفر أساسها، وجعل لتلك الزيادة جدرانا وسقوفا وشرفات، كما عمل لمّا زاده منارة عرفت بمنارة باب زيادة[3].

وكان الخليفة المقتدر بالله سخيا جوادا، فقد أجرى على الحرمين وفي طريقهما في كل سنة 315 ألف و426 دينارا حيث قام بتوسعة جديدة بزيادة دار لزبيدة كانت مكان باب إبراهيم، وزاد البابين للمسجد الحرام من جهته الغربية المعروفين بباب الخياطين وباب بني جمح[4].

---

[1]- يقطين بن موسى: كان أحد الدعاة لدولة بني العبّاس، وكان حازما داهية، وقد احتال مرة حيلة عظيمة عندما حبس مروان بن محمد بحران إبراهيم الإمام العباسي صاحب الدعوة، حيث تحيّرت الشيعة فيمن يكون ولي الأمر من بعده، فقال لهم يقطين: أنا أعلمكم، فمضى إلى الشام، فوقف لمروان فقال:يا أمير المؤمنين: أنا رجل تاجر قد بعت بضاعة من رجل، ولم أقبض ثمنها منه حتّى أخذته رسلك فحبسوه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجمع بيني وبينه لأطالبه بمالي؟ قال: نعم، فأرسل به إليه مع غلام، فلمّا رآه قال:يا عدو الله إلى من تركت بعدك آخذ مالي منه؟ فقال: إلى ابن الحارثية، يعني أخاه عبد الله السفاح، فرجع يقطين إلى الدعاة من بني العبّاس فأعلمهم بما قال، فبايعوا السفاح، توفي سنة 186هـ. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص637-638.

[2]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص165.ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5، ص255.ابن كثير، البداية والنهاية ،ج13 ، ص532. طه الولي، المساجد في الإسلام، ص394 .

[3]- طه الولي، المساجد في الإسلام، ص394-395.

[4]- ابن الجوزي، المنتظم ،ج13، ص63-64.

وفيما بعد انتشرت المساجد في جميع أنحاء الديار الإسلامية مع انتشار الفتوحات الإسلامية، وبدأ التطور يدخل في وظيفة المسجد ومنهجه حيث بدأت علوم أخرى غير علوم الدين تفرض نفسها على الدراسة في المسجد وذلك بعد سنتين أو أكثر من وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلم، وبدأ في هذه المرحلة المبكرة من التاريخ الإسلامي التأثر بالحضارات الأجنبية الّتي دخلت إلى المجتمع، وأخذ منهج المسجد يتّسع ويضم علوما جديدة كانت الحاجة ملحة لها، وبذلك بدأت الدراسات اللغوية والأدبية تجد طريقها إلى المسجد وكذلك دروس الطب وغيرها من العلوم[1].

إنّ المسجد هو أحب البقاع إلى الله تعالى **قال صلى الله عليه وسلم:« أحبّ البقاع إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»**[2]، وقد كان المسجد ولا يزال ركيزة أساسية من أهم الركائز الّتي قام عليها المجتمع الإسلامي في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلم، ولا يزال كذلك، وسيظل ركنا مهما في بناء المجتمع الإسلامي في حاضره ومستقبله[3].

ويعتبر المسجد من أبرز المؤسسات الّتي أنتجها ظهور الدين الإسلامي العظيم، وليس ذلك لأهميّته في إقامة الشعائر الدينية والتعبدية فحسب، بل لكونه لعب دورا مهما في قيام وتطور الدولة الإسلامية في جميع المجالات، حيث حمل المسجد العديد من الأدوار في الأيام الأولى لنشأة الدولة الإسلامية، تلك الأدوار الّتي حملتها فيما بعد عدة مؤسسات وجهات مختلفة فكان المسجد بجانب دوره الديني يؤدي عدة وظائف اجتماعية وسياسية وإعلامية وتربوية أكسبته مكانة عظيمة في المجتمع الإسلامي[4].

كما يعتبر هو المكان الرئيسي لنشر الثقافة الإسلامية، وقد قامت حلقات الدراسة فيه منذ نشأ واستمرت كذلك على مر السنين لأنّ إحساس المسلمين بأنّ البيوت الخاصة تضيق باجتماعاتهم ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون، وربّما جارى المسلمون جيرانهم من

---

[1]- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص93.

[2]- مسلم، صحيح مسلم ، ج3، رقم الحديث 671، ص464.

[3]- علي عبد الحليم محمود، المسجد وأثره في المجتمع، دار المنارة الحديثة، مصر ، 1412هـ/1991م ، ص11.

[4]- خالد بن حامد الحازمي، أصول التربية الإسلامية، دار عالم الكتب للنشر، المدينة المنورة، 1402هـ/2000م، ص299- 300.

وأصحاب الرأي، ومعهدا لنشر العلم والمعرفة يتعلم فيه النّاس أصول الدين واللغة، ومجلسا للنظر في المظالم والخصومات، واتخذه القضاة مكانا لعقد جلساتهم ومرافعاتهم ومحكمة للتقاضي، وموضعا يحجز فيه المتهم مؤقتا إلى حين صدور الحكم الفوري عليه وفق مبادئ الإسلام[1].

استمر المسجد في القرن الثالث الهجري مركزا لتجمع الرأي العام الإسلامي في العبادة وعند الأزمات والشدائد ومنبرا لتقديم المواعظ وتوجيه النّاس لما فيه صلاحهم، كما كان مكان لدعوة النّاس فيه للجهاد، كما كانت للخطب الّتي تلقى من على منابر المساجد في كل جمعة وفي العيدين أثر كبير في نفوس النّاس، كما مارس بعض الخلفاء الخطابة في المساجد كما فعل الخليفة المهتدي بالله الّذي كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب في النّاس ويؤم بهم[2].

ومن مراسيم الخلافة مبايعة الخليفة بيعة عامة في المسجد، قد أصبحت هذه البيعة شكلية منذ منتصف القرن الثالث الهجري بعد ضعف الخلافة العباسية وسيطرة الأتراك على مقاليد الأمور، وبالرغم من ذلك فقد حافظوا عليها إرضاء للرأي العام الإسلامي، فمثلا في سنة 252هـ بايع أهل بغداد الخليفة المعتز وخطب له في المسجد الجامع ببغداد في الجانب الشرقي والغربي، فكان ذلك بمثابة البيعة العامة له في حين أنّ بيعته الخاصة انحصرت برغبة نفر من الأمراء الأتراك نادوا به خليفة مكان أخيه المستعين الّذي تنازل له عن الخلافة قسرا[3].

وبهذا يحتل المسجد مكانة مقدسة في نفوس المسلمين كمركز رئيسي للعبادة الّتي هي ركن أساسي في الإسلام، يلجأ إليه الضعفاء والمظلومين كلّما أصابتهم حاجة، وقد يتخذه الناقمون حصنا يتحصنون فيه كحرم آمن، فمثلا عندما خرج العامة على المهتدي سنة 256هـ صاروا إلى دار أشناس وقد صيروها مسجدا جامعا لهم فوقف ووقفوا له في الرحبة «واجتمع منهم زهاء مائة وخمسين فارسا ونحو خمسمائة راجل»، وعندما طلبوا صالح بن وصيف: «اجتمعوا في مسجد لجين أم ولد المتوكل بسامراء»، ولمّا ضاق الأمر بالزنج في

---

[1]- عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص225.

[2]- نفسه، ص227.

[3]- نفسه، ص227.

حصار الموفق لهم تحصنوا في المسجد الجامع فكان حماسهم في الدفاع عن المسجد وقدسيّته يفوق حماسهم وهم في خارجه وقد استغل صاحبهم العلوي ذلك في إلهاب مشاعرهم الدينية[1].

واتخذت المساجد أيضا مراكز لتوعية النّاس وإشعارهم بأوضاعهم وتعليمهم أمور دينهم وإلى ما يراد منهم فعله محاربة للأباطيل والمنكرات والأوضاع الشاذة، فمثلا في سنة 272هـ « ضجت العامة بسبب غلاء السعر واجتمعت للوثوب بالوالي، فانصرفوا من مسجد الجامع للنصف من شوال إلى داره بين باب البصرة وباب الكوفة وجاءوه من الكرخ فأصعد الوالي أصحابه إلى السطوح، ورموهم بالنشّاب، فقتل بعض العامة وجرحت منهم جماعة ولم يزالوا يقاتلونهم إلى الليل حتّى انصرفوا»[2].

وفي المساجد روّج أصحاب المبادئ والأفكار لمبادئهم وأفكارهم، فمثلا قدمت جماعة من أهل البدع والأعاجم إلى بغداد، وارتقوا المنابر فكان معظم ما يقولونه للعوام:«ليس لله في الأرض كلام، وإنّ الله ليس في السماء، فكان ذلك مدعاة لانقسام النّاس بين أكثرية من جماعة السنة تحارب هذه الأقوال، وأقلية منهم ساورتهم الشكوك وتسرّبت إلى أذهانهم الريبة والشبهات»[3].

وقد انتشرت في المجتمع الإسلامي منذ الصدر الأول من الإسلام ظاهرة اجتماعية وهي السكن في المساجد، لكنّها اقتصرت على الفقراء والزهاد والمسافرين ومن لا يجد مأوى له ومسكن، وكان أغلب المقيمين في المساجد في هذه الحقبة يعتمدون في معيشتهم على الأوقاف المخصصة للمساجد، فقد شملت رعاية الخلفاء كافة المرافق العامة في الدولة فكرّسوا جهودهم وعنايتهم إلى ما فيه خير وصلاح أمتهم فعمّروا المساجد في كافة محال بغداد وأولوها اهتماما خاصا[4].

---

[1]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص440-445. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص212-215.عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص228.

[2]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج10، ص10. عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص229.

[3]- عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص229.

[4]- ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تح وتعليق مصطفى جواد، وضع فهارسه سالم الألوسي، دار اقرأ، 1411هـ/1991، ص245. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص148.

وكانت العراق من الأقاليم الإسلامية الّتي عرفت بكثرة مساجدها وخاصة بغداد، غير أنّ بعض مصادر هذه الفترة أحجمت عن ذكر عددها واكتفت بالإشارة إلى كثرتها، والراجح أنّ أغلبها كانت من المساجد الكبيرة الجامعة، فقد ذكرت المصادر أنّه حتّى منتصف القرن الخامس الهجري في 451هـ لم يكن يتجاوز عددها الستة مساجد جامعة[1].

وبعد انتشار المعاهد والجامعات فقدت المساجد أهميتها واقتصرت على إقامة الصلوات الخمس وذكر اسم الخليفة بالخطبة، إلّا أنّ بعض المساجد ما يزال حتى الآن معاهد دراسية تدرس فيها العلوم الدينية، ويقوم بذلك أئمة المساجد[2].

ومن أشهر مساجد العراق في عهد الدولة العبّاسية والّتي نالت نصيبا من الأوقاف الّتي رصدها الخلفاء لتؤدي خدماتها الدينية والثقافية نذكر:

أ- **جامع المنصور:** كان أول مسجد بني ببغداد مدينة السلام وينسب إلى مؤسسه الخليفة أبي جعفر المنصور الّذي بدأ في بنائه سنة 145هـ، وفرغ منه بعد ذلك بأربع سنوات، ويقع جامع المنصور بالجانب الغربي من بغداد بجوار قصره المعروف بقصر باب الذهب، وقد جاء على هيئة مربع متساوي الأضلاع على غرار مسجد الحجاج بن يوسف الثقفي بمدينة واسط[3] الّذي جاء من مساحة مربعة تقريبا، وقد شيّد المسجد باللبن والطين وهي المادة الّتي شيّدت بها أغلب منشآت مدينة بغداد، أمّا أعمدته فقد كانت من الخشب[4].

1- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص111.والمقصود هنا المساجد الجامعة الكبيرة المشهورة في بغداد التي تقام فيها صلوات الجمعة، وإلّا فهناك المئات من المساجد الأخرى، ففي القرن السادس الهجري ازداد عدد المساجد الجامعة حتّى وصلت إلى أحد عشر مسجدا حسب ما ذكره ابن جبير سنة 580هـ، واستمرت بهذا العدد إلى فترة متأخرة. رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، (د ت)، ص230-231.

2- أحمد خالد جيده، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1422هـ/2001م ، ص66.

3- واسط: مدينة بين الكوفة والبصرة من الجانب الغربي، كثيرة الخيرات وافرة الغلات، صحيحة الهواء، عذبة الماء لا يرى أحسن منها صورة كلها قصورا وبساتين ومياه، بناها الحجاج بن يوسف الثقفي في أيّام الخليفة عبد الملك الأموي حوالي سنة 84هـ، وفرغ منها سنة 86هـ. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص347.

4- عبد الله كامل موسى عبده، العباسيون وآثارهم المعمارية في العراق ومصر وإفريقيا، دار الآفاق العربية، 1422هـ/2002م، ص26.

وقد شهد هذا الجامع حركة علمية بارزة من خلال تلك الحلقات العلمية الّتي كانت تقام به، وقد لازم هذا المسجد المحدث أبو الغنائم الدجاجي[1]، فذكر أنّه كان له مال فافتقر آخر عمره، فجمع له أهل الحديث شيئا من المال فلم يقبله، وقال:يا فضيحتنا آخذ على حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم لا والله[2].

وقد كان أحمد بن محمد بن عقدة يملي بمسجد الرصافة مجلس علم في الحديث سنة 330هـ، كما كان أيضا أحمد بن عبيد الله بن محمد بن إسحاق الدبّاس يملي فيه مجلس علم في سنة 331هـ[3].

ت- **جامع القصر:** أسسه الخليفة العبّاسي المكتفي بالله (289-295هـ/901-907م) في شرقي دار الخلافة العبّاسية، سمي بالقصر الّذي أضيف إليه وهو قصر التاج، ويسمّى جامع الخليفة أيضا، وكان باب الجامع مجاورا لباب العامة أحد أبواب دار الخلافة، وأصبح هذا الجامع هو المكان الرسمي الّذي يؤدي فيه الخليفة العبّاسي صلاة الجمعة مع حاشيته وأركان دولته وفيه تقرأ عهود القضاة ويصلى على جنائز الأعيان والعلماء وتعقد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين والمحدثين، وصارت صلاة الجمعة ببغداد في الجوامع الثلاثة جامع المنصور وجامع الرصافة وجامع الخلفاء[4].

ويعتبر ثالث جوامع بغداد له أهمية خاصة لوقوعه في قلب بغداد الشرقية، ولاتصاله بدار الخلافة، لذلك تولّاه الخلفاء بالإصلاح والتوسعة، والاهتمام به وعمارته حتّى عاد على الناس بمنفعة كبيرة خاصة بعد أن عمل فيه فخر الدولة بن جهير[5] سقاية وأجرى فيها

---

[1]- أبو الغنائم الدجاجي: هو أبو الغنائم محمد بن علي بن الدجاجي من أهل باب الطاق، كان ثقة في الحديث، وكان له مال فافتقر في آخر عمره، فجمع له أهل الحديث شيئا فلم يقبل بذلك، وقال: وافضيحتنا آخذ على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والله، توفي سنة 463هـ.ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص136-137.

[2]- ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص136-137.

[3]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد،ج5، ص15.

[4]- ابن الجوزي، المنتظم،ج13،ص5-6.

[5]- فخر الدولة بن جهير: هو أبو منصور بن محمد بن محمد بن محمد بن جهير الوزير، الملقب عميد الدولة، ولد بالموصل سنة 398هـ، كان حسن التدبير، كثير الحلم، قرأ الأحاديث على المشايخ، وكان كثير الصدقات، يجيز العلماء ويثابر على صلاتهم، ولي وزارة القائم بأمر الله، ولمّا احتضر القائم أوصى المقتدي بابن جهير وخصه بالذكر الجميل، ولمّا بويع المقتدي أقرّه على الوزارة واستدعاه السلطان ملكشاه فعقد له على ديار بكر، فاستولى على أموال ديار بكر جميعها، عزل وأعيد للوزارة عدة مرات، توفي بالموصل سنة 493هـ. ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص59-60. الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، ج1، ص209-210.

الماء من داره في قنوات تحت الأرض وجعل لها فوارات[1] فانتفع النّاس بذلك[2].

وقد أشار ابن جبير[3] إلى خدمة سقاياته وجودتها فقال:"جامع الخليفة متّصل بداره وهو جامع كبير، وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والطهور"، وذكر ابن بطوطة[4] في رحلته عنه:"وبهذه الجهة الشرقية من المساجد الّتي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدهما جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم، وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل".

ث-جامع سامراء (جامع المتوكل) 234-237هـ/848-851م

عندما أمر الخليفة المعتصم بالله بتخطيط عاصمته الجديدة سامراء عام 221هـ/835م جعل مسجدها الجامع في الوسط منها بالقرب من دار الإمارة مطلا على الشارع الأعظم بين الأسواق غير متصل بها، وقد ضاق جامع المعتصم بالمصلين بعد أن نمت المدينة بسرعة وازداد عدد سكانها وذلك في عهد الخليفة المتوكل على الله الّذي عرف بحبه للبناء والتعمير ويعتبر عهده من أزهى أيّام سامراء فأمر بهدم جامع المعتصم وشيّد مسجدا جديدا عرف بجامع المتوكل أو جامع سامراء[5].

وقد بدأ البناء فيه عام 234هـ، وتمّ الفراغ منه سنة 237هـ، حيث زاد الخليفة في سعة مسجده فأحاطه بفضاء وأمر بعمل سور ضخم يحيط بهذا الفضاء من جوانبه الثلاثة الشمالية والشرقية والغربية، وبعد عودة الخليفة العباسي المعتمد إلى بغداد سنة 279هـ أهمل

---

[1]- الفوارات: هي الّتي تعمل في الحياض والحمامات ونحوها يفور منها الماء في أشكال مختلفة. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص145.

[2]- ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص59-603.

[3]- الرحلة، ص183.وقد أنشأ الخليفة المستنصر بالله سنة 635هـ سقاية أخرى لهذا الجامع لأنّ قنوات الوزير ابن جهير الأرضية لم تعد تكفي لإيصال مياه الشرب والوضوء والغسل للجامع فاستعين بسقاية جديدة تأخذ مياهها من حباب مفرد الحب وهي الخابية ومشهورة الاستعمال عند أهل بغداد، تملأ بالماء في مواعيد منتظمة، وذلك لسد الحاجة المتزايدة إلى الماء. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص132.عماد عبد السلام رؤوف، مشاريع الشرب القديمة ببغداد، مجلة المورد، م8، ع4، بغداد، 1400هـ/1979م، ص176 .

[4]- الرحلة، ص225

[5]- شريف يوسف، تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، 1982، ص324. ك. كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى ، ص359.

الجامع فتهدم سوره الخارجي وسقطت أجزاء كبيرة من جدرانه الداخلية، وانهارت سقوف ظلة القبلة والظلات الجانبية[1] والدعائم التي كانت تدعم بقاءه قائما.

وشيّد الجامع بالطابوق[2] والجص وفرشت أرضيته بطابوق مربع صف بدقة وإتقان وتتميز جدرانه بارتفاعها، وأبراجه الضخمة، وتتوزع هذه الأبراج بشكل متناظر فتدعم كلا من الجدارين الشرقي والغربي، وكان للجامع خمسة عشر مدخلا وزعت: ثلاثة في الجدار الشمالي يتوسط أحدهما الجدار على محور المحراب، ويخترق جدار القبلة مدخلان[3] على جانبي المحراب يؤديان إلى منشآت خصصت للخليفة قبل الدخول للمسجد، وهناك خمسة مداخل في كل من الجدارين الشرقي والغربي، ويؤدي اثنان منها في كل جدار إلى ظلة القبلة، وتتوج هذه الأبواب بعقود مدببة يبلغ عددها ثلاثة فوق كل مدخل[4].

ج- مسجد الرقة: شيّده الخليفة العباسي المنصور في عام 155هـ في الاتجاه الشمالي الشرقي من المدينة، وهو العام الّذي شيّد فيه مدينة الرقة، وقد اندثرت المدينة كما اندثر المسجد، إلّا أنّه تخلفت منهما آثار لها أهمية كبرى بالنسبة لعناصر العمارة والزخرفة الإسلامية[5].

ويشتمل المسجد على تسعة مداخل وزعت بشكل متناسق بواقع ثلاثة في الجوانب الثلاثة الشمالية والشرقية والغربية، وجاءت المداخل في الجدارين الشرقي والغربي على مدخل واحد، وتدعم جدران المسجد أبراج نصف دائرية في الجدران شبه دائرية في الأركان يبلغ

1- عيسى سلمان وآخرون، العمارات العربية الإسلامية في العراق، دار الرشيد، العراق، 1982م ، ج1، ص111. عبد الله كامل موسى عبده، العباسيون، ص33.

2- الطابوق (الآجر):هي قطع الطين المطبوخ على درجات حرارة مختلفة، وبهذا فهي تختلف عن الطوب الّذي يحرق تحت وهج الشمش، والآجر من أصول العمارة الطينية التي نشأت في العراق القديم، وكذلك في مصر، ويستعمل مصطلح الطابوق (الآجر) في العراق وبعض الأقاليم المجاورة. علي ثويني،معجم عمارة الشعوب، ص83.

3- في العادة لا توضع أبواب في جهة القبلة، غير أنّ هذه المرة وجدت لأغراض خاصة(الخليفة).

4- عيسى سلمان وآخرون، العمارات العربية الإسلامية ، ص112.

5- محمود شكري الألوسي، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، مطبعة دار السلام، بغداد، 1346هـ/1927م، ص42. كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ص247.

عددها 20 برجا، ويتضح من آثار دعامات في أركان الصحن أنّه كانت تحيط به ثلاثة أروقة[1]، وقد اكتشفت هذه الآثار في العصر الحاضر[2].

ج- **مسجد قصر الأخيضر حوالي سنة 161هـ/777م**:ويعد المسجد من أقدم المساجد القائمة في العراق، يقع في الركن الشمالي الغربي من قصر الأخيضر، ويشغل مساحة مستطيلة تمتد أفقيا من الشرق إلى الغرب، وتتميز جدرانه بسمكها ومتانتها، شيّدت من الحجر والجص، مكسوة من الداخل بالجص، وقد جاء تخطيطه من صحن مستطيل وثلاث ظلات في الجهات الجنوبية والشرقية والغربية، حيث خلا المسجد من ظلة مؤخرة في الجهة الشمالية، وتتكون ظلة القبلة من بلاطة واحدة، تشرف على الصحن من خلال بائكة تتكون من خمسة عقود ترتكز على أعمدة أسطوانية ترتكز بدورها على قواعد مربعة المسقط، ويغطيها قبو نصف برميلي ينتهي بنصف قبة يرتكز على حنيتين[3] ركنيتين، ويزدان بأشكال هندسية جصية مخرمة ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف، أمّا الظلتان الجانبيتان الشرقية والغربية فتتألف كل منهما من بلاطة تطل على الصحن من خلال بائكة ثلاثية من أعمدة أسطوانية على قواعد مربعة على غرار بائكة ظلة القبلة، وعقود البوائك كلها مدببة ذات مركزين، ويشتمل المسجد على مدخلين في الجدار الشمالي يتوصل منهما إلى الصحن، كما يشتمل على مدخل ثالث يتوصل منه إلى ظلة القبلة، ويقع في الجهة الشرقية[4].

ح- **جامع الإمام أبي حنيفة:** توفي الإمام النعمان بن الثابت الكوفي ببغداد سنة 150هـ، ودفن في مقبرة تعرف بمقبرة الخيزران، ونشأت حول هذه المقبرة محلة عرفت بمحلة أبي حنيفة، وقد جرت على الجامع زيادات وإصلاحات عديدة عبر التاريخ، ولا يزال هذا الجامع قائما ويعد من مساجد بغداد الشهيرة والكبيرة وله أهمية في خطط بغداد العبّاسية،

---

[1]- عبد الله كامل موسى عبده، العباسيون، ص20.

[2]- أحمد عبد الرزاق أحمد، العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي، القاهرة، 1420هـ/1999م، ص29-30.عبد الله كامل موسى عبده، العباسيون، ص29.

[3]- الحنية: لغويا هي كل ما انحنى، وهي القوس أو العقد، ومعماريا هي عنصر مقعر يعادل ربع دائرة أو أقل، وتعرف إذا كانت في الجدار باسم الحنية الجدارية، وإذا كانت في الركن باسم الحنية الركنية إلى غير ذلك. علي ثويني، معجم عمارة الشعوب، ص283.

[4]- عبد الله كامل موسى عبده، العباسيون، ص31-33. عيسى سلمان وآخرون، العمارات العربية الإسلامية، ص105.

وبمرور الزمن صار هذا الجامع وسط مدينة كبيرة تعرف بالأعظمية نسبة إلى الإمام الأعظم النعمان بن ثابت صاحب المذهب الحنفي[1].

خ- **جامع أبي دلف 247هـ/861م:** يقع هذا الجامع في القسم الشمالي الشرقي من مدينة الجعفرية المتوكلية[2]، ولم تعمر هذه المدينة طويلا فلم يسكنها الخليفة سوى تسعة شهور وثلاث أيام حيث قتل الخليفة المتوكل على الله عام 247هـ، ثمّ هجرها ابنه الخليفة محمد المنتصر وعاد إلى سامراء، وكانت معظم منشآت الجعفرية مشيدة باللبن ولهذا السبب اندثرت بسرعة، وقد تهدم جامع المتوكل نتيجة العوامل الطبيعية حيث سقطت معظم أجزائه المشيّدة باللبن، وظلت الأجزاء المبنية بالطابوق والجص حيث استخدمت هذه المادة البنائية للدعامات وبعض الأبراج والمئذنة[3].

د- **جامع براثا:** كان هذا المسجد في الموضع المعروف ببراثا الّذي يجتمع فيه قوم ممّن ينسبو إلى التشيّع ويقصدونه للصلاة والجلوس فيه، ويقال أنّ براثا كانت قبل بناء بغداد قرية يزعمون أنّ عليا مر بها لمّا خرج لقتال الحرورية بالنهروان[4] وصلّى في موضع الجامع، وفي عصر المقتدر العبّاسي هدّم المسجد وأعيد بناؤه على عهد الخليفة الراضي، ولا يزال هذا الجامع قائما ببغداد في الجانب الغربي، وتقام فيه الفرائض الدينية بشكل منتظم وجرت على الجامع إصلاحات وإضافات عديدة، وفي الجامع بئر يفيض بماء نقي عذب يُعتقد أنّ الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه- كان سببا في نبع مائه لذا

---

[1]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص123. حسين أمين، بغداد تاريخ وحضارة ، ص24. ونشير هنا أنّه في سنة 459هـ قام شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي مستوفى مملكة السلطان ألب أرسلان السلجوقي ببناء مدرسة عند مشهد أبي حنيفة لأصحابه. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص380.

[2]- الجعفرية: منسوبة إلى جعفر، وهي محلة كبيرة مشهورة في الجانب الشرقي من بغداد وقد ذكر ياقوت الحموي أنّ الجعفري اسم قصر بناه أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله قرب سامراء بموضع يسمى الماحوزة فاستحدث عنده مدينة وانتقل إليها وأقطع القواد منها قطائع فصارت أكبر من سامراء. معجم البلدان، ج2، ص143-144.

[3]- أحمد عبد الرزاق أحمد، العمارة الإسلامية، ص66-68. عبد الله كامل موسى عبده، العباسيون، ص37-39. كريزويل، الآثار الإسلامية، ص370.

[4]- النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط .ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص325.

كان النّاس يتزاحمون للحصول على كمية من ماء هذا البئر تبركا وتيمّنا بشخصية الإمام علي رضي الله عنه[1].

وهناك مساجد أخرى لا تقل أهمية عن المساجد السابقة منها مسجد نهر البزّازين[2] الّذي كانت تعقد فيه بعض مجالس الحديث، ومسجد القطيعة[3]، وبعض تلك المساجد اشتهر بدروس القراءات كمسجد نهر القلّائين، وكان مسجد السوق العتيق من مراكز التعليم المهمّة لدى الشيعة، وكانت تلقى فيه دروس الحديث، كما كان مسجد دَعْلَج بن أحمد السجستاني من مراكز التعليم المهمّة لدى الشافعية ومثله مسجد عبد الله بن المبارك الّذي كانت فيه حلقة أبي حامد الاسفراييني[4] الفقيه المشهور، وكانت هذه الحلقة سببا في اجتذاب عدد كبير من طلبة العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي إلى بغداد حتّى بلغ عددهم في بعض الأحيان 700 متفقه يدرسون في تلك الحلقة الفقه والحديث فضلا عن المجالس الّتي يعقدها فيه العلماء الزائرون، و مسجد الخضر الّذي يقع على مقربة من قبر معروف الكرخي، ومسجد ابن شاهين بالجانب الشرقي[5] .

1- اليعقوبي، البلدان، ص35. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص109-110. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص362- 364. حسين أمين، بغداد تاريخ وحضارة، ص25.

2- نهر البزازين: يخرج من موضع يسمّى الخفقة، ثمّ يعطف فيخرج في شارع المنصور، ثمّ يمر إلى دار كعب، ثمّ يخرج إلى باب الكرخ، ثمّ يدخل البزازين، ثمّ يمر إلى الخزازين، ويدخل في أصحاب الصّابون، ثمّ يصب في دجلة. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص113.

3- القطيعة: جمع قطائع، وهو ما أقطعه الخلفاء لقوم فعمروه، وتعرف بقطائع الموالي، وهو موضع كان ببغداد في الجانب الغربي بالقرب من نهر القلائين، متصل بربض زهير وهم موالي أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص371.

4- أبو حامد الأسفراييني: هو الشيخ أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الأسفراييني، من أعلام الشافعية، ولد في أسفرايين (بين نيسابور وجرجان) سنة 344هـ، ورحل إلى بغداد سنة 363هـ، ودرس الفقه بها وعظمت مكانته حيث كان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه، توفي ببغداد سنة 406هـ. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1، ص247-248. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص72-74.السبكي، طبقات الشافعية، ج3، ص24.

5- كرم حلمي فرحات أحمد، التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2004، ص56-57.

وذكر ابن بطوطة: «أنّ ببغداد من المساجد الّتي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا منها بالجانب الغربي ثمانية وبالجانب الشرقي ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدا»[1].

وما يميّز التعليم في المساجد أنّه يتمتع بقدر من الحرية بحيث سمح للمتعلم أن يراعي ميوله ومواهبه وينظم إلى الحلقة الّتي يرغب في تعلم علومها، فتنوع المناهج في الحلقات العلمية كان من العوامل الّتي ساعدت على ظهور المواهب العلمية في شتى المجالات، كما أنّ الدولة العباسية لم تتدخل في نظام التعليم ولم تقيد المعلمين بمرتبات قد تضطرهم إلى الخضوع لتوجهاتها، كما حرصت الدولة على عدم التدخل في وضع المناهج التعليمية، أو وضع شروط معيّنة لقبول الطلاب في الحلقات العلمية بالمساجد، وقد ساعد هذا على توغل الحركة العلمية إلى طبقات المجتمع، وبروز كثير من العلماء من الطبقات الفقيرة بعد أن وجدوا أبواب المساجد مفتوحة أمامهم لتلقي العلم ولإبراز مواهبهم[2].

اعتمد التعليم في المساجد على الحلقات حيث لم يقتصر حضور الحلقات على الكبار فقط بل ذكرت بعض الروايات وجود صبيان في هذه الحلقات منها أنّ الكميت بن زيد كان يعلم الصبيان في مسجد الكوفة، وذكر أنّ أبا نواس- ت196هـ- كان يتردد على حلقات المساجد في المساء عندما كان صغيرا يتعلم في الكتّاب، وكان حضور الصبيان للحلقات العلمية محدودا وذلك لانشغالهم بتلقي الأساس الأول للعلم في الكتاتيب وهو حفظ القرآن الكريم ليتأهل إلى المرحلة الثانية وهي الحلقات العلمية بالمساجد، وأحيانا يقتصر حضورهم على بعض العلوم الّتي تناسب سنهم مثل مجالس القصاص بدليل أنّ أبا عبد الرحمن السلمي القارئ- ت148هـ- كان ينهي الصبيان عن حضور مجالس بعض القصاص ويرشدهم إلى حضور البعض الآخر[3].

---

[1]- الرحلة، ص140. أحصيت مساجد بغداد عموما بثلاثين ألف مسجد، خمسة عشر ألفا منها في جانب الكرخ. اليعقوبي، البلدان، ص43.

[2]- مفتاح يونس الرباصي، المؤسسات التعليمية ، ص70.حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي ، ص206.

[3]- مفتاح يونس الرباصي، المؤسسات التعليمية ، ص71.

وقد كان غالبية نظام التعليم عند المسلمين يتكون من مرحلتين:المرحلة الأولى وهي الّتي يقدّم فيها الطفل إلى المؤدب أو المعلم عندما يشتد عوده ويستوي لسانه ويتهيأ للتلقين، ويعي اسمه[1].

فالتعليم في الكتّاب هي أول مرحلة في السلّم التعليمي المعروف وما قبله، فهي بداية التعليم المنظّم للصبي المسلم، وهي المكان الّذي يتعلم فيه الصبيان على أيدي معلمين احترفوا مهنة التعليم، كما جرت العادة على أن يتخذ المعلم في الكتّاب عريفا من بين أبرز الصبيان يساعد المعلم في أداء مهمّته ممّا كان يدفع الصبيان إلى التنافس في التفوق على الأقران، والتقدم عليهم ليصير الصبي بامتيازه عريفا يقوم بتعليم غيره ممّن هم أقل منه علما وأصغر سنا، كما كان يسمح المعلم لبعض الصبيان النابهين بالكتّاب أن يقوموا ببعض أعمال التعلم كالإملاء على غيرهم أو تفقد كتابتهم، فعندما سئل مالك بن أنس عن المعلم يجعل للصبيان عريفا قال: «إن كان مثله في نفاذه»[2].

وفي هذه المرحلة الأولى من التعليم كان كثير من المسلمين يقتصرون على تعليم الكتّاب لضيق ذات اليد، أمّا الخلفاء والوزراء والأمراء والقضاة، وكثير من الأثرياء فقد دأبوا على تعيين مؤدبين خاصّين لأبنائهم ينتقونهم من بين كبار الأدباء، وعندما يتقدّم هؤلاء الأطفال في السن يعهد بتأديبهم إلى علماء من ذوي الاختصاص كل في مجال تخصصه، فقد كان أحمد بن سعيد بن عبد الله أبو الحسن المؤدب الدمشقي مؤدب لعبد الله بن المعتز بالله، كما كان محمد بن القاسم بن الأنباري يتردد إلى أولاد الراضي ليدرّس لهم[3].

وكان المؤدبون يحظون بمكانة عالية وطيّبة بخلاف معلمي الكتاتيب، وكان المعلمون يتقاضون أجورا على تعليمهم للأطفال، أمّا الأدباء فيتوقف مبلغ ما يتقاضونه على سخاء مستخدميهم، ولكنّهم كانوا يقبضون في العادة أجورا سخية ومكافآت كبيرة في المناسبات[4].

أمّا عن طبيعة التعليم داخل هذه الكتاتيب فقد كان يقدم بشكل مجاني وميسّر لكل من يرغب من أبناء الأمّة، وقد اختصت هذه الكتاتيب بتعليم الصبيان وتربيتهم تربية

---

[1]- كرم حلمي فرحات أحمد، التراث العلمي، ص31.

[2]- حسن عبد العال، التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م، ص32. كرم حلمي فرحات أحمد، التراث العلمي، ص31.

[3]- ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق، ج3، ص87 .

[4]- منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين، طبع دار المريخ، السعودية، 1981، ص30.

إسلامية صحيحة، واختلفت المناهج الّتي كانت تدرس في الكتّاب تبعا لاختلاف البيئات الإسلامية، إلّا أنّه كان يدور أساسا حول تحفيظ القرآن الكريم الّذي كان مرتكزا أساسيا في منهج الكتّاب، إلى جانب ذلك وجد تعليم القراءة والكتابة وبعض المهارات اللازمة كالسباحة والرماية وتعليم الآداب والعادات الحميدة ومع تقدم الزمن أضيفت أصول وقواعد اللغة والشعر والحساب إلى منهج الكتّاب[1].

وقد كان الصبيان يبدؤون يومهم الدراسي بحفظ القرآن الكريم عندما يكونون مكتملي النشاط ويستمر ذلك إلى وقت الضحى، ثمّ ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة حتّى وقت الظهيرة، ثمّ يتبع ذلك فترة استراحة، وبعد الاستراحة تبدأ الدروس التربوية المختلفة من سير ومغازي وشعر وبعض الأمور التعليمية الأخرى[2].

أمّا عن مكان وجود الكتاتيب فقد كره العلماء المسلمون أن يكون تعليم الصبيان في المسجد لأنّهم لا يتحفظون من النجاسة على رأي الإمام مالك، وأيضا بسبب الخوف من تشويشهم على المصلين، ولكن بالرغم من ذلك اتّخذ المعلمون لهم زوايا في المساجد وغرفا ملتصقة بها لأنّ من واجبات المعلم تعليم الصبيان الصلاة وتعويدهم المحافظة عليها ويؤكد هذا ما رواه الشافعي – ت204هـ/819م– في قصة تعليمه حيث قال: «كنت يتيما في حجر أمي فدفعتني إلى الكتّاب فلمّا ختمت القرآن دخلت المسجد، وإلى جانب ذلك وجدت كتاتيب مستقلة تمام الاستقلال عن المسجد، فقد كان أبو محمد اليزيدي– ت202هـ– يدرس الصبيان بجانب دار أبي عمرو بن العلاء، كما كان يعقوب بن السكيت يؤدب مع ابنه في بغداد صبيان العامة[3].

وإنّ سريان المرحلة التعليمية الأولى –الكتّاب– كانت عامة على مستوى المشرق الإسلامي كله سواء في عنايتهم بدراسة القرآن الكريم أو بتعليم الخط، فتداولونه في مكاتب الصبيان، فيتفقون غالبا في سن دخول الصبي الكتّاب في سن الخامسة أو السادسة أو بعد

---

[1]– فاروق السامرائي، التعليم الإسلامي بين الأصالة والتجديد، رسالة دكتوراه في الدعوة والتربية الإسلامية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1989، ص255. محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص93.

[2]– محمد منير مرسي، التربية الإسلامية، ص210.محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص94.

[3]– ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم، 1972، ص87. مفتاح يونس الرباصي، المؤسسات التعليمية، ص61.

ذلك، ويبقى الصبي في الكتّاب أو يظل تحت يد المؤدب الخاص له حتّى سن معيّنة تتراوح بين سن العاشرة والرابعة عشر[1].

وقد انتشرت الكتاتيب منذ القرن الأول الهجري، وما إن أتى القرن الرابع الهجري حتّى كانت الكتاتيب منتشرة في كل مكان سواء في العراق أو في الشام يؤمّها صبيان المسلمين جميعا حيث استقر الإسلام في البلاد وانتشر في أنحاء كثيرة، ومع انتشاره انتشرت الكتاتيب لتعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم والكتابة، ولم تكن الدولة تتدخل في إنشاء هذه الكتاتيب أو الإشراف عليها، بل كانت مؤسسات خاصة تعود إلى أصحابها وهم المعلمون، فالرقابة متروكة لدين المعلم ووجدانه وخلقه[2].

لذلك كان النّاس يتخيّرون المعلمين أو الكتاتيب الّتي تحقق طموحاتهم في تعليم أولادهم وتربيتهم، فالكتّاب في معظم أحواله لم يكن شيئا غير تجمع أطفال في صحبة معلم، وقد قام الكتّاب كتجمّع صبيان في صحن المسجد أو في إحدى سقائفه أو زواياه أو في حجرة ملحقة به، أو في بيت فقيه، أو بجانب سبيل عام، أو تحت ظل شجرة في الخلاء أو في حانوت مستأجر، أو في مبنى مشيّد برسم التعليم، وغالبا ما كان الكتّاب حجرة واحدة قد تضيق أو تتّسع بحسب الأحوال، ولكن الوضع السائد للكتّاب يتمثل في حجرة تعليمية، وينهض بها معلم واحد، ويساعده عدد من العرفاء بقدر ما تدعو إليه الحاجة التعليمية وبحسب أعداد المتعلمين[3].

وقد وجدت الكتاتيب في الدولة العباسية، فمثلا قال النضر بن شميل[4] «كنا ثلاثة في كتاب واحد أنا وأبو زيد الأنصاري وأبو محمد اليزيدي»، وكان شعيب بن جبير –ت154هـ– يجلس عند معلمه في مكتبه، ولم يقتصر إنشاء الكتاتيب على عامة النّاس بل ساهم الخلفاء العباسيون في ذلك لبعض الفئات الخاصة من المجتمع حيث أنشأ يحي بن خالد البرمكي

---

[1]– ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص50. محمد منير مرسي، التربية الإسلامية، ص210.

[2]– كرم حلمي فرحات، التراث العلمي، ص52.

[3]– محمد منير مرسي، التربية الإسلامية، ص210.

[4]– النضر بن شميل: هو أبو الحسن النضر بن شميل بن خرشة المازني التميمي البصري، ولد بمرو سنة 122هـ، ونشأ بالبصرة ثمّ غادرها إلى خراسان وأقام في نيسابور قليلا، كان لغويا وشاعرا بالإضافة إلى معرفته بأيّام العرب، كان من أهل السنة النبوية وهو أول من أظهرها بخراسان ومرو، ولي القضاء بمرو وكان متقللا متقشفا زاهدا، وله مع المأمون حكايات ونوادر لأنّه كان يجالسه، توفي سنة 203هـ .ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص397.

بأمر من الخليفة هارون الرشيد كتاتيب خاصة للأيتام، كما أنّ الكتاتيب في العصر العباسي لم تكن مقتصرة على المدن بل وجدت هذه الكتاتيب في بعض القرى إذ قال الجاحظ: «دخلت يوما قرية ووجدت فيها معلم كتّاب»[1].

وأمّا من الناحية العمرانية فقد كان الكتّاب عبارة عن مبنى بسيط لم تزخرف جدرانه وكان أثاثه بسيطا حيث كانت الكتاتيب تفرش بالحصر غالبا، والّتي يجلس عليها الصبيان متربعين حول المعلم، وكانت أدوات الدراسة لا تتجاوز المصحف الشريف وعدة من الألواح يكتب عليها الصبيان، وكذلك عدد من الدواة (المحبرة) والأقلام[2].

وإنّ ما يؤكد حرص الدولة العباسية على متابعة التعليم في الكتاتيب وجود وظيفة المحتسب الّذي كان من بين صلاحياته متابعة المعلمين في الكتاتيب وطرق تعاملهم مع الطلاب ومراقبة وسائل عقوبة المعلمين للطلاب والتأكد من عدم ضرب التلاميذ ضربا مبالغا فيه[3].

أمّا فيما يخص **المدارس** فعند الرجوع إلى معاجم اللغة نجد أنّ الأصل اللغوي لكلمة مدرسة يعود إلى الأصل «درس»، والأصل الثلاثي درس قد يأتي بعدة معاني منها: معنى قرأ فنقول مثلا «درس الطالب الكتاب» أي قرأه وأقبل عليه ليحفظه ويفهمه، ونقول أيضا «تدارس الطالب الكتاب ونحوه» أي درسه وتعهده بالقراءة والحفظ لكي لا ينساه، والدرس هو: المقدار من العلم يدرس في وقت ما، ويقول ابن عباس في معنى **قوله عز وجل**[4]: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ**﴾، وكذلك يبين لهم الأيات من هنا وهناك لكي يقولوا أنك درست أي تعلمت، وقيل سمّي إدريس عليه السلام بهذا الاسم لكثرة دراسته كتاب الله عز وجل، وقد يأتي بمعنى الانمحاء كقولنا: «درست هذه الآثار» أي انمحت وزالت[5].

1- مفتاح يونس الرياصي، المؤسسات التعليمية، ص60.

2- نفسه، ص61.

3- حسن عبد العال، التربية الإسلامية، ص186

4- سورة الأنعام، آية 105.

5- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر، المملكة العربية السعودية، 1460هـ/1999م، ج3، ص312.

والمدرسة هي الموضع الّذي يدرس فيه القرآن الكريم، ومصطلح مدارس استعمله العبرانيون وهو مشتق عندهم من لفظة «درش» الّتي تقابل «درس» في اللغة العربية وتؤدي معناها تمام الأداء[1].

وهناك من يرجع نسبة كلمة درس إلى العبرية، ولكن لا نستطيع أن نستنتج أنّ فكرة المدرسة مأخوذة من عندهم فالمدارس لم تكن معهدا للتعليم وإنّما كانت للقراءة فقط، كما أنّ المجتمع الإسلامي في عصر النبوة وصدر الإسلام لم تكن به معاهد تعليمية تحمل اسم المدرسة[2].

أمّا عن تعريف المدرسة في التراث الفكري الإسلامي فهي: تلك المباني المنظمة والمخصصة للتعليم الّتي تستقبل أعدادا محددة من طلاب العلم وتكفل لهم مستلزمات المعيشة والتعليم كافة، ويتولى التدريس فيها نخبة من المدرسين والعلماء الأجلاء حيث يوسّع عليهم في الرزق ويختارون بحسب شروط الوقف وممّن يحسنون القيام بالغرض الّذي ندبوا إليه ويحملون إجازات علمية في ضروب المعارف الّتي درسوها[3].

وقد اختلف المؤرخون وأهل العلم حول بداية نشأة المدرسة الإسلامية فمنهم من قال أنّها ظهرت في عهد نظام الملك[4] الّذي أنشأ المدرسة النظامية سنة 459هـ، وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس في ذلك[5].

ومنهم من قال أنّها ظهرت قبل ذلك بكثير، حيث بالرجوع إلى المصادر والكتب المتخصصة نجد أنّ المدرسة في أول ظهور لها كان في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص79- 81.

[2]- محمد عبد الرحمن غنيمة، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1953، ص65. محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص86.

[3]- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص87. فاروق السامرائي، التعليم الإسلامي، ص243.

[4]- نظام الملك: هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، الملقب بقوام الدين، ولد سنة 408هـ بنوقان، كان من أولاد الدّهاقين، اشتغل بالحديث والفقه، تولى وزارة السلطان ألب أرسلان، ثمّ السلطان ملكشاه، وكان مجلسه عامرا بالفقهاء والصوفية، وكان إذا سمع الآذان أمسك عن جميع ما هو فيه، بنى المدارس والربط والمساجد في البلاد، قتل سنة 485هـ بأصبهان علي يد صبي ديلمي. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص128-131. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج33، ص142. السبكي، طبقات الشافعية، ج4، ص312- 327.

[5]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 128.

القرن الثالث الهجري ليس في العراق بل في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي ولكنّها كانت بمثابة النواة الأولى للمدارس بصفة عامة[1].

وبالرغم من ظهور كل تلك المدارس في تاريخ المسلمين، غير أنّها كانت مجرد مبادرات فردية حققت للنّاس طموحاتهم ولكنّها لم تستكمل شروط المدرسة، فقد تكونت من بيت له رحبة واسعة فيه بعض الغرف، واختلفت المدارس آنذاك فيما بينها من حيث السعة ومن حيث الوقوف الّتي كانت توقف عليها[2].

وقد كانت المدارس الّتي أسست في ذلك الوقت مدارس أحادية المذهب تفردت بتدريس مذهب واحد، ذلك لأنّ التنافس المذهبي الّذي كانت تعيشه بغداد حاضرة الخلافة قد امتد إلى بلاد ما وراء النهر[3].

وقد تعددت الأسباب الّتي دفعت أبناء المسلمين وحكامهم إلى إنشاء المدارس في المرحلة الأولى من ظهورها تنوعت بين الرغبة في الدراسات الإسلامية الّتي أدت إلى كثرة

1- نوضح هنا أنّ معظم المدارس الّتي أنشئت قبل المدرسة النظامية كانت خارج مجال الدراسة من الناحية الجغرافية لهذا لم يتم التطرق إليها بالتفصيل، ومن هذه المدارس نذكر على سبيل المثال مدرسة الإمام أبي حفص الفقيه البخاري، ومدرسة الإمام أبو حاتم بن حبان البستي بنيسابور سنة 305هـ،والمدرسة التي أنشأها ابن الوليد حسان بن محمد بن أحمد النيسابوري الشافعي قبل سنة 349هـ، ومدرسة محمد بن عبد الله بن حمشاذ وغيرها. وللاستزادة حول موضوع نشأة المدارس. أولاد ضياف رابح، نشأة المدارس في الإسلام(المدرسة النظامية نموذجا)، مقال منشور بمجلة الآداب والحضارة الإسلامية، ع15، قسنطينة، 1434هـ/2013م. كما نوضح أنّ المدارس الّتي أنشئت في العراق كانت خارج الاطار الزماني للدراسة نذكر منها: مدرسة الإمام أبي حنيفة والتي تعد أول مدرسة ببغداد سكنها الطلاب وأقاموا فيها، أسسها أبو سعد المستوفي- ت 494هـ- بإزاء مشهد أبي حنيفة في شمالي بغداد الشرقية في محلة باب الطاق، والمدرسة النظامية ببغداد والتي تعد بفروعها المنتشرة في أنحاء الدولة الإسلامية من أشهر مدارس بغداد وأعظمها أسسها الوزير نظام الملك سنة 457هـ في محلة نهر المعلى في الجانب الشرقي من بغداد وتمّ الانتهاء من بنائها سنة 459هـ. ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص100-102. ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9، ص44.

2- حسين أحمد أمين، المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم، في بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،1983، ص104.محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص96.

3- ونشير هنا أنّه بعد تأسيس المدارس بخراسان وبغداد انتقلت فكرة تأسيسها إلى الشام، فقد تم إنشاء أول مدرسة فيها في دمشق عام 391هـ، وهذه المدرسة هي المدرسة الصادرية المنسوبة إلى منشئها صادر بن عبد الله، وتبعه بعد ذلك مقرئ دمشق رشأ بن نضيف بن ما شاء الله أبو الحسن الدمشقي- ت444هـ- حيث قام بتأسيس المدرسة الرشائية في حدود 400هـ، وإلى هذه المدارس خرج الطلبة من الحلق الّتي كانت تعقد في المسجد إلى مكان يختص بتلقي علم معين فيوقف عليهم وعلى شيوخهم المال وتوفر لهم أسباب التعلم. عارف عبد الغني، نظم التعليم عند المسلمين، دار كنانة للطباعة والنشر، دمشق، 1993، ص89. حسن عبد العال، التربية الإسلامية ، ص212.

الحلقات الدراسية في مختلف العلوم في المساجد، وكان هذا يعيق المصلين والنسّاك المتعبدين عن أداء عبادتهم على الوجه الأكمل ولذلك كانت الحاجة إلى إيجاد مركز تعليمي آخر يكون بديلا عن المسجد فوجدت المدارس، والتطور العلمي خاصة في مجال العلوم الطبيعية والكيميائية والرياضية والفلسفية الّتي تستوجب استخدام بعض الأجهزة والآلات الّتي لا يمكن أن تكون متوفرة في المسجد، لقدسية المسجد[1].

بالإضافة إلى المذاهب المختلفة الّتي كانت أحد أسباب إنشاء المدارس لمواجهة المد الشيعي المنتشر في بعض البلاد الإسلامية، فأنشئت المدارس للدفاع عن الدين الإسلامي، والعمل على نشر المذهب السني الشافعي وتقويته في نفوس المسلمين والمنافسة وكسب النّاس الّتي كانت من بين الأسباب الّتي دعت إلى إنشاء المدارس المنافسة بين الحكام من أجل الشموخ بين القرناء، حيث المكانة العالية الّتي كان العلماء يتحلون بها، وأنّ مكانة الحكام متوقفة على مدى احترامهم للعلم والعلماء، فأنشئوا لهم المدارس والمرافق التعليمية الّتي تخدم العلم وأهله من الطلاب[2].

لقد كانت المدارس من المؤسسات التعليمية الّتي عرفها العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري، وقد خصصت الجرايات للمنتسبين إليها من الفقهاء والطلبة والقائمين عليها من طرف أصحابها، كما قدّمت خدمات اجتماعية إلى جانب خدماتها الثقافية والعلمية بتوفير السكن للطلاب والمدرسين والزهّاد وغيرهم من الفقراء، وعرفت العراق نظام المدارس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري[3]. وقد بلغ عدد المدارس ثلاثين مدرسة حسب ما ذكر ابن جبير[4] حيث قال: «والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية، وهي الّتي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة، وعقارات محبسة تتصيّر إلى الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر

---

[1]- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص99.

[2]- فاروق السامرائي، التعليم الإسلامي، ص75.محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص100.

[3]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص153.

[4]- الرحلة، ص205.

هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد، فرحم الله واضعها الأول ورحم من تبع ذلك».

ويمكن القول أنّ موضوع المدارس في العراق نشأتها وتطورها وخدماتها من المواضيع الكبيرة الّتي لا يسع المجال للدخول في تفصيلاته، غير أنّ هناك العديد من الدراسات الّتي تعرضت له وألمت به، وما يهمنا نحن في هذه الدراسة هو الناحية الاجتماعية للمدارس خاصة المدارس الّتي قدمت خدمات اجتماعية للمدرسين والطلاب.

إنّ ما حظي به الطلاب من امتيازات ومخصصات في هذه المدارس من حيث توفير مساكن لإقامة الطلاب، إضافة إلى الجراية الدائمة من الطعام وكثرة المرتبات المالية، والمخصصات الّتي يتقاضاها المنتسبون من قبل الخلفاء من مدرسين وطلاب دعت إلى انتساب الطلاب لها وبأعداد كبيرة، كما دعت كثرة التخصصات إلى إقامة بعض الطلاب عشرات السنين فيها، وفي الغالب أنّ جرايات المدرسة النظامية استمرت لفترة طويلة، فقد أشار ابن جبير[1] إلى أنّ جرايات المدرسة النظامية لا تزال مستمرة على الطلاب لمّا زارها سنة 580هـ.

وقسّم الطلبة في المدارس في العراق إلى قسمين وذلك تبعا لمواظبتهم على الدراسة وانتظامهم فيها والاستمرارية في تلقي العلم وهما كما يلي:

1- طلبة منتظمون: أصحاب هذه الفئة هم الطلبة الرسميين للمدرسة المتفرغين لطلب العلم حيث يقضون شطرا من حياتهم لطلب العلم وحده، ولذلك انتظموا في المدرسة وفي حضور المحاضرات، وكانوا يتعرضون للمساءلة في حالة غيابهم عن المحاضرات، وكان يجب على هؤلاء الطلبة الالتزام بأنظمة المدرسة ولوائحها من حيث ساعات الحضور والانصراف، ومن حيث الآداب العامة الّتي ينبغي أن يسلكها الطالب في المدرسة، ولا يجوز تجاوزها في أي حال من الأحوال[2].

2- طلبة غير منتظمين: شملت هذه الفئة عددا كبيرا من رجال الأعمال والعمّال المنتسبين وغيرهم من أصحاب المهن والحرف المختلفة، وكان هؤلاء يحضرون الدروس من وقت إلى

---

[1]- الرحلة، ص205.

[2]- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص146.

آخر حيث كان في المدرسة محاضرات عامة لكافة الراغبين من أبناء المسلمين على اختلاف مستوياتهم وأعمارهم وثقافاتهم[1].

وقد اشتملت المدارس الكبرى في العصر العباسي على أقسام داخلية لهؤلاء الطلبة المنتظمين، ولهذا تنافس الطلبة في سبيل الانتساب إلى هذه المدارس والإقامة فيها لما توفره لهم من علم ميسّر وخلوة وانقطاع للدرس، وللسكن في هذه المدارس آداب وجب على الطالب الالتزام بها، ومنها أن لا يشغل الطالب الساكن فيها نفسه بغير شأنه وتحصيله وما بنيت المدرسة من أجله، وعلى الساكن في مثل هذه المدارس في الغرف العليا من السكن أن يخفف المشي، ووضع ما يثقل خشية إيذاء من تحته، وإذا نزل وجب أن يقدم من هو أكبر منه سنا[2].

وكانت المدارس تمول في تلك الفترة عن طريق الوقف الّذي عرف منذ العصور الإسلامية الأولى حيث يروى أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصاب أرضا في خيبر فسأل الرسول -صلّى الله عليه وسلم- عنها في كيفية الانتفاع بها فقال له -صلّى الله عليه وسلم-: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها»، فتصدق عمر على أنّه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث في الفقراء والقربى وفي سبيل الله والضيف وابن السبيل لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقا غير متمول فيه[3].

ولا يكون الوقف إلّا بالشيء الّذي يجوز بيعه والانتفاع به مع بقاء عينه كالعقّار والمنقول من الأثاث والمصاحف والكتب والسلاح والحيوان، ولا يصح وقف ما يتلف بالانتفاع به مثل النقود والشمع والمأكل والمشرب، ولا ما يسرع إليه الفساد من المشمومات والرياحين لأنّها تتلف سريعا، ولا ما لا يجوز بيعه كالمرهون[4].

اعتبر هذا النظام فيما بعد في الدولة الإسلامية من أعظم أشكال التكافل الاجتماعي الّتي عرفها المسلمون، ولذلك عملوا به في مدارسهم، ومن الممكن تقسيم المدارس بناء على الجهة الواقفة عليها إلى قسمين: **مدارس عامة:** وهي المدارس الّتي أمر ببنائها الحكّام

---

[1]- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية ، ص146.

[2]- نفسه، ص146.

[3]- صحيح البخاري، ج2، رقم الحديث 2586، ص982. سليمان بن عبد الله أبا الخيل، الوقف في الشريعة الإسلامية حكمه وحكمته وأبعاده الدينية والاجتماعية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض،1429 هـ، ص16.

[4]- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص176.

والأمراء في الدولة الإسلامية وخصصوا لها وقفيات محددة من أوقاف الدولة الخاصة إضافة للأموال الخاصة الّتي كانوا ينفقوها عليها[1].

ومدارس خاصة: الّتي وجدت بناء على مبادرات شخصية من قبل أفراد المجتمع الإسلامي آنذاك وخصصوا لها ما كانوا يملكون من عقارات وأموال لتكون فيما بعد موارد مالية خاصة لها حيث هناك الكثير من العلماء والأغنياء والتجار من جعلوا بيوتهم مدارس، وجعلوا ما فيها من كتب وما يتبعها وما تقوم عليه من عقار وقفا على طلاب العلم الدارسين فيها ولهذا كثرت المدارس في المشرق الإسلامي وتعددت، وبالنسبة لإيرادات المدرسة النظامية فقد أوقف عليها نظام الملك ضيّعا وأملاكا كثيرة وسوقا بنيت على باب المدرسة، وقيل أنّ ريع أوقاف هذه المدرسة كان يصل إلى 15.000 دينار في العام، وقد كان الريع كافيا لمرتبات الشيوخ ولما يدفع للطلاب، وكان يشمل مئونة طعامهم وملابسهم وغير ذلك من الأمور، ويقال أنّ أوقاف نظام الملك على نظامية أصفهان كانت تصل إلى 10.000 دينار سنويا[2].

وبالنسبة للنظام المعماري للمدارس وأماكن بنائها فقد تشابهت الأبنية المدرسية قديما من حيث التخطيط والتصميم مع المساجد إلى درجة كبيرة بحيث وصل الأمر إلى أنّه يصعب التمييز بينهما، ولكن على الرغم من ذلك فقد روعي عند تصميم المباني المدرسية تحقيق الأغراض التعليمية، كما حرص على تخصيص مساكن للطلبة وبعض العاملين في المدرسة، فقد تميّرت الأبنية المدرسية عن المساجد بعنصرين مهمّين هما المكان المخصص للدرس، والمكان المخصص للسكن كلاهما في وحدة معمارية وإدارية واحدة[3].

كان تخطيط المدرسة يتم على شكل مربّع أو مستطيل تتوسطه ساحة مكشوفة (صحن) تحيطها مرافق المدرسة المختلفة وتحتل هذه الساحة أكبر قدر من المخطط العام للمدرسة، مع مراعاة الجدار القبلي للمدرسة لأنّه هو الأهم في كل البناء، كما تميّزت المدارس بوجود أواوين تطل على الساحة الوسطية، وبعض المدارس كان فيها إيوان واحد وبعضها فيه

---

[1]– محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص176.

[2]– مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، دار الوراق للنشر، بيروت، 1460هـ/1999م، ص134. أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، ص367. محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص176.

[3]– محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص166.

إيوانان، وبعضها أكثر من ذلك، والإيوان يعد من أهم مرافق المدرسة الإسلامية قديما، كما تميّزت بإقامة بيت للصلاة يكون في الجهة القبلية من البناء المدرسي بحيث يوفر ذلك إمكانية الاستفادة من الساحة الداخلية للمدرسة في أداء الصلاة عند عدم كفاية بيت الصلاة ووجود عدد كبير من المصلّين، بالإضافة إلى وجود حجرات وغرف للسكن كثيرة سواء كانت للطلبة أو للعاملين[1].

وقد تميّزت مدارس العراق بصورة عامة في العصر العباسي بخلوها من المآذن بينما نجد عكس ذلك في بعض الأقطار الإسلامية الأخرى (آسيا الصغرى)، كما لوحظ أنّ معظم هذه المدارس كانت تضم ضريح واقف المدرسة الّذي كان لا يقتطع جزءا هاما من المدرسة، وإنّما روعي أن ينحصر في ركن من الأركان، وقد أصبحت هذه الظاهرة متّبعة فيما بعد في جميع البلاد الإسلامية[2].

وكان اهتمام المسلمين بموقع البناء المدرسي كبيرا، حيث كانوا يختارون لمدارسهم أجمل المواقع الّتي تشرف سواء على الحدائق والبساتين أو الأنهار، وإن لم يكن ذلك فإنّهم يحفّونها ببستان كبير تتخلله المياه الجارية المسحوبة من الأنهار، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عملوا على زخرفة هذه المدارس، وكل ذلك من أجل دفع الملل عن الطلبة[3].

وأمّا عن الفئة المدرسة فكانت لها أهمية كبيرة إذ نجاح العملية التعليمية مرهون بنجاح المدرس حيث يعتبر هو العامل المباشر الّذي يؤثر في المستوى العلمي والدراسي لدى الطلبة لهذا كانت هناك مجموعة من الشروط الّتي يجب أن تتوفر في المعلمين في المدرسة الإسلامية في العراق نذكر منها:

1- أن ينجح المدرس في المقابلات والامتحانات حيث كان يختبر من خلال المناظرات التي كانت تعقد في المناسبات المختلفة قبل ممارسته للعملية التعليمية وأن يتصف بالتقوى، والتقوى كما قيل أن لا يراك الله حيث نهاك وألا يفقدك حيث أمرك، ولذلك كانت من وصايا المربين المسلمين للمعلم أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى وأن لا يكون قصده

1- ناجي معروف، المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، مطبعة الإرشاد، ط1، بغداد، 1965، ص116.سعيد إسماعيل علي، معاهد التربية، ص141.محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص166.

2- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص167. سعيد إسماعيل علي، معاهد التربية، ص142.

3- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص167. محمد عبد الرحمن غنيمة، تاريخ الجامعات، ص76.

شهرة أو سمعة أو مال، وأن يكون المدرس قد استكمل جوانب تخصصه ويشهد له بذلك أفاضل أساتذته وكبار علماء عصره[1].

2- وأن يتقيّد بشروط واقف المدرسة حيث كان يحدد التعليمات الّتي تختص وتتصل بالمدرس من حيث الاختصاص وطرق التدريس، والمخصصات الشهرية للمدرس في مرسوم خاص يسمى التوقيعات التدريسية، كما كان يشترط في المدرسين التحلي بالأخلاق الحميدة من عدل ولطف ومحبة وحلم حريصا على نفع طلابه[2].

وأمّا عن المراسيم الّتي يتم من خلالها التعيين، فقد كان الخليفة هو الّذي يتولى عملية التعيين بتوقيع منه حيث يحدد الأجر المناسب في مرسوم خاص، وبعد أن يصدر المرسوم يخلع على المدرس بدار الوزارة خلعة التدريس، ويسير في موكب مهيب فيه الولاة والحجاب وأرباب المناصب الرفيعة والأئمة والفقهاء احتراما له واحتفاء به[3].

وممّن ساهم في نشر العلم وتوسيع التعليم أيضا منازل العلماء، فقد أقيمت فيها حلقات العلم والتعليم، واستقبلت تلاميذ الأمة الإسلامية من جميع الأقطار، وكانت بمثابة مؤسسات علمية يحج إليها طلّاب العلم المتخصصون في فرع من فروع المعرفة من كل مكان، ومن منازل علماء العراق الّتي أسهت في حركة التعليم في القرن الرابع الهجري وكان لها دور كبير في نشر العلم وتوسيع التعليم دار محمد بن أحمد بن محمد القاضي السِّمنَاني -ت334هـ- مجمع العلماء، وكان ثقة عالما سخيا حسن الكلام، وكان أبو بكر محمد بن عمر الجُعَابي -ت 335هـ- يجلس للإملاء فيزدحم النّاس عند منزله، وكان يسكن بباب البصرة، وكان منزل أبي الحسن بن عقبة الشيباني تعقد فيه مجالس العلم، وكان يحدث فيه محمد بن أحمد بن موسى من أهل الكوفة لمّا قدم بغداد حدّث به من حفظه إملاء سنة 333هـ، كما كان الأشراف والكتّاب وأهل الأدب يحضرون عند محمد بن عبد الواحد غلام ثعلب ليسمعوا منه كتب ثعلب وغيرها[4].

1- ابن جماعة الكناني، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، تح مكتبة الضياء لتحقيق التراث، دار الآثار للنشر، القاهرة، 1425هـ/2005م، ص138 .محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية، ص133.

2- ابن جماعة الكناني ، تذكرة السامع، ص139-140. محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية ، ص134.

3- محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية ، ص 134-135.

4- كرم حلمي فرحات أحمد، التراث العلمي، ص58.

وأيضا الحوانيت فقد كان بعض العلماء في العراق يعملون في الأسواق لكسب معاشهم وكانوا يستقبلون طلّابهم في دكاكينهم والّتي هي أيضا ملتقى للعلماء حيث كانوا يتباحثون في مختلف المواضيع المتعلقة بالحديث النبوي والشعر وما إلى ذلك، فقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العبّاسية، ثمّ انتشرت بسرعة انتشارا ملحوظا في العواصم والبلدان المختلفة بالعالم الإسلامي، وحفلت كل مدينة بل كل محلة بعدد وافر منها[1].

كما كانت الحوانيت في إقليم العراق أيضا مسرحا للمناقشات العلمية والأدبية، وقد أسهمت في ازدهار الحركة التعليمية خاصة في القرن الرابع الهجري، وقد فتحت في الأصل للأعمال التجارية، وعندما أمّها المثقفون والأدباء والعلماء صارت مسرحا للثقافة والحوار العلمي، واتّخذوا منها مكانا لاجتماعهم كما كان يحدث مع أبي الفرج الأصفهاني وأبي نصر الزجاج إذ أنّهما كانا يلتقيان في دكان في سوق الورّاقين ومعهما أبو الحسين علي بن يوسف الشاعر، وأبو الفتح بن الحزّاز الورّاق، وكانت تدور بينهم المناقشات الأدبية[2].

كما كانت للصالونات الأدبية نصيب وافر في نشر الثقافة الإسلامية وإزكاء الحركة العلمية وهي لا تقل أهمية عن المؤسسات التربوية الأخرى، وقد فرضتها ظروف الحياة في القرن الرابع الهجري والتقدم العلمي، والازدهار الثقافي الّذي شهده إقليم العراق، فوقفت جنبا إلى جنب مع المجالس العلمية المختلفة الّتي كانت تعقد في حوانيت العلماء أو الوراقين أو منازل العلماء أو غير ذلك[3].

وقد اختلفت مجالس الصالونات في طبيعتها عن المجالس العلمية الأخرى، فظهرت فيها آثار التقاليد والحضارات الأجنبية، فكانت المجالس الأخرى تتميّز بكل ألوان الحرية والمرونة حيث كان من حق الإنسان أن ينضم لأيّة حلقة شاء، وأن يتلقى العلم على أي شيخ شاء وإن أراد التنقل من حلقة إلى حلقة ينتقل بكامل حريته، وله أن يسأل أستاذه وأن يناقشه، وأمّا مجالس الصالونات فقد كانت في القصور لذلك تختلف عن ذلك كله فليس لحاضرها أن يذكر شيئا إلّا ما يسأل عنه، أو يورد قولا أو اختيارا أو مطالعة إلّا ما استأذن فيه، وسبيله

---

[1]- كرم حلمي فرحات أحمد، التراث العلمي ، 59.

[2]- نفسه، ص59.

[3]- نفسه، ص59.

أن يخفض صوته في حديثه أو محاورته، ولا يرفعه إلّا بقدر السماع الّذي لا يحتاج معه إلى استفهامه أو استعادته[1].

ومن أشهر صالونات القرن الرابع الهجري في إقليم العراق صالونات الوزير ابن الفرات، وقد روى لنا أبو حيان التوحيدي[2] ما كان يحدث فيه من مناظرات بين العلماء كمناظرة أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس القناني.

وكان الخلفاء والأمراء والوزراء يعدّون أنفسهم حماة للعلم، ويرون أنّ قصورهم يجب أن تكون مركزا تشع منه الثقافة ويلتقي فيه العلماء والأدباء، وكان الأمراء يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة المباني، ولقد ضمّت هذه الصالونات طائفة من أكبر مفكري هذا العصر من فقهاء ومفسرين ومحدثين ومتكلمين وفلاسفة وأطباء ومهندسين[3].

كما كان لدور الكتب ودور العلم أثر كبير في انتشار العلم، ونمو حركة التعليم في العراق، فقد انتشرت المكتبات انتشارا يدعو إلى الإعجاب، فكان في كل جامع كبير مكتبة إذ كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع، وكان الملوك يتفاخرون بجمع الكتب، وكان لهم ولع شديد بها[4].

ومن أشهر دور الكتب في العراق خزانة دار الحكمة ببغداد، والتي لم يتحدد تاريخ دقيق لإنشائها ولكن أغلب الباحثين يجمعون على تأسيسها في عهد الرشيد والدليل على ذلك وجود إشارات في بعض المصادر تؤكد وجود بيت الحكمة في عهد الرشيد من ذلك ما ذكره ابن النديم[5] عن علان الشعوبي من أنّه: «كان راوية عارفا بالأنساب والمثالب والمنافرات منقطعا إلى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة».

ثمّ تطورت بيت الحكمة وازدهرت في عهد المأمون الّذي أولى اهتماما كبيرا لاقتناء الكتب حيث «أرسل جماعة من النقلة فأحضروا الكتب الأجنبية»[6]، وكان يعطي وزن الكتاب

---

[1]- أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، ص78-79 .

[2]- الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص107-108.

[3]- حسن عبد العال، التربية الإسلامية، ص198.

[4]- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص329-331.

[5]- الفهرست، ص153-154.

[6]- ابن النديم، الفهرست، ص339.

المترجم ذهبا[1]، وكانت أعظم خزائن الكتب في الإسلام، وقد حوت من الأسفار العتيقة كل جليل ونفيس، ولم تكن كتبها إلّا نتاج ثقافات شرقية وعربية مختلفة العربية والفارسية والسريانية واليونانية وغيرها، وقد كان الهدف من إنشائها أول الأمر الاضطلاع بحركة الترجمة الضخمة الّتي نشطت في هذا العصر ثمّ اتّسعت رسالتها بعد ذلك فصارت تشمل التعليم العالي أيضا إلى جانب المسجد ولذلك اعتبرها هاتز أول جامعة إسلامية[2].

ومن أشهر دور العلم أيضا دار علم أبي القاسم جعفر بن حمدان الموصلي[3] – ت323هـ–، وقد أسسها في بلده، وجعل فيها خزائن كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم لا يمنع أحدا من دخولها، وكان ينفق على الغريب المعسر، وكان يجلس فيها ويجتمع إليه النّاس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره، ودار علم الشريف الرضي–ت406هـ– أنشأها ببغداد، وكان موضعها لدراسة الطلّاب وسكناها في الوقت نفسه فتح أبوابها لطلبة العلم وعيّن لهم جميعا ما يحتاجون إليه من الكتب ومن كل شيء، ودار علم أبو علي بن سوار الكاتب بالبصرة في أواخر القرن الرابع الهجري حيث كان فيها معلم مقيم بصفة مستمرة يدرس عليه التلاميذ علم الكلام[4].

ووجدت أيضا المكتبات الخاصة ومن أشهرها بالعراق مكتبة أبي العبّاس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي المعروف بابن عقدة – ت332هـ–، وكان للقاضي أبي عمر محمد بن يوسف خزائن مملوءة كتبا، وكان لأبي بكر الصولي بيت مملوء بالكتب، وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان كل صنف من الكتب لون، فصنف أحمر، وآخر أخضر، وآخر

1– مفتاح يونس الرباصي، المؤسسات التعليمية، ص105.

2– كوركيس عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة 1000 للهجرة، ص105–113.كرم حلمي فرحات أحمد، التراث العلمي، ص63.

3– أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي: فقيه شافعي، حسن التأليف والتصنيف، كان شاعرا أديبا ناقدا للشعر كثير الرواية، وله عدة كتب في الفقه على المذهب الشافعي، ولد سنة 240هـ، وقد كان ابن حمدان صاحب رئاسة وجاه في الموصل متقدما في الفقه معروفا به، قويا في النحو فيما يكتبه، عارفا بالكلام والجدل مبرزا فيه، حافظا لكتب اللغة، راوية للأخبار، بصيرا بالنجوم، وكانت له علاقات جيّدة بكبار رجالات عصره من الوزراء والأدباء والشعراء، توفي سنة 323هـ. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج2، ص794–798.

4– حسن عبد العال، التربية الإسلامية، ص208.آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص329.

أصفر وغير ذلك، وكذلك مكتبة ابن الفرات فقد خلّف ثمانية عشر صندوقا مملوءة كتبا أكثرها بخطه[1].

ثالثا- الأربطة:

الرباط في الأصل المكان الّذي يرابط فيه جنود المسلمين للجهاد في سبيل الله، وفي الاصطلاح المكان الّذي يرابط فيه جماعة الصوفية للعبادة ومجاهدة النفس وكسر شهوتها، وقد صار مع الزمن مقرا للعجزة والنساء، والفقراء والأيتام والغرباء، حيث أصبحت الربط تقدم كثيرا من الخدمات الاجتماعية والدينية والثقافية والتربوية، وممّا ساعدها على أداء رسالتها إيقاف الكتب والأرزاق عليها، وكان بعض العلماء يتخذون منها أماكن للمطالعة والكتابة والاستنساخ يساعدهم على ذلك وجود المكتبات العامرة فيها[2]، ممّا مكن هذه الربط من أن تؤدي خدمات تربوية واجتماعية جليلة باعتبارها مؤسسات للتربية العسكرية والدينية بحكم إقامتها على الحدود وفي مواجهة الدول الأخرى الّتي كانت تتربص بالدول الإسلامية وتتحين الفرص للقضاء عليها[3].

ولم تقتصر خدمات الربط على الجهاد، أو الرعاية الاجتماعية للمحتاجين أو العبادة والزهد وتأليف الكتب والإقراء والتثقيف والمحاضرات، بل تنوعت واختلفت بتنوع الرجال واختلاف العصور، بحيث صارت عالما ثقافيا له خصائصه الواضحة المتميزة في الحضارة الإسلامية[4].

وإنّ مصطلح الربط كان يحمل في البداية معنى عسكريا مأخوذ من **قوله تعالى**[5]: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾** أي ملازمة الثغور لحفظها من العدو، وكان يطلق أيضا على أولئك الجنود المرابطين في المدن،

---

[1]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج2، ص 794. كرم حلمي فرحات أحمد، التراث العلمي، ص63-65.

[2]- الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1972، ص289. رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات المجمع العلمي،1423 هـ/2002م ، ص64

[3]- رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف، ص64.

[4]- سالك أحمد معلوم، الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي، مكتبة لينة للنشر، 1413هـ/1993، ص64.

[5]- سورة الأنفال، آية 60.

وقد ظل هذا المصطلح يحمل هذا الطابع في المشرق مدة طويلة[1]، ومع مرور الزمن تحول مصطلح الربط في معظم الأحيان إلى معنى مدني في حواضر دار الإسلام ولا سيّما في داخل المشرق الإسلامي من خلال كونه مقرا للعباد والزهّاد فضلا عن أولئك المثقفين الّذين يجدون فيه ملاذا آمنا للدراسة والبحث العلمي، وقد أشار إلى هذا المعنى المقريزي[2] حيث قال أنّ المرابط في الرباط يدفع عمّن وراءه من خلال إقامته على طاعة الله فهو يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد على الرغم من أنّ الربط شهدت متطفلين دخلوا إليها مستغلين خدمتها الكثيرة الّتي تقدم لروّادها.

وإنّ أول إشارة إلى الربط بمعناها الجديد كان في القرن الثاني للهجرة عندما بنى عبد الله بن المبارك في مدينة هيت العراقية على نهر الفرات في أثناء عودته من جهاد الروم رباطه في مدينة مرو، وسرعان ما أخذت في الانتشار، حيث أنشأ الحسين بن دبار رباطا عام 324هـ في مدينة عسكر مكرم في إقليم الأهواز، كما أشير إلى أنّ المحدّث أحمد بن سعيد الرباطي كان يشرف على ربط في خراسان[3].

وقد ساد هذا المصطلح في العراق وخراسان وبقية أقاليم المشرق إلى ما وراء النّهر، وشهدت هذه المناطق ظهور أربطة جمعت بين الأهداف التعبدية والجهادية والخدمية، ولقد أوقفت على هذه الأربطة على الرغم من أنّ بعض الفقهاء لم يجيزوا الوقف على الصوفية كما هو الحال مع أبي محمد الجويني على الرغم من أنّه كان من أئمة التصوف في عصره[4].

اعتنى العباسيون كثيرا بإنشاء هذه الربط وخاصة في ثغور بلاد الشام والجزيرة الفراتية حيث كانت بمثابة ثكنات عسكرية لرد المغيرين على التخوم[5]، ثمّ تطورت هذه الربط وأصبحت تعنى بشؤون العلم والعبادة خاصة في فترة السلم لذلك فهي قد أدت وظيفتين

---

[1]- رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف، ص64.

[2]- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت ،1418هـ،ج2، ص427 .

[3]- اليافعي، مرآة الجنان، ج1،ص294- 295. ابن العماد، شذرات الذهب،ج2،ص361-364. مصطفى جواد، الربط الصوفية البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية، الدار العربية للموسوعات، بيروت،2006، ص19-22.

[4]- مصطفى جواد، الربط الصوفية البغدادية، 22-25.

[5]- ونشير هنا أنّ التخوم تمثل منطقة دفاعية لحماية البلاد الّتي تحيط بها في الغزوات المفاجئة بوصفها منطقة واسعة تعطي الفرصة للاستعداد لمواجهة الأعداء ومنعهم من التقدم داخل الحدود.

عسكرية والمتمثلة في الجهاد في سبيل الله وعلمية تربوية حيث كانت مهمتها نشر العلم وجهاد النفس خاصة بعد توقف الفتوحات الإسلامية وانحسارها، فدرست فيها مختلف العلوم الدينية كما احتوت على أنفس الكتب والمخطوطات النادرة[1].

ومن أهم الأربطة في العراق في فترة الدراسة والّتي تمتعت بخدمات وقفية جيّدة وأدت مهاما علمية متميزة نذكر:

1- **رباط شيخ الشيوخ:** ينسب هذا الرباط إلى أبي سعيد النيسابوري الصوفي[2]، ويقع في محلة المعلى[3] بالمشرعة، ويذكر ابن الجوزي[4] حادثة عن بناء هذا الرباط، أنّ أبا سعيد الصوفي كان يجمع جماعة من الفقراء ويخرج معهم ويدور في قبائل العرب فيتنقل من حلة إلى أخرى، وقدم مرة من البادية فنزل عند صاحبه أبي بكر الطريثيثي[5]، وكانت له زاوية صغيرة فقال له: « يا أبا بكر، لو بنيت للأصحاب موضعا أوسع من هذا، وأرفع بابا. فقال له: إذا بنيت رباطا للصوفية فاجعل له بابا يدخل فيه جمل براكبه»، فذهب أبو سعيد إلى نيسابور[6] فباع جميع أملاكه، وجاء إلى بغداد وكتب إلى الخليفة القائم بأمر الله (422-467هـ) يلتمس منه خربة يبني فيها رباطا، فأذن له فبنى الرباط وجمع

1- فوزي أمين يحي الطائي، الخدمات الوقفية في العراق وبلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2013، ص151.مصطفى جواد، الربط الصوفية ، ص19.

2- أبو سعيد النيسابوري الصوفي:هو أحمد بن محمد بن دوست أبو سعيد النيسابوري الصوفي، شيخ الصوفية، كان كثير السفر، وحج مرات عديدة من غير نفقة ولا زاد فكان يتنقل من قبيلة إلى أخرى ويضيف عندهم حتى وصل مكة، وبنى رباطا ببغداد، توفي سنة 477هـ، ودفن بمقبرة باب أبرز وقد جاوز التسعين سنة، وأوصى أن يخلفه ابنه إسماعيل، فاستخلف في مشيخة الرباط، وكان له اثنتا عشرة سنة. ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص235.ابن كثير، البداية والنهاية، ج16، ص91 .

3- المعلى:أشهر وأعظم محلة ببغداد وفيها دار الخلافة المعظمة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص324.

4- المنتظم، ج16، ص235.

5- أبو بكر الطريثيثي: هو أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين بن زكريا الطريثيثي، ثمّ البغدادي الصوفي، المعروف بابن زهراء، ولد سنة 412هـ/1021م، شيخ الصوفية بخراسان، ويقال أنّ بصره كفّ في آخر أيّامه، كان حسن التلاوة، صحب أبا سعيد النيسابوري، وتوفي سنة 497هـ .ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص86.الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص161-162. السبكي، طبقات الشافعية، ج4، ص39.

6- نيسابور: مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء، وقيل أنّها سميت بذلك لأنّ سابور مرّ بها وكان فيها قصب كثير فقال: يصلح أن يكون ههنا مدينة، فقيل لها نيسابور. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص331.

الأصحاب، وأحضر أبا بكر الطريثيثي، وأركب رجلا جملا ودخل راكبا من الباب، فقال: يا أبا بكر قد امتثلت ما أشرت، وقد تعرض هذا الرباط للهدم بفعل الغرق الّذي حدث سنة 466هـ ، فأعاده أجود ممّا كان عليه.

وتميّز هذا الرباط بسعته وجودة طعامه المقدم للساكنين، وما يميّزه أيضا أنّ أوقافه لم تقتصر على إطعام الساكنين فيه وما يحتاجونه من أمور معيشية، بل كانت عنايته بالجانب الثقافي والتعليمي بشكل كبير، فقد أوقف له مكتبة جعلها في خدمة ساكنيه وبخاصة العلماء وطلاب العلم، والّتي ضمت أمهات المصنفات والأسفار[1].

وقد تعاقب على رباط أبي سعيد الصوفي عدد من النظار الّذين أشرفوا على أوقافه ومنهم: ولده أبو البركات إسماعيل، وقد قيل أنّه تولى مشيخة الرباط وهو صبي لم يتجاوز اثنتي عشرة سنة بوصية من أبيه، والسبب في ذلك يعود إلى غزارة الأوقاف وحرصه عليها من الضياع[2].

2- **رباط الزوزني**[3]: كان مقابلا لجامع المنصور بني في قطعة من أرض الجامع عرفت بدار القطاني لأبي الحسن الحصري[4]، وقد ذكر ابن الجوزي[5] عن ذلك « بلغني أنّه كبر سنه فصعب عليه المجئ إلى الجامع فبنى له الرباط المقابل لجامع المنصور ثمّ عرف بصاحبه الزوزني»، ويعد رباط الزوزني من أقدم الأربطة البغدادية، وينسب إلى أبي

1- فوزي أمين يحي الطائي، الخدمات الوقفية ، ص152.

2- ونوضح هنا أنّ أحفاد أبي سعيد الصوفي توالوا على نظارة هذا الرباط أيضا: ومنهم أبو القاسم عبد الرحيم وهو حفيد أبي سعيد الصوفي ثمّ أخوه أبو الحسن عبد اللطيف - ت596هـ- ، وأبو الفتوح الأمين- ت608هـ- ، ومن بعده أخوه زين الدين عبد الرزاق بن أبي أحمد الّذي فضل النظر في شؤون الرباط على بقائه ناظرا للمارستان العضدي. كما نشير أنّ أوقاف هذا الرباط ظلت مستمرة حتّى سنة 643هـ تزود الساكنين فيه بحاجاتهم من الطعام، كما يتميز هذا الرباط بانتساب المشرفين عليه إلى أبي سعد الصوفي. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص357.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد العصر العباسي الثاني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2002، ص24.

3- الزوزني: نسبة إلى زوزَن وهي بلدة حسنة كبيرة بين هراة ونيسابور، كانت تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة ما خرج منها من الفضلاء والأدباء وأهل العلم . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص158 .

4- أبو الحسن الحصري: هو علي بن إبراهيم ، بصري الأصل، سكن بغداد، وكان شيخ الصوفية، صحب الشبلي وغيره، وكان يعظ النّاس بالجامع، ولمّا كبر سنّه كان الحصري لا يخرج إلّا من جمعة إلى جمعة، له كلام جيّد في التصوف على طريقهم، توفي يوم الجمعة ببغداد سنة 371هـ، وقد تجاوز الثمانين السنة، ودفن بمقبرة باب حرب .ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص285-286.ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص407.

5- ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص285.

الحسن علي بن المحمود[1]، وقد ذكر الخطيب البغدادي[2] عن هذا الرباط بأنّه كان موجودا قبل سنة 409هـ حيث قال عنه دون أن يذكره باسمه(رباط الصوفية الّذي عند جامع المنصور).

وهناك من يقول بأن هذا الرباط أنشأ سنة 360هـ وأنّه أول رباط حقيقي للمتصوفة في بغداد وذكره باسم رباط الزوزانية، وقد كان لهذا الرباط أوقافا استدعت توالي النظار عليها وجباتها، وكانت تكفي لسد حاجات الفقراء الّذين يقيمون فيه، ولكن الراجح أنّ هذا الرباط لم يتمتع بالوقف منذ تأسيسه بل الظاهر أنّها رصدت له في فترة متأخرة، بدليل سنوات وتواريخ وفيات نظاره والمشرفين عليه[3].

3- **رباط البسطامي:** ينسب إلى أبي الحسن علي بن أحمد البسطامي-ت **493**هـ -، وقد بنى له هذا الرباط أبو الغنائم بن المحلبان-ت**510**هـ- على شاطئ دجلة بنهر عيسى غربي بغداد، وقد عرف هذا الرباط الجراية المالية الوافرة حيث أنّ صاحبه البسطامي لمّا مات ترك أموالا عظيمة ما يزيد عن أربعة آلاف دينار وهذا ما يرجح أنّ هذه الأموال هي بعض ممّا كان يجري على هذا الرباط[4].

وبخصوص عمارة الأربطة لا توجد معلومات كاملة عن هندسة الربط، وإنّما هناك إشارات فقط عن ذلك، فقد تبنى الربط من طابقين أو أكثر أحدهما تحت الأرض ينزل إليه بسلم حجري تكاد الشمس لا تخرج إليه، ويحتوي على غرف للسكن، وعلى بيوت ملحقة

1- أبو الحسن علي بن المحمود: هو علي بن محمود بن إبراهيم بن ماخرّة، أبو الحسن الزوزني، شيخ الصوفية، صحب أبا الحسن الحصري وقد صحب وروى عن أبي عبد الرحمن السّلمي وهو الّذي نسب إليه رباط الزوزني المقابل لجامع المنصور، وقد قال:صحبت ألف شيخ وأحفظ عن كل شيخ حكاية، توفي في رمضان سنة 451هـ عن خمس وثمانين سنة. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص351.ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص775.

2- تاريخ بغداد، ج5، ص135.

3- وكان من الّذين تولوا مشيخة هذا الرباط خارج فترة البحث أبو القاسم الصوفي- ت591هـ-، وأبو حفص التركستاني- ت602هـ- ، وابن الدبيقي- ت612هـ- الّذي تولى جباية وقفه أيضا. محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص23.

4- ابن كثير، البداية والنهاية، ج16، ص173.عبد الحسين مهدي الرحيم، الخدمات العامة في بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، 1987، ص346.أولاد ضياف رابح، الجراية، ص56-57.

بالمجمع، وقد يكون في الربط أكثر من باب، وكان فيها أحيانا منارة للآذان مثل المساجد والجوامع مثل رباط صدقة الواسطي، ورباط الأصحاب ورباط يزدان[1].

واعتبرت الربط بمثابة حانات بالنسبة للحجاج والمغتربين والمسافرين من بلد إلى بلد ودور ضيافة بالنسبة للزائرين من الأماكن البعيدة لزيارة أصدقائهم أو محبيهم في الرباط لغرض الراحة والاستعداد للسفر والتزود بالمتاع والراحة لأنّها كانت تحتوي على آبارا تساعد المسافرين على التزود بمياه الشرب والوضوء كما هو الحال في رباط أبي سعيد الصوفي ببغداد، وألحقت أحيانا الربط بدار للكتب مثل تلك الّتي كانت في رباط المأمونية، كما كان هناك أيضا مبنى لخزن المواد الغذائية والمواد الّتي يحتاج إليها الرباط كما هو الحال في رباط شيخ الشيوخ، ولرسوخ شيوخ الربط في العبادة والزهد دفن بعضهم في الرباط مثل أبي بكر العادي الّذي دفن في رباطه، وكان يدفن في الرباط أحيانا مؤسس الرباط وإن كان من غير الصوفية كما حدث لاحقا لبهرور الخادم الّذي كان يتولى العراق في عهد السلطان السلجوقي محمد، وبنى الرباط الّذي يحمل اسمه، وكانت الربط تحتوي أحيانا على أفران تقدم الخبز الأبيض[2].

وكان يسمح لسكان المدينة بالتنزه في البساتين واستخدام الحمامات فضلا عن التزوّد بالأكل من مطابخ الرباط، وقد ظلت الأربطة تقدم خدماتها السخية المموّلة من الوقف الإسلامي، ونشير هنا إلى أنّ الأبقار كانت توقف أيضا لخدمة الربط للاستفادة من ألبانها، وقد أجاز قاضي خان[3] إيقافها على الربط وأجاز الاستفادة من ألبانها وسمنها لأبناء السبيل[4].

وكان يشترط في شيخ الرباط أن يكون ممّن يشهد له بالنزاهة والحزم والمهابة والعبادة والعلم، لذلك اختير الكثير من شيوخ الربط ممّن كان يمارس التدريس، ولأهميّة منصب شيخ

---

[1]- عادل الألوسي، الحياة الصوفية وتقاليدها في الموروث الشعبي العربي: دراسة تاريخية في الربط والزوايا الإسلامية، مركز الحضارة العربية ، القاهرة،2004 ، ص44.

[2]- عادل الألوسي، الحياة الصوفية ، ص45.

[3]- قاضي خان: هو العلامة شيخ الحنفية، أبو المحاسن حسن بن منصور بن محمود، البخاري الحنفي، الأوزجندي، صاحب التصانيف، سمع الكثير من الإمام ظهير الدين الحسن بن علي بن عبد العزيز، ومن إبراهيم بن عثمان الصّفاري، وقد روى عنه العلامة جمال الدين محمود بن أحمد الحصيري أحد تلامذته، ولم تذكر سنة وفاته إلّا أنّه قيل أنّه بقي إلى سنة 589 هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص231-232.

[4]- رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف، ص69.

الرباط كان يعيّنه الخليفة مباشرة، وبالدور الّذي يقوم به الشيوخ والاحترام الكبير الّذي كانوا يتمتعون به فضلا عن منزلتهم العلمية المشهود لها وما عرف عنهم من الزهد اختير بعضهم للقيام بمهمّات سياسية مثل قيامهم بنقل الرسائل بين الحكّام المسلمين، وكان يسند إلى بعضهم فضلا عن المشيخة بعض المناصب الإدارية كما حدث لشيخ رباط العميد عبد المنعم الإسكندراني الّذي عيّن ناظرا للمارستان العضدي[1].

وفيما يتعلق بإدارة ربط النساء، ورد ما يشير إلى أنّ المشيخة كانت تعطى أحيانا لامرأة، فقد كانت الشريفة بنت المهدي شيخة رباط في عهد المستعصم بالله، وورد أيضا أنّ أخت الشيخ أبي بكر الصوفي شيخ رباط الزوزني كانت شيخة رباط بنفشا، وكان يراعى عند تعيين رجل لهذا المنصب أن تتوافر فيه صفات التقوى والزهد فضلا عن كبر السن والخبرة في إدارة أربطة سابقة[2].

ساهمت الربط في نشر العلم جنبا إلى جنب مع المساجد والمدارس وبقية أماكن العلم الأخرى بسبب استقرار العلماء في الربط حيث ساعد ذلك في تحسين سمعة هذه الأماكن وربطها بحبل العلم والفقه والأدب ،لهذا لم يكن نزلاء الربط من المتصوفة والمنقطعين فقط، بل كان إلى جانبهم علماء وفقهاء وأدباء، وكان عدد من هؤلاء العلماء يمارسون التدريس، وكان بعضهم يتنقل من رباط إلى آخر مثل الفقيه الحنفي أبي نصر الفرغاني الّذي أقام مدة برباط الزوزني، وانتقل إلى رباط العميد، وكذلك الحال مع المحدث محمد بن محمد العبّاس الّذي انقطع في رباط أبي سعيد الصوفي ثمّ انتقل إلى الحريم الطاهري، والسبب في ذلك يعود إلى حدوث منافسة بين العلماء المقيمين في الربط، أو إلى توفر الرعاية والخدمات بصورة أفضل ممّا هي عليها، ولاسيّما المكتبات وأجواء الهدوء وقلة الازدحام بين ربط وآخر[3].

واحتوت كثير من الأربطة على خزانات كتب ما جعل البعض يقول بأنّ الأربطة كانت مكملة لعمل المدارس من خلال الاتصال بالعامة وتعليمهم أمور دينهم، ولا يستبعد لجوء بعض الساسة والإداريين المتقاعدين إلى الأربطة للإقامة فيها، وكان العلماء الساكنين في

---

[1]- رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف ، ص70.

[2]- نفسه، ص71 .

[3]- نفسه، ص72.

الأربطة يمارسون مهنا مختلفة ويعيشون على إيرادها زهدا في الدنيا وتعففا عمّا في أيدي أبنائها وتعففا أيضا عن خدمات الرباط الغذائية[1].

وقد كانت هناك بعض المناسبات الاحتفالية الّتي تصفي جوا من البهجة والسرور على حياة نزلاء الربط، حيث كان الصوفية يحتفلون بوفاة شيوخهم بعمل عرس يحضره العلماء ومشايخ الربط وأرباب الدولة، ويقدّم فيه المأكل والمشرب والحلوى، كما حدث عند وفاة أبو الوفاء الفيروزآبادي أحد صوفية رباط الزوزني المشهورين حيث أنفق على الدعوة مال عظيم، وأقيم الاحتفال ما بين الرباط وجامع المنصور الّذي يقع مقابله، كما أنّ زيارة بعض الخلفاء للربط اعتبرت مناسبة احتفالية حيث يكرم أهل الربط بهذه الزيارة، كما أنّ الزوّار المهمّين لعاصمة الخلافة بغداد كانوا يقومون أحيانا بزيارة هذه الربط[2].

رابعا- البيمارستانات:

اهتم الإسلام بصحة الإنسان، كما اهتم بعقيدته إذ لا قيمة فعلية للإنسان لأداء واجب الخلافة في الأرض إلّا من خلال تمتعه بصحة جيّدة تمكنه من أداء مهامه التعبدية وواجباته تجاه نفسه وأهله وأمته، وهكذا شهدت الحضارة العربية الإسلامية إبداعا كبيرا في تقديم الخدمة الطبية للمرضى بغض النظر عن موقعهم الاجتماعي وإمكاناتهم المادية.

وقد ذكّرنا القرآن الكريم والسنة النبوية بنعمة العافية والصحة وضرورة المحافظة عليها حيث **قال تعالى**[3]: **﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾**، وقوله **صلّى الله عليه وسلم: «من أصبح منكم آمنا في سربه، معافا في بدنه، عنده قوت يومه فكأنّما حيزت له الدنيا بحذافيرها»**[4].

وقد اهتدى المسلمون إلى إنشاء البيمارستان كمؤسسة صحية تمريضية منذ عهد مبكر من تاريخ الحضارة الإسلامية، ففي العصر الجاهلي لم يكن للعرب أماكن مخصّصة لمعالجة المرضى، إلّا أنّهم كانوا على دراية ببعض المعارف الطبية الّتي اهتدوا إليها عن

---

[1]- رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف ، ص73.

[2]- نفسه، ص75 .

[3]- سورة الإسراء، آية 82 .

[4]- البخاري، صحيح الأدب المفرد، تح محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1375هـ، ص65.

طريق التجربة، أو اكتسبوها من خلال اتصالاتهم بالأمم الأخرى وقد برز بعض الأطباء من الّذين اشتغلوا بالطب مثل الحارث بن كلدة الذي عاصر الرسول –صلى الله عليه وسلم–[1] .

وأباح الإسلام الطب الطبيعي حيث قضى على الكهانة والدجل، كما حرّم المداواة بالسحر والشعوذة، وقد سمح النّبي صلّى الله عليه وسلم بالعلاج عند الأطباء ولو غير المسلمين، فلمّا مرض سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه– في حجّة الوداع عاده النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: «إني لأرجو أن يشفيك الله حتّى يضر بك وينتفع آخرون» ثمّ قال للحارث بن كلدة الثقفي «عالج سعدا ممّا به»، رغم أنّ الحارث بن كلدة على غير الإسلام، وكان طبيب العرب في زمانه من ثقيف من أهل الطائف[2].

ولمّا مرض سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم الخندق أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن تنصّب له خيمة في المسجد حتّى يتمكن من زيارته، وكانت الخيمة لامرأة متميّزة بالجراحة، يقال لها رفيدة، وكانت امرأة صالحة تقوم على مداواة الجرحى، وقد حبست نفسها على خدمة من كان مريضا من المسلمين، وكانت تساعدها أختها كعبة بنت سعيد الأسلمية، فكانت تلك الخيمة النواة الأولى للمارستانات في تاريخ الحضارة الإسلامية[3].

أطلق مصطلح البيمارستان والمارستان على المستشفى بصورة عامة في التاريخ الإسلامي، ولاسيّما في المشرق مع استثناءات يسيرة، والبيمارستان بفتح الراء وسكون السين لفظة فارسية مركبة من كلمتين(بيمار وستان)، بيمار وتعني المريض أو العليل أو المصاب، و(ستان) وتعني مكان أو دار أو موضع، ومن ثمّ يكون معنى البيمارستان موضع المرضى أو دار المرضى، واختصرت لفظة البيمارستان في الاستعمال فيما بعد فصارت مارستان[4].

وكانت البيمارستانات بمثابة معاهد طبية يدرس فيها الطب، فكان في كل بيمارستان إيوان كبير بمثابة قاعة محاضرات يجلس فيه كبير الأطباء ومعه الأطباء والطلّاب، وبجانبهم الآلات والمصنّفات الطبية، فتدور بينهم المناقشات حول مختلف المسائل الطبية، والإطلاع على مختلف الكتب الّتي صنفت في هذا الفن، إلى جانب ذلك يقومون بالزيارات

---

[1]– ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص421. أولاد ضياف رابح، الجراية، ص211.

[2]– ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص30.

[3]– أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص9.

[4]– ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص47.

الميدانية لإجراء الفحوص التجريبية، وهي بمثابة الدروس التطبيقية الّتي يقوم بها الطلبة على المرضى[1].

وفي عهد الخلفاء الراشدين استمر الطب على حالته البدائية البسيطة، حيث لم يحدث فيه تطور طبي كبير، ولم تنشأ فيه البيمارستانات بعد، كما أنّ العرب المسلمين في هذه الفترة لم يختلطوا بعد مع غيرهم من الأمم الأخرى إلّا بعد انطلاق حركة الفتوح الإسلامية في الشرق والغرب، ولم يكن يعرف في تلك المدة سوى البيمارستان الفارسي في مدينة جند يسابور، لذلك ظل الطب في هذه الفترة بملامحه البسيطة يعتمد على الأعشاب والنباتات الطبية وعلى الكي والحجامة أحيانا أخرى إلى مطلع العصر الأموي، وقد عرف في هذه الفترة مجموعة من أساتذة الطب أمثال جورجيوس بن جبرائيل البختيشوعي، وابنه بختيشوع وعيسى بن شهلاثا، وسابور بن سهل[2].

وفي العصر الأموي اعتمد المسلمون على الأطبّاء الأعاجم وغير المسلمين وكان أغلبهم من النصارى الّذين تلقوا فنون الطب في مدارس الرها[3] ورأس العين[4] ونصيبين وأنطاكية وجند يسابور والإسكندرية وحران، وقد اندمجوا داخل المجتمع الإسلامي ممّا جعلهم ينقلون معارفهم الطبية وخلاصة الأبحاث الطبية اليونانية والسريانية والهندية والفارسية الّتي كانت من الأسس الّتي إنبنى عليها الطب الإسلامي[5].

كما شهد هذا العصر تطورا قليلا في الطب، ويقال أنّها بدأت في العصر الأموي عندما تم حصار ابن الزبير في مكة، فضرب لها فسطاطا من ناحية المسجد لمعالجة الجرحى من أصحابه، ويعرف هذا الفسطاط عند العرب بالبيمارستان العربي، ويعتبر معاوية بن أبي سفيان من أوائل من أنشأ البيمارستان الإسلامي بشكله المنظم في دمشق عام 60هـ

---

[1]- مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ص223-224.

[2]- القفطي، أخبار العلماء، ص163. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص30-31.عامر النجار، في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، دار الهداية، القاهرة، 1406هـ/1986م، ص45 .

[3]- الرها: مدينة بالجزيرة تقع بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص106.

[4]- رأس العين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة تقع بين حران ونصيبين ودنسير، بينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخا. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص14

[5]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص171.أسماء يوسف أحمد آل ذياب، الرعاية الصحية والطبية في القرن الأول الهجري(1-101هـ/622-719م)، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 1431هـ/2010م، ص156.أولاد ضياف رابح، الجراية، ص213.

تحت المئذنة الغربية من الجامع الأموي، كما كان لمعاوية طبيبان نصرانيان دمشقيان وهما ابن آثال[1]، وعرف عنه أنّه كان طبيبا ماهرا متمكنا من علمه في الطب، ما دفع معاوية بن أبي سفيان إلى تشجيعه على ترجمة بعض الكتب اليونانية إلى العربية، فكان له الفضل في نقل بعض معارف الطب إلى العربية، والآخر هو أبو الحكم الدمشقي[2]، فكان طبيبه الخاص، ويعتمد عليه في معالجة أهل بيته، وقد ترك ذرية من الأطباء المعروفين في العصر الأموي[3].

كما أولى معاوية بن أبي سفيان اهتماما بالبيمارستانات المتنقلة لتقديم الخدمات الطبية للحجيج، وعيّن لهم الأطباء، وأمّا الخليفة مروان بن الحكم فقد كان من الخلفاء الّذين اهتموا بالطب فقد ترجم له طبيبه الخاص ماسرويه كتابا طبيا للقس السكندري أهرن المعروف بالكناش[4].

وقد عرف العرب في العصر الأموي مدرسة الإسكندرية القديمة، حيث عرفوا المؤلفات اليونانية في الطب، ونقلوها إلى السريانية ثمّ إلى العربية، ويقال أنّ أول من قام بترجمتها في الإسلام هو خالد بن يزيد - ت85هـ- [5]، وكان من بين الأطباء المشهورين «تياذوق» (ت90هـ الّذي عاصر أول عهد دولة بني أمية، وكان تياذوق من خدّام الحجّاج بن يوسف الثقفي، فقد خصّه بمعالجة أمراضه حيث كان طبيبا ماهرا له نوادر وألفاظ مستحسنة في

---

[1]- ابن أثال: من أشهر أطباء دمشق النصارى المقربين للخليفة معاوية بن أبي سفيان حيث اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، عرف ببراعته بالطب والصيدلة فقد كان خبيرا بالأدوية المركبة والمفردة وعلم السموم. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص401 .أسماء يوسف أحمد آل ذياب، الرعاية الصحية، ص192.

[2]- أبو الحكم الدمشقي: كان طبيبا نصرانيا عالما بأنواع العلاج والأدوية، وله أعمال مذكورة ووصفات مشهورة، وكان يستطبه معاوية بن أبي سفيان ويعتمد عليه في تركيبات الأدوية لأغراض قصدها منه، وقد عمّر أبو الحكم هذا طويلا حتّى تجاوز المائة سنة. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص28.

[3]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص171.أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص205 .

[4]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص431.أولاد ضياف رابح، الجراية، ص214.

[5]- خالد بن يزيد: هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان القرشي الأموي الدمشقي، يكنى بأبي هاشم من الطبقة الثالثة من تابعي الشام، وصف بشغفه للعلم والشعر، وكان فاضلا في نفسه ، وكان أول من ترجم كتب اليونان إلى العربية، قدم مصر مع مروان بن الحكم الّذي تزوج أمه، توفي سنة 90هـ، وقد ذكر النديم أنّ خالدا بن يزيد بن معاوية كان يسمى حكيم آل مروان. الفهرست، ص338.

الطب، كما اعتمد عليه عبد الملك بن مروان في علاجه عند المرض، وكان يجري عليه الأموال الوافرة[1].

وفي عهد الوليد بن عبد الملك تمّ إنشاء أوّل مارستان فعلي ثابت سنة 88هـ يقدم الخدمات الطبية المجانية لعامة النّاس، وقد أسكن به العميان، وحبس المجذومين، وأمر النّاس بعدم مخالطتهم حتّى لا تنتشر العدوى بينهم، وأجرى عليهم الأرزاق، وقد حرص الوليد بن عبد الملك على تزويد هذه البيمارستانات بالأطباء المتخصصين في علاج المجذومين، ويعتبر أول من أجرى الرواتب على العميان وأصحاب العاهات حيث جعل لكل مقعد خادما ولكل ضرير قائدا، ويقال بأنّ هذا البيمارستان شيّد على غرار بيمارستان جند يسابور الفارسي[2].

وبالرغم من أنّ المؤرخين الأوائل أشاروا إلى الخدمات الّتي أوجدها الوليد لذوي الأمراض المزمنة، إلّا أنه لم يصل إلينا شيء عن طبيعة هذه الخدمات حالها حال كثير من الإنجازات الّتي حققتها الدولة الإسلامية في العصر الأموي[3].

وتمّ إنشاء ملجأ للفقراء، مزوّدا بالزيت والطحين والعجين في خلافة عمر بن عبد العزيز، واعتبر هذا الملجأ بمثابة مارستان لوجود الأدوية به، وبعض حاجيات المرضى ومستلزماتهم، وقد ترجم كتاب الطبيب أهرن بن أعين القس إلى العربية بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز للاستفادة منه في هذا المجال[4].

واهتمت الدولة الأموية بتوفير الرعاية الصحية والطبية لرعاياها، فقد أمرت بتوفير بيمارستانات متنقلة ترافق المواكب المتجهة إلى بيت الله الحرام، كما كان الخلفاء الأمويين يحرصون على صحبة الأطباء معهم أثناء أدائهم لفريضة الحج[5].

---

[1]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص410-411.عامر النجار، في تاريخ الطب ، ص45.

[2]- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص437.جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج3، ص208 .

[3]- رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف، ص188.

[4]- أسماء يوسف أحمد آل ذياب، الرعاية الصحية، ص160.مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية حتّى نهاية الخلافة العبّاسية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2009، ص17.

[5]- أسماء يوسف أحمد آل ذياب، الرعاية الصحية، ص168. ومثال ذلك عندما خرج يزيد بن معاوية على رأس قافلة الحج سنة 50هـ كلف معاوية الطبيب أبو الحكم الدمشقي بمرافقة يزيد أثناء زيارته للحرمين الشريفين. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص175.

إلّا أنّ كل هذه المرافق الصحية كانت بسيطة، ثمّ توسعت وأضيفت لها بعض مستلزمات خدمات التّمريض حتّى أصبحت فيما بعد تتوفر بها كل التّسهيلات الّتي يريدها المريض من علاج وطعام وشراب وثياب، وقد شارك في بنائها أهل البر والإحسان لأنّها كانت مظهرا من مظاهر أعمال الخير[1].

وفي العصر العبّاسي شهدت البيمارستانات تطورا كبيرا، وذلك لاهتمامهم بالعلوم الطبية والرعاية الصحية وتشجيعهم للأطباء، وأصبحت مهنة الطب مهنة مرموقة لا يعبث بها المحتالون والسحرة، لهذا تنافس الخلفاء والسلاطين والأمراء والنساء والميسورين على تشييد البيمارستانات وأوقفوا لها الأوقاف الكثيرة، وهذا أول تطور يدخل على البيمارستانات، فساهم ذلك في تطور الخدمات الصحية بالبيمارستانات، وتنظيم العمل بها، حيث قسّمت إلى أقسام خاصة وعامة حتّى تستفيد منها جميع فئات المجتمع على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية[2].

ومن الخلفاء العبّاسيين الّذين اهتموا بإنشاء البيمارستانات الخليفة أبو جعفر المنصور الّذي أنشأ دارا للعجزة والأيتام وجعل مكانا فيها لمعالجة المجانين، ويعد أوّل من استقدم الأطباء من جند يسابور، فاستقدم الطبيب الفارسي المشهور جورجيوس، وهناك من الباحثين من يرى أنّ هذه الدار الّتي بناها المنصور إنّما هي مارستان وهي أول مارستان عبّاسي، وقيل أنّه لمّا شيّد المنصور هذا البيمارستان قال في حفل افتتاحه "إنّي أكرس هذا المارستان للرفيع والوضيع، وأقف هذا الوقف لمنفعة الملك والمملوك، وللجندي والأمير، وللعظيم والحقير، وللرجال والنساء[3].

كما رتّب الخليفة العبّاسي المهدي المخصّصات للمجذومين والمسجونين حيث أمر بتقديم رواتب للمجذومين في جميع أقاليم الدولة الإسلامية، إلّا أنّ الفضل في تأسيس مارستان بكامل تجهيزاته المعروفة في ذلك العصر يرجع إلى هارون الرشيد حيث أقام بيمارستانا كبيرا في بغداد، ودعا لرئاسته من مدرسة جند يسابور الطبيب ماسويه الخوزي، وتولى الطبيب الشهير «جبرائيل بن بختيشوع» أمر المرضى فيه، فأصبح ذلك البيمارستان محور النشاط الطبي في الإسلام، ومركزا لتقدم الطب الإسلامي، وقد كان لهذا المارستان

---

[1]- أولاد ضياف رابح، الجراية، ص216.

[2]- مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية، ص17.

[3]- القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص46.مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية، ص17-18.

وظيفتان مزدوجتان أوّلهما علاج المرضى، والثانية تعليم الطلبة الراغبين في مهنة الطب والعلوم الطبية، وبني مارستانا آخر في بغداد تحت رعاية البرامكة، وكان الطبيب الهندي ابن دهني طبيبا ورئيسا له[1].

وقد أخذت المدن الأخرى في تقليد مارستان بغداد، حيث أنشأ الفتح بن خاقان وزير المتوكل مارستانا في مصر عرف بمارستان المعافر، ولمّا تولى ابن طولون مصر أنشأ بها سنة 259هـ مارستانا عرف بمارستان ابن طولون، وأنفق على بنائه 60.000 دينارا، وحبس عليه سوق الرقيق، وشرط ألّا يعالج فيه جندي ولا مملوك إلّا المرضى من العامة والمجانين وغيرهم، وكان أوّل مارستان بمصر، وألحق به حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء وحبس عليه عوائد مالية تضمن بقاءه، وكان يتعهده بنفسه كل يوم جمعة حتّى ساءه أحد المجانين فقطع زيارته[2].

وفي عهد الخليفة المعتصم أنشأ مارستانا في بغداد أشرف عليه بنفسه، وقد أوكل أمر بنائه للطبيب أبي بكر الرازي، وكان ينفق عليه كل يوم عشرة دنانير شهريا فيما يخص نفقات الأطباء والبيمارستان، ويعطي الأرزاق للأطباء والكحالين واهتم بالخدم والقومة الّذين يخدمون المجانين، كما كان يتكفل بثمن الطعام والشراب والخبّازين والبوّابين، ومن يتكفل بالمؤن وكان يعرف هذا البيمارستان بالصاعدي أو العتيق[3].

وقام الوزير أبو الحسن علي بن عيسى الجرّاح ببناء مستشفى في منطقة الحربية[4] في بغداد سنة 302هـ، وقد أنفق عليه من ماله وقلّده أبا عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي متطببه[5].

---

[1]- ضيف الله يحي الزهراني، النفقات، ص410.أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص178.مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية، ص18.

[2]- المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج4، ص267.

[3]- مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية، ص18.

[4]- الحربية: محلة كبيرة من محلات بغداد تقع عند باب حرب قرب مقبرة بشر الحافي وأحمد بن حنبل وغيرهما، تنسب إلى حرب بن عبد الله البلخي أحد قواد أبي جعفر المنصور، وعرفت أولا بربض حرب، وكانت حدودها الجنوبية تمتد حتى سور مدينة المنصور ذاتها، وتتصل بها مقبرة باب حرب،بينها وبين بغداد نحو ميلين. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص237.

[5]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص789.رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف، ص191.

وأنشأ بدر المعتضدي[1] مارستانا في محلة المخرم[2] ببغداد، وكان يموّله وقف لسجاح أم الخليفة المتوكل، غير أنّه لا توجد معلومات كبيرة عن هذا المارستان من حيث الخدمات الّتي كان يقدمها للمرضى[3].

وفي عهد الخليفة المقتدر ازداد الاهتمام ببناء البيمارستانات، ففي سنة 295هـ أمر بإصلاح البيمارستانات في جميع أنحاء الدولة، وتوفير ما يحتاج إليه المرضى، وأصبح إجراء امتحان الأطباء في البيمارستانات شرطا أساسيا لممارسة مهنة الطب، وذلك عندما سجّلت أخطاء طبية في التشخيص، أو وصف العلاج، فأمر المقتدر بمنع الأطباء من ممارسة مهنة الطب، حتّى يتحصل من يزاولها على إجازة بمزاولة المهنة، وكلف الطبيب سنان بن ثابت بن قرة بالإشراف على امتحان الأطباء، وإجازة من ثبت علمه ومهارته في هذه الصنعة، فأجرى سنان بن ثابت هذا الامتحان لنحو 900 طبيب في بغداد[4].

وتم افتتاح مارستان السيّدة شغب أم الخليفة المقتدر بسوق يحي[5] على نهر دجلة في أول محرم من عام 306هـ، وكان افتتاحه من قبل أبي سعيد سنان بن ثابت بن قرة، فجلس فيه ورتب به الأطباء والخدم والقومة بأمر من السيّدة شغب، وبلغت النفقة عليه كل شهر ستمائة دينار[6].

---

[1]– بدر المعتضدي: هو بدر أبو النجم، مولى المعتضد بالله، وهو بدر الحمامي، ويقال له بدر الكبير، تولى الأعمال مع ابن طولون بمصر، فلمّا قتل قدم بغداد فولّاه السلطان أعمال الحرب والمغاور بفارس وكرمان، فخرج إلى عمله وحدث عن هلال بن العلاء وغيره وأقام هناك، وطالت أيّامه حتّى توفي بشيراز سنة 311هـ ثمّ نبش وحمل إلى بغداد، وقام ولده محمد مقامه في حفظ البلاد. ابن الجوزي، المنتظم، ج13، ص228.ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص8.

[2]– المخرم: محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى وهي منسوبة إلى مخرم بن يزيد بن شريح بن مخرم بن مالك بن ربيعة بن الحارث بن كعب. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص71.

[3]– ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص221.

[4]– النويري، نهاية الأرب ،ج23، ص28.مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية، ص 19.ضيف الله يحي الزهراني، النفقات، ص411.

[5]– سوق يحي: يوجد ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ودار المملكة التي كانت عند جامع السلطان بين بساتين الزاهر على شاطئ دجلة منسوبة إلى يحي بن خالد البرمكي، وقد أقطعه له الخليفة هارون الرشيد، ثمّ صار هذا السوق بعد ذلك لأم جعفر، ثمّ أقطعه المأمون للطاهر بن الحسين أحد قواده، وقد خرّب بعد ورود السلجوقيين إلى بغداد فلم يبق منه أثر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص284.

[6]– ابن الجوزي، المنتظم، ج13، ص178.ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص216.

وفي عام 306هـ/918م أشار الطبيب سنان بن ثابت بن قرة الحراني على الخليفة العبّاسي المقتدر أن يبني مارستانا في بغداد عند باب الشام[1] ينسب إليه، فكلفه الخليفة بذلك، وقد سمي بالبيمارستان المقتدري، وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار[2].

وكان من الأطبّاء الّذين خدموا في البيمارستان المقتدري يوسف الواسطي، الّذي لازم البيمارستان، وقرأ عليه جبريل بن بختيشوع، كما عمل به أيضا جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع، وكان عالما فاضلا متقنا لصناعة الطب، وكان من أطباء المقتدر ولازم البيمارستان والعلم والدرس أقام ببغداد ثلاثين سنة، ثمّ انتقل إلى ميافارقين[3]، والتحق بممهد الدولة وتوفي يوم 8 رجب 396هـ وكان عمره 85 سنة[4].

وفي سنة 311هـ بنى الوزير علي بن الفرات قبل القبض عليه وعزله من الخليفة المقتدر مارستانا في درب المفضل[5]، وكانت نفقاته الشهرية 200 دينار، وإنّه لم يرد شيء عن أوقاف هذا المارستان[6].

وقد قلّد الوزير ابن خاقان في سنة 313هـ الطبيب أبو الحسن سنان بن ثابت بن قرة مارستان ابن الفرات، وقد كان هذا المارستان بمثابة جامعة خصصها الوزير ابن خاقان للموظفين العاملين تحت إمرته، فكان لهم الحق في التداوي فيه، ونيل مختلف أنواع العلاج بلا مقابل[7].

وفي عام 329هـ قام أمير الأمراء بجكم في عهد الخليفة المتقي (329-333هـ/ 940-944م) ببناء مستشفى في بغداد بتشجيع من الطبيب سنان بن ثابت، وأقيم هذا المارستان فوق ربوة على الشاطئ الغربي من دجلة حيث كان قصر هارون الرشيد، وقد بنى

1- باب الشام: محلة من محلات الجانب الغربي من بغداد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص308.

2- ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص807.أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص183.

3- ميّافارقين: أشهر مدينة بديار بكر على الطريق بين الموصل وآمد إلى أخلاط وملاذكرد، وكانت أول عاصمة لسيف الدولة الحمداني حتّى أخرجه منها غلمانه عام 332هـ/943م، واستمرت من أهم المراكز الحصينة حتّى ما بعد القرن السابع الهجري . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص235.ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص63.

4- أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص184.

5- درب المفضل: وهي محلة تقع شرقي بغداد نسبة إلى مولى الخليفة المهدي المفضل بن زمام. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص448.

6- أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص184.

7- ضيف الله يحي الزهراني، النفقات، ص411. أولاد ضياف رابح، الجراية، ص244.

هذا الأمير المارستان احتسابا للأجر من الله تعالى، لما عرف عن هذا الأمير من الصلاح وحب الخير وعطفا على الضعفاء والمساكين حيث أجرى عليه أموالا عظيمة، واستمر هذا المارستان زمنا طويلا، ثمّ جدّده عضد الدولة البويهي سنة 368هـ، وأعيد فتحه سنة 371هـ، وزوّده بالأطباء والخزان والحرس والوكلاء[1].

وفي سنة 355هـ أنشأ السلطان معز الدولة بن بويه في بغداد أول مستشفى أشير إلى أوقاف أوقفت عليه في عهد السيطرة البويهية، وقد بني في موضع السجن الجديد ببغداد، وكان من ضمن أوقافه مستغلات في منطقة الرصافة، وضياع في منطقة كلواذي[2] وقطربل، وجرجرايا[3] بلغت وارداتها خمسة آلاف دينار، فضلا عن بناء قناطر على الخندق في الياسرية[4] والزياتين ببغداد أوقف ريعها على المستشفى، وقد مات قبل أن يتم بناءه[5].

وفي صفر من سنة 372هـ افتتح **البيمارستان العضدي** الّذي أنشأه عضد الدولة بن بويه في الجانب الغربي من بغداد، ويعد بحق أشهر وأكبر مستشفى في بغداد، استمر في آداء خدماته الطبية قرونا، على الرغم من تقلّب الأوضاع السياسية والاقتصادية، والسبب في ذلك يعود إلى الأوقاف السخية الّتي كانت تموله، وقد رتّب فيه الأطباء والخدم والوكلاء والخزّان، ونقل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير شيء كثير وكل ما يحتاج إليه، وغرم عليه مالا عظيما حتّى قيل أنّه ليس له مثيل في الدنيا، وأعد له من الآلات الشيء الكثير[6].

ويقع هذا المستشفى بين محلة الشارع ومحلة باب البصرة، وهو من أكبر البيمارستانات ولشهرته سميّت المنطقة الّتي يقع فيها فيما بعد باسمه فأصبحت تسمى سوق المارستان[7]، ولم يصل إلينا شيء عن طبيعة بنائه وعمارته سوى أنّه يتكون من مجموعة من البنايات[8].

---

[1]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص234.مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية، ص37.

[2]- كلواذي: كورة من الكور قرب بغداد ناحية الجانب الشرقي منها، وناحية الجانب الغربي من نهر بوق بينها وبين بغداد فرسخ واحد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص477.

[3]- جرجرايا: بلد من أعمال النهروان الأسفل بين بغداد من الجانب الشرقي وواسط، وقد كانت مدينة وخربت مع ما خرب من النهروانات. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص113.

[4]- الياسرية: قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى بينها وبين بغداد ميلان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص425.

[5]- رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف، ص192.

[6]- ابن كثير، البداية والنهاية، ج 15، ص410، أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص189 .

[7]- يشير أحمد سوسة إلى أنّ موقعه كان في موضع قصر الخلد أو قريبا منه. فيضانات بغداد في التاريخ، ص212.

[8]- بنيامين التطيلي، الرحلة، ص134-135. رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف، ص193.

وأمّا عن الأوقاف الّتي كانت تموله فقد أشارت بعض المصادر إلى قسم منها، وليس إلى جميعها من ذلك قرية تعرف بواسط تقع على نهر الملك وتبعد عن بغداد أربعة فراسخ، ومن أوقافه كذلك قرية أخرى من نواحي نهر الملك من أعمال بغداد، وأشير كذلك إلى سوق وقفي من مائة دكان ضمن أوقافه[1].

وقد أوقف على هذا المارستان شباشي الحاجب– ت 408هـ –[2]، وقد قال ابن كثير عن أوقافه «وقف دباها[3] على المارستان، وكانت تغل شيئا كثيرا من الزروع والثمار والخراج»[4].

كما ذكر أيضا إلى شراء أوقاف جديدة له في أثناء تولي الشيخ السوسنجردي أمر الإشراف عليه، فضلا عن المساعدات التي كان يتلقاها أحيانا من أهل الخير تشتمل على الأدوية، وقد زوّده عضد الدولة من الآلات الشيء الكثير، وكان أوّل من تولى رئاسة هذا المستشفى الطبيب المشهور محمد بن زكريا الرازي[5].

وذكر ابن أبي أصيبعة[6] أنّ بالبيمارستان أطبّاء ذوي اختصاصات مختلفة من جرّاحين وكحالين ومجبرين، فضلا عن تدريس أطبائه الطلبة علم الطب، وقد بلغ عدد أطبائه عند افتتاحه أربعة وعشرين برئاسة محمد بن زكريا الرازي.

---

[1]– ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج2، ص512.رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف، ص194

[2]– شباشي الحاجب: هو أبو طاهر المشطب مولى شرف الدولة أبى الفوارس بن عضد الدولة، وقد لقبه بهاء الدولة بالسعيد، وكان كثير الصدقة، كما كان يكسو اليتامى والضعفاء، وهو الّذي بنى قنطرة ووقف جبايتها على المارستان العضدي سنة 408هـ. ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص126–127. ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص575.

[3]– دباها: قرية من نواحي بغداد من طسوج نهر الملك. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص437.

[4]– البداية والنهاية، ج15، ص126.

[5]– رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف، ص194. ونشير هنا أن الدولة كانت حريصة بصورة عامة على تعيين النزهاء في إدارة المستشفى من أمثال السوسنجردي، وكان من الّذين تولوا نظارته خارج فترة البحث أحمد أبي المعالي الغزال– ت534هـ– الّذي امتاز بسيرته العطرة ،وعبد السلام بن عبد القادر الكيلاني الّذي تولى نظارته سنة 598هـ، وأشار الذهبي إلى وفاة ناظر آخر هو عبد المنعم الاسكندراني سنة 603هـ الّذي سبق أن كان شيخا لرباط العميد ببغداد، وعبد الرزاق بن أحمد شيخ الشيوخ ببغداد الّذي تولى نظارته سنة 608هـ. المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد ابن الدبيثي، تح مصطفى جواد،مطبعة الزمان، بغداد، (د ت)، م2، ص145.

[6]– عيون الأنباء، ج1، ص244.أشار بنيامين التطيلي إلى أنّه وجد عند زيارته بغداد أن عدد أطبائه هو ستون طبيبا، وهو رقم كبير بالنسبة لذلك العصر وإمكاناته، ويشير في الوقت نفسه إلى قابليته الكبيرة في استقبال المرضى. الرحلة، ص134.

وفي سنة 449هـ حلّ التلف بمرافق البيمارستان العضدي،فنظر عميد الملك في البيمارستان فوجده قد خلا من الدواء والشراب،وأتلفت الأفرشة والمرضى يفترشون الأرض،فوجد عند رأس المريض بصلة يشمّها،وعطش بعضهم فقام بنفسه حيث الماء فوجد فيه حمأة ودودا،وذكر أنّ يهوديا يعرف بالهاروني قد استولى على البيمارستان،وأكل أوقافه،فخلص عميد الدولة البيمارستان من أيدي الطامعين،وكان على بابه سوق فيها مائة دكان قد دثرت فأعادها،وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير الّتي يعز وجودها شيئا كثيرا،وأقام الفرش واللحف للمرضى، والأرابيح الطبية والأسرّة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين[1].

وقد اعتنى الخليفة القائم بأمر الله (422-467هـ/1030-1074م) بهذا المستشفى حيث جدده وقدم له الخدمات الجليلة وأوقف له مختلف الأشربة والأدوية والعقاقير التي يحتاجها المستشفى،كما جدد له الفرش ووفر له اللحف والأسرة للمرضى،كما أحضر له العطور الطبية وأمر بتوفير الثلج فيه لاستعماله في الأغراض العلاجية،كما بنى فيه حماما لنظافة المرضى وجعل للمستشفى بوابين خاصين له،وعمل فيه بستانا حوى أنواعا مختلفة من الثمار والبقول وجعلها وقفا على المستشفى،كما هيأ عددا من السفن جعلها راسية على ضفاف نهر دجلة لنقل الضعفاء والفقراء الوافدين إلى المستشفى[2].

ومن المستشفيات الوقفية في العراق أيضا مستشفى واسط أو المسمّى المستشفى المؤيدي الّذي أوقفه مؤيد الدولة أبو علي الحسن بن الحسين الرخمي البويهي[3] وزير شرف الدولة بن بهاء الدولة مدبر دولة الخليفة القادر سنة 413هـ إذ أوقف عليه وقوفا كثيرة، فضلا عن أموال تنقل من بيت المال، وعيّن له ملاكا من الأطباء والإداريين، فضلا عن الأدوية المتنوعة التي أكثر منها، والأشربة والعقاقير ورتب له الخزان والأطباء وغير ذلك ممّا يحتاج إليه[4].

---

[1]- أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص189 .

[2]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص244. فوزي أمين يحي الطائي، الخدمات الوقفية، ص115.

[3]- مؤيد الدولة أبو علي الحسن بن الحسين الرخمي البويهي: هو أبو علي مؤيد الملك الحسن بن الحسين الرخمي، وزر لشرف الدولة بن علي بن بهاء الدولة أحد ملوك بني بويه لمدة سنتين ثمّ عزل، وكان عظيم الجاه في زمانه، توفي سنة 430هـ، وقد قارب الثمانين . ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص269. ابن كثير، البداية والنهاية، ج15، ص675 .

[4]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص138.

وقد نشأت المدارس الطبية، وظهر التخصص في فروع الطب وعلومه بسبب انتشار البيمارستانات في مختلف أمصار البلاد الإسلامية لاسيّما في عاصمة الخلافة بغداد، حيث أصبح البيمارستان الواحد يوجد به الجرائحية والكحالة والطبائعيون والمجبرون والنفسانيون وغيرها من التخصصات الطبية[1].

وقد عرفت الدولة الإسلامية أنواعا من البيمارستانات: منها **البيمارستانات الثابتة** والّتي كان بناؤها ثابتا في مكان خاص، وكان هذا النوع موجود في معظم الدول الإسلامية، وهي تنقسم بشكل عام إلى قسمين: قسم للذكور وقسم للإناث، وكان كل قسم مجهز بما يحتاجه من آلات ومعدات طبية وعدد كبير من الخدم[2].

وكان لهذه البيمارستانات أطباء مختصون ونظار، كما كان في البيمارستان طريقان للعلاج: علاج خارجي أي أنّ المريض يتناول الدواء من البيمارستان ثمّ ينصرف ليتعاطاه في منزله، وعلاج داخلي عندما يقيم المريض في البيمارستان داخل القسم المخصص له فيعطى العلاج اللازم، وكان بكل قسم من تلك القاعات أطباء حسب حاجة وعدد المرضى، وقد اهتم العباسيون بهذا النوع من البيمارستان اهتماما كبيرا[3].

أمّا النوع الثاني: وهي **البيمارستانات المتنقلة (المحمولة)**: وقد ظهرت منذ العصر العبّاسي، وأنشئت خصيصا بهدف الوصول بالخدمات الطبية إلى المناطق البعيدة ولمواجهة انتشار الأمراض والأوبئة في عهد الخليفة المقتدر بالله عام (295-320هـ/907-932م)، وقد كانت هذه البيمارستانات مجهزة بالعلاج والأدوات الصحية والجراحية والملابس والأطباء[4].

وبفعل التطور الّذي شهدته البيمارستانات في العصر العبّاسي أصبح المريض يعرض نفسه على الأطباء فتشخص حالته المرضية ثمّ يوجه إلى القسم المختص، وهي بمثابة الإسعافات الأولية الّتي تقدم للمريض قبل العلاج، وتطورت الخدمات الطبية بالبيمارستانات فقد عرفت صناعة الأدوية، كما ظهرت صيدليات لصرف الأدوية وحفظها وتخزينها، كما

1- أولاد ضياف رابح، الجراية، ص223.

2- المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص406.

3- أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص31-32.مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات، ص50

4- القفطي، أخبار العلماء، ص132. ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء، ج1، ص221. أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص11.

تضمنت البيمارستانات قاعات كبيرة لتدريس الطب، وعرفت الجراحة بالبيمارستان وسائل التخدير المفقدة للحواس والمسكنة للآلام قبل إجراء العمليات الجراحية[1]، كاستعمال عشب الزوان[2] والبنج[3].

أصبحت البيمارستانات الإسلامية تخضع لنظام الحسبة والقضاء ومتابعة المقصرين وغير الأكفاء الّذين يمارسون الطب، ومراقبة الأخطاء الطبية، فكان الطبيب إذا دخل على المريض وشخص مرضه يسأله عمّا يجد من الألم، ثمّ يرتب له وصفة من الأشربة والعقاقير، ثمّ يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض، ثمّ يأتي المريض في يوم الغد فينظر الطبيب إلى مرضه وإلى الدواء ويسأله عن مدى تحسنه أو سوء حالته بسبب تناوله للدواء، فيثبت الحالة بالكتابة ويسلمها إلى أهله، فإن كان يوم الغد فعل كذلك، وفي اليوم الرابع إلى أن يبرأ المريض أو يموت، فإن برىء المريض من مرضه أخذ الطبيب أجرته، وإن مات حضر أولياؤه عند الطبيب المشهور وعرضوا عليه النسخ الّتي كتبها لهم الطبيب المعالج، قال هذا قضاء وقدر، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك، قال لهم خذوا دية صاحبكم من الطبيب المعالج، فإنّه هو الّذي قتله بسوء صناعته وتفريطه[4].

وكان للمحتسب الحق في أن يدخل البيمارستان للوقوف على جميع أحواله وعلى حال المرضى ويعلم الخليفة بكل أمر، وكان المحتسب يأخذ على الأطباء عهد أبقراط[5] الّذي أخذه على سائر الأطباء، ويحلفهم أن لا يعطوا أحدا دواء مضرا، ولا يذكروا للنساء الدواء الّذي

---

[1]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص309.

[2]- الزوان: نبات مسكر ومسكن للآلام، ويعرف كذلك بالدمثة والشيلم. ابن البيطار، الجامع ، ج2،ص174.

[3]- البنج : نوع من الأعشاب تستعمل للراحة والاسترخاء والتخذير. ابن البيطار، الجامع ، ج1، ص117.

[4]- ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، دار الفنون كمبرج، 1937 ، ص178.

[5]- أبقراط: هو بقراط بن ايراقلس الطبيب المشهور، ولد في بلاد اليونان سنة 460 ق م، سيّد الأطباء في عصره، وكان مسكنه بمدينة فيروها وهي مدينة حمص من بلاد الشام، وكان يتوجه إلى دمشق ويقيم فيها أحيانا للرياضة والتعليم والتعلم، وفي بساتينها موضع يعرف باسم صفة أبقراط إلى الآن، وكان معاصرا لزمن أردشير أحد ملوك الفرس حيث يذكر أن أردشير دعاه لعلاجه فأبى، وقد تعلم مهنة صناعة الطب من أبيه إيراقليدس ومع جده أبقراط اللذان علماه أصول الصنعة وأسرارها، ويعد أبقراط من أعظم أطباء العالم في كل زمان ومكان لأنّه أول من أنشأ المستشفيات وأول من وضع قواعد وأصول صحية وغذائية فهو يعتبر بحق بأبي الطب، وقد ترك وصية عن الشروط الّتي يجب أن تتوفر فيمن يتعلم صناعة الطب. القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص64 .ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ، ج1، ص24.

يسقط الجنين، ولا للرجال الّذي يقطع النسل، وليغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم إلى المرضى، ولا يفشوا الأسرار، ولا يهتكوا الأستار، وأمّا الكحالين فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين المتضمن لعشر مقالات في العين، فمن وجده قيما فيما امتحنه به عارفا بتشريح طبقات العين، وعدد رطوبتها الثلاثة، وما يتفرع عن ذلك من الأمراض، وكان خبيرا بتركيب الأكحال، وأمزجة العقاقير وغيرها من الشروط الّتي يجب مراعاتها لممارسة طب العيون، أذن له المحتسب بالتصدي لمداواة أعين النّاس[1].

ومن المظاهر الحضارية الّتي تميّزت بها البيمارستانات في هذا العصر وجود الناقلات الّتي يحمل عليها المرضى العاجزين عن المشي بسبب سوء حالتهم المرضية أو من بترت أطرافهم أو الحالات الاستعجالية، أو نقل المرضى من بيوتهم إلى البيمارستان، كما وجدت بها ساعات كبيرة عند مدخل البيمارستان حتّى يتم ضبط الأوقاف للأطباء والمرضى، كما كان يؤتى بالقصاصين إلى البيمارستانات للترفيه عن المرضى، كما كان يوقف للمرضى مراوح من خوص لاستعمالها في أيّام الحر الشديد[2].

وكان يتردد على البيمارستانات كبار العلماء من الفقهاء والأدباء والنحاة والشعراء والمتكلمون والأصوليون والمحدثون والمؤرخون واللغويون وعلماء الفلك والمفسرون والرياضيون، ما جعل البيمارستانات تكون مجمع للعلوم والعلماء، وقد كان لأولئك العلماء دور بارز في تمويل البيمارستانات ماليا من خلال الأوقاف الّتي جعلوها للمارستانات[3].

وقد لعبت الأوقاف دورا بارزا في تقديم الرعاية الصحية ومساعدة المرضى من الفقراء والمحتاجين، فكان المريض يلقى العناية الفائقة في البيمارستان من الثياب الجديدة النظيفة، ومن الأغذية المتنوعة، والأدوية اللازمة، وبعد شفاء المريض كان يعطى نفقة سفره ليستطيع العودة إلى بلده[4].

اهتمت الدولة العباسية بالأوقاف الصحية منذ فترة مبكرة، فقد انتشرت البيمارستانات الموقوفة في عهد الخلافة العباسية انتشارا واسعا، حيث استقدم الخلفاء كبار الأطباء للعمل

---

[1]- ابن الأخوة، معالم القربة، ص179-180.

[2]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص21. أولاد ضياف رابح، الجراية، ص226.

[3]- مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية، ص27.

[4]- نفسه، ص105.

في هذه البيمارستانات، وقد اهتمت الدولة بشراء كتب كبار علماء الطب ووقفها في البيمارستانات العامة، ليستفيد منها صغار الأطباء في وصف الأدوية الناجعة، مثل ما أوقفته الدولة من كتب عالم الطب الشهير سابور بن سهل - ت255هـ- صاحب بيمارستان جند يسابور، ومن أشهر كتبه الموقوفة كتاب الأقراباذين الّذي وجد في كثير من المستشفيات العامة بما فيها بيمارستان بغداد[1].

وكانت مهمّة القائم على البيمارستانات رعاية شؤون المرضى على كافة مستوياتها العلاجية والنفسية والبيئية، وتوفير المسكن اللائق، والمأكل الجيّد، والعناية بأحوال الطقس، إلّا أنّ الأموال الموقوفة كانت تحت تصرف نظّار مسؤولين، وقد كان صاحب البيمارستانات يستحث هؤلاء النظّار بإرسال المال الكافي لرعاية المرضى ومباشرة شؤونهم، فإن وجد تعنتا فإنّه كان يرسل إلى الوزير مباشرة ليعلمه بالوضع القائم[2].

وممّا يدل على عظم دور البيمارستانات الموقوفة في زمن الخلافة العباسية أنّه كان يوفد أطباء متخصّصين للقيام بجولات علاج مجانية على نفقة البيمارستان في كافة الأمصار الإسلامية، وخاصة أهل السواد، فقد أشار ابن أبي أصيبعة[3] أنّ سنان بن ثابت بن قرة مدير مستشفيات بغداد جاءه توقيع (أي أمر) من أحد الولاة يطلب منه إحضار أطباء متخصصين للقيام بجولات علاجية لأهل السواد، ففعل سنان بن ثابت.

كما أنّ الجانب المعماري لهذه البيمارستانات والّذي كان غاية في دقة الإنجاز لأولئك المهندسين المسلمين، فقد كانت من مفاخر العمارة الإسلامية رونقا وجمالا، وكانت إضافة جديدة في العمارة الإسلامية حيث كانت بمثابة قصور رائقة حسنا واتساعا[4].

وكانت أحيانا البيمارستانات تقام وسط الحدائق أو يلحق بكل بيمارستان حديقة كبيرة تزرع فيها الأعشاب والنباتات الطبية والأزهار والرياحين، وظهر كذلك نظام الدوام المستمر والمتابعة الطبية في نظام عمل البيمارستان، حيث سمح للمريض بالتردد المستمر على الطبيب المعالج في أي وقت، وبهذا زادت البيمارستانات في العهد العبّاسي، وشهدت تطورا

---

[1]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج2، ص80.

[2]- نفسه، ج1، ص211. مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية، ص85.

[3]- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص211.

[4]- مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية، ص76.

عمّا كانت عليه من قبل، وقد اشتملت بغداد وحدها على ما يزيد من عشرة مارستانات، وما يقارب المائة في سائر الأمصار الإسلامية، ومن الإضافات الجديدة للمارستانات في هذا العهد أن عهد بالتمريض للعبيد[1].

خامسا- الحمامات والأسواق:

1- الحمامات:

يقصد بالحمام البيت العام الّذي يقصده العامة والخاصة للنظافة وحفظ الصحة والمداواة، وقد اشتق اسم الحمام من الاستحمام بالحميم أي بالماء الحار، أي أنّ الأصل في كلمة الاستحمام هي الاغتسال بالماء الساخن فقط، ثمّ صار الاستحمام بعد ذلك الاغتسال بأي ماء كان، ولكن الاشتقاق اللغوي لكلمة حمام تدل على وجوب ارتباطه بالماء الحار، وتطلق لفظة الديماس أيضا على الحمام لتشير إلى نفس المعنى، كما عرف الحمّام لدى البعض بالبلّان لأنّه يبل داخله بمائه أو بعرقه[2].

وقد ولدت فكرة بناء الحمامات العامة الّتي عرفت كمنشآت معمارية تقوم بدور كبير في تقديم خدمة اجتماعية في كثير من المجتمعات على مر العصور المختلفة منذ القدم في استخدام الماء للنظافة والطهارة، وبسبب ما أوجبته العقائد الدينية وطقوسها[3].

وإن نشأة الحمامات العامة ككيان معماري لم يكن مرتبطا بالحضارة الإسلامية لا في العراق ولا في غيرها، وإنّما وجدت هذه العمائر منذ أقدم العصور حيث ظهرت بوادرها في المعابد المصرية القديمة، ولكنّها لم تصل إلى كيانها المعماري الّذي اشتهرت به بعد ذلك، ولكنّها كانت مجرد حجرات صغيرة تلحق بالمعبد لطهارة الكهنة ولا يشترط فيها الماء الحار[4].

---

[1]- مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية ، ص 76-78.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص154. فيصل الحفيان، الحمام في التراث الاسلامي على ضوء تحفة الأنطاكي، مجلة الأحمدية، ع20، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، 1426هـ/2005، ص322.

[3]- عادل زيادة، من فنون العمارة الإسلامية حمامات السوق ودورها الحضاري: دراسة أثرية لحمامات العصرين المملوكي والعثماني، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2009، ص21.

[4]- فيصل الحفيان، الحمام، ص322. وقد قيل أنّ أول من اتخذه هو أبقراط الطبيب المشهور، وقيل أيضا أنّه أندروماخس والّذي كان حكيما وفيلسوفا في زمن الاسكندر، ولم ينل أحد قدر شهرته وله بصمات واضحة في مجالات هذا العلم، كما أنّه كان رئيسا للأطباء في منطقة الأردن. القفطي، أخبار العلماء، ص52. عادل زيادة، من فنون العمارة، ص26.

وعلى أية حال فإن أصل نشأة الحمام ترجع إلى بلاد اليونان في حدود القرن 5 ق م، وإليهم يرجع الفضل في ابتكار طريقة التسخين المتمثلة في عمل ممرات للهواء الساخن أسفل أرضيات الحمام وخاصة أرضية الحجرة الساخنة، وظلت هذه الطريقة مستخدمة في التسخين حتّى حمامات صدر الإسلام، واكتفى الحمام الشرقي بعد ذلك على التسخين بالمياه[1].

وقد كثر بناء الحمامات العامة في المدن الإسلامية، ويرجع ذلك لارتباطها بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر، ولعدم مقدرة العامة على تضمين منازلهم حمامات خاصة، وارتبطت كذلك برغبة القادرين على إنشاء هذه الحمامات في استثمار أموالهم في إنشائها لما تدره من ربح وفير لشدة الطلب عليها هذا إلى جانب الاهتمام بإنشائها كأوقاف على أعمال الخير والبر[2].

وبهذا تعد الحمامات العامة من المؤسسات الاجتماعية الّتي اشتهرت بها الحضارة الإسلامية، والّتي كان يقصدها النّاس بغية الاستحمام والتطهر، وذلك أنّه لم يكن مألوفا في العصور الوسطى أن يستحم النّاس في بيوتهم، ولم توجد الحمامات الخاصة إلا في قصور الحكام والأمراء، وفي هذا أشار الفقيه ابن الحاج أنّ «الواحد يشتري الدار أو يبنيها بنحو الألف، ولا يعمل بها موضعا للوضوء أو للغسل»[3]، لذلك طالب البعض المحتسب بأن يأمر بفتح الحمامات العامة وقت السحر لحاجة النّاس إليها للتطهر فيها قبل وقت الصلاة[4].

والملاحظ على الحمامات العامة خضوعها لرقابة المحتسب وهو الأمر الّذي وضحته لنا كتب الحسبة فالمحتسب كان هو عين الدولة في الإشراف على الحمامات ونظافتها والالتزام الشرعي بها للداخلين إليها أو العاملين بها حيث كان المحتسب يبث عيونه على أبوابها لمنع احتكاك الشباب بالنسوة عند الدخول والخروج[5].

---

[1]- عادل زيادة، من فنون العمارة، ص22-25

[2]- عبد الجبار ناجي، المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية: دراسة نقدية معاصرة، مجلة المورد، م9، ع4، 1980، ص149. عادل زيادة، من فنون العمارة، ص30.

[3]- المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، (د ت)، ج2، ص170.

[4]- محمد حسن العيدروس، تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في العصر العباسي، دار الكتاب الحديث، القاهرة،2010، ص98.نجوى محمد رجاء اللهيبي، المنشآت العامة في مدينة سامراء في الفترة (221-279هـ/836-892م)، دراسة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1436هـ-1437هـ، ص156.

[5]- الشيزري، نهاية الرتبة، ص86-88. وأحصيت حمامات بغداد بعشرة آلاف حمام، خمسة آلاف منها في جانب الكرخ. اليعقوبي، البلدان، ص43.

ومن الحمامات العامة الّتي أنشئت في بداية العصر الإسلامي: ثلاثة حمامات أقيمت في البصرة، حيث أنشأ عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي في أواخر القرن الأول الهجري أول حمام فيها بالقرب من قصر عيسى بن جعفر، والحمام الثاني حمّام قيل لمولى زياد بن عثمان، والحمّام الثالث كان لمسلم بن أبي بكرة، وظلت البصرة زمنا طويلا وليس بها إلّا هذه الحمامات الثلاثة[1].

ثمّ كثرت بها الحمامات حتّى صارت تعد بالمئات، وكان ذلك بسبب إقبال النّاس عليها وحرصهم على ارتيادها، وقد أكثر العراقيون من بناء الحمامات العامة وتفننوا في إتقان صنعها ونظافتها حتّى بلغ عددها في عهد الرشيد والأمين ستين ألفا، ثمّ أخذ عددها يتناقص ففي سنة 420هـ بلغ عددها مائة وسبعين حماما، وخرب الكثير منها في أواخر القرن الخامس الهجري، وذلك نتيجة للتسلط الأجنبي البويهي والسلجوقي فقد تعرض الكثير من محال بغداد في الجانب الغربي للحرائق والخراب حتّى أصبح يوجد في السبعة عشر محلة في كل منها حمامان أو ثلاثة[2].

وكانت هناك عدة أسس يقوم عليها تصميم الحمامات الإسلامية ومن أهمّها: أن يشتمل الحمام على هواء وماء حارين، وأن تتوفر بالحمام من الداخل فرصة جيدة للتنفس الصحيح فلا يحدث غثيان أو إغماء، وألّا يتسرب إلى داخل الحمام أي دخان الّذي يصدر عن المستوقد الّذي يلحق بالحمام لتسخين الماء والهواء، وألّا تتعرض الوحدات الداخلية للحمام لتيارات الهواء البارد التي تؤثر سلبا على المستحمين فيتعرضوا للأمراض الناتجة عن هذه التيارات، وقد حكمت هذه المتطلبات فكرة تصميم الحمامات العامة الّتي تمتد جذورها إلى العصور السابقة على العصر الإسلامي، لكنّها في العصر الإسلامي طورت تطويرا يرتبط بأحكام الدين الإسلامي الّتي تتصل بطهارة الماء، وتنظيم استخدام الحمامات تنظيما يحقق مبدأ الخصوصية وغير ذلك[3].

---

[1]- عادل زيادة، من فنون العمارة، ص26-28.

[2]- ابن الجوزي، مناقب بغداد،ص34. عادل زيادة، من فنون العمارة، ص26-28.ونشير هنا أنّه بازدياد العمارة ببغداد في القرن السادس الهجري . يبدو أنّ عدد الحمامات العامة قد ازداد عمّا سبق ببناء حمامات جديدة حتّى تعذر على ابن جبير إحصائها أثناء زيارته لبغداد سنة 580هـ ، وقد سأل أحد شيوخها وأخبره أنّ بين جانبيها الشرقي والغربي ألف حمام. الرحلة، ص183.

[3]- المناوي، كتاب النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية، تح عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، 1987، ص17-18.

وقد كانت المياه اللازمة للحمامات تجلب بواسطة ساقية خشب مركبة على فوهة بير فترفعها الساقية إلى «مستوقد الحمام» حيث يسخن الماء في مرجل كبير، وقد كان الحمام يقوم بخدمته خمسة أفراد على الأقل وهم الحمامي أو المدلك، وصاحب الصندوق أو القيم وهو صاحب الحمام ويكون جالسا في الرحبة ليراقب ملابس النّاس أثناء خلعهم لها وأثناء لبسهم لها خوفا من سرقتها، ويقبض الأجر من الخارجين بعد الانتهاء من الاستحمام، والسقاء والوقاد وهو الّذي يوقد النّار تحت الماء، والزبال حيث أنّ الوقود في الحمامات كان غالبا من الزبل اليابس، هذا فضلا عن الحلاق الّذي كان يقوم بحلاقة الشعر وتهذيب اللحية، وقد اشترطت فيه شروط معينة، منها «أن يكون المزين خفيفا رشيقا بصيرا بالحلاقة وتكون الأمواس جديدة قاطعة، ولا يأكل ما يغير نكهته كالبصل والثوم والكرات في يوم نوبته، لئلا يتضرر النّاس برائحة فيه عند الحلاقة»[1].

إلّا أنّ أهمية الحمام في تلك العصور لم تقتصر على كونه مؤسسة لنظافة البدن مع ما لذلك من معان ودلالات اجتماعية، وإنّما كان الحمام أيضا مركزا اجتماعيا على جانب كبير من الأهمية في المدينة الإسلامية، فالمريض إذا دخل الحمام اعتبر ذلك إيذانا بشفائه، والعريس أو العروس يتعين على كل منهما أن يدخل الحمام قبل حفل الزفاف، فيعتبر ذلك من الأعياد العائلية، وفي الحمام اعتادت النساء والصديقات أن تجتمعن لتناقل أخبار الحي والنّاس، ويقصصن على بعضهن كثيرا من أخبارهن وحياتهن المنزلية[2].

وتعتبر الحمامات البغدادية حسب وصف ابن بطوطة من أبدع وأبهى الحمامات الّتي زارها في البلاد الّتي طاف بها، سواء من حيث طريقة بنائها أو طريقة عملها وتنظيمها، حتّى أن بغداد أخذت شهرتها من حماماتها الّتي فاق عددها الستين ألفا، وأحسن ما كانت في أيّام الرشيد، فإلى جانب عددها الكبير، فقد تميزت بحسن العمارة والإتقان وبطريقة خاصة في بنائها وإبراز مظهرها الخارجي للناس، إذ كانت تطلى بالقار فيتبادر إلى ذهن الرائي أنه رخام أسود، وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة، تنبع به ولا تنقطع حتّى يصير في جوانبها كالصلصال، فيجرف منها ويجلب إلى بغداد[3].

---

[1]- الشيزري، نهاية الرتبة، ص86. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص225 -226.

[2]- محمد حسن العيدروس، تطور الحياة الاجتماعية، ص100-101.

[3]- ابن بطوطة، الرحلة، ص241.

وحسب ما أورده بدر الدين الحسن بن زفر الإربلي – ت 726 هـ– في وصف أحد الحمامات البغدادية قائلا: «رأيت ببغداد في دار الملك شرف الدين هارون ابن الوزير الصاحب شمس الدين محمد الجويني حماما متقن الصنعة حسن البناء كثير الأضواء قد احتفت به الأزهار والأشجار فأدخلني إليه سائسه وذلك بشفاعة الصاحب بهاء الدين بن الفخر عيسى المنشئ الأربلي وكان سائس هذا الحمام خادما حبشيا كبير السن والقدر، فطاف بي عليه وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوّت بأصوات طيبة، ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة، والمياه تخرج من سائر الأنابيب إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسنة الإتقان، ثم منها إلى البستان ثمّ أراني نحو عشر خلوات كل خلوة منها صنعتها أحسن من صنعة أختها، ثم انتهى بي إلى خلوة عليها باب مقفل بقفل حديد، ففتحه ودخل بي إلى دهليز طويل كله مرخّم بالرّخام الأبيض الساذج، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة تسع بالتقريب نحو أربعة أنفس إذا كانوا قعودا، وتسع اثنين إذا كانوا نياما، ورأيت من العجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالا لا فرق بينه وبين صقال المرآة، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها، ورأيت أرضها مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر فأمّا الأخضر فيقال إنه حجارة تأتي من الروم وأمّا المذهب فزجاج ملبس بالذهب، وتلك الصورة في غاية الحسن والجمال على هيئات مختلفة في اللون وغيره»[1].

ومن هنا ندرك بأن الحمامات الشعبية العربية وخاصة بالعراق كانت على درجة عالية من الإتقان وإبراز الناحية الجمالية، وحسب ما روي أيضا عن بعض الحمامات البغدادية، أنه وجد في صدر إحدى الخلوات حوض رخام مضلع وعليه أنبوب مركب في صدره، وأنبوب آخر برسم الماء البارد والأنبوب الأول برسم الماء الفاتر، وعن يمين الحوض ويساره عمودان صغار منحوتة من البلور يوضع عليها مباخر الند والعود و قد أنفق عليها أموال كثيرة[2].

---

[1]– المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د ت) ، ج3، ص348-349.

[2]– نفسه، ص350.

وكان في كل حمام مخادع كبيرة، وكل مخدع مسطح بالقار ومطلي نصف حائطه ممّا يلي الأرض بالقار أمّا النصف الأعلى فإنّه بالجص الأبيض حتّى تكامل حسنها بتضاد الألوان، وفي داخل كل مخدع حوض من الرخام فيه أنبوبان يجري الماء فيهما في أحدهما الماء الحار وفي الآخر الماء البارد، وبذلك ينفرد كل شخص بمخدع بمفرده لا يشاركه أحد في ذلك، كما كان في زاوية كل مخدع حوض آخر للاغتسال فيه أنبوبان يجريان بالماء الحار والبارد، كما كانت تشتمل على رحبة واسعة خصصت لحفظ الملابس أي مخلعا قبل الدخول مباشرة للاغتسال وفي هذه الرحبة يوجد دكاك لوضع الملابس عليه، ويعطى الداخل للحمام ثلاثا من الفوط أحدهما يأتزر بها عند دخوله والأخرى يأتزر بها عند خروجه والأخرى ينشف بها الماء عن جسده[1].

فكان الشخص إذا دخل للحمام يخلع ملابسه في الرحبة المخصصة لذلك ثمّ يمر بالعديد من الحجرات في الحمام تسمّى البيت، الأول وهو بارد رطب ثمّ يمر بالبيت الثاني وهو أكثر حرارة من الأول، ثمّ يمر بالبيت الثالث وهو أكثر حرارة من الثاني، وهو مكان الاغتسال ويكون عادة عبارة عن ردهة واسعة فيها نوافذ زجاجية صغيرة مستديرة للإنارة والتهوية، وحول الردهة مخادع كثيرة مفروشة بالفسيفساء ولكنّها في الغالب تكون مفروشة بالقار[2].

وقد كانت تلك المخادع تحتوي على أحواض من الرخام فيها أنبوبان للماء الحار والبارد، وكان إلى جانب هذه الأحواض الصغيرة حوض كبير داخل محل الاغتسال وهو الّذي ينزل فيه المستحم ويغطس جسمه كله فيه، وماء هذه الأحواض يأتي من خزانة للماء تكون في موضع مرتفع ومنها تأخذ الأنابيب المياه إلى الأحواض، وغالبا ما كانت هذه الخزانة يأتيها الماء عن طريق دولاب خاص بالحمام من مياه النهر أو بئر مجاورة للحمام[3].

وبالنسبة لتسخين مياه الحمام فإنّه يتم عن طريق موقد خاص يكون في إحدى جهات الحمام، وبعد أن يدخل المستحم إلى البيت الثالث وهو مكان الاغتسال يختار له مخدعا للجلوس فيه وأثناء جلوسه يبقى مؤتزرا بإزاره، وكان المحتسب وهو متولي الإشراف على

---

[1]- الشيزري، نهاية الرتبة، ص87. ابن بطوطة، الرحلة، ص199-200.

[2]- ابن جبير، الرحلة، ص183.

[3]- الشيزري، نهاية الرتبة، ص87.

الحمامات يمنع دخول الحمام إلّا بمئزر ومن يخالف ذلك يشهر به، وكان المستحم بعد أن يجلس في المخدع إلى جانب الحوض فإنّه إمّا أن يغتسل مباشرة أو أنّه يستلقي بعض الوقت ليعرق جسده قبل الاغتسال وقد يستعين بمدلك يغسل له جسده، كما كانوا يستعملون المحاك لحك أرجلهم، وورق السدر والخطمى[1] والصابون لغسل أجسامهم، وبعد الانتهاء من الحمام كانوا يستحسنون غسل أرجلهم بالماء البارد حيث يعتقدون بأنّه أمان لهم من النقرس والتورد، كما كانوا يكرهون صب الماء البارد على الرأس عند الخروج من الحمام وكذلك شربه[2].

وقد وضعت الدولة العباسية قوانين صارمة بخصوص المياه المستعملة الّتي تخرج من الحمامات إذ منع صرفها نحو الأنهار كنهر دجلة، أو حتّى جلب مياه الحمامات منها فألزم أربابها بحفر آبار للمياه، كما اهتمت بتطبيق القواعد الصحية والأخلاقية في الحمامات، فكان الحمّام الجيّد هو الحمّام الحار المضيء، والّذي يكون ماؤه عذب، وتكون يد المدلك خشنة تزيل الأوساخ، إذ كان المحتسب يأمر المدلك بتدليك يده بقشور الرمان لتصير خشنة فتزيل الأوساخ، كما كان يمنع المجذوم والأبرص من دخول الحمام، وأيضا لم يسمح للرجال من دخول حمامات النساء[3].

وحرصت أيضا على نظافة وطهارة المياه، حيث لم يكن يسمح بغسل الأواني أو الطلس في أحواض المياه المعدة للاغتسال، وكان القيّم يتفقد خزانة الماء الّتي تمد الحمّام بالمياه، وغسل الأوساخ المجتمعة في مجاريها، وما قد يركد من أوساخ في أسافلها، وإزالة المياه العكرة مرة كل شهر حتّى لا يتغير طعم الماء ورائحته كما يجب عليه غسل رجليه إذا أراد الصعود إلى خزانة الماء لئلا يكون قد علق برجليه شيئا من المياه القذرة، وأن لا يسد الأنابيب بشعر المشاطة بل يسدها بالليف أو الخرق النظيفة[4].

وكانت أرضية الحمام مرصوفة بحجارة خشنة ولا يجب أن تكون ملساء فتنزلق أرجل المستحمين، كذلك يجب تدليك أرضية الحمام وغسلها وإزالة العالق بها من أوراق السدر والخطمى والصابون، وأن يشعل البخور في كل يوم مرتين خاصة إذا شرع في غسل الحمام

---

[1]- الخطمى: أو الغاسول هو صنف من الملوخية البرية للغسول، له ورق مستدير، ولجذوره وبذوره فوائد طبية. الشيزري، نهاية الرتبة، ص60. ابن البيطار، الجامع، ج2، ص93-94.

[2]- الشيزري، نهاية الرتبة، ص88.

[3]- نفسه، ص87.

[4]- الشيزري، نهاية الرتبة ، ص87-88.

وكنسه وأن تبيت المحاك الّتي يحك بها المستحمون أرجلهم في الماء والملح لتطهيرها لئلا تكتسب الروائح، وكذلك لابد من غسل الفوط الّتي يأتزر بها المستحمون كل عشية بالصابون[1].

أمّا الحمامات الخاصة فهي الّتي كان يمتلكها الخلفاء والوزراء والقادة وكبار رجال الدولة والأغنياء من النّاس في دورهم، وقد احتوت على مختلف وسائل الترف والراحة من ذلك مثلا ما ذكر عن الحكيم أبي القاسم الأهوازي أنّه استضاف يوما الشاعر المعروف بالكاتب الدينوري أحمد بن محمد بن الفضل، وكان في داره بستان وحمّام فأدخله إليهما فقال في ذلك ابن الخازن شعرا[2].

وارتبطت الحمامات بكثير من المظاهر الاجتماعية، فقد كانت مكانا للاتصال بين السكان ومكان للتلاقي وزيادة الاتصال الاجتماعي للرجال والنساء عامة، ممّا زاد من الروابط الاجتماعية، كما كان للحمام فوائد صحية منها توسيع المسام واستفراغ الفضلات وتنظيف الوسخ والعرق وذهاب الحكة وترطيب البدن وتجويد الهضم، ويفيد في معالجة العديد من الأمراض كنزلات البرد والزكام، وقد قيل أنّ النوم في الصيف بعد الاستحمام تعدل شربة دواء، كما كان استحمام الشخص في الحمام بعد شفائه من مرضه يعد إعلانا عن تمام الشفاء خاصة للخلفاء، ومنهم من تمّ اغتياله في الحمام بحجة تعرضه للماء قبل الشفاء كما حدث للخليفة المستنجد بالله[3]، ويمكن القول أنّ كثرة الحمامات في العراق في العهد العباسي دليل على اهتمام المجتمع بالصحة والنظافة العامة للأفراد.

2- الأسواق:

وجدت الأسواق عند العرب في الجاهلية والإسلام، وإن كانت بعض أسواق الجاهلية ذات الطابع الموسمي قد تفوقت في شهرتها كسوق عكاظ وذي المجاز وغيرها، ولم تقتصر هذه الأسواق على البيع والشراء، بل اشتهرت بكونها مجتمعات تعقد فيها العقود والمعاهدات والاتفاقات، وساحات محاكم يجلس فيها المتخاصمون للاستماع إلى قرار ينطق به شخص مهاب، اتفقوا على تحكيمه في نزاعهم، ومراكز يتجمع فيها الرأي العام قبل الإسلام[4].

---

[1]- الشيزري، نهاية الرتبة ، ص87.

[2]- جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية، ص322.

[3]- الشيزري، نهاية الرتبة، ص87-88.

[4]- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج7، ص371.عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص215.

وبتطور المجتمع الإسلامي وانتقال العرب إلى العالم الخارجي عن طريق الفتح الإسلامي تعددت هذه الأسواق وتخصصت وازدحم فيها العوام والخواص، وقد تفوقت بغداد على سواها من المدن الإسلامية بكثرة محالها وأسواقها الّتي خططت كل حسب اختصاصه، ولتمتعها بمركز سياسي مرموق باعتبارها حاضرة الدولة العباسية، ولموقعها الاستراتيجي الّذي جعل منها محطا لأنظار القريب والبعيد والخاص والعام من النّاس[1].

وقد اهتمت الدولة العباسية بشكل عام بالأسواق حيث خصصت لها أماكن خاصة بها وعزل كل سوق عن الآخر، إذ يختص كل سوق بالمواد الّتي يبيعها، حيث شيّدت بالمدينة مجمعات عمرانية ذات نشاط تجاري وضع أساسه بين نهر الرصافة ونهر عيسى، كما كانت رقابتها دائمة على الأسواق من أجل أن تسود عدالة الأسعار، وأن لا ينتشر الاستغلال في الأسعار واحتكار المواد منعا لظهورها، حتى أنّ المأمون مثلا في خلافته أمر التجار أن يوزنوا مكاييلهم الصغيرة والكبيرة لمحاربة الغش ففعل التجار ذلك [2].

كما وجهت عناية خاصة إلى الأسواق في بغداد، بمن فيها من تجار وباعة وصناع، فوجدت أسواق رئيسية وأخرى فرعية حتّى كان لكل ناحية ومحلة سوقها، وكان لكل أنواع التجارات والبياعات شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع، لا يختلط فيها قوم بقوم، ولا تجارة بتجارة، ولا يباع صنف مع غيره، وكل سوق مفردة، وكل أصحاب أهل صنف منفردون بتجاراتهم[3].

وكان من دوافع تقسيم الأسواق حسب تخصصها مراعاة عدم اختلاط أصحاب الروائح الكريهة بالعطارين حتّى لا يتضررون منهم، وكان أيضا من دوافع تجمع الأسواق تكتل أصحاب الحرفة الواحدة من أجل حماية وتنظيم شؤون حرفهم، والشعور بروح الجماعة، كما كان للتنافس بين أصحاب الحرفة الواحدة أثر في تجمعهم في سوق واحدة، ليتمكنوا من مراقبة بعضهم بعضا، والتعرف على الأسعار الّتي بها تشترى السلعة وتباع[4].

---

[1]- عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص215

[2]- اليعقوبي، البلدان، ص48. وهاب فهد يوسف الياسري، دراسات في تخطيط المدينة العربية والإسلامية: دراسة في اختيار المكان وتأثير العوامل الجغرافية، دار الجيل للنشر، بيروت، 2015، ص124-127.

[3]- اليعقوبي، البلدان، ص48.

[4]- فهمي سعد، العامة في بغداد، ص255.

كما راعت أن تكون هذه الأسواق في المدن الساحلية أو على مقربة منها حتّى تسهل عمليات التصدير والاستيراد فمثلا عندما بنى المنصور مدينة بغداد وضع الأسواق خارج المدينة في الجهة الجنوبية منها، كما اهتمت الدولة بتنظيم الأسواق وتنويعها فهناك سوق لكل حرفة كسوق العطارين، وسوق للحدادين، وسوق للنجارين وسوق للبزازين وسوق لأصحاب الرياحين وسوق للقصابين[1].

أدت هذه العناية بالأسواق إلى تنشيط الحركة التجارية داخليا وخارجيا، وقد لوحظ ذلك في توفر السلع المختلفة في الأسواق، كما توفرت المنافسة بين الصناع، وأصحاب الحرف ممّا انعكس على جودة السلع وتوفرها بأسعار معقولة في المجتمع العباسي، كما كان لتنظيم هذه الأسواق وتجمعها أثره الاجتماعي حيث ولّد ذلك نوعا من التعاون بين أصحاب المهن، فوجدت صور كثيرة من المشاركة الجماعية بين أصحاب الحرف والصنائع التي لا يمكن أن توجد إلّا في مجتمع إسلامي تحكمه مبادئ الإسلام وأخلاقياته[2].

وعندما توسعت المدينة نتيجة النمو الحضري قام التجار في بناء الأسواق حتّى شملت ثلاث مناطق في الجانب الغربي من بغداد وهي الكرخ، المحول والحربية، وأخذت تزهر بالمحلات العامة والأسواق وتعامل تجارها مع بلدان الشرق والغرب حتّى فاقت أوروبا، واشتهر الكثير من أسواقها وهي السوق الّذي خطط في شارع باب المحول، وهو سوق عظيم فيه أنواع التجارات ويمكن اعتباره سوقا للجملة لمختلف البضائع، وسوق القصابين وسوق الثلاثاء وسوق البزازين وسوق الدجاج وسوق النجارين وسوق العطر وسوق السلاح وسوق العطش وسوق الكرخ الّذي اشتهرت بها المدينة وأصبحت بغداد أكبر مركز تجاري في الشرق ودعامة النهضة التجارية العظيمة التي رافقت العصر حيث بدأ عهد الرخاء وزيادة الثروة وظهرت آثار الغنى على الأفراد وفي الدولة[3].

إلّا أنّ هذا لم يمنع من أن تشهد أحيانا الأسواق وخاصة أسواق الكرخ أحداث شغب جسيمة، فمثلا جعل طاهر بن الحسين من سوق الكرخ مكانا يستأمن فيه أهل بغداد إذا أرادوا

---

[1]- عادل سباعي متولي إبراهيم، التطور الاقتصادي خلال العصر العباسي الأول: دراسة مقارنة مع الأوضاع الاقتصادية الأوروبية في تلك الفترة، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الاقتصاد الإسلامي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1415هـ/1994، ص347. صباح الشيخلي، الأصناف والمهن، ص77.

[2]- عادل سباعي متولي إبراهيم، التطور الاقتصادي، ص469.

[3]- وهاب فهد يوسف الياسري، دراسات في تخطيط المدينة ، ص126.

الأمان ووضعوا السلاح وبايعوا المأمون، ممّا يدل على أنّ السواد الأعظم من مناوئيه قد شغبوا وتحركوا في هذا السوق العظيم، ولمّا شغب ابن عائشة وجماعته في عهد المأمون اتهم بأنّه قد وشى في حرق سوق العطارين والصيارفة والصفارين والغرائين[1].

وكانت مهمة المحتسب مراقبة التجار وأرباب الحرف والأسعار والموازين والمكاييل لمنع الغش والإشراف على نظافة الأسواق، وكان المحتسب يخرج أحيانا بنفسه، ويطوف في الأسواق، ويعاقب المخالفين عن طريق إتلاف البضائع الفاسدة، والتشهير بالتاجر الغشاش بأن يركب على حمار أو جمل، ويطاف به في الأسواق، وقد اختير من أعضاء كل حرفة عضوا منهم يسمى عريف السوق تكون مهمته مساعدة المحتسب في الرقابة على أنشطة أعضاء مهنته وما يأتي إلى الأسواق من منتجاتهم، وحالة الأسعار، كما كان يتولى شؤون أعضاء حرفته والإشراف على مراحل إنتاج كل منهم، ومن ثم كان حلقة الوصل بين الحكومة ممثلة في المحتسب وأعضاء الطائفة، كما كان يتولى فض المنازعات القائمة بين الأعضاء وبينهم وبين الحكومة، وبينهم وبين المتعاملين خاصة ما يتعلق منها بالأثمان والأجور وجودة المنتجات المصنعة وبذلك يبدو أنّ عريف السوق هو مرادف لشيخ الطائفة الحرفية[2].

تميّز القرن الثالث الهجري بانتشار الرقيق بأعداد كبيرة كظاهرة اجتماعية وقد رافق ذلك وجود أسواق خاصة في المدن لعرض وبيع وشراء هذا الرقيق وقد سميّت بأسواق النخاسين انتشرت في المدن الكبيرة كبغداد وسامراء والبصرة حيث يباع فيها الرقيق بأسعار مختلفة تبعا لنوعيته فهناك الرقيق الأبيض والأسود، ومنهم الغلمان والجواري والخدم والحشم، وقد كانت هذه الأسواق مراكز لتجمع الرأي العام منهم الشاري والبائع والعارض والمنادي والمتفرج ومنهم الساخط الّذي وجد في هذه التجارة مأساة إنسانية[3].

---

[1]– عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص216.

[2]– عادل سباعي متولي إبراهيم، التطور الاقتصادي ، ص248.

[3]– عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام، ص221.

وكان إلى جانب الأسواق العمومية لبيع الرقيق أسواق أخرى صغيرة توجد عادة في الدور والمنازل الخاصة، أو عند بعض التجار الكبار الّذين تخصصوا ببيع أنواع جيدة من الرقيق بأسعار غالية لا يقدم على اقتنائها إلّا الخواص من النّاس كالخلفاء والوزراء[1].

وقد اتخذ النّاس من الأسواق مراكز يتجمعون فيها وبخاصة في أوقات الأزمات والفتن فمثلا «تجمع أصحاب المعتز من الغوغاء والسوقة، وأصحاب الحمامات وغلمان الباقلي في السوق وناحية الشارع في نحو من ألف رجل والسلاح في أيديهم»، وتبرز أهمية الأسواق كمراكز لتجمع النّاس من خلال مثلا أحداث الزنج فقد تجمع نحو أربعة آلاف رجل أو يزيدون من أصحاب السلطان وفي مقدمتهم قوم عليهم ثياب مشهرة وأعلام وطبول في سوق الريان وعلى رأسهم رجل من الأتراك يكنى أبا هلال من التجار والباعة وأصحاب السوق والمنتفعين أعداء الزنج[2].

وبناء على ذلك نستنتج أنّ الأسواق في الدولة العباسية لعبت دورا كبيرا في تنشيط حركة التجارة وتشجيعها ممّا كان له أثره على حركة التجارة العالمية من ناحية وحركة التجارة الداخلية من ناحية أخرى حيث أدى ذلك إلى رفاهية المجتمع العباسي وازدهاره.

وممّا سبق يتضح لنا مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بمختلف المرافق الّتي يحتاجها المجتمع سواء الدينية أو التعليمية أو الصحية ما نتج عنه رقي المجتمع العباسي إلى درجة كبيرة وأصبح بهذا العصر العباسي عصر النهضة والفكر والأدب، حيث ازدهرت فيه مختلف العلوم نتيجة للاهتمام الكبير بتدوينها وتأليفها، كما ازدهرت علوم اللغة والأدب والفقه والحديث فضلا عن رواج المذاهب الدينية والعقائد الدينية مثل المعتزلة والشيعة والخوارج ممّا ألقى بظلاله على حياة المجتمع العباسي.

---

[1] – نفسه، ص222.

[2] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص424.

الخاتمة

إنّ قيمة النتائج الّتي يمكن الوصول إليها من خلال أي بحث علمي تكمن في كونها نتائج غير ثابتة قابلة للمراجعة وإعادة النظر وفقا لمعطيات جديدة سواء بقراءة معمقة جديدة أو معارف جديدة يظهرها المستقبل، وانطلاقا من ذلك فقد تم استخلاص من خلال هذه الدراسة النتائج الآتية:

- تنوع العناصر البشرية التي شكلت مجتمع العراق خلال الفترة المدروسة من عرب وفرس وترك وأكراد وزنوج وعناصر أخرى مختلفة قليلة كالأرمن والهنود.
- تعدد أديان هذه التركيبة الاجتماعية في العراق، من مسلمين ويهود ونصارى وصابئة ومجوس مع تعدد مذاهبهم خاصة اليهود والنصارى والمسلمين.
- منح خلفاء بني العباس هذه الطوائف الدينية غير المسلمة حرية في ممارسة نشاطاتهم الدينية ما لم يتعدوا ذلك على غيرهم، كما أبدوا نحوهم من التسامح ما أبدوا، بل قربوا من أظهر منهم كفاءة علمية أو إدارية أو اقتصادية أو ولاء لهم، إضافة إلى حرية ممارسة شعائرهم الدينية والأعمال المختلفة.
- شهدت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الذي هو محل الدراسة تحولات كبيرة مست مختلف النواحي الاجتماعية نتيجة لهذا التنوع الاجتماعي بفعل التزاوج وغيره خاصة ممارسة النشاطات المهنية المختلفة.
- أن المجتمع العباسي في العراق لم يكن مجتمع طبقى حاد مغلق كما كان الحال في العهد الفارسي قبل الإسلام، أو الأوربي في العصر الوسيط، وإنّما كانت هذه الفئات منفتحة على بعضها البعض يحددها الوضع السياسي والأمني والمهني والعلمي الذي يجعل من كان من الخاصة ينزل درجة العامة والعكس أيضا.
- أن المصالح السياسية والاقتصادية هي الّتي جمعت بين طبقة الخاصة، وفي أحيان أخرى تسوء العلاقة فيتعرض الوزراء والكتاب، وقادة الجند وغيرهم لنكبات من قبل الخلفاء لا تبقي عليهم والموفق من لم يقتل.
- أن سياسة طبقة الخاصة كانت في كثير من الفترات ذات تأثير سلبي على قوة الدولة الذي انعكس على طبقة العامة التي ازدادت أحوالها تدهورا وتعاسة، ممّا ولّد رد فعل نتجت عنه ثورات متعددة، وظهور العيار والشطار الّذين كان لهم تنظيمهم الخاص.

- اختلاف مظاهر الحياة العامة بين الطبقات المشكلة للمجتمع العباسي في الإنفاق على الملبس والمأكل والمسكن، فطبقة عليا مترفة أفسدت الحياة بترفها، ودنيا فقيرة أساء الفقر إلى دينها ودنياها.
- تمتع كثير العلماء في الفترة المدروسة بمكانة رفيعة عند الخاصة والعامة باحترام كبير وتقدير بالغ.
- لعبت المرأة في المجتمع العباسي خاصة نساء الخلفاء دورا مهما في توجيه سياسة الدولة، وتقلد المناصب الهامة، والاشتغال بالعلم كالفقه والحديث والنحو والشعر، والإحسان إلى الناس بتقديمهن المساعدات للفقراء.
- تميّز الحياة الاجتماعية في العراق في العصر العباسي بكثرة مجالس العلم والوعظ والقصاص والمذكرين، ومجالس الشراب، ومجالس الغناء والطرب، الّتي لم تقتصر على طبقة دون أخرى من طبقات المجتمع، والفرق بين مجالس الخاصة في نوعية الحضور، وفي المستوى العلمي الّذي يعقد بسببه المجلس.
- أن تأثير النفوذ الفارسي في مظاهر الحياة الاجتماعية كان بارزا خاصة في المدن وتمثل في المأكل والمشرب والمسكن والزينة والأعياد غير الدينية والغناء. والأخص في العهد البويهي.
- تعدد الأعياد والاحتفالات في الفترة المدروسة منها: الأعياد الدينية الخاصة بالمسلمين كالاحتفال بإحياء شهر رمضان الكريم، وبعيدي الفطر والأضحى، وخروج موكب الحج، والأعياد النصرانية منها: عيد الفصح وعيد القديسة أشمونى وليلة الميلاد واحتفال الفرس بالمهرجان رأس السنة في التقويم الفارسي القديم، والنيروز في التقويم الجديد وهذا من آثار بقايا أعياد دولة الفرس، وكل هذه المناسبات يشترك فيها جميع أفراد المجتمع.
- كما اتّسمت الحياة الاجتماعية في الفترة المدروسة بتنوع وسائل التسلية والترويح عن النفس منها الرياضية البدنية من سباحة، وسباق الخيل، والركض، ورمي البندق واللعب بالسهام ولعبة الصولجان وأنشئوا لها الميادين والملاعب الخاصة
- ومن نتائج هذه الدراسة اكتشفت مدى اهتمام النّاس بألوان الأطعمة على اختلاف طبقاتهم، وتأثير الفئات السكانية الّتي تشكل منها هذا المجتمع في تعدد هذه الألوان،

والارتقاء بجودتها، مع تعقّد أساليب إعدادها وكثرة مستلزماتها، تدرجا مع كل طبقة، إذ لكل طبقة طعامها الخاص الّذي يميّزها عن الأخرى. جودة وبساطة.

- كما بيّنت الدراسة كذلك نوعية الألبسة الّتي كانت تلبسها كل طبقة، من الغالي النفيس المطرز للخاصة، كما ظهرت ألبسة خاصة وظيفية معبّرة عن الفئة التي ينتمي إليها صاحبها، كالقضاة مثلا، مع احتفاظ كل فئة عرقية من طبقة العامة بلباسها، مع تميّزها حسب ترفهها.
- ومن نتائج هذه الدراسة استمرار المسجد في أداء دوره مع توسع مهامه الدينية والعلمية والاجتماعية مع تسابق المسلمون خاصة وأفرادا في بنائها والإنفاق ورصد الأوقاف لها كما لم يهمل الخلفاء الحرمين الشريفين من ذلك.
- انتشار دور التعليم بداية من الكتاتيب إلى المساجد والمدارس الّتي بدأ الاهتمام بها يزداد بمرور الزمن، والأربطة الّتي جمعت بين العبادة والعلم والجهاد، دون أن ننسى انتشار مجالس العلم بين الخاصة من خلفاء ووزراء وولاة والعلماء في القصور والمساجد.
- اهتمام الخلفاء بصحة المجتمع فبنوا لأجل ذلك البيمارستانات وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة من أشربة وأدوية وأطباء لمداوات المرضى، كما شجعوا تدريس العلوم الطبية حيث أصبحت مهنة الطب مهنة مرموقة، ولهذا تبارى الخلفاء والأمراء والنساء الميسورين على تشييد البيمارستانات التي تقدم الخدمات لجميع فئات المجتمع، وأوقفوا لها الأوقاف الكثيرة من أشربة وأدوية وعقاقير وفرش وأشربة وكل ما يحتاجه المرضى.
- ممّا خلص إليه هذا البحث كثرة الحمامات في المدن الكبيرة كبغداد والبصرة والكوفة وغيرهم من ذوات الحواضر الهامة والّتي كان يقصدها النّاس بغية الاستحمام والتطهر، مع الإشارة إلى قلّتها في البيوت عدا قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وأضرابهم.
- كما أولت الدولة العباسية عنايتها بالأسواق خاصة في المدن حيث خصص لأهل كل صنعة منهم شارعا يختص بهم، وتعرف صناعتهم فيه، أمّا من كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخبّاز والطبّاخ، والحدّاد، فأبعدوا عن العطارين والبزازين، لعدم المجانسة بينهم، منعا لحصول الأضرار.أمّا الرقابة عليها فقد تولّاها المحتسبون الذين يسهرون على قمع كل غش في المأكول والمشروب والموزون المحتسب، إضافة إلى

النظافة، كما كان لأهل كل صنعة عريفا يمثلهم عند المحتسب يبلغ أصحابة بكل ما يأمر به وبما ينهي عنه

قائمة

المصادر والمراجع

أولا:المصادر:

-القرآن الكريم

-أ-

1. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، تح أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م.
2. أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت 241هـ/855م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1421هـ/2001م.
3. إخوان صفا وخلان الوفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، اعتناء خير الدين الزركلي، القاهرة، 1928.
4. ابن الأخوة، ضياء الدين محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد (ت 729هـ/1328م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، دار الفنون كمبرج، 1937.
5. الأربلي، أبو محمد بدر الدين عبد الرحمن بن إبراهيم (ت717هـ/1317م)، خلاصة الذهب المسبوك، مكتبة المثنى، بغداد، 1964.
6. الأزدي، جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين (ت613هـ/1216م)، أخبار الدول المنقطعة، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2001م.
7. الأزدي، محمد بن أحمد أبي المطهر بل القرن 4هـ/10م)، حكاية أبي القاسم البغدادي، مطبعة كردونتر، هيدلبرج، 1902.
8. الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت350هـ/960م)، المسالك والممالك، تح محمد شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، 1961.
9. الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم، أبو الفرج (ت356هـ /966م)، الأغاني، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1429هـ/2008م.
10. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس موفق الدين، أبو العباس (ت668هـ/1269م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د ت).

-ب-

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة(ت 256هـ/869م):

11. صحيح البخاري، تح مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، 1423هـ /2002م.
12. صحيح الأدب المفرد، تح محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1375هـ.
13. ابن بطلان، أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون (توفي بعد 444هـ/ 1052م)، رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، ضمن نوادر المخطوطات، تح عبد السلام محمد هارون، مطبعة الدار المصرية، القاهرة ، 1954.
14. ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت779هـ/1377م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1413هـ.
15. البغدادي، محمد بن الحسن بن محمد الكاتب (ت637هـ/1239م)، كتاب الطبيخ أعاد نشره فخري البارودي، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 1964.
- البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر (ت279هـ/892م):
16. أنساب الأشراف، تح سهيل زكّار ورياض زركلي، دار الفكر للنشر، بيروت، 1407هـ/ 1996.
17. فتوح البلدان، تح عبد القادر محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.
18. بنيامين التطيلي، الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي (ت569هـ/1223م)، رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، الوراق للنشر، بغداد، 1954 .
19. البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (ت440هـ/1048م)، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تح إدوارد سخاو، دار صادر، بيروت، 1923 .
20. ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي (ت646هـ/1248م)، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت).
21. البيهقي، إبراهيم بن محمد البيهقي (ت نحو 320هـ/932م)، المحاسن والمساوئ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة،1991م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت458هـ/1065م):

22. السنن الصغير، شرح وإخراج وتعليق عبد المعطي أمين قلعجي، منشورات جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي، باكستان، (د ت).
23. السنن الكبرى، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/ 2003م.

-ت-

24. ابن تغرى بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت874هـ/1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/1992م.
- التنوخي، أبو المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم(ت384هـ/994م):
25. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، 1391هـ/ 1971م.
26. الفرج بعد الشدة، تح عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م.
27. المستجاد من فعلات الأجواد، دار صادر، بيروت، 1412هـ/1992م.

-ث-

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(ت429هـ/1037م):
28. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1375هـ/1956م.
29. فقه اللغة وسر العربية، تح عبد الرزاق المهدي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1422هـ/2002م.
30. تحفة الوزراء، تح سعد أبو دية، دار البشير، عمان، 1414هـ/1994.
31 . المنتحل، تح أحمد أبو علي، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1319هـ/1901م.

-ج-

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب (ت255هـ/868م):
31. البيان والتبيين ،تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، 1380هـ/1960م.
32. التاج في أخلاق الملوك، المنسوب للجاحظ، تح أحمد زكي باشا، طبع بالمطبعة الأميرية، القاهرة، 1322هـ/1914م

33. الحيوان ،عناية عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1947.
34. المختار في الرد على النصارى، تح محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، 1411هـ/1991م.
35. الرسائل، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384هـ/1964م.
36. ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت614هـ/1217م)، رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، (د ت).
37. ابن جماعة، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت733هـ/1332م)، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، تح مكتبة الضياء لتحقيق التراث، دار الآثار للنشر، القاهرة، 1425هـ/2005م.
38. الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس(ت331هـ/942م)، كتاب الوزراء والكتاب، تح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1357هـ/1938م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن بن علي (ت597هـ/1200م):
39. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
40. كتاب القصاص والمذكرين، تح محمد بن لطفي الصبّاغ، المكتب الإسلامي، بيروت، 1403هـ/1983م.
41. أخبار الأذكياء، عناية بسّام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم للنشر، بيروت، 1424هـ/2003م.
42. أخبار الظراف والمتماجنين، تح طه عبد الرؤوف سعد، الكليات الأزهرية، القاهرة، (د ت).
43. ذم الهوى، تح مصطفى عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1381هـ/1962م.
44. مناقب بغداد، تح محمد زينهم ومحمد عزاب، دار غريب للنشر، القاهرة، 1998 .
45. أخبار الحمقى والمغفلين، تح عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، 1410هـ/1990 .
46. تلبيس إبليس، دار القلم للنشر، بيروت، 1421هـ/2001م.

-ح-

47. ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري (ت737هـ/1336م)، المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، (د ت).

48. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 405هـ/1014م)، المستدرك على الصحيحين للحاكم، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، 1422هـ/2002م.

49. الحريري، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان (ت 516هـ/1122م)، درة الغواص في أوهام الخواص، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1418هـ/1998.

50. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الظاهري (ت456هـ/1063م)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، 1996.

51. حمد الله مستوفي قزويني، أبو بكر بن حمد بن نصر (ت 750هـ/1349م)، كتاب نزهة القلوب، تح طايليسترنج، تهران، 1342هـ

52. الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت900هـ/1494م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980.

53. ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي البغدادي (ت بعد 367هـ/977م)، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992.

54. أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد العباس (ت400هـ/1009م)، الإمتاع والمؤانسة، تح أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1942.

-خ-

55. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت280هـ/893م)، المسالك والممالك، عناية دي خوي، ليدن، 1889.

56. الخزاعي، علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن سعود (ت 789هـ)، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله علية وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1405هـ/1985م

57. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت463هـ/1070م)، تاريخ بغداد، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1422هـ/2001م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1405م):
58. العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للنشر، بيروت، 1421هـ/2000م.
59. مقدمة ابن خلدون، مراجعة سهيل زكار وخليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/ 2001.
60. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (دت).
- الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، (ت387هـ/997م):
61. مفاتيح العلوم، تح نهى النجار، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1993 .
62. رسائل أبي بكر الخوارزمي، طبعت بمطبعة الجوائب، قسطنطينية، 1297هـ.
63. ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تح أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر، الرياض، 1405هـ/1985م

- د -

64. أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت 275هـ/ م)، سنن أبي داود، تح شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، 1430هـ/ 2009.
65. الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (909هـ/1503م)، الإشارة إلى محاسن التجارة، تح البشري الشوربجي، مكتبة الكليات الأزهرية، حسين أميابي وشركاه، القاهرة، (د ت).
66. ديوان بشار بن برد، تقديم ونشر محمد الطاهر ابن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1369هـ/1950م
67. ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، 1406هـ/1986م
68. ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، (د ت).

- ذ -

- الذهبي، أبوعبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/1347م):
69. سير أعلام النبلاء، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1402هـ /1982.

70. المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد ابن الدبيثي، تح مصطفى جواد، مطبعة الزمان، بغداد، (د ت)

71. العبر في خبر من غبر،تح أبو هاجر محمد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت).

72. تاريخ الإسلام، تح عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي،بيروت، 1410هـ/1990.

- ر-

73. ابن أبي الربيع، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع (ت272هـ/885م)، سلوك المالك في تدبير الممالك، عناية ناجي التكريتي، بيروت، 1978.

- ز-

74. الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي (ت337هـ/948م)، أمالي الزجاجي، تح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1407هـ/1987م.

75. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر(ت 794هـ/1391م)، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تح أبو الوفا مصطفى المراغي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1416هـ/1996م.

76. الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف(ت762هـ/1360م)، نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، تح محمد عوامة، مؤسسة الريان للنشر، بيروت، 1418هـ/1997م.

77. زين الدين الرازي، مختار الصحاح، تح يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، 1420 هـ/1999م.

- س-

78. ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله (ت674هـ/1275م)، نساء الخلفاء المسمّى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تح مصطفى جواد، دار المعارف، مصر، (د ت).

79. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت771هـ/1369م)، طبقات الشافعية الكبرى، تح محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للنشر، مصر، 1413هـ.
80. ابن سحنون، أبو سعيد عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب (ت240هـ/854م)، كتاب آداب المعلمين، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم، 1972
81. ابن سلام الجمحي، أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله (ت231هـ/845م)، طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ/2001م.
82. ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي (ت458هـ/1065م)، المخصص، تح خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1417هـ/1996.
83. ابن سينا، أبو علي شرف الملك الحسين بن عبد الله بن سينا (ت 428هـ/1036م)، القانون في الطب لابن سينا، شرح وتعليق عمران جبور، تقديم خليل أبو خليل، مؤسسة المعارف، بيروت، (د ت).
84. السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر محمد سابق الدين (ت911هـ/1505م)، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم للنشر، بيروت، 1464هـ/2003م.

- ش-

85. الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي (ت388هـ/998م)، الديارات، عناية كوركيس عواد، مكتبة المثنى، بغداد، 1966 .
86. ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت764هـ/1362م)، فوات الوفيات، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973.
87. ابن شاهنشاه الأيوبي، محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه، (ت617هـ/1220م)، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تح حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، (د ت).
88. أبو شجاع، محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم (ت488هـ/1095م)، ذيل كتاب تجارب الأمم، بعناية آمدروز، مطبعة التمدن، القاهرة، 1916م.
89. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت548هـ/1153م)، الملل والنحل، تح أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/1992م.

90. الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب (ت 977هـ/1569م)، مغنى المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المناهج، تح محمّد خليل عيتاني، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1418هـ/1997م .

91. الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب (ت نحو 590هـ/1194م)، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1365هـ /1996م.

– ص–

92. الصابئ، أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابئ (ت384هـ/959م)، المختار من رسائل الصابئ، عناية شكيب أرسلان، دار النهضة الحديثة، بيروت، (د ت).

– الصابئ، أبو الحسن هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال (ت448هـ/1056م):

93. رسوم دار الخلافة، تح ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، 1964.

94. الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، مراجعة وتقديم حسن الزين، دار الفكر الحديث للنشر، بيروت، 1990.

95. صالح بن أحمد، صالح بن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت265هـ/878م)، سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تح فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، 1404هـ/ 1984م.

– الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدي (ت764هـ/1362م):

96. كتاب الوافي بالوفيات، تح أحمد الأرناؤوط وتزكي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ/2000م.

97. نكت الهميان في نكت العميان، تعليق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1428هـ/2007.

98. الصولي، أبو بكر محمد بن يحي بن عبد الله الصولي (ت335هـ/946م)، أخبار الراضي بالله والمتقي لله أو تاريخ الدولة العباسية من سنة 322هـ إلى سنة 333هـ من كتاب الأوراق، نشره ج هيورثدن، دار المسيرة، بيروت، 1983.

– ط –

99. أبو طالب المكي، أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي (ت386هـ/996م)، قوت القلوب في معاملة المحبوب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1961.
- الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ/922م):
100. تاريخ الرسل والملوك، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، (د ت).
101. تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1415هـ/1994.
102. أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك، تح محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1414هـ/1994م.
103. ابن الطقطقى، أبو جعفر محمد بن علي بن محمد بن طباطبا (ت709هـ/1309م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، 1386هـ/1966م.
104. ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور (ت280هـ/893م)، كتاب بغداد، مراجعة السيد عزت العطّار الحسني، نشر مكتبة الثقافة الإسلامية، 1368هـ/1949م.

- ع -

105. ابن عبد الحق، صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت739هـ/1338م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح علي محمد البجاوي، منشورات الحلبي، بيروت، 1373هـ/1954م.
106. ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد (ت328هـ/939م)، العقد الفريد، تح عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1404هـ/1983م.
107. ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج يوحنا بن أهرون بن توما (ت685هـ/1286م)، تاريخ مختصر الدول، تح أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، 1403هـ/1983.
108. ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت1089هـ/1679م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1406هـ/1986م.

109. عماد الدين الأصبهاني، أبو عبد الله محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس (ت597هـ/1200م)، تاريخ دولة آل سلجوق، تح لجنة إحياء التراث، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1400هـ/1980.

110. عمرو بن متى، أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، عناية جسموندي، روما، 1896.

- ف -

111. فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (ت606هـ/1209م)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تعليق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب، بيروت، 1986.

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت732هـ/1331م):

112. تقويم البلدان، تح رينولد مالك كوكين، باريس، 1258هـ/1840م.

113. المختصر في أخبار البشر، تح محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.

114. الفراء، أبو الحسن محمد بن القاضي بن يعلى محمد بن الحسين (ت458هـ/1065)، الأحكام السلطانية، تصحيح محمد حامد الفقي، سروباريا (أندونيسيا)، شركة مكتبة أحمد بن سعيد بن نبهان، 1394هـ/1974م.

115. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد بن محمد (ت723هـ/1323م)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تح مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م.

- ق-

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ/889م):

116. عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1343هـ/1925م.

117. الإمامة والسياسة، تعليق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت،1997.

118. قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد (337هـ/م)، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر،1981

119. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت671هـ/1272م))، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّنه من السنة وآي الفرقان، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1427هـ/2006.

120. القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاض (ت646هـ/1248م)، كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1426هـ/2005.

- القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد (ت821هـ/1418م):

121. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة،1340 هـ/1922م.

122. (-،-)، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح عبد الستار أحمد فراج، الكويت، 1384هـ/1964م.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت751هـ/1350م):

123. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تح محمد أحمد الحاج، دار القلم، السعودية، 1416هـ/1996م.

124. أحكام أهل الذمة، تح يوسف بن أحمد البكري أبو براء وأحمد بن توفيق العاروري أبو أحمد، رمادي للنشر، الدمام، 1418هـ/1997م.

- ك -

125. ابن الكازروني، الشيخ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (697هـ/1297م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تح وتعليق مصطفى جواد، وضع فهارسه سالم الألوسي، دار اقرأ، 1411هـ/1991.

126. الكتاني، السيد محمد عبد الحي الكتاني (ت1382هـ/1962م): التراتيب الإدارية- نظام الحكومة النبوية، شركة دار الأرقم للنشر، بيروت، (د ت)

- ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م):

127. البداية والنهاية، تح عبد الله بن عبد الله المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، 1417هـ/1997م.

128. تفسير القرآن العظيم، تح سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر، ط2، المملكة العربية السعودية، 1460هـ/1999م.

129. كشاجم، أبو الفتح محمود بن الحسين بن إبراهيم بن السندي (ت 360هـ/970م)، أدب النديم، طبع بمصر سنة 1873 .
130. الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (ت 355هـ/965م)، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تح محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م.

– م–

131. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ/1058م)، الأحكام السلطانية، تح أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ/1989م.
- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ/957م):
132. مروج الذهب ومعادن الجوهر، راجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية للنشر، بيروت، 1425هـ/2005.
133. التنبيه والإشراف، المكتبة الإسلامية، القاهرة، 1357هـ/1983م.
134. مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (ت421هـ/1030م)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/2003م.
135. مسلم، الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري (261هـ/874م)، صحيح مسلم، ج2، ج3، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، 1412هـ/1991م.
136. ابن المعتز، عبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي (ت296هـ/908م)، طبقات الشعراء، تح عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، (د ت).
137. المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري (ت381هـ/990م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1327هـ/1909م.
138. المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني(ت1041هـ/1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د ت).
- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين (ت845هـ/1442م):

139. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1416هـ/1996م.

140. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ.

141. السلوك لمعرفة دول الملوك، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، هـ/1997م.

142. المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي (ت1031هـ/1621م)، كتاب النزهة الزهية في أحكام الحمام الشرعية والطبية، تح عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، 1987

143. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي جمال الدين (ت711هـ/1311م)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تح روحيّة النحاس وآخرون، دار الفكر، دمشق، 1404هـ/1984م.

144. مؤلف مجهول (ق 3هـ/9م)، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تح عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة، بيروت، 1391هـ.

- ن -

145. ناصر خسرو، أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم (ت481هـ/1088م)، سفر نامة، تح يحي الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983.

146. ابن النجار البغدادي، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود (ت 643هـ/ 1245م)، ذيل تاريخ مدينة السلام، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1427هـ/2006م.

147. ابن النديم البغدادي، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد (ت438هـ/1046م)، الفهرست، تح إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، 1417هـ/1997م.

148. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت734هـ/1333م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

-و-

149. الوشاء، أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحي (ت 325هـ/936م، الموشي أو الظرف والظرفاء، الوشاء، تح كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1372هـ /1953م.

150. وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت 306هـ/918م)، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، (د ت).

- ي -

151. اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت768هـ/1366م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضح حواشيه خليل المنصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت،1417هـ/1997م.

- اليعقوبي، أحمد بن أبو يعقوب بن جعفر بن وهب (ت284هـ/897م):

152. البلدان، وضع حواشيه محمد أمين الضنّاوي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت).

153. تاريخ اليعقوبي، تعليق ووضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

154. مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في عصر، تح محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب للنشر، القاهرة، (د ت).

155. أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري (ت182هـ/798م)، كتاب الخراج، دار المعرفة للنشر، بيروت، 1399هـ/1979م.

ثانيا: المراجع العربية:

1. إبراهيم أيوب، التاريخ العبّاسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1989.

2. إبراهيم سلمان الكروي، طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول، مركز الإسكندرية للكتاب، 2008.

3. إبراهيم محمد، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966 .

4. إبراهيم مرزة محمد علمي، مدينة بغداد الأبعاد الاجتماعية وظروف النشأة دراسة بنائية تاريخية ،العارف للمطبوعات للنشر ، بغداد،2008

5. أحمد خالد جيده، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1422هـ/2001م.

6. أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: العصر العباسي الأول، طبع شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1352هـ/1933م

7. أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، مطبعة أسعد، بغداد،1978.

8. (-،-)، فيضانات بغداد في التاريخ، مطبعة الأديب البغدادية،1963م.

9. أحمد شلبي ،تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1976.

10. (-،-)، مقارنة الأديان (المسيحية)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965

11. أحمد عبد الرزاق أحمد، العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي، القاهرة، 1420هـ/1999م.

12. أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي،بيروت، 1401هـ/1981م.

13. أحمد فريد رفاعي ،عصر المأمون،مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1346 هـ/1927م.

14. أحمد مختار العبادي ،في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية للنشر، بيروت، (د ت).

15. إسحاق رياح وسليمان أبو سويلم، الحضارة العربية الإسلامية في النظم والعلوم والفنون، دار كنوز المعرفة للنشر، عمان الأردن،1431هـ/2010م.

16. أمينة بيطار، تاريخ العصر العبّاسي، منشورات جامعة دمشق، 1417هـ/ 1997م.

17. بدري محمد فهد، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1967.

18. بطرس البستاني ،أدباء العرب في الأعصر العباسية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014.

19. تقي الدين عارف الدوري ، عصر إمرة الأمراء في العراق 324-334هـ/936-946م: دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية، مطبعة أسعد، بغداد،1395 هـ/1975م.
20. توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العبّاسية من 132-447هـ، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1390هـ1970م.
21. ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 1981.
22. جبر محمود الفضيلات ، القضاء في صدر الإسلام، شركة الشهاب، الجزائر،1987.
23. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار الهلال، ط3، القاهرة، 1921.
24. جميل محمد أبو الندى ، الخلافة العباسية في مواجهة الفتنة الزنجية، منشورات اتحاد الكتّاب العرب،دمشق،2012.
25. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نشر جامعة بغداد، ط2، 1413هـ/1993م.
26. حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العبّاسي، دار الفكر العربي، بيروت، (د ت).
27. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر، 1989.
28. حسن عبد العال، التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م.
29. حسين أحمد أمين، المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم: في بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،1983 .
30. حسين أمين ، بغداد تاريخ وحضارة، منشورات المجمع العلمي، 1427هـ/2006م.
31. حسين عطوان، الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، (د ت)
32. حمدي عبد المنعم، ديوان المظالم نشأته وتطوره واختصاصاته مقارنا بالنظم القضائية الحديثة، دار الشروق، 1403 هـ/1983م.
33. حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولیسية، لبنان، 1952.

34. حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية في العراق زمن البويهيين، دار العلم العربي، القاهرة،2008.
35. خالد بن حامد الحازمي، أصول التربية الإسلامية، دار عالم الكتب للنشر، المدينة المنورة، 1402هـ/2000م.
36. خانزاد صباح محي الدين، علاقة الدولة الفاطمية بالكرد (358-567هـ/968-1171م): دراسة سياسية حضارية، المكتب الجامعي الحديث، 2015
37. خلود مسافر الجنابي، المجالس العلمية في عصري ما قبل الإسلام والرسالة والعصور الراشدية والأموية والعبّاسية، الدار العربية للموسوعات،بيروت، 1433هـ/2012م.
38. رحيم كاظم محمد الهاشمي وآخرون، الحضارة العربية الإسلامية: دراسة في تاريخ النظم، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د ت).
39. رعد محمود البرهاوي، خدمات الأوقاف في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات المجمع العلمي، 1423هـ/2002م.
40. رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول 132-232هـ، نشر جامعة بغداد، بغداد، 1982.
41. سالك أحمد معلوم، الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي، مكتبة لينة للنشر، 1413هـ/1993.
42. سعود بن عبد العزيز الخلف، دراسات في الديانة اليهودية والنصرانية، دار أضواء السلف، 1997.
43. سعيد إسماعيل علي ،معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986.
44. سليمان بن عبد الله أبا الخيل، الوقف في الشريعة الإسلامية حكمه وحكمته وأبعاده الدينية والاجتماعية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 1429هـ.
45. سمير شيخاني، أشهر المغنين عند العرب ونوادرهم، دار الجيل، بيروت، 1923.
46. سولاف فيض الله حسن، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية، دار ومكتبة عدنان، بغداد، 2013.
47. السيد عبد الرزاق الحسني، مدن العراق قديما وحديثا، مطبعة العرفان،صيدا، 1377هـ/1958م.

48. السيد عبد الرزاق الحسني، الصابئة في حاضرهم وماضيهم، مطبعة صيدا، لبنان، 1382هـ/1963م
49. السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب: العصر العباسي الأول،مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.
50. شاكر خصباك، الكرد والمسألة الكردية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1989.
51. شريف يوسف، تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، 1982.
52. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الثاني، دار المعارف،القاهرة، ج4، (د ت).
53. صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن 1هـ، دار الطليعة، بيروت، 1969.
54. صباح الشيخلي، الأصناف والمهن في العصر العبّاسي نشأتها وتطورها، بيت الورّاق، بيروت، 2010.
55. صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية، نشر مؤسسة المعاهد، ط1، 1400هـ/1980م.
56. ضيف الله يحي الزهراني، النفقات وإدارتها في الدولة العباسية من سنة 132هـ-243هـ، مكتبة الطالب الجامعي،مكة، 1986.
57. طالب علي الشرقي، قصور العراق العربية والإسلامية حتّى نهاية العصر العبّاسي 656هـ، دار الشؤون العربية العامة، بغداد، 2001.
58. طلب صبار الجنابي، رسوم دار الخلافة في العصر العباسي الأول 132-247هـ، تموز للنشر، دمشق، 2013.
59. طه الولي، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1409هـ/1988م.
60. عادل الألوسي، الحياة الصوفية وتقاليدها في الموروث الشعبي العربي: دراسة تاريخية في الربط والزوايا الإسلامية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2004.

61. عادل زيادة، من فنون العمارة الإسلامية حمامات السوق ودورها الحضاري: دراسة أثرية لحمامات العصرين المملوكي والعثماني، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2009.

62. عادل محي الدين الألوسي، الرأي العام في القرن الثالث الهجري 198-295هـ/813-907م، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987.

63. عارف عبد الغني، نظم التعليم عند المسلمين، دار كنانة للطباعة والنشر، دمشق، 1993.

64. عامر النجار، في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، دار الهداية، القاهرة، 1406هـ /1986م.

65. عبد الله بن عفيف الباجوري، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مكتبة الثقافة، المملكة العربية السعودية، 1350هـ/1932م.

66. عبد الله كامل موسى عبده، العباسيون وآثارهم المعمارية في العراق ومصر وإفريقيا، دار الآفاق العربية، 1422هـ/2002م.

67. عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، المكتبة العمومية، بيروت، 1956م.

68. عبد الحسين مهدي الرحيم، الخدمات العامة في بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، 1987.

69. عبد الحسين مهدي، محاضرات في تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي، مكتبة التربية، (د ت).

70. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين، العلماء والسلطة: دراسة عن دور العلماء في الحياة السياسية والاقتصادية في العصر العباسي الأول، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2008.

71. عبد الرزاق الحسني، الصابئة قديما وحديثا، دار مكتبة الخانجي، القاهرة، 1965.

72. عبد السلام الترمانيني، أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، دار طلاس للنشر، دمشق، (دت).

73. عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1428هـ/2007م.

74. (-،-)، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.

75. (-،-)، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق،بيروت، 1986.

76. (-،-)، النظم الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008.

77. (-،-)، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.

78. عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري، مكتبة النهضة، بغداد، (د ت).

79. عبد المنعم عبد الحميد سلطان، أضواء جديدة على تاريخ الدولة العبّاسية، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2003.

80. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972.

81. عفيف عبد الفتاح طبارة، اليهود في القرآن، دار العلم للملايين، بيروت،2004.

82. علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ،1972.

83. علي حسني الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1415هـ/1994م.

84. علي عبد الحليم محمود، المسجد وأثره في المجتمع، دار المنارة الحديثة ، مصر، 1412هـ/1991م.

85. عمر الشريف، مذكرات في نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية: دراسة مقارنة، معهد الدراسات الإسلامية، ط2، مصر، 1979.

86. عيسى سلمان وآخرون، العمارات العربية الإسلامية في العراق،دار الرشيد، العراق،1982م.

87. فاروق عمر فوزي، بحوث في التاريخ العباسي، دار القلم، بيروت، 1977.

88. (-،-)، الخلافة العباسية: عصر القوة والازدهار، دار الشروق للنشر، عمان، 2009.

89. (-،-)، الجيش والسياسة في العصر الأموي ومطلع العصر العباسي 41هـ- 334هـ/ 661-956م، دار مجدلاوي، الأردن، 1425هـ/2005م.
90. (-،-)، طبيعة الدعوة العبّاسية، دار الإرشاد، بيروت، 1970.
91. فهمي سعد، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة: دراسة في التاريخ الاجتماعي، دار المنتخب العربي، بيروت، 1413هـ/1993م.
92. فوزي أمين يحي الطائي، الخدمات الوقفية في العراق وبلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2013 .
93. فوزية حسين مطر، تاريخ عمارة الحرم المكي إلى نهاية العصر العباسي الأول، منشورات جامعة المملكة العربية السعودية، 1402هـ/1982م.
94. قادر محمد حسن، الإمارات الكوردية في العهد البويهي، دراسة في علاقاتها السياسية والاقتصادية (334-447هـ/945-1055م)، مؤسسة موكرياني للبحوث والنشر، أربيل، 2011.
95. كرم حلمي فرحات أحمد، التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2004.
96. كوركيس عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة 1000 للهجرة، طبعة دار الرائد العربي، بيروت، 1406هـ/1986م.
97. محمد إبراهيم فيومي، تاريخ الفكر الجاهلي، دار الجبل، بيروت، 1999.
98. محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966.
99. محمد أحمد عبد المولى، العيّارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990.
100. محمد بن محمد عرنوس، تاريخ القضاء في الإسلام، المطبعة المصرية الحديثة الأهلية، 1352هـ/1934م.
101. محمد حسن العمادي، خراسان في العصر الغزنوي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، دار الكندي للنشر، الأردن،1997.

102. محمد حسن العيدروس، تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في العصر العباسي،دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2010.
103. محمد سهيل طقوس، تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، دار النفائس للنشر، بيروت، 1435هـ/2014م.
104. محمد سهيل طقوس، تاريخ الأكراد 637-2015م، دار النفائس للنشر، بيروت، 1436هـ/2015م.
105. محمد السيد الوكيل، جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين: دراسة وصفية تحليلية لأحداث تلك الفترة، دار المجمع للنشر، 1432هـ/2002م.
106. محمد عبد الرحمن غنيمة، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1953.
107. محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد العصر العباسي الثاني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2002.
108. محمد علي الرجوب، الإدارة التربوية في المدارس في العصر العبّاسي (132-656هـ)، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر، أريد الأردن، 2004.
109. محمد فرقاني، السياسة المالية للخليفة عمر بن عبد العزيز على ضوء رسائله، دار بهاء الدين للنشر، قسنطينة، (د ت)
110. محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د ت).
111. محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، عالم الكتب، بيروت، 1982.
112. محمد نجيب أبو طالب، الصراع الاجتماعي في الدولة العبّاسية، تقديم الطاهر لبيب، دار المعارف للنشر، تونس، 1990.
113. محمود شكري الألوسي، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، مطبعة دار السلام، بغداد، 1346هـ/1927م.
114. محمود شيت خطّاب، بلاد ما وراء النّهر قبل الفتح الإسلامي وأيّامه، دار ابن حزم، بيروت، 1418هـ/1998م.

115. مصطفى بيطام ،مظاهر المجتمع وملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

116. مصطفى جواد، الربط الصوفية البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006.

117. (-،-)، سيدات البلاط العباسي، القاهرة ، 1950.

118. مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، دار الوراق للنشر، بيروت، 1460هـ/1999م.

119. مصطفى علم الدين، الزمن العباسي، دار النهضة العربية للنشر، 1993.

120. مفتاح يونس الرباصي، المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الأول (132-232هـ/749م-846م)، المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة، 2010.

121. منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين، طبع دار المريخ، السعودية، 1981.

122. ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العبّاسي، دار الرشيد، بغداد، 1981.

123. ناجي معروف، المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1965.

124. (-،-)، المدخل إلى تاريخ الحضارة العربية، مطبعة دار السلام، بغداد، 1964.

125. نادية حسني صقر، مطلع العصر العباسي الثاني: الاتجاهات السياسية والحضارية في خلافة المتوكل على الله (232-247هـ)، دار الشروق للنشر، 1403هـ/1983م.

126. ناهضة مطر حسن، سلطة الجواري في العصر العباسي 158-334هـ، جامعة واسط، كلية التربية، (د ت)

127. نزار محمد قادر النعيمي، الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية منذ تأسيسها وحتّى سقوط بغداد 1- 656هـ/622- 1258م، دار الكتاب الثقافي، الأردن ،2005.

128. واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي وآخرون، حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985.

129. وفاء محمد علي، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، (د ت).

130. (-،-)، الزواج السياسي في عهد الدولة العبّاسية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1988م.

131. وليم الخازن، الحضارة العباسية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1984.

132. وهاب فهد يوسف الياسري، دراسات في تخطيط المدينة العربية والإسلامية: دراسة في اختيار المكان وتأثير العوامل الجغرافية، دار الجيل للنشر، بيروت، 2015.

133. يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، المكتبة العربية، بغداد، 1342هـ/1924م.

134. يوسف العش، تاريخ عصر الخلافة العباسية، مراجعة أبو الفرج العش، دار الفكر، دمشق، 1982.

135. يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ مدينة سامراء، مطبعة دار البصري، بغداد، 1968.

ثالثا: المراجع المعربة:

1. آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967.

2. أذي شبر، الألفاظ الفارسية المعرّبة، دار العرب للبستاني، القاهرة، 1988.

3. أرشاك بولاديان، الأكراد من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي وفق المصادر العربية، ترجمة: مجموعة من المترجمين، دار التكوين للنشر،2001

4. أرنولد. سير. تومس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د ت).

5. ألكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، تر خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1969.

6. باسيلينيكيتين، الكرد: دراسة سوسيولوجية وتاريخية، تقديم: لويس ماسيون، ترجمة: نوري طالباني، مؤسسة حمدي للطباعة والنشر، السليمانية، 2008

7. بولاديان، الأكراد من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي وفق المصادر العربية، ترجمة: مجموعة من المترجمين، دار التكوين للنشر، 2001.

8. توماس بوا، تاريخ الأكراد، ترجمة محمد تيسير ميرخان، دار الفكر، دمشق، 2008

9. جان موريس فييه، أحوال النّصارى في خلافة بني العبّاس، ترجمة حسني زينه، دار المشرق، بيروت، 1990.

10. رينهارتدوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، 1971.

11. ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ/1997م.

12. سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1967.

13. فاطمة المرنيسي، السلطانات المنسيات نساء رئيسات في الإسلام، ترجمة عبد الهادي عباس وجميل معلى، دار الحضارة للنشر، دمشق، 1998.

14. فان فلوتن، السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بني أمية، تر حسن إبراهيم حسن، مطبعة السعادة، مصر، 1934.

15. ڤالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، روائع مجدلاوي للنشر، 2001.

16. ك. كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، 1404هـ/1984م.

17. كي لسترنج، بغداد في عهد الخلافة العبّاسية، تر بشير فرنسيس، المطبعة العربية، بغداد، 1936.

18. محمد أمين زكري بك، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور حتى الآن، ترجمة محمد عوني، مطبعة السعادة، مصر، 1939

19. محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، نشر مكتبة لبنان ، بيروت، 1996م.

20. موريس غودفرا ديمومبين، النظم الإسلامية، تر فيصل السامر،صالح الشماع، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1961.

21. هنري س. عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس، 1411هـ/1991م.

22. يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، مراجعة الترجمة حسين مؤنس، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة، 1968.

رابعا:المراجع الأجنبية:

1. Claude Caben, L`islam des origines au début de l `empire ottoman, Paris, 1970.
2. Reynold A. Nicholson, A literary History of the arabs, london,1923,
3. Philip k. Hitti ,The Arabs A Short History, of London,1948.
4. M. Allard, les chrétiens a Baghdad ,en Arabica,1962.
5. Georger Vajda, le milieu juifaBaghdad,in Arabica,1962.
6. AHSAN,M.M, Social Lifeunder the Abbasides, New york,1979.
7. Hedy. W, Histoire du commerce de levent au Moyen age, Leopzeg,1913 .

خامسا: الرسائل العلمية:

1. أسماء يوسف أحمد آل ذياب، الرعاية الصحية والطبية في القرن الأول الهجري (1-101هـ/622-719م)، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 1431هـ/2010م.

2. أولاد ضياف رابح، الجراية في الدولة الإسلامية من صدر الإسلام حتى سقوط بغداد (1-656هـ/622-1258م)، دكتوراه غير منشورة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 1434هـ-1435هـ/2013/2014.

3. جيهان سعيد الراجحي، الحياة الاجتماعية في بغداد من بداية القرن السادس الهجري حتّى سقوط بغداد سنة 656هـ/1258م، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الوسيط، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، 1427هـ/2006م.

4. خالد محمد أحمد بديوي، الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية في عصر الخليفة المأمون، 170-218هـ، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، كلية التربية، قسم التاريخ ، جامعة عين شمس، (د ت)

5. خضر أحمد عطا الله، بيت الحكمة في عصر العباسيين، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، جامعة البنجاب، لاهور، 1407هـ/1987م.

6. صالح بنت حاي بن يحي السفياني، التعليم في مساجد المشرق العربي في القرن الأول الهجري: بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير بجامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1424هـ.

7. طبي سمير، دور أهل الذمة في الدولة الإسلامية في العصر العباسي من 132-447هـ/749-1055م، مذكرة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الحاج لخضر باتنة، 1428-1429هـ/2007-2008م.

8. عادل سباعي متولي إبراهيم،التطور الاقتصادي خلال العصر العباسي الأول دراسة مقارنة مع الأوضاع الاقتصادية الأوروبية في تلك الفترة، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الاقتصاد الإسلامي،جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1415هـ/1994.

9. فاروق السامرائي، التعليم الإسلامي بين الأصالة والتجديد،رسالة دكتوراه في الدعوة والتربية الإسلامية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1989.

10. فرغالية فريد، الأزمات الاقتصادية في العراق وأثرها السياسي والاجتماعي 247-334هـ/861-945م،مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 1430هـ/2009م.

11. مؤمن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية حتّى نهاية الخلافة العبّاسية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2009.

12. محمد حسين علي المحاسنة، حركة الفتح الإسلامي في العراق وإدارته في صدر الإسلام 11-41هـ/633-661م، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة مؤتة، 2009.

13. ميسون بنت مزكي فردوس العنزي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في العصر العباسي الأول منذ (132-232هـ/749-846م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير من جامعة اليرموك بالأردن، 1425 هـ/2004م.

14. نجاح بنت عواض بن عطيان الدعيجي، وظيفة الكاتب في الدولة الإسلامية 1-232هـ/622-846م، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1426هـ/2005م

15. نجوى محمد رجاء اللهيبي، المنشآت العامة في مدينة سامراء في الفترة (221-279هـ/836-892م)، دراسة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1436هـ-1437هـ.
16. نورة بنت إبراهيم الدوسري، خدم دار الخلافة ودورهم السياسي والحضاري في العصر العباسي الثاني (232هـ/656هـ/943-12589م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1436هـ/2015م.

سادسا :الدوريات:

1. أحمد ميرزا ميرزا، أشهر قادة فتح كوردستان في العصر الأول، مجلة كلية العلوم الإسلامية، م8، ع15، 1435هـ/2014م
2. أسعد أطلس، الحياة الاجتماعية في القرنين الثالث والرابع، مقالة منشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي، م2، بغداد، 1952.
3. أولاد ضياف رابح، نشأة المدارس في الإسلام (المدرسة النظامية نموذجا)، مقال منشور بمجلة الآداب والحضارة الإسلامية، ع15، قسنطينة، 1434هـ/2013.
4. بهيج بهجت سكيك، الفكر التربوي وتنشئة الأولاد عند المسلمين الأوائل، مجلة الوعي الإسلامي، ع532، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 2001.
5. حامد غنيم سعيد، الدولة العبّاسية ومراكز القوى في عهد المقتدر بالله 295-320هـ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، ع3، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1979 .
6. رفاه تقي الدين عارف، العامة في بغداد في العصر العباسي (132-334هـ/749-946م)، مقال منشور بمجلة سرّ من رأى، المجلد7، العدد35، السنة السابعة، نيسان2011، ص150.
7. زرار صديق توفيق، الكورد في العصر العباسي حتّى مجيء البويهيين (132-334هـ/749-946م)، صحيفة التآخي، يومية إخبارية، بغداد، بتاريخ: الأحد 29-4-2012/ الموقع الاكتروني http://www.altaakhipress.com/printart.php?art=12243
8. السيد عبد العزيز سالم، بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد الخامس، ع1-2، مدريد، 1377هـ/1957.

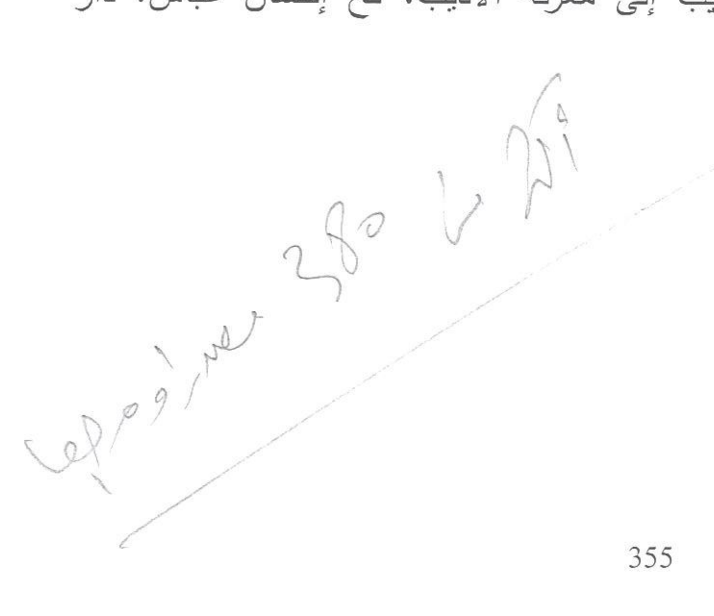
9. صبيح نوري خلف وزينب عبد الحفيظ جاسم، نفقات بيت المال الخاص للخلفاء العباسيين 158-320هـ/774-932م: النفقات في المناسبات الخاصة أنموذجا، ملحق خاص بالعدد (السابع عشر) كانون الأول، 2014 للبحوث المستلة.
10. صلاح الدين المنجد، مآكل الخلفاء العبّاسيين، مجلة الرسالة، ع653، 1946.
11. عبد الجبار حامد أحمد وزينب سالم صالح، صناعة العطور في العصر العباسي (132-656هـ/749-1258م): دراسة تاريخية، مقال منشور بمجلة التربية والعلم، المجلد19، ع3، 2012.
12. عبد الجبار ناجي، المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية: دراسة نقدية معاصرة، مجلة المورد، م9، ع4 ،1980.
13. عبد العزيز الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، ع20، بغداد، 1970.
14. عبد الواحد ذنون طه، مجتمع بغداد من خلال حكاية أبو القاسم البغدادي، مقال منشور بمجلة المورد، دار البحرية للطباعة، م3، ع4، بغداد، 1394هـ/1974م.
15. العزيز جاسم الحجية، بغداديات تصوير للحياة الاجتماعية والعادات البغدادية خلال المائة العام، سلسلة ثقافية، مديرية الفنون والثقافة الشعبية والإرشاد،ع14، بغداد، 1967.
16. علي لازم مزبان، الألفاظ الفارسية ومجالاتها الحضارية في المجتمع العربي في القرن الرابع الهجري، مقال منشور بمجلة دراسات إيرانية، ع6-7، (د ت).
17. علي منصور نصر، العيّارون والشطار في العصر العبّاسي، مجلة المؤرخ العربي، ع6، القاهرة، 1998.
18. عماد عبد السلام رؤوف، مشاريع الشرب القديمة ببغداد، مجلة المورد، م8، ع4، بغداد، 1400هـ/1979م.
19. فيصل حفيان، الحمام في التراث الإسلامي على ضوء تحفة الأنطاكي، مجلة الأحمدية، ع20، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، 1426هـ/2005.
20. كامل طه الويس، النشاط الترويحي في العصر العبّاسي، بحث منشور في مجلة آفاق عربية،ع4، مطبعة دار الشؤون الثقافية، بغداد،1988.

21. (-،-)، الألعاب الرياضية في العصر العباسي: رياضة العدو ولعبة النرد والرقص في العصر العباسي، مجلة التربية الرياضية، المجلد الثاني عشر، ع1، 2003.
22. (-،-)، رياضة السباحة في العصر العباسي، مجلة التربية الرياضية، المجلد الحادي عشر، العدد الرابع، 2002.
23. مليحة رحمة الله، الملابس في العراق خلال العصور العباسية، المجلة التاريخية المصرية، نشر في المجلد 13، طبعة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، (د ت).
24. ناجي معروف، الثياب البغدادية في العصور العباسية، مجلة الأقلام، ع5، السنة الخامسة.

سابعا: القواميس والمعاجم والموسوعات:

1. أحمد رضا، معجم متن اللغة، مطبعة دار الحياة، بيروت، 1960.
2. أحمد الشناوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، (د ت).
3. أحمد عطية الله، القاموس الإسلامي، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1963.
4. أحمد عيسى بك، معجم أسماء النبات، طبع بالمطبعة الأميرية، القاهرة، 1349هـ.
5. أديب اللجمي وآخرون، المحيط، القاهرة، 1993.
6. الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت370هـ/980م)، تهذيب اللغة، تح محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م.
7. بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، (دت).
8. أبو الخير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة اللمتوني الأموي الاشبيلي (575هـ/1179م)، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تح محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، (د ت)
9. رجب عبد الواحد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثّقة من الجاهلية حتّى العصر الحديث، تقديم محمود فهمي حجازي، دار الآفاق العربية، 1423 هـ/2002م.
10. الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت1205هـ/1790م)، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة المطبعة الخيرية، مصر، 1988.

11. الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1972.
12. علي ثويني، معجم عمارة الشعوب الإسلامية، بيت الحكمة،بغداد، 1426هـ/ 2005م.
13. الفيروزآبادي، العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت 817هـ /1414م)، القاموس المحيط، تح مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، 1426هـ/2005م.
14. الفيومي، قاموس المصباح المنير، دار الفكر، بيروت، (د ت).
15. محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية: بحوث ميدانية وتاريخية، دار الفكر العربي، 1418هـ/1997.
16. محمود شاكر، موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسامة للنشر، الأردن، 2002.
17. محمود مصطفى الدمياطي، معجم أسماء النبات الواردة في تاج العروس، القاهرة، 1965.
18. أبي منصور الجواليقي، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن بن الجواليقي (ت540هـ/1145م)، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح ف. عبد الرجيم، دار القلم، دمشق، 1410هـ/1990م.
19. ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي للنشر، بيروت، 1419هـ/1999.
20. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت626هـ/1228م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت،1397هـ/1977م.
21. (-،-)، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.



الفهارس العامة

فهرس الآيات
فهرس الأحاديث } وهي قليلة
ثم فهرس الأعلام لتكون فهارس فعلا

- أ -

- ح -

-خ-

– د –

- ش-

- ك -

- ل -

- م -

- هـ -

- أ -

- ب-

- ر -

- ز-

- س-

- ن -

- أ -

- ب -

- ت -

فهرس المحتويات

إنّ دراسة المجتمع العربي الإسلامي من موضوعات التاريخ الهامة الّتي تكشف لنا مظاهر الحضارة العربية الإسلامية تلك المظاهر الّتي أغفلها البحث العلمي التاريخي إلى حد ما ولم تكرس لها جهود كافية للكشف عنها وإبرازها للعيان إذا استثنينا بعض الدراسات التي تناولتها بشكل محدود.

وقد لقيت الدراسات الاجتماعية في الفترة الأخيرة عناية كبيرة من الباحثين، وذلك لأهمية الموضوع وعلاقته بتفسير كثير من الظواهر الاجتماعية السائدة في أيّامنا هذه والتي تعود جذور كثير منها إلى فترات موغلة في القدم،وذلك أنّ هذا النوع من الدراسات يمكننا من معرفة ما كان يجري في تلك الفترة، وكيف كانت العلاقات الإنسانية بين العناصر السكانية التي تسكن منطقة الشرق الإسلامي.

إنّ موضوع دراسة الحياة الاجتماعية في أي زمان يعتبر من أهم الدراسات لما للموضوع من جوانب عديدة ومتشعبة تركز على حياة المجتمع وتطور اتجاهاته وأحواله الاجتماعية،وعاداته ووسائل معيشته وغيرها، وقد أخذت الحياة الاجتماعية في العصور التاريخية تتطور تدريجيا نتيجة التفاعل المستمر بين العناصر الّتي ألفها العرب منذ عصور ما قبل الإسلام من ناحية، ثمّ بعض المؤثرات الأجنبية التي تطرقت إلى المجتمع الإسلامي من الحضارات التي استوعبتها الدولة الإسلامية عند اتساعها وبخاصة حضارتي الروم والفرس، وهذا ما شجعنا لدراسة مثل هذه المواضيع دراسة تاريخية مضمونها الحديث عن تطور الحياة الاجتماعية والعوامل المؤثرة فيها، وقد جاء الموضوع بعنوان:" **الحياة الاجتماعية في العراق في عهد الدولة العباسية (132-447هـ/749-1055م)**".

وقد تمت معالجة الموضوع في أربعة فصول جاءت كما يلي:

الفصل الأول: بعنوان "**التركيبة السكانية للمجتمع العبّاسي في العراق**" وقد جاء في 6 مباحث، عالجت فيه أهم العناصر والأجناس البشرية المكونة للمجتمع العباسي،حيث تناول المبحث الأول العرب من حيث مواطن استقرارهم ودورهم في الدولة العباسية، والمبحث الثاني عالجت فيه الفرس ومكانتهم في المجتمع العباسي، في حين تناول المبحث الثالث عنصر

الأتراك بعد سيطرتهم على مقاليد الأمور، وعالج المبحث الرابع الديلم، وأمّا المبحث الخامس فقد تحدثت فيه عن أهل الذمة، والمبحث السادس والأخير تناولت فيه عنصر الأكراد.

الفصل الثاني: بعنوان " طبقات المجتمع العبّاسي"، وقد اشتمل على أربعة مباحث جاءت كما يلي: المبحث **الأول:** تناولت فيه الطبقة الخاصة بكل فئاتها، في حين درست في **المبحث الثاني** الطبقة الوسطى بكل فئاتها، وجاء **المبحث الثالث** للحديث عن الطبقة العامة بكل فئاتها أيضا، وأمّا **المبحث الرابع** فقد عالجت فيه دور المرأة في المجتمع العبّاسي نتيجة للدور الّذي قامت به عدّة نساء في شؤون الدولة وفي تسيير دفّة الحكم والسياسة.

أمّا **الفصل الثالث:** فحمل عنوان " **مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع العبّاسي**"، وتمّ الوقوف فيه من خلال خمسة مباحث على أهم المظاهر الاجتماعية في الدولة العبّاسية، **فالمبحث الأول** تناولت فيه أهم المجالس الاجتماعية في المجتمع العراقي، أما **المبحث الثاني** فعالجت فيه موضوع الزواج والطلاق باعتبارها من القضايا الهامة الّتي يثيرها البحث في المجتمعات الإنسانية، بينما خصّص **المبحث الثالث** للحديث عن القصور والدور حيث اعتبرت العراق من أهم المدن الإسلامية الحضارية التي اشتهرت بمنشآتها المعمارية الّتي ما زال شامخا إلى اليوم، وأمّا **المبحث الرابع** فقد خصّص للحديث عن الاحتفالات والأعياد ووسائل التّسلية حيث تعددت صور الحياة الاجتماعية بالعراق خاصة فيما يتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية الّتي اختلفت باختلاف عناصر السكان الّتي ضمتها الخلافة العبّاسية، كما اختلفت تلك العادات والتقاليد باختلاف المناسبات، **والمبحث الخامس** عالجت فيه الألبسة والأزياء والأطعمة في المجتمع.

وفي **الفصل الأخير أو الرابع** كان المجال لدراسة" **المرافق الاجتماعية والعامة في المجتمع العبّاسي**"، ويتضمن هذا الفصل الحديث عن مختلف المرافق الّتي نالت اهتمام الخلفاء والوزراء ومختلف طبقات المجتمع سواء الدينية منها أو الدنيوية من بناء المساجد والأربطة والمدارس والبيمارستانات والحمامات والأسواق.

Summary :

Studying The Arabic Islamic world, is one of the important historical Subjects, It reveals Aspects of the islamic Civilization that was the subject of the of some researchers but, not in the proper way it the deserves and to a certain degree have been neglected by the Scientific historical Reserches.

In the meantime, Sociological studies get a good care by the reserches because of the importance of that Subject in one hand and its relation with the definition of recent Sociological phenomena nowadays and its origins candate back to that ancient times.This kind of studies provide us with informations about ancient times, and now was the relatronstrip of the islamic population and then interactions.

Studying the Social life in any span considers one of the sevionse stusies. Since it has many divergent aspects focus on social life, the development of its tendencies, social states, its manners and the means by which the In devidual is living throngh time social life developes gradually becauce of the constant insteraction between the people who were arabs befor the coming of islam in one side and the impact of foreing civilzations which infuenced the islamic society later on during the escpension of the islamic nation,specially romanand persion one.

That is why we tend to deal with this subject in a historical way taking in consideration the development of social life and the influential factros affected it. The title ofour study is :"social life In Irague during the Abbasid Era (132-447 A H/749- 1055 A C)
This Subject hqd been discussed in four Chapters which are :

1- The first chapter : "The Demografhic Composition of the Abbasid Society ".it is devided into 6 sections in which we deal the important elements and the population which Composed the Abbasid sociaty. In the first section arabs, places they settle in and then role in the Abbasid state were disenssed, in the secend setion we discuss persian population and then position in the state while in the third section we deal with Turkish and now they took control over the states affairs.

2- Second chapter intitled :"Classes of the Abbassid Society "here we have four secions in the 1st we study the special class and its components,while in the secend we see the middle class and in the third we more to speak about the class of ordinary people, its characterishes and compoments.In the last section we shed light on the role played by women in changing the policy and regim of the state.

3- The third chapter intitled "Aspects of social life in the Abbasid society here we work on five sections in the first one we introduce the subject of family and the

traditions of mariage and divorce, since it is one of the most important subjects that social research focus. In the secend section we talk about the buildings and castles, Irague was one of the best islamic states and its constructions still one of the great Architectes nowadays.

The third section is devoted to talk about feastes, celebrations and means of intertainment since social life in Irague diverses specially concerning manners and social traditions because of the diversity of its population and occasions.

Studing the arabic Islamic world is one of the important historical subjects that reveals aspects of the islamic civilization which to cersain dergree have been neglected by the scientific historical reserch give it enough efferts to show its characterishis to people this line put it befor which certain.

In the meantime sociological studies get a good care by the researches
Because of the importance of that subject is one hand the its relation with the definition of recent sociological phenomena nowadays and its origins can date back to that ancient times information about the incient Times, and Now was the relationship of the islamic population and then interaction.
Studing the social life is any span of time considers one of serions studies since it has many diver gent aspects foews an social life, and the development of its tendencies and social states, its manners and the means by which the individual is living throngh time, social life developes gradually, because of the constart interaction between the created by the arabs befor the coming of Islam is one side and the impact of foreing civilizations which infuenced the Islamic sociaty during the escpension of the Islamic nation.

While the fourth section deals with costumes, suits and food in society.
We conclude with a fourth chapter in which we study "Social and public Establishment " which took a good care by the caliphates and then ministers as well as the different categories of society erther religious like building Masjid, Schools, or market places and Bath rooms in addition to mental hospitals.